خطب الشيخ محمد الغزالي

في شئون الدين والحياة

دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع
٨ شارع حسين حجازى ـ القاهرة
هاتف : ٧٩٥١٧٤٨ - ٧٩٤٤٧٤٨ - فاكس : ٧٩٤٦٠٣١
ص . ب : ٤٧٠ القاهرة - الرمز البريدى : ١١٥١١

خطب الشيخ محمد الغزالي

في شئون الدين والحياة

إعداد
قطب عبد الحميد قطب

مراجعة
الدكتور محمد عاشور

المجلد الثاني

دار الاعتصام



بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أخي الشيخ قطب

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

لقد طالعت جهدك فى كتابة الخطب والمحاضرات التى أكرمنى الله بإلقائها خدمة لدينه .

وأثلج صدرى وعيك المكتمل ، وحسُّك الدقيق ، ويقينك الحى .

وأملى أن يمن الله علينا بنعمة المغفرة والقبول ، وأن يجعل عملك فى نشر هذه المعرفة الإسلامية خالصاً لوجهه وعزاً فى الدارين .

ولا زلت موصول الخُطا فى نشر الحق ورفع لواء الدعوة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

أخوك

محمد الغزالى

مقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده .

أما بعـد :

فيسرنى ويسعدنى أن أقدم للقراء الأعزاء الجزء الثانى من خطب الداعية الإسلامى الكبير فضيلة الشيخ محمد الغزالى .

وفضيلة الشيخ محمد الغزالى ـ حفظه الله ـ غنى عن التعريف فهو بالنسبة إلى قراء العربية بمثابة الذهب فى عالم المعادن لا يكاد يجهله أحد !! .

إنه صوت الإسلام الصافى الفذ الحنون الذى يعرف كيف يحرق الأفئدة ويضيئها فى الوقت نفسه !! .

والحق أننى عندما عزمت على إعداد هذه الخطب التى ألقاها شيخنا كنت أستهدف بذلك أن أرد للمنبر هيبته ، وأن أعيد للمسجد مكانته ، وأن أثبت بالدليل القاطع أن الخطابة فى الإسلام ـ كما يقول شيخنا فى أحد كتبه ـ مظهر الحياة المتحركة فيه ، الحياة التى تجعل هذا الدين يزحف من قلب إلى قلب ، ويثب من فكر إلى فكر ، وينتقل مع الزمان من جيل إلى جيل ، ومع المكان من قطر إلى قطر .

وذاك هو السر فى أن نبى الإسلام ﷺ كان يخطب كل أسبوع وكل عيد ، ويخطب أو ينيب عنه أميراً يخطب فى وفود الحجيج عند جبل الرحمة .

أقول : وذاك هو السر فى تسجيلنا وإعدادنا هذه الخطب التى تجعل - فعلًا - هذا الدين يزحف من قلب إلى قلب ، ويثب من فكر إلى فكر ، وينتقل مع الزمان من جيل إلى جيل ، ومع المكان من قطر إلى قطر .

لقد كنت أشعر وأنا أستمع إلى هذه الخطب الفذة بجلال المنبر وخطره ، وفضل المسجد ودوره .

●● فمن خلال هذه الخطب الفياضة طُرحت مفاهيم العقيدة ، وتعاليم الشريعة ، وعُولجت المشكلات ، وقُدمت الحلول .

●● من خلال هذه الخطب تعلم الناس أن الإسلام روح يسرى فى كيان هذه الأمة فيحيى مواتها ، ويبدد ظلامها !!.

●● من خلال هذه الخطب تعلم الناس أن الإسلام

دين ودولة ، عقيدة وشريعة ، مصحف وسيف ، جسد وروح ، عقل وعاطفة ، إيمان ونظام ، دنيا وآخرة .

●● من خلال هذه الخطب ارتفع صوت الغزالى يُذَكِّرُ المسلمين بأيام الإسلام المجيدة ، وعزهم المفقود ، ويروى للأجيال أخبار الرجال الذين قضوا على دروب الجهاد فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وماضعفوا وما استكانوا !! .

●● من خلال هذه الخطب ارتفع صوت الغزالى مدوياً كالرعد العاصف يحذر من الأخطار المحدقة بالأمة والتحديات الكبرى التى تنتظرها .

● من خلال هذه الخطب اشتبك الغزالى مع سماسرة الاستعمار العالمى فى العالم الإسلامى الذين عاشوا بيننا يذبحون ديننا ويخدمون أعداءنا ..

اشتبك معهم الغزالى فكشف دورهم ، وفضح ضلالهم ، وشرّد بهم من خلفهم !! .

● من خلال هذه الخطب وقف الغزالى فى وجه ماأسماه بالفرعونية الحاكمة والقارونية الكانزة وخاض معركته مع هؤلاء تحت شعار فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، فصدع بالكلمة التى ترضى الله وتسخط كل عدو له !! .

●● من خلال هذه الخطب واجه الغزالى ما أسماه بالتدين المغشوش الذى يعلو صوته بالحفاظ على الإسلام حيث لا خطر ، ويصمت كأن الأمر لا يعنيه حيث يوشك الإسلام على الغرق !!.

بهذا التدفق العلمى والعاطفى والأدبى بَيَّن الغزالى حقائق الإسلام ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة ﴾ (الأنفال : ٤٢) .

فكان بحق - ولا نزكيه على الله - من هؤلاء﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً ﴾ .. (الأحزاب : ٣٩) نشهد شيخنا - ولا نزكيك على الله - أنك قد بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة فجزاك الله عنا وعن الإسلام والمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها خير الجزاء .

ونسأل الله أن يبارك فى عمرك ويمد فى أجلك ، وأن يديم عليك نعمة الإيمان والتوفيق .

والله الموفق ..

القاهرة فى ١٥ شوال ١٤٠٨ هـ .

كتبه الفقير إلى الله تعالى
قطب عبد الحميد قطب



تأملات في مناسك الحج

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه
فى سنة ١٩٧٣ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداه ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــــد :

فإن الحج هو الركن الخامس فى أركان الإسلام الخمسة ، وقد افترض الله هذا الركن على عباده فقال جل شأنه : ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين** ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

ولمّا كان الحج يتضمن أعمالا مختلفة ، وكانت هذه الأعمال موضع تساؤل خصوصاً فى هذا العصر الذى توضع الأديان فيه موضع الاتهام ، ويتحرك من يسمون أنفسهم مثقفين ، أو أتباع الفكر العقلى الحر ، يتحرك هؤلاء ليبدوا استغرابهم لمناسك الحج والأعمال التى يقوم المسلمون بها ، ويطلبون لذلك تفسيراً يرون أنه قد يرضى عقولهم ، ويشبع فضولهم .

ونحن نسوق أفعال الحج كما وردت مع الحكمة التى اتصلت بها وشرعت من أجلها ، ليعلم من يجهل ما فى الحج من منافع دينية ودنيوية ، وأن هذه المناسك ليست أموراً غامضة ، ولا أعمالا مبهمة كما يتصور هؤلاء .

الحج ـــ أساساً ـــ سفر صالح ، ورحلة إلى الأماكن التى دَرَج فيها الأنبياء ، وانبعث منها الوحى ، وكانت مَشْرِقا للإسلام ، ومجتمعاً أول للسلف الصالحين .

والمقصود من هذه الرحلة أمور عقلية وعاطفية معاً ، فإن الإنسان لا يعيش بالفكر النظرى وحده ، ولكن مشاعره وعواطفه شديدة السيطرة عليه ...

والإسلام يجتهد فى تحويل الإيمان من صورة عقلية تسكن الرأس إلى معان عاطفية تغمر القلب ، وتتشبث بالفؤاد ، وينفعل الإنسان بها ، ويحيا طول عمره وَفقها .

معنى صيرورة الفكر العقلى إلى عاطفة حارَّة هو ما يقول الله جل شأنه فيه ﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون** ﴾ [الحجرات : ٧] .

قد ترى عقلا أن الله موجود ، ولكن هذه الرؤية العقلية لا تكمل إلا إذا تبعتها مشاعر عاطفية تَسكن قلبك ، وتجعلك تتجه إلى الله بقلب يُحِسُّ عظمته ، ويُكَرِّم نعمته .

قد ترى عقلا أن الكذب رذيلة ، أن الشرك فضيحة ، ولكن تحول هذا النظر العقلى إلى إحساس نفسى يجعلك تشمئز من الشرك والرذيلة كما تشمئز من الرائحة الكريهة ومن المنظر الردىء فإن كرهك للشر قد انتقل من معنى نظرى إلى حقيقة عاطفية .

والإسلام عندما شرع مناسك الحج أراد أن يحول ـــ فعلا ـــ الإيمان من معان نظرية دُرست فى الكتب ، وتلقاها الناس حقائق مقررة إلى معان عاطفية تربط الإنسان بنشأة الإسلام ونشأة المكافحين من أجل ظهوره ، تجعل الإنسان يرتبط بالمواطن الأولى للوحى ، وبسيَر الدعاة والرعاة الذين حملوا هذه الأمانات ، وعاشوا بها ، وعاشوا من أجلها ، حتى قدَّموها للناس ناضجة مستوية

هذه هي رحلة الحج ، أو حكمة الحج . وما من أمة من الأمم حتى الأمم المادية التي تعبد التراب ، ولا ترى وجوداً لغير المادة ، حتى هذه الأمم تحاول أن تستثير مشاعر المؤمنين بها ، فهي تقيم « ضرائح »[1] لطواغيتها ، وتكلف الزوار الذين يجيئون إلى عواصمهم أن يترددوا على مقابر أولئك الطواغيت صفوفاً منتظمة كي يؤدوا واجباً لميِّت يعلم الله أنه حطب لجهنم ، وأنه كلب من كلاب النار ، ومع ذلك فإن سَدَنَةَ هـؤلاء الطواغيت يريدون أن يربطوا الجماهير والأجيال الناشئة بمبادئهم وبأحزابهم ، فهم يجلبونهم ليزوروا هذه الضرائح ، وليتصلوا بها ، ولترتبط علاقات نفسية مع أصحاب المبادىء الذين عاشوا بها ، أو قدّموها لغيرهم ، هذا المعنى إلى جانب الأعياد التي تُصنع مرتبطة بمعاني المبدأ المادى وما إلى ذلك وتسمى ذكريات وأعياداً ، هذه كلها إنما شُرعت في الفلسفات المادية ، والبلاد المادية ، كي تجعل الجماهير تثوب إلى شاخص حِسى يُحوِّل الاتصال بالمبدأ إلى تكريم له ، وإلى هُتاف له ، وما إلى ذلك مما يراد غرسه في النفوس .

والله عز وجل أراد أن يجعل المؤمنين ــ على اختلاف الزمان والمكان ــ يرتبطون بالدين الذى اعتنقوه ــ وهو دين التوحيد ــ ويريد أن يكلف القادرين منهم على أن يجيئوا للأماكن التي بدأت فيها معالم دينه تظهر كي يرتبطوا نفسياً بها .

ولنأخذ المعاني معنىً معنى .

إن الرسالة الإسلامية ، وإن بعثة محمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ كانت استجابة لدعوة جده إبراهيم وابنه إسماعيل ــ عليهما الصلاة والسلام ــ وهما يرفعان القواعد من البيت ...

فإذا كانت رسالة نبينا ﷺ وإذا كانت دعائم تاريخنا مرتبطة ببناء بيت

(١) الضريح : القبر ، والشق في وسط القبر والجمع ضرائح

لله فهل على أتباع هذا الرسول ﷺ من حرج أو عليهم من بأس يوم يذهبون زُرفات ووُحدانا إلى المكان الذى بعث فيه نبيهم – ﷺ إجابة لدعوة قيلت عنده ؟!! .

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم اياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [البقرة : ١٢٧ – ١٢٩] .

ولقد بُعث فيه رسولا منا إجابة لدعوة الجد الأكبر إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام .

أفليس من حق الأبناء والأتباع أن يجيئوا إلى هذا المكان كى يذكروا كيف انبعثت رسالتهم منه ، وكيف كان نبيهم الخليل – ﷺ – استجابة لدعوة قيلت وجدرانُه تُرتفع وقواعدُه تُمهد ؟

ثم هذا البيت هو أول مسجد بُنى على ظهر الأرض لتوحيد الله ، بُنى على أنقاض الوثنية لتى حاربها إبرهيم طول عمره ، بُنى ليكون عَلما للتوحيد وراية للإيمان الخالص المنزه .

أليس من حق هذا المسجد الأول أن يتبعه – بعد ذلك – كل مسجد ينشأ على ظهر الأرض ؟ وأن يقف الرُّكع السُّجود بساحات المساجد التى تنشأ بعد ذلك فيولوا وجوههم شطره ويصلوا ناحيته ؟

إن تكريم المسجد الأول شيء عادى ، وهذا سر قوله جل شأنه : **﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون . ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون ﴾** [البقرة ١٤٩ ، ١٥٠] .

إن هذه الأسباب هي التي تجعل المسلمين يرسلون وفودهم كل عام ليذهبوا إلى المسجد الأول ، إلى الكعبة المشرفة : ﴿ **جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس** ﴾ [المائدة : ٩٧] .

ومن مراسم تحيته أن يطوفوا به سبعا ، هذا الطواف سُنَّ فيه للطائفين أن يَشْغَلوا أوقاتهم خلال كل طواف ـــ وكل طواف من سبعة أشواط ـــ بتسبيح الله وتحميده وتمجيده وتوقيره ودعائه والطلب منه والتضرع إليه[1] ، والطواف صلاة[2] ، يبدأ من مكان جعل الإسلام بداية هذا المكان الحجر الأسود ، والحجر الأسود حجر عادى ، لنفرض جدلًا أنه نزل من أحد « النَّيازِك »[3] الملتهبة التي سقطت على الأرض ، لنفرض أنه جاء من السماء ، لنفرض ما نفرضه ، إنه حجر لا يضر ولا ينفع[4] ، ومن ظن أن الكعبة تضر أو تنفع ، أو أن حجراً فيها يضر أو ينفع فهو إنسان جهول ، لأن الله جل شأنه علَّمنا أن الضار النافع ، الخافض الرافع ، المعطى المانع هو جل شأنه .

---

(١) ففي الحديث : « **من طاف بالبيت سبعا ولا يتكلم إلا بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله محيت عنه عشر سيئات وكتبت له عشر حسنات ورفع له بها عشر درجات ، ومن طاف فتكلم وهو في تلك الحال خاض في الرحمة برجليه كخائض الماء برجليه** » قال في الترغيب والترهيب رواه ابن ماجه عن إسماعيل بن عياش حدثني حميد بن سوية وحسنه بعض مشايخنا ٢ / ١٢١

(٢) ففي الحديث : « **الطواف حول البيت مثلُ الصلاة إلا أنكم تتكلمون فيه ، فمن تكلم فيه فلا يتكلم إلا بخير** » عزاه السيوطي في الجامع الصغير إلى الترمذي والحاكم والبيهقي ورمز له بالحسن ، وقال في فيض القدير : قال ابن عبد الهادي هذا حديث لا يثبت مرفوعاً وقد اختلف الرواة في إسناده ومتنه والصحيح وقفه ٤ / ٢٩٣ .

(٣) النَّيْزك : جرم سماوي يسبح في الفضاء فإذا دخل جو الأرض احترق وظهر كأنه شهاب ثاقب متساقط

(٤) لحديث عمر رضي الله عنه أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبَّله ، فقال : « **إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك** » رواه البخاري في الحج ـــ باب ما ذكر في الحجر الأسود ٢ / ١٨٣ ومسلم في الحج ـــ باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف ٤ / ٦٦ وكلمة عمر ـــ رضي الله عنه ـــ فيها إشارة إلى أن هذا الأمر تعبدي فنمضي وعن علته لا نسأل .

الطواف صلاة ، لسان المرء فيها يلهج بذكر الله وشكره .

وإذا كان بعض المعطلين يزعم أن تقبيل الحجر الأسود نوع من الوثنية فليكن تقبيل الملوك والرؤساء لأعلام دولهم نوعاً أيضاً من الوثنية ومن عبادة الأقمشة !! من قال هذا ؟! إذ كان الأمر لا يعدو إلا ترجمة لمشاعر الولاء لله فليس فى هذا شيء ، ونحن فى هذا نلتزم ما ورد .

ثم بعد الطواف يسعى المسلمون بين الصفا والمروة ، والسعى بين الصفا والمروة رمز لأمر يحتاج المسلمون إليه احتياجاً شديداً ، فإن المعلوم من تاريخ النبوات أن أبا الأنبياء إبراهيم — عليه الصلاة والسلام — جاء بامرأته هاجر ، وأنه تركها وابنها الرضيع إسماعيل فى هذا المكان ، وكان صحراء مُجْدِبة لا أمارة فيها على عمران ، ولا دلالة فيها على حياة ، وكان التصرف بهذه المثابة تصرفاً مستغرباً حتى إن المرأة قالت لرجلها وهو يولى تاركاً إياها : أين تذهب ؟ ولكنه ما استطاع أن يجيب ، ليس لديه شيء يقوله ، إن الله أوحى إليه أن يفعل هذا ، وهو ينفذ أمر الله ، ولا يدرى الحكمة ، فلما ألحت عليه ولم يجب قالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لا يُضَيِّعُنا !!

كانت كرجلها امرأة مؤمنة صادقة ، ولكن مشاعر الأمومة هزّتها عندما وجدت ابنها يتلوى ، يحتاج إلى الماء ، فذهبت تجرى يميناً ويساراً سبعة أشواط فى هذا المكان بين الصفا والمروة حتى شاء الله أن يُفجر لها المَلَكُ نبع زمزم لتشرب منه(١) !!

ماذا نفهم من هذا ؟

نفهم من هذا أن الإنسان عندما يعتمد على ربه فإنه يعتمد على مصدر القُوى ومنبع الخير وسائق الفضل ، وأن الإنسان إذا صدق إيمانه رَبَا توكله ، وازدادت بالله ثقته ، وضعُفت علاقاته بالماديات ، وليس معنى ضعف علاقاته بالماديات أن يستكين أو يتواكل ، لا . إن المرأة قامت تجرى

---

(١) قصة مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى أرض مكة وتفجر زمزم رواها البخارى فى الأنبياء — باب يَزِفُّون النَّسَلان فى المشى ٤ / ١٧٢ ، ١٧٣

هنا وهناك حتى يسَّر الله لها آخر الأمر ما تحتج إليه ، لا بد من حركة ، ولكن التوكل حتم ، وقد سمى الله نبيه محمدا ــ ﷺ ــ المتوكل[1] . لماذا ؟ لمعنى نحن المسلمين الآن فقراء إلى إدراكه ...

لقد بدأ وحيدا يدعو إلى الله ، ليس فى الدنيا أضعف منه ، رجل يتيم مستوحِش معزول عن قُوى الخلق فى دنيا اسودت فجاجها ، وامتلأت بالظلمات وشرور الجاهلية آفاقها ، كُلِّف أن يغرس عُود التوحيد ويرعاه حتى يثمر فى بيئة لا تدرى شيئا عن التوحيد ، وتضيق به ، وتألف الشرك وتعتز به ، وتقاتل دونه ، ومن وراء جزيرة العرب حضارات تفسحت من الطغيان والهوى وسيادة الشهوات !!

ورجل واحد هو الذى كلّف أن يقاتل كل هذا الظلام حتى يبدده ويمزق أسدافه ويقدم للدنيا فجرها الباسم الباقى إلى الأبد !!

إنه ما جَزِع لأنه ضعيف القوة أو دليل الجانب هو وأصحابه ، لا لكنه توكل على الله فنصره وجعل قُوى الشر تتدحرج تحت أقدامه واستطاع أن يقيم دعوة التوحيد وينشر الرسالة الكبرى ويرعى رجاله الذين رباهم على يديه ولقنهم دروس الحق من فمه استطاع أن يقضى على الباطل فى الدنيا

التوكل على الله شىء خطير ، ولو أن العرب أهل إيمان ، ولو أنهم ــ فعلا ــ يئسوا من الخلق واعتمدوا على الخالق لنصرهم كما نصر نبيهم ــ ﷺ ــ ولسقاهم كما سقى امرأة فى صحراء لا تجد هى ولا رضيعها شيئا !!

إن التوكل شىء خطير ، وعندما تساق الأمة إلى مكان نبع الماء فيه من صحراء لا ماء فيها ولا زرع ولا ضرع يعرف الناس أن الانقطاع عن الله جريمة ، وأن الانقطاع إليه هو الاتصال كله وهو الخير كله !!

---

(١) عن عطاء بن يسار قال . لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قلت أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة قال أجل والله إنه موصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا وحرزا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل . » رواه البخارى فى البيوع ــ باب كراهية السخب فى الأسواق ٣ / ٨٧ وتفسير سورة الفتح ٦ / ١٦٩ ــ ١٧٠ .

ثم يغالب الناس الهوى ، نحن نغالب الهوى عندما يوسوس الشيطان إلينا بتذكر الله ، وتذكر الله جل شأنه يجيء إلى أفئدتنا همسا ، ويتحرك فى قلوب المؤمنين باعث خير طيب ، لكن الله يريد فى سفره الحج أن يتحول الهمس إلى صوت جهير ، وأن يتحول الذكر الخافت فى القلوب إلى هتاف عال ، ولذلك فإن مناسك الحج تتحول كلها إلى مظاهرة ضخمة ، الهتاف فيها لله وحده ، والصِّياح باسمه .

هذا هو المقصود من الحج ، ونرى أن هذا هو القصد عندما تستقرىء الآيات التى تتحدث عن الحج ، ولنبدأ من قوله تعالى : ﴿ **الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب** ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

لله واسع الغنى ، ما يكلفه العطاء جهدا ، إنها كلمة من حرفين « كن » ، فلو أراد أن يجعل الدنيا تحت أقدامك ذهباً وفضة فعل ، إن ذلك لا يعييه ولا يتعبه ، ولذلك يقول للبشر : أنتم فقراء وبخلاء ، لكن أنا غنى وسمح وكريم : ﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين** ﴾ [البقرة : ١٩٨] .

لاحظوا أن التعبير عن مناسك الحج أخذ كلمة « الذكر » دائما : ﴿ **فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين . ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم . فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب** ﴾ [البقرة : ١٩٨ — ٢٠٢] .

ثم إن القرآن لم يسم رمي الجمرات رمي الجمرات وإنما سماه ذكرا

ويقول : ﴿ واذكروا الله فى أيام معدودات فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى ﴾ [البقرة : ٢٠٣] .

يقصد أيام التشريق ورمى الجمرة ـــ جمرة العقبة ـــ فى العيد . ثم يقول ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ [الحج : ٣٦] .

ويقول : ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين ﴾ [الحج : ٣٤] .

ذكر الله هو الأساس فى هذه المناسك كلها ، يتحول المعنى الصامت المستكن فى الضمير إلى هُتاف عال ، ولذلك يُسَنُّ أن الحجاج يصيحون بالتلبية : « لبيك[1] اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك »[2] .

وفى الحديث : « ما من ملب يلبى إلا لبى ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مَدَر حتى تنقطع الأرض من ها هنا وهاهنا عن يمينه وشماله »[3] كأن كل شىء يتحول إلى كون يسبح بحمد الله ويذكره .

يقف الناس قبل الطواف ـــ طواف الفريضة ـــ وقبل رمى الجمرات .. يقف الناس فى ساحة واسعة ، يحتشد فيها مئات الألوف من الناس ، ساحة واسعة يتوسطها جبل يسمى جبل الرحمة ، والمفروض أن الناس طول هذا اليوم وجزءاً من الليل لا عمل لهم إلا الذكر والاستغفار

مناسك الحج لا تعقيد فيها ولا صعوبة ، والمقصود منها هذا المعنى العاطفى الروحى الذى شرحته لكم ، لكن هل هذا فحسب هو ما يطلبه الإسلام من الحج ؟ .

---

(١) معنى لبيك : إجابة لك بعد إجابة

(٢) لحديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن تلبية رسول الله ﷺ « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك »رواه البخارى فى الحج ـــ باب التلبية ١٧٠/٢ ومسلم فى الحج ـــ باب التلبية وصفتها ووقتها ٧/٤ .

(٣) قال فى الجامع الصغير،رواه الترمذى وابن ماجة والحاكم ورمز له بالحُسن وقال فى فيض القدير : وفيه إسماعيل بن عياش وبقية رجاله موثقون ٤٩٩/٥

الواقع أن التجمع العظيم فى الحج لم يدعه النبى ﷺ سُدى ، ولم يترك المسلمون يحتشدون مئات ألوف فى هذا المكان ليؤدوا العبادات فرادى ويرجعوا فرادى ، لا .. لقد تمت حجتان أيام النبى ﷺ حجة أُولى فى السنة التاسعة ، كان أميرها أبا بكر — رضى الله عنه — وفى هذا الحجة لم ينقض موسمها سدى ، ولم يترك التجمع الذى حدث فيها ينفض دون استغلال دينى لقضايا الإسلام ..

كان المشركون ، كان أعداء الله من عبدة الأصنام ، ومن جحده أهل الكتاب كانوا يتنمرون حول الإسلام الناهض ، كانوا يبيتون له نيات الغدر ، كانوا قد سالموه عن غش ، وعقدوا معه معاهدات على دَخَن ، والإسلام دين شريف ، دين صريح ، يكره النفاق والغش ، ويكره المداهنة والمراءاة ، ولذلك يقول الله لنبيه ﷺ وقد وصاه بالصراحة ، وعرَّفه كيف يدعو إليه ، يقول له : ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ [القلم : ٩] .

لا مداهنة فى دين الله ، ولذلك فى السنة التاسعة رُؤى أن يمزق الستار عن القلوب الغشّاشة ، وأن يقال لمن يريدون الشر بالإسلام : ويحكم ، إن من يحاول العدوان علينا فلن نتركه ، وقد تركناكم ثنتين وعشرين سنة ، ونحن نعطيكم حق الحياة ونرجو إلى جواركم حق الحياة ، ولكنكم تريدون الحياة لأنفسكم فقط ولجاهليتكم وشرككم !! .

الآن أنتم بين أمرين : أمامكم أربعة شهور ، من أراد أن يبقى على شركه فليترك هذه البلاد إلى حيث ألقت ، ومن بقى وفياً للعهد قبلناه ، وإلا فالسيف بيننا وبينه .. نزلت فى السنة التاسعة سورة براءة : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ [التوبة : ١ — ٣] .

قرأها علىٌّ بن أبى طالب — رضى الله عنه — على الناس ، وكان قد

أرسل بالسورة فى حجةٍ أميرُها أبو بكرَ ـــ رضى الله عنه ـــ أُرسل بصدر سورة التوبة ليقرأها على الناس وانطلق المادون وسط مضارب الخيام ومجامع الحجيج وملتقيات الناس يقولون : « ألا لا يَحُجُّ بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عُريان »[1] .

انتهى هذا الضلال واستقرت كلمة التوحيد فى هذه الأرض .

كانت هذه هى الحجة الأولى ، وكان أبو بكر ـــ رضى الله عنه ـــ أمير الحج يومئذ .

ثم كانت الحجة الأخيرة ، وكانت حجة الوداع ، وكان أميرها النبى ﷺ وقد خاطب فى الناس خطبته المشهورة ، أمّن فيها الناس على أموالهم وأعراضهم ودمائهم[2] .

إن كل صيحة بثت خلال القرون الأخيرة ، سواء كانت صيحات حمراء أو بيضاء كانت تدور كلها حول المحافظة على حقوق الإنسان ، على مال الإنسان ، ودمه وعرضه .

وليت المسلمين حفظوا وصايا نبيهم ﷺ فى حجة الوداع ، ليتهم حفظوها .

ماذا يطلب الإنسان فى الدنيا إلا أن يعيش آمناً على دمه وماله وعرضه .

لقد نظر النبى ﷺ إلى الكعبة ثم قال :

« ما أطيبك ، وما أطيب ريحك ، ما أعظمك ، وما أعظم حرمتك ، والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن عند الله أعظم حرمة

---

(١) رواه البخارى فى الحج ـــ باب لا يطوف بالبيت عُريان ولا يحج مشرك ١٨٨/٢ ، ومسلم فى الحج باب لا يحج البيت مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان وبيان يوم الحج الأكبر ١٠٦/٤ ـــ ١٠٧

(٢) رواها مسلم فى الحج ـــ باب حجة النبى ﷺ ٣٨/٤ ـــ ٤١

منك ماله ودمه » [1] . ومع دلك فقد قامت فى بلاد الإسلام حكومات استباحت الدماء والأموال والأعراض .

أيُّ ترجمة لخطبة النبى ﷺ فى هذا المسلك الخسيس ؟ .

أى وفاء لتعاليم الإسلام ، وأىُّ عَرْض له فى دنيا الناس يوم تُرى بلاد الإسلام بلاداً متحلمه ، الحكم فيها لمن يملك القوة والسطوة ، ولمن يستطيع أن يضع نفسه حيث وصعته العصابات وغير العصابات ؟!! .

وفى حجة الوداع يحرص النبى ﷺ على حقوق النساء وينوه بها ويبين ما للنساء من حقوق . ومع دلك فإن المسلمين فى كثير من القرى وبدو الصحراء بل وفى كثير من المدن أكلوا تراث النساء فما ورثن كما يرث الرجال النصيب المكتوب لهن فى كتاب الله أعرف ناساً كثيرين اجتاحوه ، أهدرت لهن أشياء كثيرة .

رسول الله ﷺ لما بنى المسجد نظر إلى أحد أبوابه وقال : « **لو تركنا هذا الباب للنساء** »[2] فسمى باب النساء ، خُصَّ بهن ، وكان ينبغى أن تكون هندسة المساجد فى بلاد الإسلام على ما فعل النبى ﷺ باب للنساء يَخْتَصِص به ، منه يدخلن ومنه يخرجن ، وصفوفهن قائمة بذاتها ، يشهدن الصلوات الجامعة ، ويتصلن بالأمة فى حِسِّها وعقلها ، وقضاياها القريبة والبعيدة ، لكن المسلمين حولوا النساء إلى قواعد فى البيوت ، ليست لهن رسالة إلا المتعة والشهوة فقط وكانت النتيجة أن تحكم اليهود الآن امرأة[3] تذيق الرجال النكال !! .

---

(1) رواه ابن ماجة فى الفتن — باب حرمة دم المؤمن وماله . ١٢٩٧/٢ وفى الزوائد . فى إسناده مقال ونصر بن محمد شيخ ابن ماجة ضعفه أبو حاتم وذكره ابن حبان فى الثقات وصححه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير وزياداته : (٥٠٠٨ — ٨١٠)

(2) رواه أبو داود فى الصلاة — باب فى اعتزال النساء فى المساجد عن الرجال . وصحح وقفه على عمر بن الخطاب . لكن هذا الترجيح غير مسلّم فإن رواية الرفع فيها عبد الله بن عمرو وعبد الوارث وكلاهما ثقتان ثبتان فلا ترجح رواية الوقف عليه (المنهل العذب المورود شرح سنن أبى داود ٧١/٤ ، ٧٢)

(3) هى جولدا مائير رئيسة وزراء العدو الإسرائيلى

المسلمون يجب أن يعرفوا دينهم ، وأن يتفهموا معالم الإسلام ، وأن يدركوا الحقائق التى كُتبت فى كتاب الله وفى سنة رسوله ﷺ وأن لا يتجرؤا عليها . نشأ عن هذا أن ناساً من العُهّار والدُّعار رجالًا ونساء أخذوا يقودون الحركة النسائية عندنا ..

ونشأ عن هذا أن إحدى الصحف هاجمت ملابس الحشمة ، وفى الأسبوع الماضى تبعتْ مجلة « المصور » زميلتها لتحارب ملابس الحشمة ، لأن رسالة أولئك الصحفيين مُوعزٌ بها من خارج البلاد لنشر جراثيم الانحلال الخلقى فى بلدنا لحساب الصهيونية الزاحفة واليهودية الحاقدة ..

هؤلاء عملاء ، ولكن ما كان لأولئك من صوت لو أن أهل الحق عرفوا الحق وقاموا به وخدموه .

إن الحج ليس رحلة ميتة ، إن ناساً يذهبون إلى الحج الآن ثم يعودون مكتفين بأن حملوا لقباً !! .

هل دُرست قضاياهم ؟ لا . هل عادوا من موسم الحج بتحالف على محاربة الفساد الداخلى والغزو الخارجى ؟ لا . إن الحج ليس عبادة فردية لا فى ديننا ولا فى تاريخنا . فيجب أن نعلم ديننا وكفانا جهلًا حتى لا نستيقظ على الويل والثبور وعظائم الأمور ؟!.

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ..

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ **الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

فإن « مصر » الإسلامية منذ بدأت عاش فيها أهل الذمة معيشة كريمة محترمة ، وتمكن الأقباط فيها من أن تكون لهم حقوق مكافئة للمسلمين مادياً وأدبياً .

وليس ينتظر من المسلمين أن يتغيروا ، وليس ينتظر من المسلمين أن يعتدوا ، وما يتوقع من المسلمين فى زمان ولا مكان أن يجىء منهم عدوان أو غدر أو طغيان . ولكنى أوجه النظر إلى أن الاستعمار العالمى ، وهو استعمار يرتكز على أحقاد دينية وضغائن تاريخية يريد محو الطابع الإسلامى عن « مصر » ، لا يريد أن تكون « مصر » إسلامية ، وكل ما أطلبه من المسلمين :

أولًا : أن يُوفوا بعهودهم لمن لا يدين دينهم !! .

ثانياً : أن يتشبثوا إلى آخر رمق بكل شُعبة من شُعب الإيمان ، وكل حد من حدود الإسلام ، وكل حكم من أحكام الله ، وكل مَعْلم من معالم الشريعة ، فإن العالم المتنمر ضدنا يتهامس فيما بينه يقول : لقد عاش الإسلام أربعة عشر قرناً حَسْبُه هذا يجب أن نجهز عليه !!

إنى أنذر حتى يعلم المسلمون أن معيشتهم فى يوم الناس هذا وفى الغد القريب والبعيد ستكون معيشة كدح وكفاح ودفاع عن تعاليم الإسلام أمام

مؤامرات لا ينقصها الذكاء ولا المهارة !! .

إننا نحن المسلمين نعيش أحياناً تستبد بنا الأوهام والأحلام والسذاجة التى تبلغ حد الغفلة !! وإذا كان القانون المحلى لا يحمى المغفلين فإن القانون العالمى لا يحمى المغفلين أيضاً !! .

ألا فلتستيقظ أمتنا ولتؤد واجبها نحو كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير واجعل الموت راحة لنا من كل شر »[1] .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصـــلاة ..

* * *

---

(١) رواه مسلم فى الذكر ــ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر مالم يعمل ٨١/٨ .

قصة القتال في الإسلام

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإذا كان هناك دين يحتاج إلى العنف كي يفرض تعاليمه على الناس فليس هذا الدين هو الإسلام .

وإذا كان هناك مذهب يستعمل التفوق المادى ، أو القدرة العسكرية على فرض مبادئه ونشرها فى المشارق والمغارب فإن هذا المذهب لن يكون الإسلام .

إن الإسلام دين أساسه عقلى فطرى ، يجد طريقه ميسراً إلى القلوب ، ممهداً إلى أولى الألباب .

التوحيد لا يحتاج إلى عصاً تلهب الجلود كى يقتنع الناس به .. العبادات السمحة ، والأخلاق الزاكية ، والمعاملات العادلة ، والشرائع الضابطة لأفضل المثل ، وأشرف التقاليد ذلك كله ما يحتاج إلا إلى دعوة هادئة وإقناع مجرد .

ربما يحتاج التفكير الذى يرفضه العقل ، أو المذهب الذى يأباه الطبع ، وتكرهه الفطرة ، ربما احتاج هذا وذاك إلى العنف لينتشر .

لكن الإسلام لا يحتاج إلى العنف ، إنما يحتاج إلى فاهم له ، وإلى سامع لا غش فى قلبه ، ولا هوى فى ضميره ، فإذا تيسر هذا وذاك فما يحتاج الإسلام بتّة — إلى العنف .

بل نقول أكثر من ذلك ، نقول : إن رسالات السماء التى بدأت مسيرتها على الأرض ما لجأت إلى العنف فى إقرار العبودية لله الواحد ، وفى حشد الناس على صراطه المستقيم .

منذ الرسالة الكبيرة — رسالة نوح عليه الصلاة والسلام — استُبعد الإكراه طريقاً إلى تعليم الناس أو إدخالهم فى دين الله .

وفى ذلك يقول الله عز وجل — على لسان نوح — : ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون** ﴾ [هود : ٢٨] .

هذا التساؤل الذى جاء على لسان نوح — عليه السلام — ظل يتنقّل بين القرون جيلاً بعد جيل ، وعصراً بعد عصر ، حتى وصل إلى الرسالة الخاتمة ، ففى سورة يونس يقول الله لنبيه ﷺ : ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ [يونس : ٩٩] .

اعتمد الدين فى شرح مفهومه وبلوغ غايته على دعاة لهم لُبٌّ ناضج ، وقلب سليم ، واحتاجت البيئة إلى أن تخلو من السدود العائقة ، والطواغيت المستبدة . عندما يكون صوت العقل لا حجاب أمامه ولا عائق فإن الإسلام ينتشر وينتصر .

وعندما نتدبر آيات الدعوة التى شرحت وظيفة الرسالة نجد هذا المعنى هو القائم ، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون** ﴾ [الطور : ٢٩] .

يقول له : ﴿ **نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾ [ق : ٤٥] .

يقول له : ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر. إلا من تولى وكفر. فيعذبه الله العذاب الأكبر** ﴾ [الغاشية ٢١ - ٢٤] « إلا » هنا - كما يقول علماء اللغة - استثناء منقطع ، أو استدراك واستئناف لكلام جديد بمعنى « لكن » .. لكن ﴿ **من تولى وكفر. فيعذبه الله العذاب الأكبر** ﴾ .

يقول الله ﴿ **قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ [الأنعام ١٠٤] .

يقول الله : ﴿ **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ [الكهف ٢٩] .

يقول الله : ﴿ **وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون** ﴾ [يونس ٤١] .

هذه الآيات كلها من القرآن الكريم الذى نزل بمكة المكرمة . وقد قلنا : إن ما يطلبه الإسلام دعية يحسن فهم ما يقول وعرضه على الناس العرض اللبق الواعى اللطيف ، ثم ناس قلوبهم سليمة ، وبيئة خالية من الطواغيت التى تعترض سير الحق كما تعترض الجنادل[1] مسيرة الأنهار ..

فهل وجد الحق السبيل ميسرة أمامه لينتشر ؟ .

هذا تساؤل يُنظر إليه من خلال الواقع ، لا من خلال الخيال .

إن الذى حدث - فعلا - أن ناساً كثيرين ضاقوا بكلام المرسلين : ﴿ **وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا** ﴾ [إبراهيم : ١٣] .

هذا وضع غريب ، أنت تنير الطريق فيجىء من يريد كسر المصباح ويقول لك : ابق معنا فى الظلام !! عندما مشى الإسلام فى طريقه يعرض

---

(١) الجندل مكان فى مجرى النهر فيه حجارة تشتد حولها سرعة التيار وتتعذر الملاحة والجمع جنادل

نفسه على الناس وُجد فى هذا الطريق من يقول له : اسكت ، لا تتكلم !! .

خطتنا فى العرض كانت واضحة ، نحن نقول لغيرنا : عندنا دين صحيح لا ريف فيه ، صادق لا كذب فيه ، واضح لا غموض فيه ، خيِّر لا شر فيه ، نعرضه عليك فإن قبلته قبلته ، فإن قال : قبلت ، فهو أخونا ، وإن قال : رفضت ، قلنا له : من حقك ، لكن لنا معك موقف ، ما هو ؟ تدعنا نشرح الحق لغيرك ، فإذا قال : ادعوا من تريدون ، فأنا لا أصدكم ، قلنا له : لا صلة لنا بك ، أما إذا قال لنا : لن أدعكم تشرحون الحق لغيركم ، ولن أدع غيركم يستمع إليكم ، وإذا استمع وقَبِل فَتنته ونكلت به .

هنا مابُدٌّ من أن أشتبك معه ، وأن أصفِّى حسابى معه بالدم ، وما يلومنى أحد ..

هذا هو خط سير الإسلام ، والأساس الأول للقتال الذى دار بعد ذلك .

نشرح مرة أخرى ، أكان موقف أعداء الإسلام منه موقفاً محايداً أو سلبياً ؟

ننظر فنجد أن أعداء الإسلام وصفهم القرآن فكشف خباياهم بطريقة كان فيها واصفاً للواقع وحده .

يقول جل شأنه : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم** ﴾ [البقرة ، ١٢٠] .

لكن أنا لن أتبع لا ملة اليهود ولا ملة النصارى ، إذاً لن ترضى عنك أبداً ، لكن ما احتاج إلى رضاكم ، ولا أسعى إلى طلبه ، ولكنى أطلب العدالة فى المعاملة ، بينى وبينكم العدالة ، أنا إذا عاملتكم فعلى أساس ما علمنى الله . ﴿ **فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا**

أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ [الشورى ١٥] فإذا قالوا : لا : ومشى الأمر فى طريق آخر يصفه القرآن فيقول : **﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾** [البقرة : ٢١٧] .

ما الحل إذا كنت سأسير فى طريق انتشر فيها لصوص العقيدة ليقولوا : لن ندعك تمر بالتوحيد أبداً ، لن ندعك تمر بهذا القرآن أبداً ؟ .

مابد إذاً من أن أتسلح ، وأن أصنع كل ما أمكن من أسباب المقاومة فى يدى ويد من معى ، وأن نورث أولادى هذه المقاومة إلى آخر الدهر .

هل أوصف بأننى عنيف ؟ .

أنا ماالجأت للعنف أبداً ، إنما ألجأنى الآخرون إليه ، من سالمنى فأنا معه كما قال الله تعالى : **﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾** [الممتحنة ٩]

هذا هو الإسلام ، فأنا أريد أن أمشى فى طريقى وأبقى مستجمعاً أمرين :

الأمر الأول : الجهاز العاقل الواعى الذى يعرض الدعوة بقدرة عقلية على أولى الألباب فى كل زمان ومكان . هذا الجهاز لابد منه لأنه أساسى الذى أقوم عليه ، هذا الجهاز ـــ جهاز الدعوة ـــ الذى يدرس العالم كله وما يسوده من فلسفات ، وما ينتشر فيه من أفكار ، ويكون الجهاز قديراً على قياس مسافات القرب والبعد من العقيدة التى أدعو إليها والشريعة التى أحكم بها . هذا جهاز لابد من استبقائه وتنميته وتغذيته علمياً مما يعينه على أداء رسالته .

الأمر الثانى : لابد من جهاز آخر يقوم على المقاومة المسلحة لعوامل الفتنة التى تآمرت قوى العالم الشريرة على أن تعترضنى بها .

أحب وأنا أنظر إلى التاريخ أن أكون واقعياً ـــ وأنا أواجه الآخرين الآن .

إن من أسباب فرحة النبى ﷺ بمعاهدة « الحديبية » مع أن فى نصوص المعاهدة ما يشير بظاهره إلى أن فيها حَيفاً على المسلمين ، لكن النبى ﷺ كان فرحاً بالمعاهدة ، مستريحاً إليها ، لماذا ؟ .

لأنه انتزع من أعدائه الاعتراف به ، كان الدين معتبراً خارجاً على القانون ، وكان أتباعه معتبرين ضد السلطة القائمة والأوضاع القائمة ، فلما ظفر بهذا الاعتراف قَبِل المعاهدة على ما بها .

فماذا يصنع المسلمون إذا كانت قُوى العالم الكثيرة لا تريد الاعتراف بهم ؟ .

قد يقول بعض الناس : ومن قال لك :إن العالم لا يريد أن يعترف بك ؟ .

والجواب : التاريخ قال لى هذا ، ويشاء الله ـــ وأنا رجل مسلم ، وعالم من علماء الدين ـــ كنت أذاكر فى « الأزهر » دار الحرب ، ودار الإسلام ، فكان بعض الناس يتساءل : لماذا تسمى بقية العالم دار حرب ؟ قلت له : لأن المعاملة جاءت بالمثل ، قال : كيف ؟ قلت له . هناك أمور لا يمكن أن تحل داخلياً ، إنما تُحل دولياً ، قال . مرة أخرى : كيف ؟ قلت له : ديننا يَتَشَوَّف إلى الحرية ـــ كما يقول علماء الفقه ـــ وله فى هذا كلام لا يقال الآن ، لكن هل يستطيع أن يصدر أمراً داخلياً فى أرض الإسلام : أن كل أسير يحرر ؟ كيف ؟ إذا كان أسراى سيباعون فى أسواق الرَّقيق فهل تبلغ بى العملة أن أحرر ـــ أنا ـــ الأسرى تحت يدى وأترك أبنائى يباعون فى العالم كله ؟ .

المعاملة بالمثل ـــ هنا ـــ أساس ، ومعنى هذا أن أقول لهم : إن شئتم حررنا الأسرى جميعاً ، أما أن أحرر أنا وحدى فلا ..

فإذا قرر العالم منع الاسترقاق فأنا أول من يمضى !! كذلك الاعتراف

بي ، إذا أبوا أن يعترفوا بي فكيف أعترف بهم ؟

قلت : هذا من باب الاجتهاد وأنا طالب صغير ، لكن قرأت فيما بعد ما أثبته في كتاب صدر لي من خمس وعشرين سنة[1] ، وما أثبته يعطي فكرة عن الوضع العالمي للمسلمين ، النقول التي أقرؤها عليكم الآن من كتاب[2] ألّفه الدكتور « محمد حافظ غانم » وقد كان ــ فيما أعلم ــ وزيراً للتعليم العالي ، وكان أيضاً رئيساً ــ يوماً ما ــ لمجلس الأمة ، والكتاب مقرر على طلاب « معهد الدراسات العربية العالمية بجامعة الدول العربية » .

يقول المؤلف تحت عنوان : « العائلة الدولية كانت تستبعد دار الإسلام من حظيرتها » . ومنذ نشأة القانون الدولي الحديث كان من المقطوع به اعتبار الإسلام خارج نطاق العلاقات الدولية ، وعدم الاعتراف بتمتع الشعوب الإسلامية بالحقوق التي يقررها هذا القانون .

وعلى هذا الأساس لم يكن الفقهاء الأوربيون راغبين في اعتبار الدولة العثمانية جزءاً من الجماعة الدولية ..

فـ « جروسيوس » أب القانون الدولي قال بوجوب عدم معاملة الشعوب غير المسيحية على قدم المساواة مع الشعوب المسيحية ومع أنه يرى القانون الطبيعي يجيز عقد معاهدات مع أعداء الدين المسيحي إلا أنه نادى بتكتل الأمراء ضد أعداء العقيدة .

و « جنتيلس »هاجم « فرنسو » الأول ملك فرنسا لعقده معاهدة مع السلطان سليمان العثماني في سنة ١٥٣٥ .

مع أن هذه المعاهدات أقامت سلاماً بين الدولتين مدة حياة الملكين .

وأعفت الرعايا الفرنسيين من دفع الجزية التي كانت مقررة على غير المسلمين إذا ما أقاموا في دار الإسلام ، ومنحتهم امتيازات دينية وقضائية .

---

(١) هو كتاب « كفاح دين » ص ١١٢ وما بعدها ط دار الكتب الحديثة الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٥ م

(٢) الكتاب « المجتمعات الدولية لإقليميه » .

وذلك على أساس أن هذه المعاهدة تقيم تعاوناً بين ملك مسيحي وبين غير المؤمنين .

بل لقد ذهب فقهاء آخرون إلى أنه من الممكن إقامة سلام دائم فى أوربا على أساس تكتيل الدول المسيحية ضد العثمانيين

أنا نقلت من هذا الكتاب نحو ثلاث صفحات من موقف القانون الدولى ضد الإسلام ، واعتبار الإسلام خارجاً على القنون واعتبار المسلمين لا يعاملون بالقانون الدولى .

هذا فى القرن التاسع عشر ، ثم جاء القرن العشرون وأنشئت هيئة الأمم ، ولم تر هيئة الأمم حرجاً من أن تطرد عرب فلسطين المسلمين من أرضهم لتعطى هذه الأرض عصابات اليهود التى استقدمت من هنا ومن هناك ويبدو ــ إلى الآن ــ أن المسلمين يعاملون معاملة الجنس الأسود فى جنوب أفريقيا ، فهم يعتبرون المسلمين من الدرجة الثانية ، أو إن سمح لهم ببقاء فبقاؤهم فى حدود معينة !! .

بداهة ما نرضى لأنفسنا ، وما يرضى عاقل لنفسه أن يحيا على هذا النحو ، بل لابد أن ندرك الحقائق كاملة ، وأن نتعاون فى رد العدوان وكسر حدته ، والنجاة بديننا من عبث هذه المؤامرات قانونية كانت أو غير قانونية .

لذلك كان الإسلام فى تعاليمه جامعاً بين الأمرين : إن أُعطينا حق الحياة والكرامة والحديث إلى غيرنا أعطينا غيرنا هذا الحق ، وإن ضُنَّ علينا بحق الحياة والكرامة والعيش وفق ديننا فإننا نضن على الآخرين بهذا الحق .. وما يلومنا أحد على هذا ، أما الأساس الأول الذى يقوم عليه الدين فهو أن ينتشر بغير إكراه .

بعض المستشرقين أو المبشرين قال : إن الآيات التى تضمنت حرية المعتقد والتى قالت للآخرين : ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾[الكافرون : ٦] كانت فى مكة ، فلما شعر المسلمون بقوتهم ، وتماسك السيف

بأيديهم ، وأسسوا بالهجرة دولة لهم قرروا أن يعاملوا الآخرين معاملة فيها غَبْن ، وأن ينسوا ما كان من حرية المعتقد ، ويلجأوا للقتال !! .

هل هذا الكلام حق ؟ هل القرآن الذى نزل فى المدينة يخالف القرآن الذى نزل فى مكة من هذه الناحية ؟ .

الجواب : لا . لأن أول سورة نزلت فى المدينة سورة البقرة ، وسورة البقرة تضمنت ثلاثة مواضع وهى تتحدث عن أتباع الأديان الأخرى .

منها الآية العظيمة التى لا يُعرف لها نظير فى مكان آخر من أرض الله ، وهى قوله تعالى : ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم** ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

ومنها قوله تعالى لأهل الكتاب : ﴿ **قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون** ﴾ [البقرة : ١٣٩] .

ومنها قوله تعالى وهو يتناول موقف اليهود منا : ﴿ **ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير** ﴾ [البقرة : ١٠٩] بل إن آخر ما نزل فى القتال وشرائعه ما ختمت به سورة التوبة : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم** ﴾ [التوبة : ١٢٨ ، ١٢٩] .

قصة الجهاد فى الإسلام قصة مشرفة للمسلمين ، وقصة القتال فى الإسلام قصة مشرفة للتاريخ الإسلامى .

والقضية ليس فيها ما يريب ، ولا ما يحتاج إلى تدخل التافهين ليعبثوا بتعاليم الإسلام .

وقع فى يدى كتاب عليه أسماء بعض الدكاترة الذين يشتغلون بالطب ،

مكتوب فى هذا الكتاب : « حتمية تأويل آيات القتال فى القرآن » .

سبحان الله !! قلت فى نفسى : كيف تؤول آيات القتال ؟ وبدأت أقرأ فإذا بالدكاترة العباقرة ذكروا نصين كنماذج لهذا التأويل الذى لابد منه فى القرآن الكريم .

النص الأول : قوله تعالى : ﴿ **والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم** ﴾ [محمد : ٤] .

قال الدكاترة العباقرة : إن المقصود بالقتل هنا قتل الشهوات والأهواء .

هذه الكلمة ليست مستقلة وإنما هى جزء من الآية الرابعة فى سورة محمد ﷺ أو سورة القتال كما تسمى فى كثير من المصاحف ، هذا الجزء من الآية الرابعة يُفهم بداهة مرتبطاً بها ، ما هى هذه الآية الرابعة ؟ الآية الرابعة هى ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم** ﴾ [محمد : ٤] .

يقول الدكاترة الذين كتبوا الكتاب : إن الآية لا صلة لها من قريب ولا من بعد بالقتال الذى تُسفك فيه الدماء !! ألا شاهت الوجوه .

الآية تقول : عندما تلاقون المعتدين الصادين عن سبيل الله ، الضانين عليكم بحق الحياة اضربوا أعناقهم ، وقيدوا أسراهم ، وأثخنوا فى الأرض حتى ترهبوا عدو الله وعدوكم ، هذا كله يُهدر ويقال : إن الآية فى حرب الشهوات ؟! .

أى شهوات ؟ حرب الشهوات والأهواء لها آيات أخرى : ﴿ **ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله** ﴾ [ص : ٢٦] ﴿ **بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم** ﴾ [الروم : ٢٩] .

أما أن تجيء لكلمة هى جزء من آية قتال ساخن دموى أساسه أنك تريد إنقاذ عقيدتك ممن يبغى سرقتها ، وإنقاذ كرامتك ممن يبغى استباحتها ،

وإنقاذ يومك وعدك ممن يريد التطويح بهما فى مهاوى الفناء فتجىء لتقول : هذا القتال فى حرب الأهواء ؟! .

النص الثانى الذى نقله الدكاترة العباقرة فى كتابهم هو قوله جل شأنه : ﴿ **وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون** ﴾ [التوبة ١٢]

قال الدكاترة العباقرة : إن المقصود بالقتال هنا الجدل والمحاورات العقلية ونقد الأدلة ؟! .

أى كلام هذا ؟ الآية من سورة التوبة ، وسورة التوبة بدأت بإلغاء المعاهدات التى عبث بها أعداء الله ، وقالت للمسلمين : ارفضوا هؤلاء : ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون . وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم** ﴾ [التوبة ١١ ــ ١٥] .

هل هذا القتال قتال أدلة خطابية أو إقناع عقلى ؟ أم القتال هنا جاء لأناس انتصبوا أسلحتهم لضربنا ، ولابد من أن نكسر السلاح فى أيديهم ، وأن نذيقهم وبال ما قدموا هم لأنفسهم ؟! .

الكلام الذى قاله هؤلاء الدكاترة حصير ، فبعد صفحات قرأت تفسيراً لحديث سوى معروف وهو حديث : « **من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه . فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان** »(١) .

يقول الدكاترة العباقرة : معنى الحديث : من رأى منكم منكراً فى نفسه هو فليغيره بيده !! وفى المجتمع ؟ لا سبحان الله !! أدركت أن هذا الكلام ليس وراءه عقل علمى ولا فقه إسلامى ولا شرف نفسى ، بل هو كلام لحراسة الفساد فى بعض المجتمعات ، أو لخدمة الاستعمار العالمى الذى

(١) رواه مسلم فى الإيمان ــ باب بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان ٥٠ .

وقد حدث أن الاستعمار الإنكليزى لمَّا وجد الجهاد الإسلامى يعكر صفوه ، ويعترض طريقه استعان برجل اسمه « ميرزا غلام أحمد » — زعيم القاديانية — فأبطل الجهاد ، وأبطل الحج ، حتى لا يتجمع المسلمون لا تجمعاً مدنياً ، ولا تجمعاً عسكرياً ، وحتى ينتشر الضلال فى الأرض دون أن ينتصب له مؤمنون أشداء يقفون ضلاله وينكسون رايته .

ولكن القاديانية فضح الله صاحبها ، وفضح أتباعه ، وعُرفوا بأنهم أعداء للإسلام ، وعوملوا — فى حكومة باكستان الحالية — على أنهم أقلية دينية مقطوعة الصلة بالإسلام .

فهل ينتهى التخريف القاديانى فى الهند ليبدأ بعض الدكاترة — ومنهم أناس فى كلية الطب فى جامعة القاهرة — التحريف فى « مصر » ولا فقه لهم فى دين الله ، ويتحدثون فى شرح الإسلام وقضاياه على نحو طائش أحمق لا يمكن أن يُعترف به ، ولا يمكن أن يتحدث عنه بهذا الأسلوب إلا خصوم لدين الله .

والواقع أن هذا الكلام يجب أن توضع أمامه علامات استفهام كثيرة ليُعرف حساب من يقال ؟ من وراء هذه الأراجيف ؟

بقى شىء وحيد يمكن أن نشرحه لأنه تحتاجة — فعلاً — إلى شرح ، وربما كان ظاهر الحديث المروى سبباً فى أن يحدث تساؤل ينبغى أن نجيب عنه .

روى البخارى ومسلم عن النبى ﷺ قوله : « **أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله**[1] » .

ظاهر هذا الحديث يخدع ، يخدع من ؟ يخدع من لا ثقافة إسلامية له ، لأنه سيفهم من هذا الحديث أن صاحب الرسالة ﷺ مأمور بشن غارة على العالم كله حتى يقول الناس . لا إله إلا الله ، وتنتهى الغارة عندما يقولون : لا إله إلا الله !! .

هل هذا هو معنى الحديث ؟ هذا كذب لا أصل له ، والسبب فى

(١) رواه البخارى فى الجهاد باب دعاء النبى ﷺ إلى الإسلام والنبوة ٥١/٤ ومسلم فى الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ٣٩/١

هذه الخُدعة التى فُهمت من ظاهر الحديث كلمة « الناس » فى قوله : « **أمرت أن أقاتل الناس** » ــ فقد فهمها كثيرون على أن المقصود بالناس البشر عموماً ، وهذا غير صحيح

أول ما نذكره فى تكذيب هذا المفهم أن العلماء أجمعوا على أن كلمة « الناس » فى الحديث لا تشمل أهل الكتاب ، لماذا ؟ قالوا : لأن سورة التوبة تحدثت عن المعتدين من أهل الكتاب الذين لا يحرمون حلالًا ولا حراماً فى معاملتهم للمسلمين ، تحدثت عن قتالهم وجعلت الغاية منه محددة : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ [التوبة : ٢٩] .

فكانت الغاية من قتالهم ــ لا أن يقولوا لا إله إلا الله وإنما : ﴿ **حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ .

فلا صلة للحديث المروى لا باليهود ولا بالنصارى .

هل يتناول المشركين كلهم ؟ .

لا : « فإن عمر بن الخطاب ذكر المجوس ، فقال : ما أدرى كيف أصنع فى أمرهم ــ فقال عبد الرحمن بن عوف : أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « **سُنُّوا بهم سُنة أهل الكتاب** »[1] .

إذاً هؤلاء أيضاً ليسوا فى الحديث .

ما المقصود من الحديث إذاً ؟ .

كلمة « الناس » هنا ، قال العلماء : إنها عام مخصوص ، وقد وردت كلمة « الناس » فى القرآن عموماً يراد به خصوص فى مواضع كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً** ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

﴿ **الذين قال لهم الناس** ﴾ الناس هنا : بعض المنافقين ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم** ﴾ الناس هنا : بعض المشركين؛ إذاً فالناس فى الآية ليس المقصود بها عموم البشر ، آية أخرى هى قوله تعالى : ﴿ **إذا**

(١) رواه مالك فى الموطأ كتاب الزكاة ــ باب جزية أهل الكتاب والمجوس ١/٢٧٨ قال الشوكانى فى نيل الأوطار وهذا منقطع ورجاله ثقات ورواه الدارقطنى وابن المنذر فى الغرائب من طريق أبى على الحنفى عن مالك فزاد فيه عن جده أى جد جعفر بن محمد وهو أيضاً منقطع لأن جده =

جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ﴾ [النصر : ١ ، ٢] ما الناس الذين دخلوا ؟ أهل القارات ؟ لا . عرب الجزيرة .

كلمة « الناس » فى الحديث تفسير لكلمة « الناس » فى قوله تعالى :

﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ﴾ [التوبة : ٣] .

الناس هنا : هم الذين خانوا الأمانات ، ولعبوا بالمعاهدات ، وعبثوا بالمواثيق التى أخذت عليهم ، أما الذين بيننا وبينهم ميثاق فقد استثنوا من هذا القتال كله :

﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ [التوبة : ٤] .

المهم أن الحديث ليس على ظاهره ، والحديث صحيح السند ، ولكن يحتاج المعنى إلى فقه الفقهاء .

يجىء واحد صعلوك فيقول : الحديث كذب لأنه عدوان على الناس !! .

كيف كذبت الحديث ؟ الحديث صحيح لكن له معنى ، لكنها قلة الفقه وسوء الأدب .

نسأل الله العافية .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

= على بن الحسين لم يلحق عبد الرحمن بن عوف ولا عمر ، فإن كان الضمير فى جده يعود إلى محمد ابن على فيكون متصلاً لأن جده الحسين بن على سمع من عمر بن الخطاب ومن عبد الرحمن بن عوف ، وله شاهد من حديث مسلم بن العلاء الحضرمى أخرجه الطبرانى فى آخر حديث بلفظ « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » (نيل الأوطار ٥٧/٨)

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ **الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ [الشورى ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

أيها الإخوة : فى الحقيقة أننا نحتاج فى هذا العصر إلى شىء من التأمل والتؤدة ونحن نواجه المكايد والمؤامرات التى تُوجه للإسلام وأهله .

ذلك أن هناك جهلة متدينين لكن فيهم بلاهة ، وهناك أعداء وفيهم خُبث ودهاء ..

والإسلام بين نارين من هؤلاء وأولئك ..

ورد حديث يقول : « **إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ، الشهر هكذا وهكذا** » يعنى مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين[1] .

ما معنى الحديث ؟ العرب فى جاهليتهم كانوا أمة أمية ، ما يعرفون الحساب الفلكى ، ولا تشيع الكتابة بينهم ، كانوا كالإبل الهائمة فى الصحراء ، حتى جاء الإسلام فنقلهم بثقافته .

﴿ **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق نفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ [يونس ٥] .

فانتقل العرب — بداهة — إلى أمة مثقفة ، لها معارف خصبة ، ولها حضارة رائعة .

---

(١) رواه البخارى فى الصوم باب قول النبى ﷺ لا نكتب ولا نحسب ٣٥/٣ ومسلم فى الصيام باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال ، والفطر لرؤية الهلال ١٢٤/٣

فالذى يفهم من حديث . « **إنا أمة أمية** » أن الأمية شرف ، وأننا نسحب الطلبة من الكليات ، ونفر بهم إلى الحال فهذه غباوة ما يمكن أن يقول بها عاقل ، ولا يصنعها إلا البُله .

يجيء آخر فيقول : الحـــــديث كذب ، لا . الحـــــديث صحيح ، لكن فهمكم أنتم له هو الكذب ، فيفهم الحديث كذباً ثم يكذب الحديث ، وتفتح ثغرة فى جدار الثقافة الإسلامية ، لأنه عندما يجيء العيال والصعاليك ويكذبون البخارى ومسلماً وكتب السنة فماذا يبقى فى الإسلام ؟ .

القرآن ؟ سَيُؤَوَّل على هذا النحو لدى شرحته لكم ، ويضيع الدين كله

إن الله عز وجل لم يخلق الناس متساوين لا فى كفاياتهم ولا فى مواهبهم ، ولم يقل جل شأنه للناس إذا جهلوا : أسألوا الجهلة أمثالكم ، ولكنه قال : ﴿ **فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾[الأنبياء ٧] وأمتنا محتاجة إلى جماعات كثيرة ، كثيرة جداً من أهل الذكر يشرحون للناس دينهم ، ويعرفونهم معاشهم ومعادهم .

« **اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر** »[1] .

﴿ **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم** ﴾ [الحشر ١٠] .

عبـــاد الله

﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ [النحل ٩٠] .

أقـــم الصـــــلاة

---

(١) رواه مسلم فى الذكر ــ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨

عهد المظالم والهزائم

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص
١٩٧٣/٦/٨ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

فإن الناس يستقبلون فى الأيام الأولى من هذا الشهر ـــ بالتقويم الميلادى ـــ ذكرى كئيبة ، تَسْوَدُّ بها وجوه ، وتُنَكَّسُ بها رؤوس ، ويشيع معها جو من الأسى والعجَب !! وذلك أن العرب لحقت بهم هزائم شنعاء فى هذه الأيام الأولى من هذا الشهر .

وهى هزائم يريد العدو أن يبنى عليها أشياء خطيرة ، يريد العدو بها أن يصف نفسه بأنه عدو ذو بأس شديد ، وعزم حديد ، وقدرة خارقة ..

ويصف بعد ذلك العرب والمسلمين بأنهم شعوب فى طريق التلاشى ، وأنهم أمم قد أخذت تفقد خصائص الحياة ، وأن ما نزل بها من هزائم إنما كان تسجيلا لما تستحق من إدبار أمرها ، وسقوط ألويتها .

والأمر على هذا النحو لا يمكن أن نسكت عليه ، ولا أن نستطيع أمام ربنا أن ندع الأكاذيب تربو وتنمو مع صمت من يعرفون الحقائق

أريد أن أقول ـــ معتصما بالله ـــ :

إن الهزائم التى وقعت لم تكن هزائم للأمة الإسلامية ، ولم تكن هزائم للجيوش العربية ، لكنها كانت هزائم لطراز معين من الحكم ، ولون معين من الرجال ، ونوع معين من الخطط !!

أما بالنسبة لنا نحن المصريين فإنى خبير بالشعب المصرى والجيش المصرى ، وينبغى أن أقول : إن أعداءنا يريدون أن نفقد ثقتنا بأنفسنا ، وأن تشيع الأكاذيب التى روَّجوا لها ، وسوا عليها ، وما ينبغى نحن أن نستسلم هذه الخطة .

إن ما وقع من هزائم لا يمكن إنكاره ، ولكنه لم يكن هزيمة للجيش ولا للشعب ، إنما كان هزيمة لعصابة من الناس وقعت أزمَّة الحكم فى إيديها فحدت الله ورسوله ، وأهانت المؤمنين . وتركت وراءها هذا الدمار المادى والأدبى ينال من كرامتنا ، ومن حقيقتنا !!

الجيش المصرى سبقت له مواقف فى التاريخ ما تُنكر ، فهو الذى هزم الصليبيين فى « حِطين » وغير حطين ، وهو الذى هزم التتار فى « عين جالوت » وغير عين جالوت ..

واستطاع فلَّاح تُركى اسمه « محمد على » بهذا الجيش من المصريين أن يمد حدود « مصر » حتى « الجزائر » غربا ، وحتى « منابع النيل » جنوبا ، وحتى « الخليج العربى » شرق ، وحتى « القسطنطينية » وداخل « جزر اليونان » و « شبه جزيرة المورة » شمالاً .

الجيش جيش محترم يوم يُرزق قيادة محترمة ، لكن يوم تقع أزمَّته فى إيد غبية فإنه سينهار يقينا .

الشعب المصرى ليس تافهاً ، ولست أقول هذا لأنى مصرى ..

إن هذا الشعب له خصائص أصيلة ، هذا الشعب فى آخر قضاياه ــ ولا أذهب إلى الماضى البعيد ــ يوم استطاع الإنكليز أن يدخلوا « رشيد » فى أول حملة من حملات الاحتلال ، وفرَّتْ الجيوش « الأساسية » من أمامهم ، قرر الشعب المصرى أن يقاوم ..

الشعب أعزل ، ومع ذلك فإن اثنين من المؤرخين كتبا وثيقة — موضوعة الآن فى وثائق وزارة الخارجية الانكليزية ، ومترجمة فى بعض كتبنا العربية والإسلامية — تقول : إن أهل « رشيد » قاوموا بجبروت ، وتقول : إن الحملة التى نزلت سرعان ما بدأ الأهالى فى الحارات ، وفى الشوارع ، ومن أسْطُح البيوت ، ومن نوافذ البيوت ، أخذوا يُحولون المدينة إلى بركان ثائر .

كانوا يُغْلُون الزيت ويسكبونه على الجنود ، وكانوا يضربون بالرصاص والبَلَط والعِصى ..

ووجد القائد الانكليزى نفسه أمام محنة ، إذ فقد نصف الحملة — تقريباً — فى شوارع « رشيد » وحاراتها مع الشعب بعد أن فرّ الجيش الألبانى ...

وكانت إشارة الهجوم على المحتلين من مسجد « المحلى » بـ « رشيد » !!

هذا ما وقع فى « رشيد » مع الانكليز ، وما وقع مع الفرنسيين أن ربع السكان فى « مصر » — تقريباً » قُتلوا أو جرحوا وهم يقاومون الجيش الفرنسى بعد أن هُزم المماليك !!

وتاريخ المقاومة لا يُدَرَّس ولا يُكتب ، كأن هناك مؤامرة لإشعار هذه الأمة بأنها لا تحسن المقاومة ...

إن الجيش المصرى أصيل ، وتاريخه مشرف ، والشعب المصرى أصيل ، وتاريخه مشرف ، ومفتاح شخصيته الإسلام ...

يوم ينادَى بهذه الصيحة ، ويوم تُدار فى أقفاله هذه المفاتيح المؤمنة فإنه يتحرك فلا يقف أمامه شىء فى الأولين والآخرين !!

إن الهزيمة التى وقعت كانت هزيمة عصابة من الناس تستمتع بقدر كبير من الغباء والجهالة وكبرياء الضلال ...

هؤلاء كانوا فى واد والشعب فى واد آخر ، لأن القانون سُجن ، ولأن كل إنسان كان مُرَوَّع ، لم يكن هناك وجود لقانون عقوبات أو قانون أخلاق ...

كان من الممكن لأى حاكم من هؤلاء إذا أعجبته عِمارة من العمائر أن يعلن حراسة عليها ثم يَسكنها أو يُسكنها أتباعه !!

كان التدين شبهة ، وصلاة الفجر فى بعض المساجد مشكلة ، والبعد عن الخمر والدنيئة يُعَرِّض صاحبه للهوان والضياع وخراب المستقبل بعد الحاضر !!

فلما وقعت المعركة كان الناس يتفرجون !! وكيف وُضعت الخطة ؟ .

يقول لى طبيب : صدر فى أربع وعشرين ساعة نحو عشرين أمراً متضاربة متناقضة ؟ .

فما استطاع الجيش أن يصنع شيئاً أكثر من أن يحمل سلاحاً ربما لم يُجَرَّب ، أو ربما لم تُفتح أغلفته ليعطيه اليهود !! .

كانت خطة لا نظير لها فى الغباء ، الجيش معذور ، والشعب معذور ، والأمر محتاج إلى أن يدرك الناس الحقائق .

كان الجيش يستطيع أن يفعل الكثير ولكنه عجز ، وكانت الأمة تستطيع أن تعمل الكثير ولكنها عجزت .

فى الحرب الأولى مع اليهود فى سنة ١٩٥٦ م كنت يقظان مدركاً لما هنالك ، كانت فى شعبنا بقايا من الإيمان والوطنية ، وعندما وُزِّع السلاح على الشعب ليقوم كنت موقناً أن هذا السلاح لن يُستغل إلا فى ضرب العدو ، وعندما أُكره سكان القناة على أن يهجروها كان الناس بصدورهم وبيوتهم وعواطفهم وتقاليدهم يرحبون بالمهاجرين لأن بقايا الإيمان موجودة ..

كنت موقناً أن شيئاً حدث غير كريم وهو هزيمة جيشنا على الحدود

الشرقية بسرعة غير متوقعة ، وقيل يومئذ : السبب فى صدور أوامر الانسحاب أن الانكليز والفرنسيين نزلوا فى « بور سعيد » .. والواقع أن هذا التعليل خادع ، وأن المقاومة كان ينبغى أن تطول أكثر لو كانت القيادة أعقل وأحكم وأحزم

ولكن الخطأ وقع ، وشاء الله أن تحرر البلاد ، وأن ينسحب أولئك الذين جاءوا .. وقلت : بأى قدرة خرجوا ؟ بأى قدرة غُسلت الأرض منهم ؟ .

وكان الجواب : قدرة مَن غير قدرة الله جل شأنه ؟!! .

وقلت يومئذ . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هَمَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ [المائدة : ١١] .

هو وحده الذى كف الأيدى عنا ، ولكن الذين استمعوا هذا الكلام ذكَّرونى بقصة الأقرع والأبرص والأعمى التى روتها كتب السنة ، وكتب السنة تروى أحاديث موجِّهة وأخباراً نافعة ..

إن الإنسان فى طبيعته أن ينسى ، وفى طبيعته — أحياناً — أن يَغْدُر ، بالنعمة وأن يجحد صاحبها .

ضربت السنة مثلًا لهذا بثلاثة نفر ابتلوا بالفقر والعلل ، هذا أبرص وفقير ، وهذا أقرع وفقير ، وهذا أعمى وفقير : « إن ثلاثة فى بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى بَدَا لله أن يبتليهم[1] فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : لون حسن ، وجلد حسن ، قد قَذرنى الناس ، قال : فمسحه فذهب عنه فأعطى لوناً حسنا وجلداً حسناً ، فقال : أى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل-فأعطى ناقة عُشراء ، فقال : يُبَارَكَ لك فيها .

---

(١) بدا لله : أى سبق فى علم الله فأراد إظهاره ، وليس المراد أنه ظهر له بعد أن كان خافياً ، لأن ذلك محال فى حق الله تعالى يبتليهم : أى يختبرهم

وأتى الأقرع فقال : أى شيء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عني هذا قد قذرني الناس . قال فمسحه فذهب وأعطى شعراً حسناً ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر ، قال : فأعطاه بقرة حاملاً ، وقال : يُبَارَكَ لك فيها

وأتى الأعمى فقال : أى شيء أحب إليك ؟ قال : يرد الله إلىَّ بصرى فأبصر به الناس ، قال : فمسحه فرد الله إليه بصره ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال . الغنم ، فأعطاه شاة والداً ، فأنتج هذان وولّد هذا .

فكان لهذا واد من إبل ، ولهذا واد من بقر ، ولهذا واد من الغنم .

ثم إنه — أى الملك — أتى الأبرص فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين تقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلّغ عليه فى سفرى ، فقال له : إن الحقوق كثيرة ، فقال له : كأنى أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيراً فأعطاك الله ؟ فقال : لقد ورثت لكابر عن كابر[1] فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأقرع فى صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا فرد عليه مثل ما رد عليه هذا ، فقال إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأعمى فى صورته فقال : رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها فى سفرى ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله بصرى وفقيراً فقد أغنانى فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله . فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيْك »[2] .

---

(١) أى ورثته عن آبائى وأجدادى

(٢) رواه البخارى فى الأنبياء — باب حديث أبرص وأعمى وأقرع فى بنى إسرائيل ٢٠٨/٤ ومسلم فى الزهد — كتاب الزهد والرقائق ٢١٣/٨

النفس البشرية ــ أحياناً ــ تنسى ماضيها ، تنسى فقرها ، تنسى ذلها ، ثم تزعم أن ما هى فيه من خير وعز ونصر وغنى هو جهدها ، كما قال قارون ــ لما قيل له : **﴿ أحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين   قال إنما أوتيته على علم عندى ﴾** [القصص : ٧٧ ، ٧٨] عبقريتى هى التى جاءت بالمال .

وهذا ما حدث ، فإن الحكم السابق فى بلدنا قال ــ ببساطة ــ انتصرنا !! .

وأحسن صناعة أجدناها كانت الكذب !! .

فانتشر الكذب ، انتشر أننا بقدرتنا وحولنا وخُططنا وذكائنا وعبقريتنا انتصرنا !! .

والله وحده يعلم أنه هو وحده صاحب اليد الطُولى علينا ، وهو وحده الذى أخرج العدو من بلدنا !! .

كانت بقايا الإيمان ــ فعلًا ــ ترشح الأمة لأن تنجو من كبوتها ..

لكن الذى حدث فى سنة ١٩٦٧ م كان شيئاً لابد منه ، كان لابد أن يفتضح الغرور ، وأن ينكشف الجهل ، وأن تتضح أمام أعين الناس الهالات التى زُوِّرت ، والقامات التى تطاولت !! وما يغيظنى فى الدنيا شىء كهذا اللون من الادعاء ، وكثيراً ما أردد قول المتنبى[1] :

أفى كل يوم تحت ضِبنى شويعر   ضعيف يقاوينى قصير يطاول

إلى أن يقول :

وما التيه طبى فيهمُ غير أننى   بغيض إلىَّ الجاهل المتعاقل

وعندما تقع أزِمَّةُ البلاد فى أيدى الجاهل المتعاقل فلا تنتظر إلا الضياع .

---

(١) ديوانه : ١٩١/٢ والضِّبنُ : ما بين الإبط والكشح ــ وهو ما بين السُّرّة ووسط الظَّهر ومعنى البيت أفى كل يوم أرى بين صغار الشعراء من يقاوينى ويطاولنى وهو خبيث لو أردت أن أحمله تحت ضبنى لقدرت على ذلك لصغره وقماءته . وطبى . أى شأنى

شعبنا شعب طيب ، وفيه مواهب أصيلة ، هاجر منه من هاجر فهو الآن يشتغل فى غزو الفضاء ، وفى تفجير الذرة ، فهو شعب معدنه ذكى ، ويحتاج إلى حاكم يحنو عليه ، حاكم ولده،حاكم طيب يحتاج إلى هذا .

وأنا فى مكانى من العمل فى الدعوة الإسلامية — وأنا رجل خبير بدينى ودنياى — كتبت مذكرة وقلت فيها — لمن يهمهم الأمر عندنا : إننى بعد أن أذهب الله الانكليز والفرنسيين واليهود أريد أن نعيد النظر فى شبه جزيرة سيناء ، وعندى اقتراح سببه أنى مسلم قرأت فى كتاب الله :
﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين ﴾
[المؤمنون : ٢٠] فقلت : معنى هذا أن شجر الزيتون الذى ينمو فى « لبنان » وفى « فلسطين » غابات كان ممتداً إلى « سيناء » ولابد أن عوائق حالت دون انتشاره ، أو أن ظروفاً زمانية أو مكانية منعت أن ينمو شجر الزيتون فى هذه البقاع ، لكنى موقن وأكلت بفمى فاكهة نبتت فى سيناء أحلى وأشهى مما ينبت فى « وادى النيل » وقد عشت فى سيناء أمداً غير قليل من الزمن وأنا بها خبير .

قلت : أريد أن نبنى مستعمرات فى سيناء ، أسسها ثلاثة نفر ، عالم دينى ، مهندس زراعى ، ضابط عسكرى ، الثلاثة تُختار لهم بقاع معينة ، وفى كل بقعة يوطن البدو ، للبدو حقوق فى رقابنا ، إنهم جهلة ، يشتغلون برعى الغنم ، وإذا كان هذا الاحتراف لا يعطى الكثير اشتغلوا بتهريب المخدرات ، أو اشتغلوا بمعاونة الأعداء ، فلِم لا نمنع هذا البلاء ونبدأ فى توطينهم ، ويكون التوطين على الأساس الدينى العسكرى الاقتصادى ؟ .

وقلت : نبدأ بمحطات السكة الحديد بين « القنطرة » و « العريش » و « رمانة » إلى « رفح » إلى « غزة » وتنتشر بعد ذلك المستعمرات .

ووقع بعد ذلك التقرير الذى قدمته فى يد مسئول بدأ يقرأ ، وبدأ ينظر إلىَّ فى شىء من العجب أو من الازدراء ، وقال : ليست هناك مياه يا أستاذ فى هذا المكان . قلت له : أنا أعرف أن اليهود مدوا الماء من شمال « غزة » إلى « رفح » وزرعوا الأرض « بطاطس » !! .

ونحن مددنا المياه إلى « مرسى مطروح » للمصيفين ، فإذا مددناها

للهو نستطيع أن نمدها للجد ، لكن هيهات ، من تحدث ؟!

من البلاء أن يكون الرأى لمن يملكه لا لمن يبصره !! .

وكأن الرجل يقول : ما لرجل مُعمم يتحدث فى هذه الأمور ؟ .

وشعرت بهذا وقلت وأنا أنتفض من العزة والكبرياء ، قلت : إننى معمم فعلًا ولكنى أضع خطة تمنع حاخامات اليهود من أن يهزموكم هزيمة ترفعون فيها أيديكم وأرجلكم وتضحكون العالم عليكم !! .

إن حاخامات اليهود يعملون الكثير من أجل دينهم ، وأنا رجل مسلم أريد أن نخدم ديننا .

لكن هيهات ، ذهب الاقتراح إلى القمامة !! ونفّذ الاقتراح بنو إسْرائيل ، نفذوه هناك بعد أن احتلوا أرضنا ، الحاخام اليهودى مع الضابط الإسرائيلى مع المهندس الزراعى .

إن ناساً تريد أن تصف ما حدث فتقول : نكسة . كلمة « نكسة » معناها أن رجلًا كان يصعد فانزلق فسقط ، فيقال : شيء باغته عن طريقه فما تم له ما أراد .

والحقيقة أن بلادنا كانت تنحدر ، الحقيقة أن الحكم السابق كان بهذه الطريقة التى يعيش بها يرشح الأمة لهزيمة نكراء ؟! .

ونحن لا نبكى على الماضى ، فإن البكاء على الماضى شأن الانهزاميين ، ولكنى أقول : فى المعركة القادمة ــ ولابد من وقوع معارك أردنا أم لم نرد ــ يجب أن لا تكون بين الشعب والحاكم فجوة ، الحاكم الأمين الصدوق النزيه هو الذى يعرف أنه خادم للأمة لا سيد لها ، الحاكم الأمين الصدوق النزيه هو الذى يرعى الدماء والأموال والأعراض ويقدسها . ليس ذئباً ينطلق فى أحشائها كي يُشبع نهمته من الحرام . إنه يومئذ لن يكون حاكماً لها إنما يكون عدواً لها وعميلًا لأعدائها !! .

وقال بعض الناس : إن نكسة « يونيو » كنكسة « أحد » !! ولم أر أغرب ولا أعجب من هذا التعليق ، إن هذا الكلام خطورته بعيدة المدى ،

وهو اجتراء على حقائق التاريخ ، فإن معركة « أحد » أرَّخ بعض كُتاب السيرة لها ورفضوا رفضاً باتاً اعتبار ما حدث نصراً لقريش وعتبة للوثنية .

قالوا : ربما لم يبلغ المسلمون مرادهم ، ولكن ما حدث لا يمكن أن يوصف بأنه هزيمة .

ونحن نريد أن نبرز خمس نقط :

النقطة الأولى : أن المسلمين في « أحد » أحرزوا النصر ، وانكشف العدو ، وولى الأدبار في المرحلة الأولى من المعركة ، وهذه الهزيمة التي لحقت بالعدو هي التي أغرت طلاب الدنيا أن يتركوا مواقعهم ليحصلوا على الغنائم فكان ما كان .

لكن في « يونيو ١٩٦٧ م » ما حصلنا على شيء ما من النصر إلا ما كانت الإذاعات تكذب به وتقول : أسقطنا عشرات الطائرات ومئات الطائرات وهو كلام من نسج المخدرات !! .

النقطة الثانية : أن المشركين في معركة « أُحد » ما استولوا على شبر من المدينة ، ولا فكروا في دخولها ، أما في « يونيو » فإن مساحة إسرائيل تضاعفت كثيراً من أرضنا وبلادنا وجيراننا .

النقطة الثالثة : أنه بعد ما حدث في « أحد » لم تمر عشية أو ضحاها حتى أصدر النبي الكريم ﷺ ــ أمره بمطاردة قريش واللحاق بجيشـــها ، ما صبروا على ما نزل بهم أربعٌ وعشرين ساعة !! .

النقطة الرابعة : أنه بعد ما يوصف بأنه هزيمة ما فقَدَ المسلمون تديهم ولا تقواهم ، بل جمع النبي ﷺ الناس وراءه وقال : « **استووا حتى أثني على ربي عز وجل** »[1] وأخذ يثني على الله ويؤمن به ويدعوه ويستغفره

---

(١) رواه أحمد ٣/٤٢٤ والحاكم ١/٥٠٧ ، ٣/٢٣ ــ ٢٤ وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين . وقال الألباني : إنما هو صحيح فقط فإن فيه عبيد بن رفاعة ولم يخرج له الشيخان ، ومن أخطاء الذهبي أنه في أحد الموضعين وافق الحاكم على تصحيحه وفي الموضع الآخر قال : « والحديث مع نظافة إسناده منكر » كذا قال ولم أعرف لقوله وجهاً والله أعلم (هامش فقه السيرة للشيخ الغزالي : ٢٨٣) وقال في مجمع الزوائد : رواه أحمد والبزار واقتصر على =

شيء آخر : تنظيم الناس فى مواقعهم فى الحياة أو فى الممات أمانة ، كان زعيم الأمة ونبيها ﷺ يرعاه حتى فى القبر ، كان يجمع بين الرجلين من قتلى « أحد » فى ثوب واحد ، ثم يقول . « أيهم أكثر أخذا للقرآن ؟ فإذا أشير له إلى أحد قدمه فى اللحد وقال : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يُصَلِّ عليهم ولم يُغسلوا »(١) .

حتى فى الموت يقدم الأعظم تقوى ودينا ، فإذا كان هذا فى الموت فكيف الشأن فى الحياة نفسها ؟ .

كانت الأمة يقدم فيها أصحاب الكفايات ، ويؤخر فيها من لا كفاية له .

النقطة الخامسة : أن سبب الهزيمة فى « أحد » مخالفة الجيش للخطة ، أما فى « يونيو » فإن سبب الهزيمة أن الجيش لم توضع له خطة ، كانت الخطة الموضوعة هى التى هزمته ، كأنما وضعها عدو لهذه الأمة !! .

الفروق كثيرة جداً ، قلت : لا أبكى على ماض ، إن شهر يونيو يجيء وتجيء معه الآلام ، ويريد اليهود أن يفتحوا أفواههم فى كل مكان ليقولوا : نحن أولو بأس شديد !! .

كذبتم والله ، والله لو أن أعدادكم من الناس كانوا كلاباً أو ذئاباً لانتصروا على العرب !! لأن العرب كانوا مخذولين بقادتهم ، كانوا مهزومين بمن يحكمهم ، لو اصطدم هؤلاء العرب بجيش من الكلاب لانهزموا !! لأنه ما كانت لديهم لا قوة ولا خطة ولا تراحم ولا تعاون !! .

إن اليهود امتلئوا فى فراغ ، ويوم ترجع هذه الأمة إلى دينها وإلى القليل من السلاح الذى بأيديها فإن اليهود سوف تسود وجوههم ، وسوف يضحك أهل الأرض من دعاواهم !! .

= عبيد بن رفاعة عن أبيه وهو الصحيح ، وقال : انهم قاتل كفرة أهل الكتاب ، ورجال أحمد رجال الصحيح ٦/١٢٢

(١) رواه البخارى فى المغازى — باب من قتل من المسلمين يوم أحد ٥/١٣١

إننى أريد بهذا الكلام كله شيئاً واحداً أن أكشف الحقائق ، أن أرد الاعتبار لألوف من الشباب انتظموا فى الجيش وهم ليسوا جبناء ، وما فكروا أن يبيعوا دينهم ، ولكنهم ضاعوا بالخطط الرديئة ، شعوب مؤمنة طيبة ، ولكنها ذلّت فى مدنها وقراها ، كانت تتفرج.هذه هى المأساة التى وقعت فى « يونيو » ربما مات من مات ، ربما سجن من سجن ، ربما ذهبت مراكز القوة المسئولة عن هذا إلى حيث ذهبت ، لكن تبقى العبرة التى أريد أن يستفيد منها كل حاكم .

لا يجوز أن تكون بين الدولة والأمة فجوة ، لا يجوز أن يشعر رجل الشارع بأن حاكماً ما ديّان له ، مسيطر عليه ، رب له فى الأرض ، لا . لا .

يوم أراد أحد الملوك فى « فرنسا » أن يجعل من نفسه إلهاً على الناس ، جاء الفرنسيون به وقتلوه !! .

إن هذا الحكم الذى أجراه الثوار الفرنسيون كان حصانة لهم فيما بعد من حكام يريدون أن يصنعوا هذا الصنيع بشعوبهم .

والأمة الإسلامية محتاجة إلى هذا كله . لقد ضاع المسلمون فى « باكستان » بسبب هذا الذى قلته لكم .

جماعة من الجنرالات كانوا يسكرون ويهرفون بما لا يعرفون دوّخوا مستقبل الإسلام فى الهند !! .

هذا ما حدث فى « يونيو » أرجو أن نأخذ منه عبرة : ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ [ق : ٣٧] .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ..

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ **الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ [الشورى ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـد :

فلغاية فى نفسى أحب أن أحكى شيئاً حدث .

من عدة شهور جاءنى فى مكتبى رجل وأعطانى مبلغاً من المال أحصيته فإذا هو ستمائة جنيه ، قال لى : وزِّعها على المساجد التى ترى أنها بحاجة إلى المعونة . قلت له . لا بأس ، ما اسمك ؟ فإذا هو يولى ويتركنى فما أعرف اسمه !! .

الجمعة الماضية وُضع فى يدى « طرف » ما أعرف مَنْ صاحبه ، وعندما احتوتنى السيارة التى أعود فيها وجدت المبلغ ثلاثمائة جنيه ، ومعه خطاب فيه : ضع هذا المبلغ فى مساجد معينة بأوصاف معينة .

أنا أقصد بهذا ثلاثة أمور : الأمر الأول : أنه لاشك أن أمتنا ــ كما قلت ــ أمة تقية طيبة ، معدنها سليم ، والخير فيها كثير .

الأمر الثانى : لا أريد أن يتكرر هذا معى ففيه شيء من التعب أو الحرج لى .

الأمر الثالث : أن هذه النيات لطيبة فردية ، بمعنى أنها لا تزال فى أماكنها كمناجم الذهب لا تُكتشف إلا بالبحث .

الهجوم على الإسلام هجوم جماعى منظم ولابد أن يكون الدفاع دفاعاً جماعياً ومنظماً .

وألفت النظر إلى أن أمتنا لها مفتاح واحد هو : الإيمان ، هو الإسلام ، وأنها بهذا المفتاح تعطى المال ، تعطى الدم ، لأنها تريد وجه الله تعطى كل شىء وتصنع كل شىء .

أما من يحاول إذلالها فماذا سيجنى ؟ سيذل نفسه ويقهرها ويقهر الأمة معه ويذلها !! .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر »(١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عبـــاد الله

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقـــم الصـــلاة



(١) رواه مسلم فى الذكر ــ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨

١- تأملات فى سورة آل عمران
مفتاح هذه السورة

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه

١٩٧٤/٢/٨ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

● أما بعد :

فسنعود اليوم بمشيئة الله تعالى إلى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

كنا قد ألقينا نظرات عجلى على سورة البقرة ، ثم اعترضتنا مناسبة الهجرة فقضينا معها ثلاثة أسابيع ، والآن نعود إلى سورة آل عمران ــ بعد سورة البقرة ــ لنلقى عليها نظرات عجلى نستبين فيها الهدايات التى أودعها الله فى تضاعيف الوحى المبارك ، ونستمتع بهذا الخير الذى خصنا الله به نحن المسلمين ، ولعلنا نقدره ونرتفع إلى مستواه ونكون أهلاً لفقهه وتبليغه .

قلنا فى نظرة سريعة إلى هذه السورة : إنها يمكن أن تنقسم قسمين : قسم يتضمن مناقشات لأهل الكتاب ، وهذا القسم ينتظم تقريباً نصف السورة الأول

أما القسم الثانى الذى يشبع فى نصفها الأخير : فهو التعليق على هزيمة

« أحد » واستخلاص العبر مما أصاب المسلمين فيها من مآس ونكبات ونحن نستعين الله عز وجل لنسطر فى هذه السورة على نحو آخر يقترب من عرضنا الأول لها ، ولكنه قد يضيف جديداً إلى هذا العرض .

بدأت السورة — بعد حروف الهجاء المقطعة — بقول الله جل شأنه .
﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ [آل عمران : ٢] .

وصف رب العالمين نفسه بثلاث صفات : أنه لا إله إلا هو : أى لا شريك له ، فما عداه عبد خاضع لجلاله ، محتاج إليه .

الصفة الثانية : الحى : حياته من ذاته ، يفيض الحياة على غيره وغيرُه لا حياة له من ذاته ، وإنما يكسب حياته من الله جل جلاله .
الصفة الثالثة . القيوم : ومعنى القيوم : أن العالم علوه وسفله ، عرشه وفرشه ، ما نراه ومالا نراه ، إنما يقوم لأن الله يُمده بتيار الوجود ، فإذا انقطع هذا التيار — لأن الله قطعه — فإن وجود العالم يتلاشى تلقائياً ويستخفى ويتحول إلى صفر وعدم مطلق !! .

الأوصاف الثلاثة لذات الأقدس ترد على أهل الكتاب من يهود ونصارى وأيضاً ترد على المشركين أنفسهم ولكى نُلقى نظرتنا ونحن نعرف ما يشيع فى السورة من أولها لآخرها ، ولكى نستكشف المحور الذى تدور عليه السورة نوجه النظر إلى كلمة تكررت سبع أو ثمانى أو تسع مرات[1] فى هذه السورة هى مفتاحها ، هذه الكلمة هى : « آيات الله » .

تكررت — فيما أذكر — على النحو الآتى :

﴿ إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴾ [آل عمران : ٤]

﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ﴾[آل عمران:٢١].

---

(١) تكررت عشر مرات فى الآيات : ٤ ، ١٩ ، ٢١ ، ٧٠ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٩٩ .

﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ .
[آل عمران : ٧٠] .

﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ﴾ [آل عمران : ٩٨] .

﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين ﴾
[آل عمران : ١٠٨] .

﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ [آل عمران : ١١٣]

﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلًا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾ [آل عمران : ١٩٩] .

فكلمة « آيات الله » تكررت في هذه السورة فيما قرأت من آيات وفيما لم أقرأ — لأنى لم أستوعب إلا على عجل — على هذا النحو[1] .

نريد أن نتعرف على معنى كل آية من الآيات التى قرأناها ، وما المقصود أولًا بـ « آيات الله » ؟ .

إن الظاهر من كلمة « آيات الله » مع استعراضها في سورة آل عمران أنها تعنى القرآن الكريم على أنه الوحى الإلهى المصون المبرأ الذى كتب الله له الخلود . فما تستطيع بتةً أن تقول الآن : إن لله في القارات الخمس وحياً خالصاً مأموناً يُطمأن إلى صدقه وصفائه وخلوصه ونقائه إلا في هذا المصحف المصون !! .

وكلمة « آيات الله » ترددت في هذه السورة ترد على أنواع من الخلق وأنواع من الشبه ..

ولكى نعرف — بالضبط — كيف فُتحت السورة بالكلام عن الله ،

---

(١) قرأ شيخنا حفظه الله سبع آيات فقط ولم يقرأ الآيات رقم ١٩ ، ١٠١ ، ١١٢ .

وكيف أن النقاش بدأ مع أهل الكتاب في النصف الأول من السورة ، وكيف ختمت السورة بالكلام عن آيات الله ، لكي نعرف هذا نعود بالنظر مرة أخرى إلى أول السورة .

ذكر رب العالمين أنه تعهد الأمم السالفة بوحي لا شك فيه : ﴿ **نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل . من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام** ﴾ [آل عمران ٣ ، ٤] .

الفرقان . الفارق بين الحق والباطل ، وهو هنا الكتاب الذى استوعب ما فى الصحف الأولى التى نزلت على إبراهيم وموسى وعيسى ، وفى الوقت نفسه حدَّد هداية الإنسانية بما أفرد الله به محمداً ﷺ من وحى خاص ، زاد به على غيره ، وكمل به معاش الناس ومعادهم ما بقى على ظهر الأرض بشر يحتاج إلى هدى !! .

الناس تتصور كلمة « الكفر » على نحو يحتاج إلى شىء من الإيضاح .

الوثنيون سُموا كفاراً ، هل معنى أن الوثنيين كفار أنهم كانوا ينكرون الله ؟ .

لا . كان الوثنيون يؤمنون بالله ، ولكنهم كما حدَّث القرآن عنهم : ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ [يوسف ١٠٦] .

نحن نتصور أن الكفر هو إنكار الألوهية ، إن إنكار الألوهية من أصلها كفر لا شك فيه ، لكنه كان قليلاً فى الدنيا قديماً وإن كثُر فى عصرنا هذا كثرة شنيعة ..

أما الاعتراف بالألوهية فكان موجوداً فى الديانات القديمة أرضية كانت أو سماوية ، فالمشركون يؤمنون بأن الله موجود ، وبأنه الخالق ، وبأنه الرازق ، وبأنه مدبر الأمر ، وبأنه مالك السمع والبصر ، وما فكر أحدهم فى أن حجراً خلق أو رزق ، تلمح هذا فى قوله تعالى :

﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر**

فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ [يونس : ٣١ ، ٣٢] .

كان هؤلاء يؤمنون بأن الله هو الخالق الرازق المدبر لكنهم اعتقدوا أن هذا الإله لا يُتوصل إليه مباشرة ، لابد من شفعاء ، ولابد من وسطاء وهؤلاء الشفعاء الوسطاء هم الآلهة الصغرى التي تعتبر في نظرهم مفتاحاً للإله الكبير !! وقد كذَّب القرآن الكريم هذا كله : ﴿ **ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك في حكمه أحداً** ﴾ [الكهف : ٢٦]

﴿ **أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلًا** ﴾ [الكهف : ١٠٢] .

هذا كفر الوثنيين من عبيد الأصنام ، وهناك كفر من نوع آخر ، **هو** كفر أهل الكتاب ، وكفر أهل الكتاب من يهود ونصارى جاء من ناحية أخرى ، فتصور اليهود – مثلاً – للألوهية كان تصوراً شائناً **فيه غَضٌّ من** عظمة الله ، وفيه تشبيه له بالبشر ، وفيه جراءة عليه ، وفيه افتيات على حقه ..

هؤلاء يرون أن الله صرع إسرائيل ، وظلت المصارعة طول الليل ، وكاد الإله يُهزم لولا أن شيئاً من الاحتيال في اللعب جعله يكسر حُق إسرائيل ويتغلب عليه(1) !!

وهؤلاء يرون أيضاً أن الله كان يتمشى في الجنة ، وما كان يدرى ما وقع من آدم عندما أكل من الشجرة حتى أخبره آدم(2)

وذكر « سفر التكوين » أيضاً الذى ذكر القصتين السابقتين : **أن الله** ندم بعد خلق آدم لأنه ما كان يدرى أنه سيكون على هذه القساوة أو الشقاوة(3) !! **فهؤلاء** كان جهلهم بالله غليظاً بحيث جعلهم يتصورونه على نحو لا يليق .

---

(1) سفر التكوين الإصحاح الثانى والثلاثون

(2) سفر التكوين الإصحاح الثالث

(3) سفر التكوين الإصحاح السادس

وتعبير القرآن فى سورة آل عمران : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾ فيه تكذيب لهذه الصور كلها .

وعندما قال الله فى سورة آل عمران : ﴿ **إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾[آل عمران ٥ ، ٦] إنما كان يرد على هذه التصورات التى شاعت فيما يوصف الآن بأنه « توراة » ، وما يعطى عنوان « الكتاب المقدس » !! .

والواقع أن هذا الكلام ما جاء على لسان موسى ، ولا أنزله الله على قلب أحد من خلقه ، لأن هذا الكلام باطل فى وصف الألوهية تماماً .

إذن الآية الأولى ﴿ **إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام** ﴾ تتناول أصحاب الديانات الأرضية والسماوية كلهم ، لماذا ؟ .

لأنهم إما أشركوا بالله ، وإما وحدوه على نحو طائش ، والإسلام يرفض هذا كله .

الديانة الأخيرة قبل الإسلام ، وهى النصرانية جعلت الله أجزاء ، وجعلت جزءاً منه يوصف بأنه ولد له ، وهذا الولد هو كذلك إله معه : ﴿ **وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين** ﴾ [الزخرف ١٥]

كل هذا رفضته الآية الأولى(١) فى السورة عندما قالت : ﴿ **إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام** ﴾

هذا المعنى انضم إليه شىء ينبغى أن يُعرف ، وهو أن الباطل فى عصور كثيرة قد ينضم إليه ما يقويه وما يربيه وما يجعل له فى القلوب رهبة ، وما يجعل له فى أنحاء المجتمع سطوة ، وربما ازدان الباطل بأشياء تجعل له

---

(١) الأولى من حيث الآيات التى ذكرت فيها كلمة « آيات الله » لا من حيث الترتيب الطبيعى فى السورة

أُبّهة[1] وفخامة ، فى أحيان كثيرة يستعين المبطلون على فراغهم العقلى بالمظاهر الحسية الضخمة فتكون بيوت العبادة أشبه بالحصون الشامخة ، والقلاع الضخمة تعويضاً عن فراغ العقيدة مما يجعلها مقبولة عقلًا ، لكن القرآن الكريم ناقش هذا الاتجاه عندما قال المشركون فى الرد على رجال الإسلام وحملة دعوته : نحن خير منكم مسكناً وأعظم وأفخم نادياً : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾ [2] [مريم : ٧٤] .

عندما قالوا هذا كان الجواب الإلهى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئيا ﴾ [3] [مريم : ٧٤] .

أى أن المنظر الحسى ، والأثاث الضخم ، والقلاع الشامخة لا قيمة لها إذا كانت تخدم خرافة ، أو كان ما تحتها شيئ لا وزن له فى ميدان العقل ، وهنا لا قيمة للمال ، ولا قيمة للجمال ، ولا قيمة للمنظر ، لأنه لا خير فيه .

وهنا نجد سورة آل عمران تحدثت عن هذا فى قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب ﴾ [آل عمران : ١٠ ، ١١] . كان آل فرعون أصحاب أموال طائلة ، وقصور شامخة ، ومظاهر فارهة ، فماذا حدث ؟ دعا موسى عليهم فقال : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ [يونس : ٨٨] .

فضاع كل هذا ، وقيل فى تراثهم الذى حُرموا منه وضاع منهم :

﴿ كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ [الدخان : ٢٥ — ٢٩] .

---

(١) الأبهة : العظمة والبهاء .

(٢) الندى : مجلس القوم ومجتمعهم .

(٣) الأثاث : متاع البيت من فراش ونحوه . الرئى : حسن المنظر فى البهاء والجمال .

إن مصلى على شاطئ ترعه يوحد الله فيه أفضل من مبنى يطاول السحب يشرك بالله فيه !! .

الأمر ليس أمر فخامة فى المظهر : ﴿ **فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾[التوبة : ٥٥] .

آية أخرى فى سورة آل عمران ذكرت فيها كلمة « آيات الله » وهى : ﴿ **إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم . أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين** ﴾ [آل عمران : ٢١ ، ٢٢]

فآيات الله هنا ردٌّ على اليهود وحدهم ، ولكن كما قال العلماء : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

الكلام هنا ـــ فعلًا ـــ عن اليهود ، لماذا ؟ لأنهم هم الذين قتلوا الأنبياء ، قتلوا زكريا ويحى وهموا بقتل عيسى ومحمد ، ولكن الله نجى نَبِيَّيْه كليهما عيسى ومحمداً ، فما قُتل أحدهما برغم المؤامرة التى دبرها اليهود وأحكموا خطتها ، والآية هنا تقول : إنهم ضموا إلى محاولتهم قتل الأنبياء بذل الجهود لقتل كل من يأمر بالعدل : ﴿ **ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس** ﴾والذين يقتلون من يأمر بالقسط من الناس إنما يمثلون أنظمة إجرامية ، والأنظمة الإجرامية قد يكون اليهود قد بدأُوا بها أو اخترعوها أو شجعوا عليها ، لكنها بغير شك انتشرت فى القارات الخمس ، وَوُجِدَ حكام كثيرون استطاعوا ـــ من إملاء القدر لهم ـــ أن يصدروا الأوامر بقتل الأبرياء ، وأن يستحلوا دماءهم ، وأن يملأُوا بالترويع والقلق والرهبة والجزع نفوس من حولهم ، وهؤلاء ينطبق عليهم ما انطبق على اليهود فى هذه الآية عندما بيَّن رب العالمين أن ما يطلبه هؤلاء من عزة لهم ـــ بهذا القتل ـــ ومن كبرياء وجبروت ـــ بهذا الإرهاب ـــ لابد أن ينتهى إلى فشل ، قال جل شأنه : ﴿ **أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين** ﴾[آل عمران : ٢٢] .

أى أن الناصرين يعجزون عن أن يدفعوا عنهم ، أو أن يردوا قدر الله إذا دهمهم ، فإن قدر الله عندما يفجأ الجبابرة يجيئهم من حيث لا يحتسبون ، فقد يُحصنون السقف ، وقد يحصنون الجدران لأنهم يظنون أنه من هنا قد يجيء لمزع الذى يخافونه ، ولكن عندما يريد الله فإنه يزلزل الأرض نفسها : ﴿ **قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون** ﴾ [النحل ٢٦] .

ونمشى مع كلمة « آيات الله » فى سورة آل عمران فنجد هذه الآية : ﴿ **يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون** ﴾ [آل عمران ٧٠] .

والظاهر من النظر فى هذه الآية وما سبقها أنها تتجه إلى اليهود والنصارى معاً ، ذلك لأنه قبل هذه الآية اتجه القرآن إلى اليهود والنصارى فقال لهم : ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين** ﴾ [آل عمران ٦٤ — ٦٧] .

وتمضى بنا الآيات إلى أن تجيء هذه الآية : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين** ﴾ [آل عمران ١٠٨] كلمة « آيات الله » هنا جاءت بعد توجيه سديد للمسلمين أن يكونوا منهم أمة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وبعد أن تضمن هذا التوجيه السديد للمسلمين أمراً أن يعتصموا بحبل الله وألا يتركوا أسباب الفرقة تمزقهم ، فإن الفرقة هنا رعا ردتهم إلى الكفر ، وكثير من أسباب الفرقة قد يعود إلى أسباب خُلقية ، وقد يعود إلى أسباب دينية .

فأما الفرقة لأسباب دينية فقد نهى الإسلام عنها فى أول السورة عندما قال : ﴿ **هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب** ﴾ [آل عمران : ٧] .

أى أن القرآن تضمن جملة من الآيات المحكمة ، هذه الجملة هى أساس القرآن كله ، لماذا ؟ .

لأنها هى التى تضمنت العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق وجميع الشرائع المتصلة بالخلق والسلوك ، وتنظيم الدولة ، وتنظيم المجتمع ، فليس فى هذا كله آية متشابهة .

إذن أين تقع الآيات المتشابهة ؟

تقع عند وصف الله جل شأنه ، وهذا طبيعى ، فإن وصف الله أكبر من أن تكون عقولنا المحدودة أهلا لإدراك كُنهه ، واستيعاب جوهره ، ولهذا فإن الكلام يجيء متشابهاً ، والراسخون فى العلم يدعون هنا أن يهديهم الله ، وأن يجمع شملهم وألا يفرق كلمتهم . ﴿ **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد** ﴾ [آل عمران : ٨ ، ٩]

وقد حاول بعض علماء المسلمين قديماً أن يدخل فى ميدان العقائد بالفكر العقلى المجرد ، وحاول أن يشرح الآيات المتشابهات بطريقة تقربها للعقل الإنسانى ، فماذا حدث ؟ حدث أن قال قائلهم :

نهاية إقدام العقول عِقال
وغاية سعى العالمين ضلال !
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا !
وكم من جبال قد علا شُرفاتها
رجال فبادوا والجبال جبال !

هذا فيما يتصل بالعقائد ، أو الخلاف من أجل العقيدة ، أما الخلافات الأخرى فالذى تكشّف لى من استقراء أحوال الناس أنها إمّا أن ترجع إلى بلاهة فكرية ، وإما أن ترجع إلى رذيلة خلقية ، وهذا ما يقع بين كثير من المسلمين ، فإن بعضهم بعقل أبله يريد أن يضخم أحكاماً صغيرة فى الإسلام ليجعلها عقائد ، وبالتالى يحمل على غيره إذا لم يفعلها . شىء آخر ، بعض الناس — فعلاً — يستغل الخلاف ليفرض نفسه ، لعله مجنون بحب الظهور ، لعله مجنون بانتقاص الآخرين والتهجم عليهم ، وكثير من الذين يتاجرون بالخلافات من هذا النوع ، وكلهم تنطبق عليه الآية الكريمة من سورة آل عمران : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين . ولله مافى السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور**﴾[آل عمران : ١٠٨ ، ١٠٩] .

ولنا إن شاء الله عودة أخرى إلى سورة آل عمران

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .



الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ **الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ [الشورى ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين

أما بعد

عباد الله أوصيكم ونفسى بتقوى الله عز وجل . واعلموا أن الأمة الإسلامية أصيبت منذ قرن من الزمن بهزامات عسكرية وسياسية وحضارية جعلتها فى مكانة رديئة ، وأغرت بها غيرها .

وأسوأ ما تمخضت عنه هذه الانهزامات أنها أفقدت كثيراً من المسلمين ثقتهم بأنفسهم ، واعتصامهم بدينهم ، واحترامهم لتراثهم ، فظن كثير منهم أن ما عند الآخرين خير مما عنده ، وجعلت الكثير من المسلمين يرنو ببصره إلى دول العالم التى قَويت ، وشعوبها التى ارتقت واغتنت ، ينظر إليها وكأنها مثل أعلى ، أو كأنها الشيء الذى يُستجلب ويتأسى به ، ويُنقل خير ما فيه — أو ما فيه كله — إلى بلادنا ! .

وبداهة هذه النظرة قوَّاها المستعمرون من شرق وغرب لأن أحب شيء إليهم أن يتعاملوا مع أناس لا يحترمون أنفسهم ولا تراثهم ، ولا يكرمون ما لديهم من تعاليم ، ولا يرتبطون بما وَرِثوا من تراث .

كان هذا المعنى موجوداً منذ قرن فى بلادنا ، وقد غذّاه — كما قلت لكم — رجال الاستعمار على اختلاف صنوفهم . وقد وجدت — وأنا أتتبع هذا الغزو الثقافى — أن خطط الغُزاة فى منتهى الدهاء ، وأن مكرهم

عميق ، وأن الأشخاص الذين يعملون لهم من فئات شتى ، فيهم ملوك ، وفيهم أدباء ، وفيهم يساريون ، وفيهم صحافيون .

المهم أن يأخذ الغزو الثقافي طريقه ، ويصل إلى هدفه ، فمثلاً : من عشرات السنين حكى التاريخ : أن الخديو إسمعيل[1] — وهو ملك — قال : أريد أن أجعل « مصر » قطعة من أوربا !! ولو أنه يقصد بالكلمة أن ينقل المصانع ، أو أن ينقل العلم ، لكان هذا الاتجاه محموداً له ، مشكوراً عليه ، لكن الرجل حِلس[2] شهوات ، وصاحب أهواء ، وكانت غرائزه متنزية متطلعة منفلتة لا ضابط لها ، فكان أول ما جعل « مصر » قطعة من أوربا أنه بنَى فيها دار « أُبرا »[3] !! .

إن « اليابانيين » أرادوا أن تكون بلادهم أيضاً قطعة من أوربا ، فماذا صنعوا ؟ استقدموا المصانع ، وجاءوا بعلماء مُبرِّزين في الميدان العلمي فكانت النتيجة أن أخذوا طريقهم الصحيح إلى التقدم !! أما نحن فأخذنا طريقنا إلى الانحراف ، ولا شك أن من وراء هذا الحاكم الذي قال : أريد أن أجعل « مصر » قطعة من أوربا وراءه كثير ممن علموه الهزل وممن قادوه إلى هذا الطريق !! .

جاء أديب مشهور[4] وكتب في كتاب له عن « مستقبل الثقافة في مصر » يقول : نريد أن نأخذ حضارة الغرب كلها ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، ما يُلَم منها وما يمدح ، ما يحمد منها وما يعاب !! .

هذا معناه إفناء الشخصية الإسلامية ، وجعل « مصر » قطعة من أوربا ، ولكن كان المسحر قبل مَلِكاً ، ثم جاء المسحر بعد ذلك أديباً ، والآن يجيء — فعلا — من يكتب في الغزو الثقافي ممن يصطنعون

---

(١) إسماعيل باشا (١٨٣٠) ولي مصر (١٨٦٣) وخديوها (١٨٦٧) الابن الأكبر لإبراهيم باشا .

(٢) الحلس : ما يبسط في البيت من حصير ونحوه تحت كريم المتاع ، ويقال : هو حلس بيته لا يبرحه ، وهو من أحلاس البلد : لا يفارقها ، وهو من أحلاس الشهوات : ملازم لها .

(٣) الأبرا : مسرحية شعرية غنائية تقوم على موسيقى .

(٤) هو الدكتور : طه حسين .

اليساريه ، ماذا يقصد ؟ لا يقصد إلا تمييع الشخصية الإسلامية ، وجعل أمتنا ذيلاً لغيرها فى كل مجال .

لقد وجدت أن الغزو الثقافى فى خطته واحدة ، ولكنه يغير الأشخاص ، مرة مَلك ، مرة رئيس جمهورية ، مرة عميد كلية ، مرة صحفى ، مرة شيخ طوائف من هذا النوع تكثر وتنتشر ، والقاسم المشترك بينهم جميعاً أنهم يزهدوننا فى قوانين الله ، يزهدوننا فى أحكام الشريعة ، يزهدوننا فى أصول العقيدة ، يزهدوننا فى قيم الإيمان ، يزهدوننا فى مكارم الأخلاق ، يزهدوننا فى أصول العبادة وشعائر الإسلام !! .

هذا هو الخط الذى يجمع أولئك كلهم ، أريد أن أوجه النظر إلى أن الغزو الثقافى يستأنف طريقه بألف حيلة ، ولكننا كما علمنا نبينا ﷺ :
« **لا يلدغ المؤمن من جُحْرٍ واحد مرتين** »[1] .

لقد لُدغنا من هذا الجحر فيجب أن نصحوا ، وألا نلدغ مرة أخرى ، افتحوا عيونكم ، ستجدون كلاماً غامضاً ، وكلاماً غريباً ، وكلاماً لا هدف له ، ونوعاً من التشتت المقصود منه جعل الأجيال المتعلمة فى بلادنا تدور فى دوامة لا آخر لها ، والمهم إبعاد الإسلام عن الطريق ، عن النهضة ، عن التشريع ، عن العلم ، عن المعرفة ، عن التقاليد !!

ونحن مستمسكون بديننا ، ولا نريد — خصوصاً بعد معركة رمضان — أن ندع الزمام تتحرك به أيد عميلة للغزو الثقافى ، افتحوا عيونكم فإن مستقبل الإسلام مرهون بالسنوات القادمة التى تقع بعد « معركة رمضان » .

هناك من سيحاول إبعاد الإسلام عن كل شىء ، ولكننا سنضرب على يديه ونعرض دين الله استجابة لجماهير هذه الأمة التى ترفض الإلحاد ، وترفض الانحراف ، وترفض الاتجاهات المادية ، وترفض أن يُهمل دينها فى تشريع أو فى قانون !! .

---

(1) رواه البخارى فى الأدب باب « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » 8/38 ومسلم فى الزهد والرقائق باب « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » 8/227

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر »[1] .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلًا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة ..

* * *

---

(١) رواه مسلم فى الذكر باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل : ٨١/٨ .

٣ - نظرات فى سورة آل عمران

أهل الكتاب كما تحدث عنهم السورة

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه

١٩٧٤/٢/١٥ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى اله وأصحابه والتابعين

أما بعـــد :

فقد استعرضنا ـــ بسرعة ـــ بعض هدايات الله فى سورة آل عمران ، وأبنّا أن النصف الأول من السورة ناقش عقائد أهل الكتاب ومسالكهم ..

واليوم نبدأ بتفصيلات لهذا الموضوع تُلقى عليه أضواء كاشفة ولنلحظ بين يدى هذا الكشف أن الله جل شأنه أفهم المسلمين كما أفهم غيرهم أن التدين الصحيح يقوم على عقيدة واضحة فى الله الواحد جل شأنه .

ومع هذه العقيدة الواضحة لابد من خُلق ضابط وثيق يحكم الغرائز البشرية ، ويكبح جماحها ، ويقيم سدوداً قوية أمام تياراتها ، فإن هذه النفس البشرية قد تجيش فيها أهواء جامحة ، إذا لم تكن السدود أمامها قوية انهارت ، ومضت هذه الأهواء إلى غايتها دون ضابط أو رادع أو وازع ..

نلمح هذا فى قوله جلّ شأنه . ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متع الحياة الدنيا** ﴾ [آل عمران : ١٤] .

هذا حق ، إن النفس البشرية تَهْوَى النساء ، وتَهْوَى الأموال ، وتهوى الزينة والمتعة ، لكن هذا الذى تهواه إن عبدته من دون الله قتلها ، وإن تناولته باسم الله أحياها !! إن لُجج الماء قد تُغرق الزرع فلا ينبت ، وقد تُغرق الإنسان فيهلك ، لكنه إذا تناول هذا الماء بقدر منظم فإنه يحيا به ، كما أن هذا الماء إذا أُرسل إلى الأرض بمقادير معقولة نبت عليه الزرع والضرع ، ولذلك قال الله ـــ بعد أن وضّح حقيقة النفس البشرية ، وأن هذه الميول مقصورة عليه نفوسنا ـــ : ﴿ **والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار** ﴾ [آل عمران : ١٤ ـــ ١٧]

إذا لم يكن التدين صانعاً لخلق يحكم الهوى ، وإذا لم يكن التدين صانعاً لعاطفة رقيقة تجعل المرء يَحنى رأسه وصلته لربه ، ويشعر بضعفه فيستغفر ذنبه ، وينهض فى الهجعات الساكنة كى يُرقق روحه بمناجاة الله وطلب خيره ، إذا لم يكن التدين صانعاً هذه المعانى فهو تدين شكلى لا خير فيه !! .

كما تلحظ معنى آخر ـــ بدأت السورة تنبه إليه ـــ وهو أن التوحيد عقيدة عقلية ، فإن الإيمان بأن رب هذا الكون واحد ـــ هذا المعنى ـــ هو حكم العقل الصائب ، ومنتهى العلم السديد ، وأن الشرك خرافة ، وأن التثليث جهالة ، وأن كل ما يعكر رونق العقيدة الصحيحة فى إله واحد فهو ضلال مبين ، ولذلك تقول السورة : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾ [آل عمران : ٢]

وأكدت السورة المعنى مرة أخرى فقالت : ﴿ **شهد الله أنه لا إله**

إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[آل عمران : ١٨] .

لكن أهل الكتاب شردوا عن هذه المعاني ، وأهل الكتاب ـــ من يهود ونصارى ـــ لمّا شردوا سجّل القرآن ـــ هنا في هذه السورة ـــ شرودهم ، وهو بذلك كأنما يقول للمسلمين : إياك أعني واسمعي يا جارة !!

الكلام تأنيب وتوبيخ لمن ضل وشرد ، وهو في الوقت نفسه تحذير وتعليم هذه الأمة ألا تسلك ما سلك غيرها من أسباب الانحراف والعوج

أول ما ذكرته السورة هنا ـــ بعد الملاحظتين اللتين قررناهما الآن ـــ هو أن اليهود تركوا العدالة ، ورفضوا أن يقوم الناس بالقسط ، ولم يتركوا العدل والقسطاس فقط بل اتجهوا إلى دعاة العدل ، وإلى الآمرين بالقسط فطوّحوا بهم ، ونالوا منهم ، وأعدموهم ، يقول الله جل شأنه : **﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ﴾**[آل عمران ٢١] .

إن المجتمع الذى يرفض العدالة ، ويحيف على دعاتها لابد أن يستباح ، ولابد أن يؤخر عن مكان الصدارة ، وهو معنى يصوغه النبي ـــ ﷺ ـــ فى حكمة بالغة ، وكلمة موجزة ، يقول : « **إنه لا قُدِّست أمّةٌ لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع** »[1] .

---

(١) رواه ابن ماجه فى الصدقات ـــ باب لصاحب الحق سلطان ٢/٨١٠ قال فى الزوائد : هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات ، لأن إبراهيم بن عبد الله قال فيه أبو حاتم صدوق . ونص الحديث : عن أبي سعيد الخدرى قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ يتقاضاه ديناً كان عليه ، فاشتد عليه حتى قال له : أُحَرِّجُ عليك إلا قضيتني ، فانتهره أصحابه وقالوا : ويحك تدرى من تُكلم ؟ قال : إنى أطلب حقي ، فقال النبى ﷺ : هلّا مع صاحب الحق كنتم ؟ ثم أرسل إلى خَوْلة بنت قيس فقال لها : إن كان عندك تمرٌ فأقرضينا حتى يأتينا تمرنا فنقضيَكِ ، فقالت : نعم بأبى أنت يا رسول الله قال فأقرضته فقضى الأعرابى وأطعمه . فقال : أوفيت أوفى الله لك . فقال : أولئك خيار الناس ، إنه لاقُدِّست أمّةٌ لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع » أى من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه

معنى لا تقدس أمة : أنها أصبحت مستباحة ، إذا عَدَت عليها العوادى وبات منها شر بيل فإن ذلك عقوبتها التي تستحقها ، وهذا ما صنعه اليهود بأنفسهم ، وما تصنعه كل جماعة ظلمت نفسها بنفسها .

بعد ذلك ـــ مباشرة ـــ بيَّن القرآن الكريم أن هؤلاء اليهود رفضوا الحكم بما أنزل الله ، وتركوا آيات الوحي خلف ظهورهم ، ما يجوز أن يعملوا بها ، وليتهم لما تركوا العمل بها شعروا بحرى التقصير ، لا . إنهم مع تركهم الحكم بما أنزل الله تبجحوا ، وظنوا أنهم مع تركهم للحق النازل من السماء أن لهم عند الله مكانة ، وأنهم يستحقون منه الجوائز !! علام ؟! علام تنالون الجوائز أو تنتظرون التمكين ؟ على تفريطكم ؟ ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرَّهم في دينهم ما كانوا يفترون** ﴾ [آل عمران ٢٣ ، ٢٤] .

والأمم ـــ ومن بينها الأمة الإسلامية ـــ أحياناً ترتكب الدواهي ثم تظن أن لديها ضماناً يمنع عقوبة الدنيا والآخرة عنها ، وكثير من المسلمين يفعلون بدينهم الأفاعيل ثم يقولون متبجحين : أمة محمد بخير !! وأمة محمد ﷺ إنما تكون بخير يوم تكون وَفِيَّة لمحمد ﷺ ويوم تكون مُوَقِّرة للكتاب الذى نزل عليه ، ويوم تكون منفذة للتعاليم التى جاء بها ، أمَّا أن تنتسب إليه شكلًا ثم ترفض مقتضيات هذا النسب موضوعاً فهذا لعبٌ بالدين سبقت إليه الأمم التي يحكي القرآن ـــ الآن ـــ قصتها ، فمالها ما بالها . ماذا نالها ؟ نالها أن الله صرف عنها نعمته ، فإن اليهود كانوا يملكون القيادة الروحية للبشر ، وكانوا يحتكرون رسالات السماء على امتداد القرون ، ولكن لمَّا فعلوا هذا الذى ذكرنا صُرِف النظر عنهم ، وأُتي بغيرهم ليقود البشر ، وهذا المعنى ـــ فيما تلونا من آيات ـــ هو التمهيد لقوله تعالى : ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير** ﴾ [آل عمران ٢٦] .

بعض قصار النظر يتصورون أن المشيئة الإلهية تَخبِطُ في الوجود خبط عشواء !! وهذا التصور جهل فاضح ، فإن المشيئة الإلهية ـــ هنا ـــ قبل أن

تجيء بهذه العبارات فى هذه الصيغة ذكرت الحيثيات التى من أجلها نزع الله الملك من اليهود وأعطاه الأمة العربية . وفى سورة أخرى يقول الله عن اليهود : ﴿ **أم لهم نصيب من الملك فإذًا لا يؤتون الناس نقيراً** ﴾[النساء : ٥٣] .

والملك – هنا – ليس وراثة العروش ، ولكن الملك – هنا – هو السلطة التى يمنحها الله من يقومون باسمه ، ومن يصنعون الخير لعباده ، ولهذا وجدنا الآيات – هنا – تحدثت عن السر فى أن الله حوَّل النبوة من نسل يعقوب – أى من بنى إسرائيل – إلى نسل إسماعيل إلى محمد خاتم النبيين ﷺ ، واختار الأمة العربية لتصحب هذا النبى فى مسيرته وفى هدايته فقال : ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير** ﴾[آل عمران : ٢٦] .

والخير بيد الله يقيناً ، ولكن الله ما يمنح خيره إلا عبداً رفع يديه ضارعاً يطلب من الله بذُل العبيد أن يمنحه !! إن الله عز وجل لا يعطى خيره عبداً أدار لله ظهره ، ولم يُسلم إليه وجهه !! .

إن الله عز وجل بيده الخير ، ولكنه يعطى الخير من يرشح نفسه للعطاء بأن يعرف لله ألوهيته وللبشر عبوديتهم !! .

أما ما عدا ذلك من مسالك فلا خير فيها .

واستطرد الكلام عن اليهود فى مواضع شتى من السورة ، نكتفى منها بقوله تعالى : ﴿ **ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون** ﴾[آل عمران : ٧٥] .

هؤلاء اليهود ظنوا أن الفضيلة تنقسم ، وأنه يمكن أن يكون الإنسان عفيفاً عاهراً ، أميناً خائناً ، صادقاً كاذباً !! وهذا يستحيل ، فإن الفضيلة لا تنقسم ، الرجل العادل يعدل فى كل شيء ، الصادق يصدق فى كل شيء ، الأمين أمين فى كل شيء ، والله عز وجل عاب على اليهود فقدانهم

خُلق الأمانة ورغبتهم فى اجتياح حقوق الآخرين . إن الذى وقَر فى نفس اليهودى أنه شخص ممتاز[1] ، وأن هذا الامتياز الفردى ، أو هذا الاختيار الشعبى يبيح له أن يأكل حقوق الآخرين[2] !! .

والإسلام أو الدين الحق يأبى هذا السلوك ، إذا كنت معاهِداً أحداً ، أو معاملاً بشراً فكن مؤمناً تقياً ، ارع عهدك ، واحترم حق كل إنسان : ﴿ **بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين** ﴾[آل عمران : ٧٦] .

وفى هذا يقول النبى ﷺ : « **ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلَّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة** »[3] ولماذا يكون النبى ـــ ﷺ حجيجه ؟ .

لأن النبى ﷺ يريد أن يعرض دينه على الناس نظرياً بحجة مقنعة ، وعملياً بسيرة مشرقة ، فإذا جاء مسلم وعامل الناس معاملة شائنة واتصل بغير المسلمين اتصالاً يكون معرة للإسلام فهذا صادٌّ عن سبيل الله ، وهذا عدو لمحمد ، محمد يدعو الناس إلى دينه ، وهذا يصد الناس عن دينه !! .

نكتفى بهذا القدر من استعراض الآيات المتعلقة باليهود لننظر إلى الآيات المتعلقة بالنصارى فى النصف الأول من هذه السورة .

إن عقيدة التوحيد ـــ بكل ما فى التوحيد من رشد وصواب ـــ هى لُبُّ الرسالة الإسلامية ، وكما بيَّنَّا هى الثمرة لأى بحث علمى فى آفاق السماء أو فِجاج الأرض ، كل شيء فى الأرض أو فى السماء يشير إلى أن الرب واحد : ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل**

(١) ففى سفر التثنية الإصحاح الرابع عشر : « أنتم أولاد الرب إلهكم . لا تخمشوا أجسامكم ولا تجعلوا قرعة بين أعينكم لأجل ميت . لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكى تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » !!

(٢) ففى سفر التثنية الإصحاح الثالث والعشرون : « لا تُقرض أخاك برباً رِبا فضةٍ أو ربا طعام أو ربا شيء ما مما يُقرض بربا . للأجنبى تُقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكى يباركك الرب إلهك فى كل ما تمتد إليه يدك فى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها » !!

(٣) رواه أبو داود فى الإمارة ـــ باب فى تعشير أهل الذمة وقال المنذرى فيه مجهولون (عون المعبود : ٣٠٤/٨)

إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾ [المؤمنون ٩١ ، ٩٢] .

لكن النصارى ضلوا ، وقالوا : إن هناك ثلاثة ، كل واحد منها يسمى إلهاً[1] ، وكان الخطأ الذى وقعوا فيه غريباً ما يطيقه عقل ، ولا يرتضيه علم ، ولا تنتجه مقدمات منتظمة ، لكن القوم استقروا على هذا !! .

وقد تحدث القرآن الكريم فى سورة آل عمران فوجدنا أنه ناقش هذه العقيدة بنموذجين . نموذج مختصر — نذكره على عجل — وهو إذا كان وجود عيسى من غير أب شبهة تجعل بعض الناس يظنون الله أباه ، إذا كان وجود عيسى بهذا الأسلوب سبباً لأن يتصور بعض الناس أن رب العالمين والده ، إذا كان الأمر كذلك فآدم أولى بالعبادة منه ، فليس له أب ولا أم ، وهنا يقول القرآن الكريم فى إيجاز . ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين** ﴾[آل عمران ٥٩ ، ٦٠] .

أى فلا تكن من الشاكين ، هل شكَّ نبينا ﷺ ؟ هذا مستحيل ، وإنما يقول العلماء : إن الصيغ البلاغية فى اللغة العربية — أحياناً — تجىء بالفعل أمراً أو توكيداً أو بأى صيغة كى تجعل مَن على أمر من الأمور يبقى فيه ، ويظل عليه . تقول للمجتهد الذى نجح فى جنى ثمرات اجتهاده اجتهد ، هو ليس كسولاً ، ولكنك بكلمة « اجتهد » تغريه أن يبقى على نشاطه ، وأن يظل على مثابرته ، وأن يقاوم أسباب الكسل التى قد تحيط به ، كذلك ﴿ **فلا تكن من الممترين** ﴾ هذا نوع من استبقاء الرسول ﷺ على الحق الذى شرَّفه الله تعالى به ، وتأنيب للآخرين الذين ضلوا عنه ، فهو يقول له : لا تكن مثل هؤلاء . ثم قال له : ﴿ **فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين** ﴾ .
[آل عمران ٦١] .

فمن حاجّك فيه : جادلك . من بعد ما جاءك من العلم : لأن غير هذا جهل .

---

(١) انظر انجيل متّى الإصحاح ٢٨ ورسالة يوحنا الرسول الأولى الإصحاح الخامس

ماذا نعمل ؟ نحن مخلصون ، أصحاب حقيقة ، تزعمون أنكم على حقيقة ؟ تعالوا ندعو الله أن يُهلك الكاذب ، وكان ذلك فى مناظرة بين النبى ﷺ وبين بعض أساقفة النصرانية الذين جاءوا يجادلونه فى عقيدة التوحيد ، ولقد رفض القوم أن يدخلوا فى هذه المباهلة ، وأن يقفوا فى ساحة يتجهون فيها إلى الله أن يهلك من يفترى عليه الكذب .

قبل هذا بقليل تحدثت السورة عن خوارق للعادات تقع غالباً فى جوّ السموات ، فإن الله عز وجل يريد أن يقول للناس . إن ميلاد عيسى مخالفاً للسنن الطبيعية ، أو للقوانين المعتادة لم يكن بدعاً فى البيئة التى عاش فيها ، فإن مريم أمه كفلها زكريا ، فكانت هذه الأسرة مسرحاً لبعض العجائب التى وقعت ، كان زكريا يدخل فيجد طعاماً لم يأت به عند مريم : ﴿ **كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾[آل عمران ٣٧]

ثمَّ شعر زكريا بأن خوارق العادات تقع حوله طَمِع فى فضل الله ، وكان رجلاً شاخ ، وهَنَ عظمه ، وتغضَّن جلده ، وتأخرت سنه ، وكانت امرأته عقيماً ، لو كان مع شيخوخته يتزوج امرأة مخصبة لكان هناك أمل ، لكنه قد شاخ ، والمرأة عقيم ــ مجدبة ــ ﴿ **هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين . قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء** ﴾[آل عمران ٣٨ ــ ٤٠] .

هذا المعنى فى جو السوات من خوارق للعادات هو الذى حدث ، وكون امرأة عقيم طول حياتها تنجب ، وكون رجل انقطع من الناحية الحسية ينجب فهذا خارق للعادة كولادة عيسى من أم بغير أب ، وكما خلق آدم هكذا بدون أب وأم يستطيع أن يخلق ما يريد ، هذه هى القصة ، تختم القصة بخلاصة هى . ﴿ **ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين**

بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾[آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] .

على هذا المعنى ، أو فى هذا النطاق ذكرنا بعض المناقشات التى تضمنتها الآيات الأولى من سورة آل عمران .

وقد ورد عن نبينا ﷺ أنه قال : « **إن المغضوب عليهم اليهود وإن الضالين النصارى** »[1] .

هؤلاء غُضب عليهم ، هؤلاء ضلوا سواء السبيل .

إذا انتهينا علمياً من هذا البحث فلنقل : إن الصداقة شيء والفروق العلمية المؤكدة شيء آخر . فأنا مكلف ديناً أن أكون برًّا وعندى شرف وخلق وذمة مع من لا يدين بديني ما دام لا يكيد لى ولا يتآمر عليَّ ولا ينتصب عدواً أمامى ، ما دام سليماً معي فيجب أن أكون أكثر منه براً ، وخيراً منه عدلة ، وأشرف منه سلوكاً ، فنحن أولى بالبر والحق والصدق من أى إنسان على ظهر الأرض ، لكن الخلق الفاضل ، والحكم العادل ، والصلة الطيبة شيء والفروق القائمة بين العقائد شيء آخر ، فإذا صادقتُ أو صالحتُ أى إنسان من أهل الكتاب ، وعاملته بالبر وبالعدل فهذا لا يخدش أو لا يقرب بين العقائد المتناقضة ..

نحن أصحاب توحيد نحرص عليه ونرفض أن يُمس ، وغيرنا صاحب خرافة لا يمكن مهما كانت هناك صداقات أن نقترب منها أو نرحب بها أو نصطلح معها .

العقائد شيء والسلوك الواجب على مقتضى الشرف والأمانة شيء آخر .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم

---

(١) جزء من حديث طويل رواه أحمد ٣٧٨/٤ ، ٣٧٩ والترمذى وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث سِمَاك بن حرب ١٨٦/٥ ، ١٨٧

الخطبة الثانية

الحمد لله : ﴿ **الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾[الشورى ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

عباد الله : أوصيكم ونفسى بتقوى الله عز وجل .

أيها الإخوة : ينبغى ألا ننسى أن الله سترنا فى المعركة الأخيرة ، وأنه طوّل أنفسنا القصيرة ، وأنه أعاننا بجند من عنده ، ينبغى ألا ننسى هذا . لكن يبدو أن بعض الناس يريد أن ينسى رمضان ، ومعركة رمضان وفضل الله الذى أدرك هذه الأمة فى رمضان وإلا فما معنى أن تذهب إلى « الريفية » — فى « السويس » — جماعة من الممثلين ليعرضوا رواية مسرحية ؟ .

هذه واحدة ، شىء آخر ، ما معنى أن يذهب طلاب من الجامعات ما بقى إلا أن يُضَفِّروا شعورهم ليكونوا نساء — إلى الجنود وينظر الجنود إليهم ثم يتساءلون : ما هذه الشعور ؟ وما هذه البنطلونات[1] الحمراء ؟ وما هذه المظاهر السمجة ؟ .

---

(١) البنطلون : اسم إيطالى الأصل ، وهو فى اللغة العربية السِّربال .

وثالثة الأثافى[1] وفضيحة الفضائح : جامعة الأزهر !! .

أرادت جامعة الأزهر أن تحتفل بـ « العبور » فقررت إقامة ليلة ساهرة بعدد من الراقصات والمغنيات والممثلات !! ما هذا ؟!! إنى أستغرب أن يقع هذا فى أى جامعة من الجامعات المدنية ، فكيف تفكر جامعة الأزهر فى هذا ؟!

لكن هذا الذى حدث هو فى الحقيقة فرض لكى يعلم المسلمون الواقع فى الأزهر ..

أنا رجل أزهرى ، وأعلم علم اليقين أن الأزهر وُضعت له خطط جعلت الحيوانات العلمية — الآن — تملؤه !! وأنا أنبه المسلمين إلى أن الأزهر إذا بقى على وضعه الحالى — عدة سنين — فسيخرج عمياء لا يحسنون أن يقرأوا القرآن فى المصاحف !! .

إذا بقى الأزهر على وضعه الحالى فإنه سيخرج منه ناس يكرهون أن يصلُّوا بالناس فى المساجد !! .

إذا بقى الأزهر على وضعه الحالى ولم تتداركه عناية الله فإن أمر الإسلام إلى شر !! .

ذلك أن الأزهر — فى حقيقته — مصنع الأدوية لعلل الأمة ، فإذا غُشَّت الأدوية التى يصدرها المصنع فإن العلل ستبقى مضاعفة !! .

إن الأزهر يعانى ، وقد وُضعت له خطة محكمة كى يدمر ، وأنا أوجه نظر المسلمين لهذا ..

إن كل أهل الأرض الذين يتبعون ديانات أرضية أو سماوية اختاروا العمالقة فى أبنائهم وأشخاصهم ، اختاروا أعتى الرجال وأقواهم كى يقودوا هذه الديانات !! .

أما الأزهر فقد وُضعت الخطة ليقوده المخابيل ، وليقوده المرضى بعقولهم والمرضى بأخلاقهم .

---

(1) الأثافى : هى الحجارة الثلاثة التى يوضع عليها القدر عند الطبخ ، وثالثة الأثافى : هى أكبرها ، ويقال : رماه بثالثة الأثافى : بداهية كالجبل .

إن الوضع غريب فى الأزهر ، وإن جامعة الأزهر عندما تفكر فى أن تجيء بعض النساء المعميات للاحتفال بليلة العبور تكون بهذا قد سجّلت الجريمة المنكرة على ما وصل إليه الأزهر من انحطاط وانهيار !! .

كما نريد أن يحتفل الأزهر فيعرض فصلاً ثقافياً من خصوبة التشريع الإسلامى وسعته لمصالح الأمة ، كنا نريد أن يعرض تفسيراً موضوعياً لسورة القتال وكيف أن الاعتماد على الله يجيء بالخير ، كنا نريد أن يتحدث الأزهر عن اللغة العربية ويذكر نماذج من أدب القتال من الشّعر الفحْل الذى قيل أيام الحروب الصليبية وأيام الحروب الأولى كى يعرض على الناس ألواناً من أدب القوة لا يعرفها الأدب المائع المخنّث الذى يتبناه الآن بعض محترفى الأدب .

إننى ألفت النظر إلى هذا الوضع إن بقى فإن الإسلام يهدد ، إننا بحاجة إلى أن نعود إلى العلم الدينى والثقافة الدينية والخصوبة الإسلامية والمعارف التى تتفجر من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فتحيى موات هذه الأمة

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا . وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا . وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر »[1]

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلًّا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾[الحشر ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾[النحل ٩٠]

وأقم الصـــلاة ...

* * *

---

(١) رواه مسلم فى الذكر ــ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر مالم يعمل ٨١/٨

٣- نظرات فى سورة آل عمران

النكبة الكبرى

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه

فى ١٩٧٤/٢/٢٢ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة والسراج المنير .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين

أما بعد :

فإن المسلمين يعلمون أن القرآن الكريم لم ينزل جملة واحدة ، وإنما نزل مجزءاً ، وقد أفادت تجزئته — هذه — فى معالجة قضايا متجددة ، ورد شبهات مُثارة ، ومواجهة أحداث تكثرت لها الأمة .

ولعل سورة آل عمران مَثَلٌ لنزول القرآن مجزءاً يناسب ما تواجهه الأمة من أحداث ، وما يلابسها من حرب أو سلام .

وقد قلنا : إن النصف الأول من السورة تعرَّض لأهل الكتاب ، أو واجه الحرب الباردة التى شنُّوها على الإسلام والتى لمّا تتحول بعد إلى حرب دامية ...

أما النصف الأخير من السورة فإنه واجه المشركين الذين لم يَكْفِهم أنْ أخرجوا الإسلام من وطنه الأول — فى مكة — حتى أرادوا متابعته حيث استقر كى ينالوا منه ، ويجهزوا عليه ، فتحولت حربهم الباردة الأولى إلى حرب ساخنة مدمرة ...

كان المسلمون يواجهون هذه القُوى المعتدية الباغية التي انتشرت على جبهات عريضة تريد أن تنال من الإسلام، وأن تضع العقبات في طريقه، بل تريد أن تجتث جذوره، وأن تطفىء نوره..

فكانت العلاقة بين أول السورة وآخرها هي أن المسلمين ينبغي أن يواجهوا تلك القُوى كلها في لحظات واحدة، ومفتاح هذا من قوله تعالى: ﴿ **لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور** ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

كان الأمر بالنسبة لأهل الكتاب أمر مناقشات عقلية كان للإسلام فيها الفوز وله الغَلَب، لأن ديننا يعتمد في حواره على المنطق السديد، والفكر الناضج، والعلم الصادق، وما يجري في هذه المجالات جميعاً، إلّا أنه فيما يتصل بأهل الكتاب فقد أمرنا الله أن نعامل أهل الكتاب معاملة معتدلة، وألّا نجادلهم في شئون الدين إلّا إذا بدأوا ذلك فلنكن جدالنا لهم حسنا[1]، وقد زاد النبي ﷺ إلى هذا أنه أوصى المسلمين ألّا يفضلوه على موسى أو عيسى أو أحد من الأنبياء السابقين، ومع أنه — يقيناً — أعلى الرسل قَدْراً — لأنه أوسعهم رسالة، ولأنه أعلاهم درجة — إلا أنه أبى أن يُذكر بهذا الفضل، وقال: « **لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس ابن مَتّى** »[2].

ويونس هو النبي الذى ترك بلده ضائقاً بمواقف الكفار فيها، سأمان من المواقف الرديئة التي شعرَ بها، فكان أن التقمه الحوت وهو مُوَلٍّ عن بلده ما يؤدى واجبه، قال تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿ **فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم. فاجتباه ربه فجعله من الصالحين** ﴾ [القلم: ٤٨ — ٥٠].

---

(١) قال تعالى: ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون** ﴾ [العنكبوت: ٤٦]

(٢) رواه البخارى في الأنبياء — باب قول الله تعالى ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين** ﴾ ٤ / ١٩٤ ومسلم في الفضائل — باب في ذكر يونس عليه السلام وقول النبي ﷺ « **لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى** » ٧ / ١٠٢

إن النبي — ﷺ — كره أن يفضل على يونس بن متى ، وهذا تواضع منه لله أولاً .. وثانياً . رغبة فى إطفاء الفتن ومنع المسلمين أن يحرجوا اليهود أو النصارى بتفضيله على أنبيائهم .. فهل ارعوى أهل الكتاب لهذا المسلك ، وتأدبوا مع المسلمين ، وقدّروا هذه المواقف النبيلة ؟! .

لم يقع هذا !! .

ولسبب أن المسلمين يؤمنون بأنبيائهم ، ويصدقون برسالتهم ، وهؤلاء لا يؤمنون بنبينا ، ولا يصدقون برسالته ، والمسلمون لا يرون حرجاً فى أن يبقى أهل الكتاب على عقائدهم ، وأن يجمع الكل وطن مشترك ، أما أهل الكتاب فكانوا يرون حرجاً فى أن يبقى المسلمون على توحيدهم وقرآنهم ونبوتهم ورسالتهم الجديدة !! .

هذا المعنى جعل موقف المسلمين — لابد أن يكون — دقيقاً ، ولذلك أمرهم الله بأن يكونوا — من أهل الكتاب — على حذر ، فيحسنوا إليهم ، ولكن لا ينبغى أن يستعينوا بهم فى شئون السياسة الإسلامية ، أو أن يطلعوهم على خباياها ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور** ﴾ [آل عمران : ١١٨ ، ١١٩] .

هذه التعاليم قُصد بها أن تستطيع الأمة الإسلامية السير دون عائق ودون مؤامرات داخلية ودون أن تشعر بغش يتخلل كيانها ويسىء إليها .

وبدأ المسلمون — فعلاً — يتجمعون على هذا الأساس ، ويبنون وحدتهم على ذلك الهدف الواضح ، بَيْدَ أن أهل الكتاب بَيّتوا أمراً هو أن يبذلوا الجهود مستميتة لجعل الفرقة تدب بين المسلمين ، فهم يشعرون بأن المسلمين إذا قامت لهم وحدة فإن وحدتهم ستُنجح رسالتهم ، وتوصّل

مبادئهم ، وتجعلهم يداً واحدة على من سواهم فلا يمكن أن يُغلبوا .

حاول اليهود ذلك في « المدينة » عندما نظروا فوجدوا أن المهاجرين من « مكة » وأن رجال « الأوس » ورجال« الخَزْرَج » الذين أكلت العداوات قلوبهم قديماً قد أصبحوا أنصار الله ، ثم أصبح الأنصار والمهاجرون جميعاً إخوة . كان اليهود يشتغلون بالربا بينهم وبيع السلاح لهم ، كانوا ينتفعون بالعداوات المهتاجة التي تثير هؤلاء على أولئك ، وتجعل الدم لا يجف من بيوتهم !! .

إذن لا بد من تمزيق هذه الوحدة ، وحاولوها — فعلًا — وكادوا ينجحون لولا أن تدخل النبي ﷺ وأطفأ الفتنة في مهدها ، ونزل قوله تعالى — في سورة آل عمران — . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم** ﴾ [آل عمران ١٠٠ ، ١٠١] .

عرف المسلمون أنها نزغة شيطان كادت تَحْطِم كِيانهم ، وتُضيع يومهم وغدهم ، وتُغضب عليهم ربهم ، وتردهم إلى الجاهلية التي خَلَصوا من شرورها ، وعرفوا أن الله شرَّفهم بهذا الدين ليكونوا به أمة خير ، وليكونوا حُرَّاساً على تعاليمه ، وليكونوا أساتذة للإنسانية كلها بما أودع الله في هذه التعاليم من حق وبر .

ولذلك حُددت وظيفة هذه الأمة في سورة آل عمران بقول الله جلَّ شأنه : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ [آل عمران ١٠٤].

وأشار إلى أن أهل الكتب الأولين قد فسدت تعاليم السماء بين أيديهم فأصبح القبيح لديهم حسناً ، والحسن لديهم قبيحاً ، والتوحيد شركا ، وفهمُ الألوهية غلطاً ، فنبههم إلى أنه ما يجوز للأمة الإسلامية أن تقع في ما وقع فيه أهل الكتاب ، قال تعالى : ﴿ **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم** ﴾ [آل عمران ١٠٥] .

وأكد رسالة الأمة الإسلامية فقال : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾[آل عمران : ١١٠] .

لكن أهل الكتاب ما نسوا أن كيانهم أو نجاحهم ضد الإسلام بما يتم بتمزيق الوحدة الإسلامية فدأبوا على ذلك ، واستطاعوا على مَرِّ الزمن أن يحدثوا فتوقاً يسيرة ، لكن هذه الفتوق سرعان ما تندمل جراحاتها ، وتعود الأمة إلى وعيها ، وتستأنف باسم الله مسيرتها ، إلا أن النكبة الكبرى التي أصابت الأمة الإسلامية في القرن الرابع عشر للهجرة كانت فوق الطوق ، كانت نكبة جائحة تركت آثاراً سوداً إلى يوم الناس هذا في مستقبل الأمة الإسلامية . ذلك أن الدسائس الصليبية واليهودية تلاقت — في هذا القرن الحزين الجريح — على أمتنا

كانت الأمة موحَّدة في ظل خلافة مريضة معتلة ، لكنها خلافة شبح ، والشبح — أحياناً — في الحقول يرعا منع الطير المتلصص !! كانت الخلافة شبحاً ، ولكن هذه الخلافة وقفت دهراً ضد الاستعمار العالمي ، وبوسائلها الضعيفة قدرت على أن تصنع شيئاً ، فكان هدف الصليبية والصهيونية معاً ضرب دولة الخلافة ضرباً يجيء إلى صميمها فينال منه شر منال .. واتصل الانكليز — فعلاً — بالعرب عن طريق « الشريف حسين[1] » والانكليز ما كانوا مخلصين للقرآن أو السنة ، ما كانوا ولن يكونوا مخلصين لأهل البيت ، ما كانوا ولن يكونوا رحماء بالإسلام وأمته .

لكن الرجل الطامع الأحمق اتفق مع الانكليز على ضرب الأتراك

كان الأتراك ظَلَمة — فعلاً — وكان العرب خَوَنَة — فعلاً — وكانت النتيجة أن ذبح العرب الأتراك في الحرمين !! وهُزم الأتراك هزيمة منكرة بسبب خيانة العرب لهم ، والعرب يقولون : خُنَّاهم لأنهم ظلمونا !! على كل حال الذي كسب المعركة الكفر والإلحاد !! .

---

(١) هو الحسين بن علي (١٢٧٠ — ١٣٥٠هـ = ١٨٥٤ — ١٩٣١ م) أول من قام في الحجاز باستقلال العرب عن الترك وآخر من حكم مكة من الأشراف الهاشميين

وكانت النتيجة أن الأمة العربية سقطت خلافتها الشبح ، وانقسم بعضها — بعد ذلك — كما ينقطع حبل السُّبْحة[1] فتنتثر السُّبحة مائة حبَّة أو ثلاثين حبة حسب ما فيها من حبات !! .

انتثرت — فعلًا — الخيوط التى تجمع الأمة الإسلامية ، وأصبحت هذه الأمة لا يعرف بعضها الآخر !! .

ولو سألت أى مثقف فى الجامعة — الآن — : أتعرف أن فى « توجو »[2] مسلمين يمثلون أكثر الدولة ؟ .

لقال لك : ما « توجو » ؟ ما « ملاوى[3] » ؟
دول إسلامية ، لكنه لا يدرى ،ما يدرى أحد عن الإسلام فى « أفريقيا » شيئاً ، ما يدرى أحد عن الإسلام فى « آسيا» شيئاً ، ما يدرى أحد أن المسلمين — الآن — يبلغون ثمانمائة مليون فى العالم[4] ، وحرب الإحصاءات — وهى حرب خبيثة — جعلت المسلمين أنفسهم ما يعرفون عددهم !! .
وقد قلت — بناء عن إحصاءات دقيقة من مصادر أمريكية — . إن المسلمين — الآن — فى « الحبشة »[5]نحو ٧٠٪ ولكن الكثرة المسلمة مسحوقة ، والمسجد فى « أديس أبابا » تحيط به بيوت البغايا !! .

هذا التمزيق جعل الأمة مُجَهَّلة فى كيانها ، ولكن على رأس من يقع وزر هذا الجهل ؟ .

الحق يقال : إنه يقع على الأمة العربية !! لماذا ؟ لأن « العرب هم دماغ الإسلام وقلبه » احفظوا هذا التعبير .

---

(١) السُّبْحة والمسبحة : خرزات منظومة للتسبيح

(٢) جمهورية أفريقية حديثة تقع فى غرب القارة لها شريط ساحلى يطل على خليج غينيا لمسافة ٣٢ كم تجاورها من الشرق داهومى وفى الغرب غانا وتتصل حدودها الشمالية بجمهورية فولتا العليا ، وعاصمتها لومى

(٣) جمهورية أفريقية تقع شرق وسط أفريقيا ، وعاصمتها زمبا

(٤) وقد وصلت النسبة الآن إلى ألف مليون أى ربع سكان العالم .

(٥) الاسم العربى الذى كانت وما زالت تُعرف به دولة أثيوبيا فى الوقت الحاضر ، وتقع شرق أفريقيا والعاصمة أديس أبابا

ما دام القرآن عربياً ، وما دامت السنة عربية ، وما دامت الثقافة الإسلامية عربية ، وما دامت الكعبة — قبلة المسلمين — فى بلاد عربية فمعنى ذلك أن الحس العربى — بعثه ودينه — هو المسئول عن العالم الإسلامى كله !!

وعرف الاستعمار هذا ، وأدرك أن العرب إذا استيقظوا باسم الإسلام تجمع الثمانمائة مليون مسلم فى وحدة كبرى !! فماذا يصنع ؟

جتهد فى أن يبعد العرب عن الإسلام ، ونجحت جهوده ، وأذكر لكم مثلاً وحيداً — من عشرات الأمثلة التى أعرفها ، وربما كتبتها يوماً — « قبرص »(1) بلد إسلامى ، فتحه المسلمون بعد أن فتحوا « مصر » ، فعمر الإسلام فى « قبرص » يقل عشر سنين عن عمر الإسلام فى « مصر » لأن « مصر » حُررت من الاستعمار الرومانى فى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — وحُررت « قبرص » من الاستعمار الرومانى فى عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان — رضى الله عنه .

ولرواة السنة الشريفة قصة لـ « قبرص » هذه ، أحب أن تُعرف ..

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يدخل على أُمّ حَرام بنت مِلْحَان فتُطعمه ، وكانت أم حرام تحت عُبادة بن الصامت ، فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته وجعلت تفلى رأسه ، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك — قالت : فقلت وما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : ناس من أُمّتى عُرضوا علىّ غُزاة فى سبيل الله يركبون ثَبَج هذا البحر ملوكاً على الأسرَّة — أو مثل الملوك على الأسِرَّة — قالت : فقلت يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلنى منهم ، فدعا لها رسول الله ﷺ ثم وضع رأسه ، ثم استيقظ وهو يضحك . فقلت : وما يضحكك يا رسول الله ، قال ناس من أمتى عُرضوا على غزاة فى سبيل الله كما قال فى الأول . قالت : فقلت يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلنى منهم . قال : أنتِ من الأولين . فركبت البحر فى زمان مُعاوية

(1) تقع فى شرق البحر الأبيض المتوسط وهى جزيرة قبالة سواحل سوريا من ناحية الغرب وسواحل تركيا الجنوبية وهى ضمن المجموعة الأسيوية وتبلغ مساحتها ٣٥٧٢ ميلاً مربعاً

ابن أبي سفيان ، فصُرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت »[1] .

فلننظر كيف حققت الأيام رؤيا نبينا ﷺ ؟ ومن الملوك الذين يركبون أمواج البحر ؟ وماذا صنعوا ؟ قال التاريخ : كان المسلمون في حرب مع دولة الرومان ، ودولة الرومان هي السبب في هذه المعارك لأنها قتلت رسل النبي ﷺ ، واشتبكت مع المسلمين — على عهد النبي — ﷺ — نفسه في حروب كانت تريد بها القضاء على الإسلام .

دولة الرومان دولة استعمارية عجوز هَزمت المسلمين في « مُؤْتة » وانسحبت دون قتال في « تبوك » ، فكان على المسلمين أن يواجهوا الموقف ، وواجهوه واحتلوا « الشام » بعد أن حرروها من الرومان ، واحتلوا « مصر » بعد أن حرروها وكانت مستعمرة ذليلة وضيعة داخل نطاق الرومان الذي أكلها مادياً ومعنوياً ، فكان دخول الإسلام في « مصر » إحياء لها ، ومضى القتال في طريقه بعد وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وشرع عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه يؤدي دوره ، وكان يعلم أن رأس الأفعى في « القسطنطينية »[2] .

يقول التاريخ : ذهب عبادة بن الصامت — رضي الله عنه — وذهبت معه زوجه — أم حرام بنت ملحان — وقاتلوا في « قبرص » إلا أن المرأة أدركتها الوفاة في « قبرص » فماتت فيها ، ويُعرف قبرها — إلى الآن — بقبر المرأة الصالحة[3] !!

---

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير — باب الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء ٤ / ١٩ ومسلم في الإمارة — باب فضل الغزو في البحر ٦ / ٤٩

وأم حرام بنت ملحان : هي أخت أم سليم وخالة أنس بن مالك . تحت عبادة بن الصامت : أي زوجاً له . تفلي : يعني تفتش شعر رأسه لتستخرج هوامَّه ، وإنما كانت تفلي رأسه لأنها كانت منه ذات محرم من قبل خالاته لأن أم عبد المطلب كانت من بني النجار . ثبج هذا البحر : أي وسطه أو معظمه أو هَوْله . ملوكاً على الأسرة : الخاص أي مثل ملوك

(٢) عاصمة الإمبراطورية الرومانية ، بناها الإمبراطور قسطنطين (٣٣٠) م في بيزنطة القديمة وسميت باسمه

(٣) انظر البداية والنهاية ٧ / ١٥٣ فتح قبرص

فماذا حدث لقبرص بعد ثلاثة عشر قرناً من امتلائها بالإسلام ؟

عندما هاجم الانكليز « مصر » واحتلوها احتلوا « قبرص » ، كيف ؟

كانت « تركيا » موجودة ، ودولة الخلافة قائمة . لكنها دولة ضعيفة ، فاتفق الانكليز مع الأتراك الذين يحكمون « قبرص » ــ وكانوا يحكمون « قبرص » لأن « قبرص » كانت تتبع « الشام » ، و « المُحافظ » في « الاسكندرونة » أو « أنطاكية »ــ وكانت هذه ولاية شامية ــ هو الذي يتولى شؤون « قبرص » لأنها قريبة من الساحل السوري ، فعرض الانكليز على الدولة العُثمانية أن يقيموا قاعدة لهم في « قبرص » وأقاموا القاعدة ، ورفض السكان المسلمون أن يعاونوا الانكليز ، فماذا صنع الانكليز ؟.

بدأوا يستأجرون عُمَّالًا يونانيين ، فكان مجيء العُمَّال اليونانيين أول الوجود اليوناني في « قبرص » وبدأوا يكثرون ، فماذا حدث ؟

قرر اليونانيون أن يأخذوا « قبرص » من الإسلام ودولته !! أكانت « قبرص » في تاريخها الماضي السحيق تتبع اليونان يوماً ؟ لا . يقول التاريخ : ما كانت « قبرص » تتبع اليونان يوماً من الأيام ، فماذا حدث ؟

المؤامرات العالمية التي أرادت أن تضرب الإسلام جعلت العرب يؤيدون « قبرص » اليونانية ضد « قبرص » الإسلامية !!

هذا ما حدث ، أننا مُضِياً منا في محاربة الأتراك المسلمين قررنا أن ننضم إلى « مكاريوس »[1] .. واليونان ضد الأتراك المسلمين !! ما هذا ؟!

بلغت الوقاحة بالسياسة الاستعمارية العالمية أن أوعزتْ لمنفِّذيها أن يستقدموا « مكاريوس » إلى « القاهرة » وأن يزور إدارة « الأزهر » ليقال : إن الأزهر مع اليونانيين القبارصة ضد المسلمين القبارصة !!

---

(١) اسقف يوناني ارثوذكسي قبرصي ، زعيم حركة الوحدة مع اليونان منذ ١٩٥٠ ، انتخب رئيساً لجمهورية قبرص الجديدة في ديسمبر ١٩٥٩

العرب إذا قرروا محاربة الإسلام فإن الله عزّ وجلّ لا بد أن يذلهم ، وأن يخزيهم ، وأن يُسَوِّد بالهزائم وجوههم ، وأن يجعل الدنيا تسخر منهم !!

لقد قلت : إن العداوات التي تعمل ضد الإسلام كثيرة ...

العالم الإسلامي يمتد على رُقعة بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادى ، أكبر رُقعة فى تجمعات البشرية ، ثمانمائة مليون مسلم يملكون أحشاء العالم بين أصابعهم ، يملكون مَمَرَّاته الكبرى ، يملكون طاقاته الموجِّهة ، ما يشكو العرب أو المسلمون فقراً !!

لكن الذى حدث أن الهجوم على الإسلام بدأ بعد تدويخ الفكر العربى فإذا المسلمون فى آسيا يؤخذون أخذاً فى ظل « رُوسيا القيصرية » ثم فى ظل « روسيا الشيوعية » !!

البلاد التى أنجبت الإمام « البخارى » والإمام « مسلم » وأنجبت « فخر الدين الرازى » وأنجبت « جار الله الزمخشرى » وأنجبت خدم القرآن فى باب الإعجاز واللغة : « سيبويه » و « الجُرجانى » و « السَّكَّاكِى » وغيرهم وغيرهم من علماء الدين واللغة !!

البلاد التى أنجبت أولئك العمالقة ليست عليها ــ الآن ــ راية تقول : لا إله إلا الله !!

الراية التى عليها راية كافرة ملحدة تنكر الألوهية أصلًا !!

أما المسلمون فى « الهند » فيعلم الله كم يعانون ، المسلمون فى « باكستان »،المسلمون فى بقية الأرض الإفريقية والأسيوية ممزقون !!

أتدرون من يجمع شملهم ؟ العرب ، العرب إذا رجعوا إلى الإسلام ، أتدرون من يجمع شمل العرب ؟ « مصر » إذا تمسكت بالإسلام !!

نحن بين قراءاتنا لسورة آل عمران عندما نتأمل قوله تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكروأولئك هم المفلحون** ﴾ [آل عمران ١٠٤] . وعندما نتأمل قوله تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنـون**

بالله ﴾ [آل عمران ١١٠] . ندرك أن نتكلف بهذا الكلام اتقاء الذين يحرمون اللسان العربي ...

المسلم الهندى مسكين ما يعرف العربية ، المسلم الزنجى مسكين ما يعرف العربية ، المسلم التركى مسكين ما يعرف العربية ، فإذا جاء حكم عربى وقرر أن يحارب التجمعات الإسلامية ، أو يقف لها بالمرصاد ، أو أن يطعن فى نيات أصحابها فإن هذا إنما يخدم الذين يريدون الإجهاز على الإسلام والنيل منه !!

إن أشياء كثيرة يجب أن تُعرف ، وأن تُنقد .

مِنْ أسوأ ما أصاب الأمة الإسلامية فى القاهرة — والقاهرة هى العاصمة الثقافية للعالم الإسلامى — أن الجهاز الذى كُلِّف برعاية العقيدة واللغة وحراسة الآداب العربية أصابه عطَب !! إنه لمن المحزن أن أعلم أنه فى يوم الأربعاء الماضى أقامت كُلِّيَّة اللغة العربية — فى الأزهر — حفلاً مُثِّلت فيه رواية « الصَّديقيْن » — والرواية فيلم هندى !!

ولا أدرى ما لذى يجعل كلية من كليات الأزهر تَشْغل نفسها بتمثيل فيلم هندى ؟ لا أدرى السبب ، ولكن الذى أدريه أن اللغة العربية منكوبة ، وأنها مهددة فى يومها ومستقبلها ، وأن من عجائب الزمن أن كلية دار العلوم أرسلت مبعوثاً لها إلى « لندن » كى يدرس فقه اللغة فى « لندن » !!

فى هذه السنة يقع هذا ، سبحان الله .

أين كلية اللغة العربية ؟ مشغولة بتمثيل فيلم هندى !! أين فقه اللغة ؟ لا تدرى عنه شيئا . لو كان لفقه اللغة أساتذة ما أرسلت « دار العلوم » إلى « لندن » مبعوثاً يتعلم فقه اللغة هنالك ، وهل « لندن » تُعَلِّم فقه اللغة ؟ هذا عجب !! والأعجب من هذا أن « الأزهر » — فى كلية البنات — أرسل فتاة لتتعلم الفلسفة الإسلامية فى « لندن » !!

إننا وَرِثْنا مجتمعاً ظل جباناً فى نقد الحكومات وأجهزة الحكومة ، ظل جباناً لأن الناقد كان يُعتقل أو يُسجن أو يُضرب أو يُهان !!

وجنتِ الأمة العربية — فى مصر — ثمرات هذا الجبن أن أذلها الله ، ومكَّن أعداءها منها ، ثم بدأنا نتوب ونتراجع ونأخذ طريقنا إلى ربنا صحيحاً .

فلنعلم أن العقلية الخربة التى ظلت عشرين سنة تعبث لا تزال موجودة ، وأن هذه التصرفات يجب أن تطارد وإلا فلسنا أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

ما معنى أن يرسل « الأزهر » فتاة تتعلم الفلسفة الإسلامية فى « لندن » ؟ أو ترسل « دار العلوم » شخصا يتعلم فقه اللغة فى « لندن » ؟

إننا بدل أن نُحِسَّ العار والخزى جئنا برواية فيلم هندى نمثله فى كلية اللغة العربية !!

هؤلاء الناس يظنون أن التقدم فى مخاصمة الإسلام ، وأن المدنية فى مخاصمة اللغة العربية والقرآن الكريم والسنة النبوية .

إننى أعلم أن بعض الذين حملوا الدكتوراه من العواصم الأجنبية لا يساوون شيئا !! وأن الورق الذى يؤخذ من « لندن » أو « باريس » ورق مزور !!

إننى أقول هذا لأداوى عقدة الوضاعة فى نفوس المثقفين عندنا .

لِتَعُدْ فى « مصر » إلى كتاب ربنا وسنة نبينا ـــ ﷺ ـــ ومناصرة الإسلام ، وتصحيح الأجهزة المسئولة عنه .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــــد

عباد الله : أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل ومن باب إحقاق الحق وتقدير الناس أذكر لكم أن الأخ الجليل مدير مكتب الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر اتصل بى وقال لى : إن الإمام الأكبر[1] اعترض الرواية أو الحفلة الماجنة التى نددت بها فى الأسبوع الماضى ، وأنه طلب معاقبة المسؤولين عن وضع برامجها !!

إنى أريد أن أقرر هذا ، وأقرر معه ـــ أيضاً ـــ أن الإمام الأكبر رجل فيه خير كثير لأنه هو الذى أوقفني هذا الموقف ، وهو الذى جاء بى إلى هذا المسجد ، وهو الذى رأى أن يُعَمَّر بعد خراب ، وهو الذى تفاءل خيراً فى أن المسلمين سوف يحتشدون هنا ـــ لا حول شخص ولكن ـــ حول فكرة أن الإسلام يجب أن تعلو رايته ، وأن تنتصر جبهته ، وأن يثوب إليه الذين ابتعدوا عنه وخافوا من الانتساب إليه .

جزاه الله خيرا على هذا كله .

هذه واحدة ، وواحدة أخرى أرى نفسى مُلزماً بها ، إن هذا المسجد

(١) الدكتور الشيخ عبد الحليم محمود ـــ رحمة الله عليه .

بدل من أجله وعانى فى تعميره السيد الكريم / محافظ القاهرة ، والرجل الآن — مريض ، نُقل من مكتبه مريضا ، أطن واجب الوفاء يفرض على المسلمين فى هذا المسجد أن يسألوا الله له العافية ، نحن نسأل الله من قلوبنا أن يصحح له بدنه وروحه وأن يُسبغ عليه ثوب العافية ، وأن يرده إلى عمله فى خدمة هذا المسجد وخدمة الإسلام وأن يجعله مثلا صالحاً لإخوانه المحافظين كى يؤدوا واجبهم لخدمة هذا الدين العزيز .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر »(١)

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل ٩٠] .

أقم الصـــــلاة

★ ★ ★

---

(١) رواه مسلم فى الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨ / ٨١

٤ـ تأملات فى سورة آل عمران

غزوة أُحُد كما تحدّث عنها السّورة

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه

فى ١ / ٣ / ١٩٧٤

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فمن لطف الله بعباده المؤمنين أنه إذا وقع منهم خطأ طمأن قلوبهم بتقديم العفو عنهم قبل أن يذكر الذنب الذى فرط منهم ، وذلك على نحو ما قال لنبيه ــ عليه الصلاة والسلام لمّا قَبِل الأعذار المُخْتَلَقَة التى تقدم بها المنافقون ــ : ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين** ﴾ [التوبة : ٤٣] .

وفى أواخر سورة آل عمران ــ فى النصف الأخير منها ، النصف الذى تضمن معركة « أحد » ــ نجد أن رب العالمين فتح أبواب المتاب ، ويَسَّر للمسلمين الذين وقعت منهم أخطاء أن يرجعوا إلى ربهم ، وأن يتخلصوا من أخطائهم ، وأن يجدوا الطريق أمامهم مفتوحاً لإحراز الثواب الكثير . وذلك فى قول الله جل شأنه : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين** ﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

إن هذه الآية وما بعدها نزلت فى أثناء الكلام عن معركة « أحد » وما وقع فيها من أحداث .

والحديث عن معركة « أحد » يبدأ من قوله تعالى : ﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم** ﴾ [آل عمران ١٢١] . غدوت من أهلك : أى خرجت فى الصباح تُرصُّ المؤمنين فى الصفوف التى يقفون فيها كى يؤدوا حق الله عليهم فى الدفاع عن عاصمة الإسلام ، وعن حمى العقيدة ، وردِّ المهاجمين الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم .

بدأ الكلام من هذا الموضع ، ثم قبل أن تُذكر الهزائم التى وقعت ، والآلام التى أحسَّ بها المؤمنون فى قوله تعالى : ﴿ **قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾ [آل عمران ١٣٧ ، ١٣٩] .

قبل أن تذكر هذه الهزائم بعد هذه الآيات : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين** ﴾ [آل عمران ١٣٣] من هم المتقون ؟ عُرفوا بأوصافهم : ﴿ **الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾ [آل عمران : ١٣٤] من المتقين يقيناً كل من يقع منه خطأ ثم يسارع بالخلاص منه ، والتوبة إلى الله بعده ، والبعد عنه جهد الطاقة .

وهذا من رحمة الله بعباده ، فإنه لم يفترض المؤمنين معصومين ، وإنما فرض فى الطبيعة البشرية أنها تخطىء فالخطأ جزء من كيانها ، وما يجرؤ أحد على القول بأنه لم يقترف طول حياته ذنباً ، ولم يفرط فى جنب الله ويقع منه التقصير ، ما يجرؤ أحد على القول بهذا ..

ولذلك فإن من عناصر التقوى أن يسارع الإنسان بتنظيف نفسه من الخطيئة إذا هو سقط فيها : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين** ﴾ [آل عمران ١٣٥ ، ١٣٦] .

وبالنسبة إلى الرجال الذين اشتركوا فى معركة « أحد » ووقعت الهزيمة — إن صح التعبير — وهم يقاتلون ، فإن الله تعالى أعلن صفحه عما بدر منهم : ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم**

الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾ [آل عمران : ١٥٥] .

والكلام عن معركه « أحد » يحتاج إلى شيء من التوضيح والتفصيل ، فإن الهزائم لا تستوى ، هناك هزائم تقع لأصحابها بعد أن أعدوا الخطة للمعركة ، وبعد أن بذلوا الجهد فى بلوغ النصر الذى يحرصون عليه ، ولكن عدوهم انتزع النصر منهم لأنه أكثر عدداً ، أو لأنه أشد سلاحاً ، أو لأنه أحكم خُططاً ، أو لأسباب أُخرى قضت بها حكمة الله جل شأنه .

والمعارك من هذا النوع التى تصاب الأمم فيها بهزائم هى معارك تُعتبر الهزائم فيها عوارض مؤقتة ، فقد انهزم « الألمان » فى المعركة الأخيرة لهم فى الحروب العالمية الثانية ، ولكن الهزيمة التى أدركتهم لم تنل من عبقريتهم العسكرية ولا الصناعية ، وإنما عرضت لهم الهزيمة لظروف فوق الطاقة ، وسَرعان ما تغلبوا عليها ، ولم تمض سنون حتى تجاوزوا الهزيمة ، ورجعوا إلى مصاف الدول العظمى ، وكذلك « اليابان » .. والهزيمة التى وقعت فى « أحد » من هذا القبيل هناك لقاء بين العمالقة ، ربما قرأ القارئون أنباء الملاكمات والمصارعات التى تقع فى حلائب[1] الرياضة بين ناس يبلغون منتهى القوة ، فما يهزم أحدهم الآخر إلا بعد عناء وجهد

هذا نوع من الهزيمة ــ كما قلنا ــ يستطيع المهزوم فى عواقبه أن ينهض على عجل ، وأن يداوى جراحاته برجولة ، وأن يستأنف السير فى الدنيا بقدرة ، لأن كيانه صُلب ، ولأن ما وقع له عارض مؤقت .

وليست كذلك الهزائم التى أصابت المسلمين فى أيام أخرى من تاريخهم ، انهزم المسلمون فى « الأندلس » وخرجوا تاركين هذا الفردوس المفقود ، وبكى القائد الخارج لمَّا وجد أن ماضياً عريقاً قد ضاع ، وأن مُلكاً ضخماً قد تلاشى ، فقالت له أمه :

ابك مثل النساء ملكاً تولى ... لم تحافظ عليه مثل الرجال

وكانت هزيمة المسلمين فى « بغداد » التى أدخلت « التتر »

---

[1] الحَلْبة : موضع يخصص للملاكمة و مصارعة ونحوهما والجمع حلائب .

عاصمتهم من هذا النوع أيضاً ، فإن الخلافة فى « بغداد » كانت صورية ، وكان الخليفة ومَن حوله ناساً ما يعرفون إلا الشهوات المطاعة ، والأهواء المتبعة ، والكهانات الباردة ، والانتساب للنبى ﷺ ـــ فى ورق تُذكر فيه أسماء الآباء ، ولكن ما ينتسبون إليه بالخلق العظيم ، ولا بالفعل الكبير .

ولذلك لما دخل « التتر » « بغداد » كانوا يقاتلون حكاماً من هذا اللون الهابط لسحيق الوضيع ، فكانت الهزيمة شيئاً لابد منه . فارق بين هزائم العمالقة وهزائم المهازيل .. إن لمهزول شخص يمشى وهو ضعيف ، جراثيم العلة تنْخَر فى كيانه ، فلو لم يضربه أحد لسقط بعد قليل من تلقاء نفسه ، لأن العلل تأكل فى جسمه ، فالمعركة التى وقع فيها لم يهزم فيها لأنه لقى هزيمة عارضة ، إنما هُزم فيها لأنها كشفت ضعفه الحقيقى ، وبينت ما فى كيانه من علل .

ومن هذا النوع ما أصاب العرب سنة ١٩٦٧ م فإن هزائم العرب يومئذ كانت شيئاً طبيعياً ، فإن الله تعالى لا يهزم العلم أمام الجهل ، ولا يهزم النظام أمام الفوضى ، ولا يهزم إخلاص القادة لأممهم أمام خيانة القادة لشعوبهم !! .

الفارق كبير بين هزيمة وهزيمة ، هناك هزائم تقع لأصحابها فيشعر المنتصر بأن خصمه رجل كبير ، وأن انتصاره عليه انتصار له ثمنه ، وهناك هزائم تقع لأصحابها فيشعر المنتصر بأنه إنما كان يقاتل من لا وزن لهم ولا قيمة !! .

الذين اشتركوا فى معركة « أحد » طراز من الرجال لا نظير له فى الدنيا ، ولذلك يرفض بعض المؤرخين القول بأن هزيمة وقعت فى « أحد » ويكتب السيرة النبوية على هذا الأساس ، ويقول : لقد وقع قتال فعلاً ، ولكن موقف المسلمين فى نهايته يشبه موقف المشركين .

كان يمكن أن نقول : إن المسلمين انهزموا لو أن شبراً من أرض « المدينة » احتُل ، ولكن ما احتل شبر من الأرض .. كان يمكن أن نقول : إن المسلمين انهزموا لو أن ما أصابهم أسقطهم فى الخَلْة فلم

يستطيعوا نهوضاً .. لكنهم بعد يوم كانوا يشتدون فى دروب الصحراء يطاردون العدو ، ويطلبون منه أن يتوقف كى ينازلوه مرة أخرى .. ثم شيء أخير وهو أنهم دخلوا المعركة بإيمان راسخ ، ويقين باذخ ، فانتصروا فى أولها انتصاراً كاد يكشف جيش الشرك ، بل إن المشركين رُؤوا وهم يشتدون فى الأرض هرباً !! ولولا ما حدث من مخالفة لأوامر النبى ﷺ ما كانت الخسائر التى نزلت بالأمة الإسلامية يومئذ .

لكى ندرك مَن هم الرجال الذين قاتلوا فى « أحد » أعرض هذه القصص لنعرف كيف يصنع الإيمان البطولة ، وكيف يُغرى بالتضحية ، وكيف يُحبب إلى الناس لقاء الله ، وكأنه ذهاب إلى حفل تكريم يسعى الإنسان إليه ببشاشة ورغبة !! إن الرجال الذين يكتبون التاريخ بدمائهم ، ويوجهون زمامه بعزماتهم هم الذين صلُوا هذه الحرب فى « أحد » وحفظوا بها مصير الإسلام فى الأرض .

رُوى أن « خثيمة » قُتل ابنه فى معركة « بدر » فجاء إلى رسول الله ﷺ يقول : لقد أخطأتنى وقعة بدر ، وكنت ــ والله ــ عليها حريصاً ، حتى ساهمتُ ابنى فى الخروج ، فخرج ــ فى القرعة ــ سهمه ، فرُزق الشهادة ، وقد رأيت البارحة ابنى فى النوم فى أحسن صورة ، يَسْرح فى ثمار الجنة وأنهارها ، يقول : الحَقْ بنا ترافقنا فى الجنة ، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقاً . وقد أصبحت يا رسول الله مشتاقاً إلى مرافقته ، وقد كبِرت سِنى ، ورَقَّ عظمى ، وأحببت لقاء ربى . فادع الله يا رسول الله أن يرزقنى الشهادة ومرافقة سعد فى الجنة . فدعا له رسول الله ﷺ بذلك فقُتل بأحد شهيداً[1] .

وكان « عمرو بن الجَموح » أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة أبناء شباب يغزون مع رسول الله ﷺ ، فلما توجه إلى « أحد » أراد أن يخرج معه . فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت ونحن

---

(١) زاد المعاد ٢٠٨/٣ ولم أقف عليه الآن وأما قصة الاستهام على الخروج فى بدر واستشهاد سعد فى هذه المعركة فقد رواها الحاكم ١٨٩/٣ ورواها أيضاً ابن المبارك وموسى بن عقبة كما فى الإصابة ٢٥/٢ .

بكفيك ، وقد وضع الله عنك الجهاد ، فأتى عمرو رسول الله ﷺ فقال : إن بَنيّ هؤلاء يمنعونني أن أجاهد معك ، ووالله إني لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة ، فقال له رسول الله ﷺ : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد ، وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة . فخرج مع رسول الله ﷺ فقُتل يوم « أحد » شهيداً[1] .

وقال « النعمان بن مالك » يا نبي الله لا تحرمنا الجنة — وذلك قبل نشوب القتال — فو الذي نفسي بيده لأدخلنها ، فقال له رسول الله ﷺ بم ؟ قال : بأني أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف . فقال له رسول الله ﷺ : صدقت . واستشهد يومئذ[2] .

وقال « عبد الله بن جحش » في ذلك اليوم : اللهم إني أقسم عليك أن ألقى العدو غداً فيقتلوني ثم يبقروا بطني ، ويجدعوا أنفي وأذني ، ثم تسألني : فيم ذلك ؟ فأقول : فيك[3] .

هذه صورة للرجولة الفارعة التي اصطدم بها الكفر أول المعركة وآخرها فماد أمامها ، واضطربت من تحت أقدامه الأرض ، فما ربح شيئاً في بداية القتال ، ولا انتفع مما ربح آخره .

وهذا اللون من البطولة مدفون تحت جدران التاريخ الإسلامي القائم إلى اليوم .

---

(١) رواه ابن هشام ٣١/٣ عن ابن إسحاق قال : وحدثني أبي إسحاق بن يسار عن أشياخ من بني سلمة قال الألباني . وهذا سند حسن إن كان الأشياخ من الصحابة وإلا فهو مرسل . وبعضه في المسند ٢٩٩/٥ من حديث أبي قتادة رضي الله عنه وزاد . « فقُتلوا يوم أحد هو وابن أخيه ومولى لهم . فمر عليه رسول الله ﷺ فقال . « **كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة** » وسنده صحيح (فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص ٢٨١) .

(٢) قال الألباني : أورد هذا الحديث الحافظ في « الإصابة » من طريق السدي فهو مرسل (المرجع السابق)

(٣) رواه الحاكم ١٩٩/٣ — ٢٠٠ وقال : صحيح على شرط الشيخين لولا إرسال فيه . ووافقه الذهبي . قال الألباني : لكن له شاهد موصول ، وأخرجه البغوي كما في « الإصابة » من طريق إسحاق بن سعد بن أبي وقاص : حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال : .. فذكره بنحوه ، وزاد في آخره . قال سعد : فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه معلقتان في خيط (المرجع الأسبق) .

وما يقوم للإسلام صرح ، ولا ينكشف عنه طغيان إلا بهذه القُوى المدخورة المضغوطة فى أفئدة الصديقين والشهداء كنت مع أخى وصديقى الحاج / حافظ سلامة ــ بطل معركة السويس ، وهو رجل من المؤمنين الخيار ــ قال لى . إن أحدهم سقط « فكه » فى المعركه ، وأحد الطبيب بخيط « لسانه » فى « حلقه » كى يستطيع أجراء عملية تثبيت الفك الأسفل ، فكان يصرخ أثناء العملية بكلام لم نفهمه ، ثم طلب ورقة فكتب فيها إنه صائم ولا يريد أن يتناول شيئاً حتى يفطر !! .

وقال لى مثل هذا فى بعض الضباط الذين قاتلوا بِجَلد ..

وذكر أن روح المسجد هى التى صنعت هذه المقاومة ، قال : إن الإيمان بالله ، وإن الرغبة فى مثوبته ــ جل شأنه ــ وإن الحرص على مرضاة الله ، وإن مواريث القرآن والسنة فى دمائنا وفى بيئتنا هى التى صنعت هذا اللون من الرجال الذين قاتلوا بقوة ، وحرصوا على مرضاة الله إلى آخر رمق .

وهذا النوع موجود بكثرة ، وينبغي أن تُكتب صحائف ناضرة بسيرته وبأخلاقه، ويقال : هذا ما صنعه القرآن وصنعته السنة فى تكوين أبطال استخرجوا النصر من أشد الأيام ضنّاً به . فإن الواقع يوم يُعرف سيُعرف أن « المصريين » ما أدركوا هذا النصر بسهولة ، ولكن الله امتنَّ به على ناس تطلعوا إليه راجين فضله ، تطلعو إليه بأبصارهم وبصائرهم : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ [البقرة ١٤٣] .

لكن هل ستُكتب هذه الوقائع الشاهدة بما يصنعه الإسلام فى أيام الحرب وأيام السلام ؟ .

أرجو لأن هناك ــ كما أشعر ــ تيارات شاردة زائغة تحاول أن تُخفى عمل الإسلام فى هذه المعركة ، وما تزال هذه التيارات تبذل الجهد لجعل الناس يعودون إلى الأيام الأولى ــ أيام العكوف على الشهوات ، وأيام الجرى وراء الأهواء ، وأيام الكذب على الله وعلى الناس ــ ولكنا لن نقبل

هذا ، فنحن هم بالمرصاد ، ومعنا جماهير المؤمنين التى أعلنت ولاءها لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ — ونعود إلى سورة آل عمران وهى تتحدث عن المعركة ، لقد تحدثت فذكرت الكثير ، وما نستطيع أن نذكر هذا الكثير ، لكن أول ما ذكرته الآيات أن الهزائم العابرة لا قيمة لها ، وأن الأمم تدرك ما تريد بجَلَدها على تحمل الجراح ومضيها فى طريق الكفاح ، ولابد أن تصل إلى ما تَبغى أخيراً ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾ [آل عمران ، ١٣٩] .

ثم قال القرآن — فى واقعية ينبغى أن تعرفها الأمم — للمهرومين أو للمُنْعيين : ﴿ **إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين** ﴾ [آل عمران : ١٤٠].

وهذه الكلمات أو هذه الجُمل تحتاج إلى شرح ، إن انتصار المسلمين فى « بدر » جعل دائرة الإسلام تزدحم بطلاب الغنائم ، وطلاب الشهرة ، وطلاب المنفعة ، وطلاب الحكم ، وهذه طبيعة الدنيا ، إذا كان الإنسان فى رغَد وفى قوة أقبل عليه الكثيرون ، والله — عز وجل — يريد أن يكشف طبائع أولئك الذين ازدحموا حول نبيه ﷺ ليبقى منهم الصادقون فى إيمانهم المخلصون لربهم ، وليذهب بعيداً أولئك الذين جاءوا حوله انتظار منفعة ، أو ارتقاب مغنم : ﴿ **ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب** ﴾ [آل عمران : ١٧٩]

إن الله لا يكشف الناس بوحى فيقول : هذا مخلص ، وهذا منافق ، ولكنه يختبر المؤمنين ، ومَسُّ السراء والضراء فى حياتهم هو الذى يبين أحوالهم ، ويكشف خباياهم ، فالمنافق إذا اغتنى شعر بالبطر ، وإذا افتقر شعر بالقُنوط ، أما المؤمن فهو متماسك العاطفة ، إذا اغتنى حَمد الله فلم يبطر ، وإذا تألم حَمِد الله فلم يَقْنَط ، وهو بين الصبر والشكر متماسك الخلق ، قوى العقيدة ، رفيع الرأس .

وبينت الآيات أن الاستشهاد ليس نكبة يُعَزَّى فيها . ولكنه رزق

إلهي ، أو مكافأة سماوية يتخيَّر الله لها من أراد من خلقه ، يتخير الله لها من أراد إعلاء رايتهم ، يتخير الله لها من أراد إعلاء مكانتهم ، ولذلك كان التعبير : ﴿ **ويتخذ منكم شهداء** ﴾ ..

وبديهي أن الشهداء منازل ، وليسوا في مرتبة واحدة ، ففي حديث عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **الشهداء أربعة رجل : رجل مؤمن جيِّد الإيمان لقي العدوفصدق الله حتى قُتل ، فذاك الذي يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته ، يقول الراوي : فلا أدري قلنسوة عمر أراد أم قلنسوة النبي ﷺ (١) قال : ورجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فكأنما ضُرب جلده بشوك طَلح من الجبن ، أتاه سهم غَرْب فقتله فهو في الدرجة الثانية(٢) ، ورجل مؤمن خلَطَ عملًا صالحاً وآخر سيئاً لقي العدو فصدق الله حتى قُتل فذاك في الدرجة الثالثة ، ورجل مؤمن أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجةالرابعة(٣)**» .

لا نريد أن نتتبع ما ذكرته السورة هنا تعليقاً وتعقيباً على القتال الذي دار في « أحد » ، لكن أريد أن أبرز أمرين . الأمر الأول : أن المعركة جرت على هذا النحو خارج المدينة لأن النبي ﷺ استمع إلى كثرة المقترحين عليه أن يخرج ، وكان كثرتهم من الشباب الذي هَزَّه ما سمع من ثواب للمجاهدين ، ومن كرامة للمستشهدين ، فأراد أن يخرج متعجلًا لقتال العدو .

---

(١) يوضح شيخنا المعنى فيقول : يعني أن مكانته من الرفعة بحيث إذا نظر الإنسان إليه نظرة عالية جداً فإن غطاء رأسه يقع

(٢) الطلح : نوع من الأشجار ذي الشوك . الجبن : الخوف وعدم الإقدام سهم غرب : هو الذي لا يدرى من راميه ولا من أين جاء والمعنى — كما يوضحه شيخنا . أن الرجل في طبيعته الخوف ، ولكن الخوف لم يمنعه من أن يتحامل على نفسه ، ويغالب طبعه ، ويبغي الفداء ، ويقف في الصف ، فجاء سهم غرب . أي جاءه سهم طائش فقتله

(٣) رواه أحمد ٢٢/١ ، ٢٣ والترمذي في الجهاد — باب ما جاء في الشهداء عند الله . وقال في الجامع الصغير : رواه أحمد والترمذي عن عمر ورمز لصحته . قال المناوي : ورواه أبو يعلى والديلمي وفيه ابن لهيعة (فيض القدير ١٨٠/٤) .

وكانت هناك قلة ترى أن يُستدرج المشركون إلى داخل المدينة ليُقضى عليهم فى دُروبها وأزِقتها ، وكان النبى ﷺ على هذا الرأى ، لكنه لما وجد الكثرة تتجه إلى الخروج نزل على رأى الكثرة وخرج ، وانتهى القتال بما انتهى إليه .

هنا نرى أن الله جل شأنه يقول لنبيه ﷺ كيف تعامل أصحابك بعد أن حدث ما حدث ، هل تلومهم ؟ هل تعاتبهم ؟ لا .. كن بهم رحيماً ، كن معهم رقيقاً ، طيِّب خواطرهم ، تلطَّف معهم ، ولا تبرم أمراً إلا بعد أن تعرض الأمر عليهم وأن تشاورهم : ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

إذا عزمت فتوكل على الله : أى إذا استقر الأمر على شىء سواء كان رأيك أو رأى غيرك فتوكل على الله .

وهذا ما حدث من النبى ﷺ فإن الشباب بعد ما رأوا النبى ﷺ قد خرج عليهم مستعداً للقتال لابساً ملابس الحرب قالوا : نحن استكرهنا النبى على هذا ، وعرضوا عليه أن ينزل على رأيه الأول ، فرفض وقال : « **ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته ــ وهى الدرع ــ أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه** »(١) .

وهذا هو التوكل على الله .

هنا أوجه النظر إلى أن بعض الكتاب ، وبعض الذين يقررون قضايا خطيرة فى فقهنا وتاريخنا يريدون أن يأخذوا من هذه الآية أن للحاكم أن يذهب إلى رأيه هو إذا كانت الشورى قد انتهت برأى يخالفه !!

وهذا كلام فارغ وتضليل ، وهذا الكلام إنما دخل فى الثقافة الإسلامية

---

(١) رواه أحمد ٣٥١/٣ والدارمى ١٢٩/٢ ، ١٣٠ موصولاً من طريق أبى الزبير عن جابر ، ورجاله ثقات ، وله شاهد من حديث ابن عباس عند الحاكم ١٢٨/٢ ، ١٢٩ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ وصححه ووافقه الذهبى .

أيام الملوك الفجرة ، وأيام الحكام المستبدين ، فإن الحكام المستبدين يحبون أن يفرضوا على الأمة آراءهم ، ويريدون أن يعصوا الله ، وأن يجيئوا بفتوى من هنا أو من هنا تُسَوِّغ لهم هذه المعصية !! .

والدنيا كلها تعلم أن الشورى خير ، وأن الشورى فضيلة عرفها المؤمن والكافر ، والصديق والعدو ، وأن تجريد المسلمين من فضائل الشورى إنما هو قضاء عليهم ، وإنما هو خدمة لبعض الحكام المستبدين الذين يزعمون أنهم عباقرة ، وما هم فى الحقيقة إلا أشخاص تافهون خلا لهم الجو فكانوا كالطير الذى قال فيه الشاعر[1] :

يالك مِن قُبَّرةٍ[2] بمعمر * خلا لك الجو فَبِيضى واصْفِرى

قد رُفِع الفخُ فلا تحذَّرى * ونقِّرى ما شئت أن تُنقِّرى

قد ذهب الصياد عنك فابشرى * لابد يوماً أن تُصادى فاصبرى

إن حكاماً كثيرين تجاهلوا الشورى ونظامها ، وهو نظام أساسى فى الإسلام ، وبلغ من دقة التوجيه الإسلامى أنه فى جراحات « أحد » وفى غمرة الآلام التى أصابت النبى ﷺ يقول الله له :﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ .

وقد حكوا عن الشيخ محمد عبده أنه قال . ما تصلح الأمة إلا بمستبد عادل !! .

والشيخ محمد عبده أشرف من أن يقول هذه الكلمة ، لا يوجد مستبد عادل ، كلمة مستبد عادل ككلمة صادق كاذب ، عالم جاهل ، تجمع المتناقضات

---

(1) هو طرفة بن العبد ، يحكى أنه خرج فى سفر مع عمه وهو ابن سبع سنين فنزلوا على ماء ونصب طرفة فخه للقنابر بمكان هناك اسمه معمر فلم يصد شيئاً ، ولما همّوا بالرحيل رأى القنابر يلقطن ما كان قد نثر لهن من الحب فأنشأ يقول : يا لك من قبرة بمعمر

(2) القُبّر والقبرة والقنبر والقنبرة والقنبراء : ضرب من الطير

إن المستبد لا يكون عادلاً ، إن لاستبداد وليد الخنا ، ووليد الفجور ، ووليد المظالم ، وهو سرطان فى الأمم ينبغى أن تتقيه وأن تبتعد عنه !! .

الأمر الثانى الذى نريد أن نبرزه من غزوة « أحد » : أن المؤمن لا يجوز أن ينظر إلى الماضى إلا بقدر ما يأخذ منه العبرة ، والنظر إلى الماضى لأخذ العبرة جزء من الإيمان ، وهو معنى قوله جل شأنه : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ﴾ [الحج ٤٦] .

إن أخذ العبرة استجابة لأمر الله : ﴿ **فاعتبروا يا أولى الأبصار** ﴾ [الحشر : ٢] .

لكن إذا كان النظر للماضى نوعاً من التحسر على آلام الحاضر ونوعاً من الفجيعة التى مبعثها جهل الأقدار الإلهية وعدم فهم الحقيقة الأزلية الأبدية التى قررها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ [التوبة ٥١] .

إذا كان البكاء على الماضى من نوع : « لو أنى فعلتُ كان كذا وكذا »[1] فـ : « لو » هذه تفتح عمل الشيطان »[2] كما قال عليه الصلاة والسلام .

وقد كان المشركون يقولون : ﴿ **لو كانوا عندنا ماماتوا وما قتلوا** ﴾ [آل عمران ١٥٦] فرفض القرآن أن يكون هذا منطق المؤمنين : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى**

(١ ، ٢) جزء من حديث رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ ونصه : « **المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدّر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان** » رواه مسلم فى القدر ــ باب فى الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله ٥٦/٨

الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم ﴾ [آل عمران : ١٥٦] .

المؤمن يقول كما أمر الله : ﴿ **لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم** ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

إن أحداً لن يموت ناقص أجل أو ناقص عمر ، هو كتاب محدد : ﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلّا** ﴾ [آل عمران ١٤٥] .

إن سورة آل عمران مضت إلى آخرها تُعلّق المؤمنين بعبر وهدايات انتهت بدعاء أُولى الألباب ، وانتهت بأن الدعوة المستجابة هى العمل الصالح ، ثم انتهت بأمر صارم جازم يقول للمؤمنين :﴿ **يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ [آل عمران : ٢٠٠]

اصبروا : فإن إطاعة الشهوات والجزع من التكاليف لا يكون شيمة مؤمن

وصابروا : أى غيركُم سيصبر فليكن صبركم أكثر من صبر عدوكم ، كأن هناك سباقاً فى الصبر .

ورابطوا : أى كونوا دائماً مستعدين للقاء العدو ، فإن نسيان المعارك والعودة إلى حياة المرح هى قرة عين العدو . إن هذه العودة هى التى ستصنع هزيمة أخرى ، وما نريد أن نعود عن رباطنا ضد عدونا ، خصوصاً وأن المعارك بين الإسلام وقوى الشر المتربصة به لا تزال باقية .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـد : .

فى المسجد الآن وفدان ، لكل منهما مطلب ، نرجو أن تتبناه حكومتنا .

الوفد الأول : من « جزيرة الذهب » وهى هنا تعترض « النيل » المبارك ، ويعيش فيها ألوف ممن يقدمون لنا الخير ، ويصنعون لهذا البلد الكثير من أسباب رفاهيته .

فإن هذه الجزيرة قرأت ــ وقرأ غيرى ــ أن بعض الأغنياء عرض أن يشتريها بعشرة ملايين من الجنيهات كى يجعل منها جزيرة سياحية ، ومعنى جعلها جزيرة سياحية أن نصنع بقعة نجسة لاهية عابثة فوق ماء النيل ، وأن نحرم الألوف ــ الذين يعيشون على الزرع والضرع ، ويقدمون للقاهرة الخير ــ من حياتهم الطبيعية .

نحن لا نريد أحياء سياحية جديدة فى بلادنا ، حسبنا الخزى الذى يقع فى شارع « الهرم » ، حسبنا هذه الألوف من السياحات الخبيثة التى تُعرض فيها الشهوات والملذات !! .

نحن لا نريد أن نبيع هذه الأرض ولا بمائة مليون من الجنيهات ، والمثل العربى يقول : تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها !! .

نريد أن يفهم هذا المثل الحريصون على السياحة فى بلدنا ، إن السياحة يمكن أن تكون شيئاً آخر غير ما يفهمه اللاهون والعابثون ، يمكن أن نعرض أخلاق الإيمان وشمائل الرجال ، وتواريخ الأبطال ، وآثار الذين صنعوا الحضارة .

أما أن نعرض مفاتن الراقصات ، ونحيي الغرائز الدنسة فليست هذه سياحة ، هذا عبث ، ويجب أن تبقى الجزيرة ملك أصحابها .

الوعد الثانى من : « وادى النطرون » يقول : إن هنالك عشرين ألفاً من المسلمين الفقراء كانوا ينتظرون أن يفلحوا الأرض التى تم استصلاحها ، ولكنهم فوجئوا بأن هذه الأرض تباع بالمزاد لمن يستطيعون أن يدفعوا الثمن الأكبر

هذا لا يجوز ، فإن عشرين ألفاً من الفقراء يحتاجون إلى أن يفلحوا الأرض يجب ألا يُتركوا فقراء .

نرجو أن يكون هذا وذاك موضع النظر ، فإن أمتنا لا تريد أن تعود إلى عبث أو ظلم .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر »(١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلًا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصــــلاة ..

---

(١) رواه مسلم فى الذكر ــ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨ .

العالم في انتظار

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه

٦/ ٤/ ١٩٧٣م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين

أمّا بعـد ..

فى شهر ربيع الأول سنجتهد فى جعْل خُطب الجُمع خلاله حديثاً عن النبى عليه الصلاة والسلام .. عن سيرته ، وشمائله الزاكية ، وأمجاده الخاصة والعامة ، وعن علاقة الأمة به ، واستمدادها منه ، وعن حاجة العالم إليه ، وضرورة تَلقِّيه الهُدى والبر والحق والبركة من النبى المبارك العربى المحمَّد عليه الصلاة والسلام .

ونحن بهذا الحديث نتعرض لفضل الله .. فإنّ الحديث عن النبى الكبير عليه الصلاة والسلام يُنعش الأفئدة ، ويُرَقِّقُ المشاعر ، ويَرفع المستوى ، ويصل النفوس بالله عز وجل صِلة سَمحة زاكية ، نحن فى هذا العالَم مُحتاجون إليها .

وأبدأ الحديث بالإجابة عن سؤال تلقيته من بين الأوراق التى تُرسل إلَىَّ أحياناً فى أعقاب المحاضرات التى أُلقيها بَين صلاة الجمعات

لقد جاءنى سؤال ووجدته فرصة سانحة للإبانة عن الحقيقة بعد ما قرأته .

هذا السؤال هو **ما حاجة العالم إلى محمد عليه الصلاة والسلام بعد الرسالة التى قام بها عيسى عليه الصلاة والسلام ؟ .**

قلتُ فى نفسى هذا السؤال جاء فى إبَّانه ، وكان من الخير أنْ يُعرض علىّ !! .

وأجبت فقلتُ :

إنّ الناس قَبْل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام كانوا على نوعين : نوع مَحروم مِن هدايات السماء فهو يَتيه فى صحراء الحياة هائماً على وجهه لا يَعرف رَبّاً ولا حَدّاً ، ورُبما قدَّس الأحجار ، وعَبَد الأبقار ، وعاش على هذا النحو السفيه الوضيع إلى أنْ يموت ليتحول تُراباً ، أو ليكون حطباً لجهنم .. الله أعلم بمصاير هؤلاء وَفق ما أُتيح لهم مِن هدايات ، وما عَرَض لهم فى حياتهم مِن عِلم أو نُور .. هذا النوع لا كتاب له ، لا يدرى شيئاً يُمكن أنْ يُسَمُّوا بالأميين .. لتكن تسميتهم ما تكون فقد كانوا جُهالاً حقيقة .

نوع آخر يَملأ الأرض .. وهم كِتابيون لكنهم ظلموا أنفسهم ، وغَشُّوا وخَبَهم ، وزَوَّروا كتابات الله التى تَنزَّلت عليهم .

●● ما معنى أن نقرأ لأولئك الكتابيين أنّ الله تمشَّى فى الجَنَّة ، وفوجىء بأنّ آدم عليه السلام مُختبىء ، قد أكل مِن الشجرة ، وربُّه لا يدرى .. فهو يَسألهُ كيف أكلتَ وكيف خُدِعت !!

●● ثم يُقال فى هذه الكتب : إنّ الله بعد أنْ خلق آدم نَدِم على خَلْق آدم !!

●● وبعد أنّ أغرق الأرض بالطوفان ندم على أن أغرق الأرض !!

●● وأنه ظل سَحَابة ليلة بأكملها يُصارع واحداً مِن عَبيده هو يعقوب ، وفى نهاية المصارعة أعطاه لقب إسرائيل !!

●● وأنه مع اثنين مِن الملائكة دُعُوا إلى وليمة غداء أقامها إبراهيم لهم فأكل الإله !! .

أيُّ تزوير على صفات الألوهية على هذا النحو ؟!!

ثم عند أولئك الكتابيين أنّ الألوهية « والد » و « ولد » ، أو « زوج وصاحبة » !! ، أو كذا وكذا من التُّرهات التى شاعت وانتشرت !!

ما كان العالَم ليعرف الرشد ، ولا لِيَنْصُرَ الحق ، ولا لِيَصُفَّ قَدَمَيْه على الصراط المستقيم إلا لمّا جاءه محمد عليه الصلاة والسلام !! .

لقد كانت حاجة الدنيا إلى محمد عليه الصلاة والسلام حاجة العيْن العمياء إلى البصر !! حاجةَ القَدَم المشلول إلى الحياة والحركة !! حاجة الجسد السقيم إلى البُرْء والعافية !!.

إنّ الذين يسألون : ما كانت حاجة العالم إلى محمد عليه الصلاة والسلام ؟ يجب أنْ يَعرفوا أنّ محمداً ﷺ بكتابه وسنته رَدَّ إلى الدين اعتباره ، وأعطى الإنسانية بصيرتها النيِّرة ، فكانت هذه البعثة خيراً للناس أجمعين ، ورحمة لأرجاء العالمين !! ما كان أحوج العالم إلى محمد عليه الصلاة والسلام .. إنّ هذا الإنسان الكبير هو أمل الإنسانية لكى تُنقَذ مِن حَيْرتها ، وتأنس من وحشتها ، وتُحسن عودتها إلى ربها ، وتتخلص مِن الجاهلية الطَّامَّة التي وقعت فيها .. ونحن عندما نتحدث عن النبى الكبير محمد عليه الصلاة والسلام نُريد أنْ نتناول اليوم أطرافاً قليلة من السيرة ؛ لأن حديثنا كما قلتُ لكم ، وكما أستعين الله ، سيكون خلال هذا الشهر تناولاً للسيرة النبوية ، وحديثاً فى الشمائل المحمدية .

النبوة عندنا معشر المسلمين هِبةٌ مِن الله .. وليست جُهد بَشر يصل بعده إلى مَرتبة النبوة .. إن النبوة فَضل إلهى أعلى يَمنحه اللهُمَن أراد مِن خلقه .. وليست نتيجة كَدْح فى ميدان التربية ، أو الفلسفة ، أو المعاناة النفسية ، أو الجهاد الخاص .. لا .. هى هبة مِن الله ، وليست كسباً .. هذه الهبة العُليا بداهة يَتخير الله لها مِن خَلْقه مَن هو لها أهل .. أىْ أنّ النبوة بداهة لا يمكن أن تكون نصيب التافهين ، أو المغموصين ، ولا يَصلح لها شخص مُنطلق الشهوة ، أو بَليد الفكر ، أو ضَيِّق الأفق ، أو عَطِن النفس .. وهذا الذى أقوله هو معنى قول الله جلّ شأنه : ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ [الأنعام : ١٢٤]

إنّ التفاوت بين البشر كبير جداً .. فهناك بَشر كقِمم الجبال .. وهناك بشر كأكوام السَّبَخ !! الفارق بين البشر من الناحية الفردية فارق واسع جداً .. هناك أصحاب عقول كأنها لَمْح البرق مِن ذكائها وتألقها ..

وهناك أصحاب عقول يُعْييهم أنْ يَعرفوا البديهيات !! والكل مِن أولاد آدم !!.

وعندما يختار الله نبياً فهو يَختار مِن القِمم ولا يختار مِن السفوح !! ﴿ .. أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ [الزخرف : ٣٢]

كان هذا الجواب الإلهي لقوم تساءلوا : لِمَ كانت النبوة فى ابن عبد الله ابن عبد المطلب .. وهو شاب محدود الثروة ، محدود القوة ، محدود السلطة ؟!! ولِمَ تركت النبوة العُمَد فى مكة والطائف ، وأصحابَ الدولة والصوْلة فى البلدين العظيمين ؟! .

﴿ وقالوا لولا نُزّل هذا القرآن على رجل مِن القريتين عظيم ﴾
فكان الرَّد الإلهى : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ [الزخرف : ٣١ ـ ٣٢]

إن مقاييس العظمة عند هؤلاء الجاهلين كانت مقدار ما يَملك المرء مِن نياق ، أو أبقار ، أو مَعْز وغَنَم !! هذا ميزان العظمة عند بعض الناس .. وهو ميزان سخيف فإنّ العظمة مَعْدِن نفسى نفيس ، ومِن المعادن .. النفيسة العالية الكريمة يَختارُ الله أنبياءه .. دون نظر إلى مال أو جاه .. وقد اختار الله محمداً ﷺ بعد أنْ تخيَّره مِن نُطَفِ الآباء والأمهات ، وأشرف على تربيته ، وأدَّبه ، وبسط عليه رعايته .

اختار الله محمداً على هذا النحو .. ولذلك أوجه النظر إلى أمور لا بد مِن توجيه النظر إليها .. إنّ الرسل بشر .. ولابد أن يكونوا بشراً .. لأنّ الناس الذين يسكنون الأرض يحتاجون إلى بشر ، يَفهمون منهم ، ويَتلقون عنهم ، ويُحسون إحساسهم ، ويأنسون بهم .. وعندما قال بعض المستغربين المستكبرين : ﴿ أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ [الإسراء : ٩٣]
كان الجواب : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم مِن السماء ملكاً رسولاً ﴾ . لكن الناس بشر .. فيجب أنْ يتعلموا مِنْ مُجانس لهم ، مِن مُشابه لهم فى خلْقه .. فبشرية الرسول ﷺ لا تُنكر .. وإنما تُنكر على بعض الذينَ يتحدثون فى بشرية الرسول ﷺ

أشياء يدسونها فى هذه البشرية كى يُوهِموا أنّ الرسول ﷺ رجل عبقرى ، أو شخص صاحب مواهب ضخمة ، وأنه بعبقريته الفريدة ، ومواهبه الجليلة ، استطاع أنْ يَبلغ ما بلغ ، وأنْ يصل إلى ما وصل إليه . وهذا تدليس .. إنه بشر حقاً ، وذو مواهب حقاً . ولكنه بشر يَتلقى عن الله ، ويَستقدم الوحى ، بشر لمْ يَبلغ ما بلغ بعبقريته الخاصة .. وإنما بلغ بتوجيه الله له ، واعتنائه به .. فالذين يتحدثون عن بشرية الرسول ﷺ يخلطون أو يكذبون عندما يُريدون إيهام الناس أنه بشر عادى .. لا .. هو بشر حقاً ولكن يُوحى إليه : ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يُوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه** ﴾ [فصلت ٦] . ثم إن هناك خلافاً واضحاً بين النبوة وبين العبقرية مهما بلغت .. عبقرية فلسفية ، عبقرية عسكرية ، عبقرية سياسية .. أولئك العباقرة فيما درسنا من تاريخهم يَرجع تفوقهم غالباً إلى امتداد فى موهبة من المواهب .. أمّا بقية مواهبهم فإمّا عادية أو هابطة .. ولذلك وجدنا عبقريات سياسية وعسكرية تَرتكب الدنايا !! .

خُذ عبقرية عسكرية مثل « نابليون » الرجل فى معركةٍ ما وهو يَفتح الشام أمّن المدافعين ، وأعطاهم وعداً بأنهم إذا أُسروا ضُمنت لهم الحياة .. وما كادوا يَقعون فى الأسر حتى أَمر بقتلهم جميعاً !!.

غَدَرَ القائد فى كلمته ، كَذَبَ فى وعده ، كان خسيساً فى تصرفه .. هو عبقرية عسكرية . ولكنه كان نذلاً فى معاملاته الأخلاقية !! .

الواقع أننا نَقفز قفزة عالية جداً عندما ننتقل مَن شخص كنابليون أو غيره من قادة العالم إلى القمة الشماء فى تاريخ الإنسانية كلها إلى محمد ابن عبد الله عليه الصلاة والسلام . عندما كانت ظلمات الجاهلية تربض على صحراء الجزيرة كان محمد عليه السلام فى أحشائها كوكباً متألقاً بفضائله ، وكان معروفاً فى الجاهلية بأنه الصادق الأمين !! ذاك فى الجاهلية .. فكيف بعد أنْ تمت عليه النعمة ، واختاره الله نبياً ؟!!

إنّ العبقرية شىء والنبوة شىء آخر .. السراج المنير لا يمكن أنْ تكون فيه نُقط سوداء ، ولا بُقع مُعتمة .. لأنهُ منير من كل ناحية .. وفى الأنبياء وتلاميذ الأنبياء يقول الشاعر :

هُم الرجالُ المصابيحُ الذين هُمُ كأنهم مِن نجومٍ حية صُنعوا
أخلاقهمْ نُورهمْ مِن أىِّ ناحيةٍ أقبلتَ تَنظرُ فى أخلاقهم سَطعوا

كواكب .. وهذا معنى وصف الله عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿ وسراجاً منيراً ﴾ [الأحزاب ٤٦] والسراج المنير مُشرق فى جوانبه كلها . مصدر نور ، وإشعاع من أرجائه كلها !! .

نحن نرفض وصف النبي ﷺ بالعبقرية ، أو وصفه بالبشرية العادية ، ونعلم أنه فعلاً مَعْدِن ليس هناك ما يُشبهه نفاسة وكرماً .. ولكنّ النبوة اصطفاء أعلى ، ولكنّ النبوة هبة الله لمن أراد مِن عباده ، وقد خُتمت النبوات كُلها برجُلها الأوحد نبى الأنبياء ، وإنسان الإنسانية محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام !!.

فى طلائع الوحي على النبى عليه الصلاة والسلام دروس نُحب أنْ نقف عندها لنتعرف الفَلَك الذى دارت النبوة المحمدية فيه .

مِن أوائل ما نزل عليه ﷺ سورة « العلَق » .. سورة « الضحى » .. سورة « الانشراح » .. سورة « المزمل » .. سورة « المدثر » قلتُ أتدبر الآيات التى نزلت عليه أول ما استقبل إشراقات الوحى الأعلى ، ودون ترتيب مُراعىً فى السرد الآن . أبدأ بسورة الضُحى :

الشيخ « محمد عبده » يقول : إن الله تعالى أقسم بالضحى والليل إشارة إلى أنّ فترات الوحي فى حياة النبى ﷺ كانت فترات تألق وسَنىً لامع .. وأمّا فترات الانقطاع للوحى فكانت تشبه وحشة الليل عندما يَصمت ويَنقطع كل حِراك به !! .

وقد كان النبى عليه الصلاة والسلام قد بدأ يستقبل الوحي دون ارتقاب له .. إنه ما كان يدرى أنه سيخُتار نبياً ، ولا تطلع إلى الرسالة ، ولا عرف أنّ مستقبل الإنسانية مرتبط بشخصه النبيل فى الأربعين سنة الأولى من عمره .. وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ﴾ [القصص ٨٦] كأن الله تعالى أرسل إليه

الوحي ، ثم قطعه قليلًا عنه ليزداد شوقاً إليه ، ويزداد تهيؤاً لاستقباله ، ويزداد تشوقاً إلى مطالعه عندما يجيء ولكنه أحس شيئاً من الكرب عندما انقطع الوحي .. فطمأنه رب العالمين أنْ لا مكان للحزن وللكرب فى حياته مِن هذه الناحية ، قال له لا تظن أنى هجرتك ، أو تركتك ، أو حولت نعمتى عنك .. ﴿ **ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك مِن الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾[سورة الضحى : ٣ - ٥]

ثم بين له كيف أنه رعاه من غير سؤال ، وكيف أنه أشرف على تربيته وتوجيهه من غير طلب ، وكيف أنه صنعه لنفسه ، فقال مُفصلا هذه المعانى : ﴿ **ألم يجدك يتيماً فآوى** ﴾[الضحى : ٦] آواك والإيواء هنا ليس لإيواء الحسى لتدبير الكفالة له فقط ، ولكنه الإيواء المعنوى الذى يتضمن الإشراف على تربيته وتكوينه : ﴿ **ووجدك ضالاً فهدى** ﴾[الضحى : ٧]

أقف قليلاً عند هذه الكلمة .. أى وجدك حائراً لا تدرى الحق ولا تعرف طريقاً إليه ، والضلال فى اللغة العربية يعنى الحيرة ، ويعنى الذهول ، ويعنى النسيان .. ﴿ **لا يضل ربى ولا ينسى** ﴾[طه : ٥٢] ﴿ .. **أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى** ﴾[البقرة : ٢٨٢] .

الضلال : الحيرة .. وفعلاً كان النبى ﷺ حائراً .. وآية : ﴿ ... **ووجدك ضالاً فهدى** ﴾ فُصِّلت فى سورة الانشراح بعد ذلك .. إذ قال الله له : ﴿ **ألم نشرح لك صدرك** ﴾؟ [الانشراح : ١]

مِن أثر الحيرة ، من أثر النظر فى شئون الناس ، وأحوال الدنيا ، والعودة من هذا النظر بغير شيء .. كل هذا ضيَّق صدرك ، وكأنك تحمل على ظهرك حِملاً يكاد يقطعه ، يكاد يقصمه .. لأن الرجل الكبير الجليل عندما يشعر بالحيرة لأنه عاجز عن أن يصنع شيئاً ، أو أن يخرج مِن الظلمات التى تُحيط به ، فإنه يتعب نفسياً جداً تعباً يكاد يرهق أعصابه ويُمزق كيانه .. فكلمة : ﴿ **ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك . الذى انقض ظهرك** ﴾ ؟ هى هى التى قيلت فى آية أخرى : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً مِن أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا** ﴾[الشورى : ٥٢] ﴿ **ولولا**

فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يُضلون إلا أنفسهم وما يضرونك مِن شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ [النساء ١١٣]

هذا التعميم الجديد هو التفسير لقوله جل شأنه : **﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾** وقوله في السورة التي تليها : **﴿ ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك . الذى أنقض ظهرك ﴾** أى كاد يقصم ظهرك لثقله ، وشدة وطأته ، وأنت حائر في المجتمع الجاهلي بمكة لا ترى بصيص نور في الوثنية السائدة ، وفي ضلالات أهل الكتاب الذين ما يعرفون الكتاب إلا أماني ، ولا يدرون من الحقيقة المبرأة شيئاً .

ثم يُرتب الله عز وجل على هذا الفضل أشياء . يرتب عليه نتائج مصلحة الجماهير .. فإن الذى يَمرض ثم يَصح أحق الناس برعاية أصحاب الآلام !!! .

والذى يَغتني بعد فقر أحق الناس برعاية أصحاب الحاجات .

والذى يعلم بعد جهل أحق الناس بأن يُطارد الجهالة ويُبقى نيرها عن كواهل أهلها !! ولذلك بعد أن امتن الله عليه وقال له : **﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى ﴾** [الضحى ٦ - ٨]
رتب على ذلك هذه النتائج : **﴿ فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر. وأما بنعمة ربك فحدث ﴾** [الضحى ٩ — ١١] .

وكذلك في سورة الانشراح .. رتب النتائج بعد أن قال : كنتَ مُوقر الظَّهر بِحمْل أزعجك وأتعبك ، فخفف الله عنك ، وتنفست الصعداء بعد أنْ زال هذا الكابوس ، وطلع عليك فجر الوحي ، واتصلت بربك ، وأصبحت أُسوة الناس وإمامهم ، وهاديهم وراعيهم .. فماذا تصنع ؟ باستمرار أقبل على الله .. إنْ انتهيت من واجب اتصل بواجب آخر : **﴿ فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب ﴾** [الانشراح ٧ - ٨]

هذا جهاد النبوة .. فالنبوة عبء .. ولكى يُعرف عِبؤها ننظر إلى ما نزل في أوائل الوحي المبارك من سور .. في سورة « المزمل » يُعَرَّف النبي ﷺ أنّ النوى خفيف على الأنفس ، وأنه يُتيح لأصحابه أن يناموا حتى يعقد الكَرى « النوم » على أجفانهم لَيالىَ طوالاً ، ويَتشبعوا حتى

يألفوا الراحة والخمول .. الهوى خفيف على الأنفس ، حلو المذاق .. لكن الحق ثقيل على الأنفس .. فيه مرارة الدواء ، فيه متاعب الجد .. ولذلك في أوائل الوحي قيل له : ما مضى مضى . أما الآن فأمامك سهر طويل :
﴿ يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلا ﴾ [المزمل ١ – ٥]
هذا القول الثقيل يتضمن الحقائق المُرَّة :

●● عقيدة التوحيد .. كم يَضيق بها المُعددون والمشركون ؟

●● مسئولية النفس الإنسانية عن سلوكها وعن عملها . كم يضيق بها عُبَّاد القرابين ، وأصحاب المزاعم في أن الله يحتاج إلى كفارات من الدماء البشرية ، أو الدماء الإلهية إنْ صحَّ التعبير كي يرضى عن خلقه ؟!

لكن هذا الحق الثقيل يحتاج إلى رجال ذوى مناكب أيِّدة كي يحملوه بصلابة ، وكي يطوفوا الآفاق به دون إعياء أو انقطاع .

وتقرأ « سورة المدثر » وهي بعد المزمل ومن أوائل ما نزل .. فتجد أمارات الجدَّة في الوحي الخاتم .. لأنه يُبين للنبي عليه الصلاة والسلام معالم طريقه كي يقود الناس فيها: **﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر ﴾** انتصب لتُعلِمَ الناس ما لم يعلموا .. إن جماهير كثيفة شَردت عن الطريق ، وأنت مكلف أن تعود بها إلى الصراط المستقيم : **﴿ قم فأنذر . وربك فكبر ﴾** . إن الناس عبدوا الأوهام ، وقدّسوا الأصنام . ولكن أنت اربط تعظيمك وتقديسك . وعلّم الناس معك أن خوفهم ورجاءهم وركوعهم وسجودهم وتوكلهم ، وركونهم إنما يكون على الكبير المُتوحِّد بالكبرياء **﴿ وثيابك فطهر ﴾** [مدثر ١ – ٤] إن بعض الناس فسَّر الآية بأن تطهير الثياب هنا إنما هو تطهير للأخلاق وللكيان المعنوي للإنسان .. وهذا تفسير قد يقبله البعض ، أما رأيي فإن كلمة : **﴿ ثيابك فطهر ﴾** تُعطى المنهج الجديد للإنسان .. كان التدين قبْلا يعتبر التقشف والرهبانية ووساخة الأجساد . يعتبر ذلك لوناً من القربى إلى الله .. لكن الدين الجديد يحترم الجسد الإنساني ، واعتبر طِيبَ الجسد ، وطهارة الجسد ، وزينةَ الجسد ، والرائحة الزكية في الجسد .. اعتبر ذلك مِن أمارات التقوى ، ومن دلائل الإيمان ، ومن حُسن الصلة بالله !! .

ولعل تشريع الوضوء والغسل ، ولعل تشريع الطيب والسواك .. لعل هذه الشرائع التى جعلت الجسد الإنسانى مُكرَّماً عند الله . لعلها إشعار بأن الدين الجديد دين الفطرة السليمة ، وأن تقدير هذا الجسد ، وتقدير الإبداع الإلهي فى خلقه من معالم التقوى . وكان النبى عليه الصلاة والسلام يقول فى سجوده أحياناً : « سجد وجهى للذى خلقه وصوَّره وشَق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين »[1] .

هذا الجسد لا يُوسَّخ . هذا الوجه لا يُلوَّث .. هذه الثياب يجب أن تُطهر !! .

لقد كان النبى عليه الصلاة والسلام آية فى وضاءة بدنه كله ، وفى نظافة ثيابه كلها ، وكان الناس إذا شَموا رائحة جيدة فى مكانٍ ما قالوا : لعل محمداً مَرَّ من هنا !! هذا هو التدين .. لا الرهبانية القذرة الوسخة التى تعتات على الجسد وتوسخه ، وتجعل الناس يحتقرون البدن ، ويرون الإجحاف به ، والميْل منه قربى إلى الله .

﴿ وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك

---

(1) رواه مسلم فى صلاة المسافرين مطولاً « باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه » عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : « وجهت وجهى للذى فطر السموٰات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسى واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنوبى جميعاً إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك ، والخير كله فى يديك ، والشر ليس إليك ، أنا بك وإليك ، تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك » وإذا ركع قال : « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى » وإذا رفع قال : « اللهم ربنا لك الحمد ملء السموٰات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شىء بعد » وإذا سجد قال : « اللهم لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين » ، ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : « اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت » ٢/١٨٥ ، ١٨٦ والترمذى فى الدعوات تحفة الأحوذى ٩ / ٣٧٤ والنسائى بنحوه فى التطبيق ٢ / ٢٢٠ ، ٢٢١ وأبو داود فى الصلاة . باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء عون المعبود ٢ / ٤٦٣ وما بعدها وابن ماجه فى الإقامة ١ / ٣٣٥ والحاكم مختصراً ١ / ٢٢٠ والبيهقى مختصراً ٢ / ٣٢٥

فاصبر ﴾ [المدثر ٤ ـ ٧] إلى آخر ما يمكن استعراضه من هذه الآيات التى وجهت النبى ﷺ إلى الحق والخير .. لا لتكوينه شخصياً .. بل لتكوين الأمة معه ، ورسم الرسالة الإسلامية لتُعرف معالمها من ملامحه ، ومشخصاتها من مشخصاته .

إن الله عز وجل ربى محمداً ﷺ ليُربى به العرب ، وربى العرب بمحمد ليربى بهم الناس أجمعين .

كيف ربى ؟ كيف صنع الناس ؟

هذا بحث آخر .. موعدنا إن شاء الله تعالى به فى عالمية الرسالة ، وفى الآفاق التى تعمل فيها ، وفى الأبعاد التى تتألق خلالها .. موعدنا إن شاء الله تعالى فى يوم الجمعة المقبلة ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ **الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ [الشورى : ٢٥ — ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام الأنبياء ، وسيد الصالحين .. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

فإن أحفالنا التى أَلِفْنا إقامتها فى شهر ربيع عاطفة مقدورة البواعث .. ولكنها لا تُغْنِى ترجمة عن الحب الواجب لصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام .

وعندى لو أن المسلمين عَطَّلوا هذه الأحفال كلها ، وأقاموا بدلاً منها حداً من الحدود المعطلة ، أو قانوناً من القوانين الإسلامية المهملة لكان ذلك أرضى لله عز وجل وأحب لرسول الله ﷺ !! .

لكن نحن ننتهز فُرص هذه الأحفال ، كى نُذكر .. والذكرى تنفع المؤمنين ..

ومن الذكرى التى نؤكد بها ولاءنا لصاحب الرسالة ، وإعزازنا للتراث الذى تفيأناه عنه صلوات الله وسلامه عليه ، أن نوجه الأنظار إلى أعداء الله عز وجل ، وأعداء محمد ﷺ .. أنا أعرف ناساً من العرب عندما يقع نزاع بين المسلمين والهندوك ينضمون إلى الهند .

وعندما يقع النزاع بين القارصة المسيحيين وبين الأتراك المسلمين ينضمون إلى اليونان !!! .

وعندما يقع النزاع بين الإرتريّين والأحباش ينضمون إلى الأحباش .

وعندما يصطدم الإسلام في معاركه الطويلة العريضة بأيِ عدو .. فهم مع هذا العدو !!!

وهم عرب يَتَسَمَّون بأسمائنا ، ويتكلمون بألسنتنا ، ويَجدون من ينخدع بهم ، ويستمع إليهم !! .

هؤلاء أملهم أن يجعلوا « مصر » علمانية . أى لا يكون الإسلام دينها ، ولا مصدر التشريع فيها ، ولا أساس الأخلاق والقيم والمثل لأبنائها !! .

هؤلاء يجب أن نكشفهم وأن نتعرف آثارهم في مجتمعنا لنمحوَها .

إن الإسلام في هذه الأيام ليس فقط « جواز المرور » إلى الجنة عندما نلقى الله .. إنه قبل أن نلقى الله هو ضمان البقاء لنا على ظهر الأرض !!! .

هذا الدين ليس فقط تأمين آخرتنا عند ربنا .. إنه الآن تأمين حياتنا العاجلة !! فإن المسلمين أُعلنت عليهم حرب إفناء ، وأُعلنت على محمد ﷺ حرب اجتياح لكتابه وسنته وتاريخه وآثاره !!! .

فإذا أراد المسلمون أن يعيشوا هملاً فمصيرهم هو الذبح .. لا غير !!! .

وأنا أسأل نفسي : أيُّ خيانة ارتكبها المسلمون جميعاً وهم يعلمون أو يُجهّلون في أن نحو سبعة آلاف جزيرة شرق جزائر أندونيسيا كانت مسلمة كلها !! ثم هجم عليها الأسبان ، ووضعوا عليها اسم مِلكهم « فيليب » وسموها « الفليبين » ، وبدأوا عملية محو القرآن والسنة ، والمنتسبين إلى القرآن والسنة .. حتى محوا [٨٧٪] من السكان وتنصَّروهم ، وبقى الآن نحو [١٠٪] يتعرضون للفناء !!

إذا تحدث الناس عن التجمع الإسلامي ، وعن الروابط الإسلامية ، وُجد من العرب من يقول : إن التجميع على الإسلام سياسة أمريكية !! ، يا سبحان الله !! أيُّ بلاء هذا الذى نزل بنا ؟!! إن التجميع على الإسلام

سياسة قرآنية . ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ [آل عمران ١٠٣] ألا فليستيقظ المسلمون وإلا هوت بهم الريح فى مكان سحيق !!

اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر»(١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾ [الحشر ١٠]

عبـاد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل ٩٠]

وأقم الصــلاة

* * *

(١) رواه مسلم والنسائى وأحمد

تأملات فى الهجرة

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص
رضى الله عنه

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمدا وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فلا تزال بقايا من قصة الهجرة تحتاج الى تجلية . ولا تزال عبر فى هذا الحادث الضخم ، ينبغى أن نقف بإدائها حتى نصلح على ضوئها حاضرنا ، فنحن ماتذكر تاريخنا الماضى ــ قصصه واحداثه ــ إلا لتقتبس منه أضواء تحدد لنا الهدف وتجنبنا الزلل .

أول ما يوجه النظر إليه فى حادث الهجرة قانون السببية الذى تحدثنا عنه كثيرا ، إن هذا القانون فرض نفسه فى الهجرة ، لم يقل النبى عليه الصلاة والسلام إننى ومن معى أوذينا فى الله طويلاً ، وقد أخرجنا من ديارنا كرهاً ، فعناية السماء يجب أن تلاحقنا ، ولاحرج من بعض التفريط او بعض التواكل ، فإن الله يجبر الكسر ، ويكمل النقص ، لم يقل النبى عليه الصلاة والسلام شيئا من هذا ، وإنما وضع الخطة كاملة ، كل مايمكن أن يصنعه الانسان العادى ليتجنب الاخطار ، وليبتعد عن مكايد العدو فعله النبى عليه الصلاة والسلام .

ما ترك ثغرة ، ولا أبقى فى خطته مكانا يكمله الذكاء ، فعل ما فى طوق البشر ،

عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما سمع بالطاعون في الشام أبى أن يدخل البلد الذى قصد أن يدخل إليه ، فقال له أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه : أتفر من قدر الله ؟ فغضب عمر غضبا شديداً ، وقال : يا أبا عبيدة : لو غيرك قالها!! أفر من قدر الله الى قدر الله !! أرأيت لو أن عندك قطيع غنم فتركت المكان المجدب إلى المكان المخصب ألم تتركه بقدر الله إلى قدر الله ؟

هذا المعنى يشرحه حديث آخر ، فقد سئل رسول الله ﷺ : أرأيت أدوية نتداوى بها ، وَرُقىً نسترق بها ، وتُقىً نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئا ؟ قال : « هى من قدر الله »(١)

والرقية : دعاء المريض لنفسه بالشفاء أو تلاوته بعض سور القرآن للاستشفاء ببركتها كما صح من أن النبي عليه الصلاة والسلام « كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما « قل هو الله أحد » و« وقل أعوذ برب الفلق » و« قل أعوذ برب الناس » ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات »(٢)

اتخاذ الأسباب اذن دين ، وهذا هو الذى جعل رسول الله ﷺ يمكر فى الاختباء فى الغار ، وفى تضليل أعدائه فكان يتجه جنوبا وهو يريد أن يتجه إلى الشمال ، وفى اتخاذ راحلتين قويتين مستريحتين حتى تتمكنا من السفر وتحمل وعثاء الطريق وطول المدة ، واتخاذ دليل مدرب حتى يعرف ما هنالك من وجوه الطرق والأماكن التى يمكن التعريج عليها بعيدا عن الأرصاد المبثوثة هنا وهناك ، وكيف يضلل من يبحثون عنه ؟

قضية السببية قضية فرغ الإسلام منها ، قرر أنها حق . لكن موقف المؤمن والكافر من السبب يختلف بعد ذلك ، فالمؤمن بعد أن يتخذ الأسباب كاملة لا يعول عليها ، ولا يربط نفسه بها ، ولا يظن أنها هى التى تعمل أو

(١) رواه ابن ماجه فى الطب . باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ١١٣٧/٢ وأحمد ٤٢١/٣ والحاكم فى الطب ٤٠٢/٤ .

(٢) رواه البخارى فى فضائل القرآن : باب فضل المعوذات ٦٢/٩ والترمذى فى الدعوات باب ما جاء فيمن يقرأ من القرآن عند المنام تحفة الأحوذى ٣٤٧/٩ وأحمد ١١٦/٦ .

تترك ، بل يؤمن بأن الأمور بيد الله ، وأن النتائج تتم بقدرة الله ، وأن هناك أسباب أخرى ليست فى يد الانسان ، الله جل شأنه هو الذى يوفرها ويكثرها لمن أراد أن ينجح قصده

ولذلك قارن العلماء بين موقفين للنبى عليه الصلاة والسلام قالوا : فى الغار عندما أحس أقدام المطاردين تقترب ، وعندما بدأ أبو بكر رضى الله عنه يقلق ويشعر بالوجل ، كان النبى عليه الصلاة والسلام يسكن روعه ، ويبدد قلقه ويقول له : « **ما ظنك ياأبا بكر باثنين الله ثالثهما** »(١)

قال العلماء : هذا الموقف يغاير الموقف فى معركة « بدر » عندما أخذ النبى عليه الصلاة والسلام يتجه بقلبه ولبه إلى الله فى ضراعة حارة ، ودعاء متتابع ، واستغاثة موصولة ، يقول : « **اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض** »!! **فمازال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه من منكبيه فأتاه ابو بكر .. وقال : يانبى الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك** »(٢) .

قال العلماء : ما السبب فى تفاوت الموقفين هنا وهناك ؟

وكان الجواب : أن النبى عليه الصلاة والسلام فى الغار كان قد اتخذ الأسباب كلها ، وأفرغ ما فى طاقته عملياً ، فاطمأن إلى أن الله هو الذى سيكفله وهو الذى سيحقق ما يصبو إليه من أمل فى إنجاح الهجرة وبلوغها غايتها .

أما فى « بدر » فإن الأسباب لما تكتمل من ناحية ، وربما تعلقت الهمة بها ، وعولت عليها ، وانتظرت النصر منها ، فأراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يتجرد من هذه الأسباب ، من الجيش الذى خرج إلى القتال ، من العدو أو العدة اللتين أحاطا به عليه الصلاة والسلام ، فكان دعاؤه ، وكانت استغاثته ، وكانت ضراعته ، وكان استنصاره بالله جل جلالة .

الفارق بين المؤمن والكافر كلاهما يأخذ بالسبب ، أما نحن المؤمنين فإننا نرى أن الأسباب أدوات للقدرة العليا ، ومفاتيح لخزائن الرحمة الإلهية ، وأن أى شىء انقطع عنه الإمداد الأعلى فإنه لا يصنع شيئاً ،

---

(١) رواه البخارى فى فضائل الصحابة باب مناقب المهاجرين ٨/٧ فى فضائل الصحابة — باب من فضائل أبى بكر الصديق رضى الله عنه وأحمد ٤/١

(٢) رواه الترمذى فى التفسير : تفسير سورة الأنفال ٤٦٩/٨ وأحمد ١٠/١ .

ويتوقف فى مكانه أتظن الأرض وهى تدور حول نفسها لا تتخلف دقيقة عن ميعادها فى شروق أو غروب ، ألديها ساعة تضبط بها الوقت ؟

أترى وهى تدور حول الشمس لديها أجنحة تطير بها ، أو مخزون من البترول أو الكهرباء يعينها على السرعة فى جريها ؟ لا شيء ، انها قدرة الله هى التى تحرك الأسباب علوا وسفلا !! فإذا كان الإنسان يقوم بالسبب ثم ينتظر من رب العالمين أن يحقق النتيجة فتلك طبيعة علمية ما ينبغى أن يكابر امرؤ فيه .

المؤمن يأكل الخبز ثم يعلم أن استفادة جسمه من هذا الخبز ليس لأن فى ذرات الدقيق عقلاً يحولها إلى عظم وعصب وقوة وطاقة ، لا ، هذا كله صنع الله !!

أما المادى فيتصور أن هذه الأسباب تتحرك تلقائيا بذكاء فى الدقيق أو بقدرة عقلية فى الرغيف !!

هذا هو الفارق بين المؤمنين وغير المؤمنين .

أما الأسباب فاتخاذها دين .

مما نذكره فى قصة الهجرة أن ما قبل الهجرة وما بعده سواء فى قضية عرض الإسلام ، بعض الناس يقول ـــ وقد أكد هذا مستشرقون ومبشرون وسماسرة لهما ـــ كانت الدعوة الإسلامية قبل الهجرة تعتمد على الاقناع المجرد ، وعلى التفكير الحر ، وعلى رفض الضغط فى جعل الناس يعتنقون ما يشاءون من عقائد ، أما بعد الهجرة ، وبعد أن تماسك السيف فى أيديهم فقد أخذوا يحكمون السيف ، ويبتعدون عن منهج العقل !!

هذا كلام يحتاج إلى أن نناقشه ، صحيح أن الدعوة قبل الهجرة كانت تعتمد على الاقناع الحر ، وعلى المنطق العقلى الواعى ، وعلى ترك المعارضين يأخذون طريقهم كما استحبوا لانفسهم . فى سورة الانعام وهى مكية نقرأ قوله تعالى : ﴿ **قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها** ﴾ [الأنعام : ١٠٤]

فى سورة الكهف وهى مكية نقرأ قوله تعالى : ﴿ **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ [الكهف : ٢٩]

فى سورة يونس وهى مكية نقرأ قوله تعالى : ﴿ **وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون** ﴾[يونس ٤١]

هذا منطق الاسلام فى مكة فهل تغير هذا المنطق فى المدينة ؟ الجواب على هذا يتقاضينا أن ننظر فى الوحى الذى نزل فى المدينة لنرى أترك المسلك الأول أم بقى إلى هذه الوجهة يسير دون أدنى تغيير ؟

نقرأ سورة البقرة وهى سورة مدنية بيقين ، فنجد فيها قوله تعالى : ﴿ **قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم** ﴾[سورة البقرة ١٣٩]

ونقرأ فى نفس السورة قوله تعالى : ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ...** ﴾ [البقرة : ٢٥٦]

ونقرأ فى نفس السورة قوله تعالى : ﴿ **ود كثير من أهل الكتاب لويردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير** ﴾ [البقرة : ١٠٩]

ونقرأ فى سورة آل عمران ، وهى مدنية بيقين ، نقرأ قوله تعالى : ﴿ **فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد** ﴾ [آل عمران : ٢٠]

ونقرأ فى سورة النساء وهى مدنية ، نقرأ قول تعالى ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً** ﴾[النساء ٨٠]

ونقرأ فى السورة نفسها قوله تعالى : ﴿ **فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا** ﴾ [النساء ٩٠]

ونقرأ فى سورة المائدة ، وهى مدنية ، قوله تعالى : ﴿ **ما على الرسول الا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون** ﴾ [المائدة ٩٩]

ونقرأ فى السورة نفسها قوله تعالى : ﴿ **وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول**

واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾[المائدة ٩٢]

ولا أريد أن أستعرض القرآن كله لأبين أن مكيه تمهيد لمدنيه ، وأن مدنيه تصديق لمكيه ، وأن مسلك الإسلام بعد الهجرة هو مسلكه قبل الهجرة ، وأنه الدين الذى احترع فى العالم الحرية الدينية ، وبسط رعايته على من يعارضونه فما أحرجهم ، ولا اضطهدهم ، ولا استذلهم ، ولا نال منهم قليلا ولا كثيرا !!

ولكن هناك من على أبصارهم وبصائرهم حجب يريدون أن يكذبوا ، وأن يزوروا التاريخ ، وأن يقولوا للناس كلاماً لا أصل له فى تصور الإسلام وتصويره للأمور .

شىء آخر يتصل بالهجرة وهو قصة التشريع .

يشيع بين الناس أن ما بعد الهجرة كان عصر التشريع ، وأن ما قبل الهجرة كان عصر التمهيد ، هذا كلام مدخول ، ويحتاج إلى شىء من التوضيح .

فإن شرائع العقيدة كلها تمت قبل الهجرة ، وشرائع الأخلاق الفاضلة كلها تمت قبل الهجرة ، وأن العبادات من صلاة وزكاة تمت قبل الهجرة والحج معروف من شريعة إبراهيم ، وإذا كان فرض الصوم قد تأخر إلى ما بعد الهجرة فلا يقدح هذا فى أن ما قبل الهجرة كان عصر تشريع لأهم ما تحتاج إليه الأمة فى عقائدها وعباداتها .

الصلاة شرعت قبل الهجرة ، الزكاة شرعت قبل لهجرة ، أوائل سورة المؤمنون وهى سورة مكية ، تقول : ﴿ **قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين** ﴾ [سورة المؤمنون ١ ـ ٦]

كل هذا شرع قبل الهجرة ، بل كان تشريع الزكاة من أول ما عرف بعد الايمان بالله والصلاة مباشرة .

وسورة المدثر وهى من أول ما نزل ، نقرأ فيها قوله تعالى على لسان

المؤمنين وهم فى نعيمهم يسائلون المجرمين :

﴿ ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين﴾ [سورة المدثر ٤٢ ــ ٤٧]

تشريع الخمر أغلب العلماء يرى أن الأمر الحاسم بترك الخمر كان فى المدينة ويرى آخرون أن الخمر من أسمائها « الإثم » يقول الشاعر :

شربت الإثم حتى ضل عقلى * كذاك الإثم تذهب بالعقول

والدليل على تحريم الإثم ــ الخمر ــ فى مكة قوله تعالى فى سورة الأعراف ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والأثم والبغى بغير الحق ﴾ [سورة الأعراف ٣٣]

تشريع الربا ، صحيح أن آيات الربا من آخر ما نزل فى سورة البقرة ، ومن آخر ما نزل فى المدينة ، لكن تحريم الربا أشعر القرآن به فى الوحى المكى النازل بمكة، فى سورة الروم نقرأ قوله تعالى :

﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله ، وما اتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾[الروم : ٣٩]

المضعفون .. أى الذين يضاعفون ثوابهم، ويكثرون عند الله أجرهم. فالعصر المكى كان عصر تشريع إلى جانب العصر المدنى الذى أكمل التشريع ، وفرع فى كثير من المسائل بعد استقرار المجتمع الإسلامى وتكون الدولة فيه .

مما ينبغى أن يعرف أيضا فى الهجرة .. أن القرآن الذى نزل فى مكة قبل الهجرة أو فى المدينه بعد الهجرة سواء فى إعجازه ، سواء فى بلاغته ، سواء فى التحدى به . نعم ، يقول بعض العلماء : إن بعض القرآن ثوابه فى التلاوة أو فضله على غيره قد جاءت به نصوص ، مثلا ، قرأنا أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن(١)

(١) قال رسول الله ﷺ: أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة؟ فشق ذلك عليهم، وقالوا أينا يطيق ذلك يا رسول الله، فقال «الله الواحد الصمد ثلث القرآن» رواه البخارى فى فضائل القرآن، باب فضل قل هو الله أحد ٤/٢٣٣ ومسلم فى المسافرين . باب فضل قراءة قل هو الله أحد ٢/١٩٩ .

قال العلماء : إنما تتفاضل السور بموضوعاتها ، فإذا كانت سورة تتحدث عن العقائد وأصول الدين فهى أكثر مثوبة عند الله ، وأكثر مكانة من آية تتحدث عن المواريث ، أو عن الزواج ، أو عن الطلاق ، فآية الكرسى تفضل غيرها ، لأن موضوع الحديث فى الآية عن الله جل جلاله أما السور كلها مكيها ومدنيها والآيات جميعاً التى تناولت العقائد أو العبادات أو الأخلاق أو المعاملات فهى كلها فى طبقة رفيعة من البلاغة ، وفى أوج من الإعجاز تحدى الله به الإنس والجن لا فارق بين قرآن مكى أو قرآن مدني .

وقد قال المستشرقون — ومن بينهم مستشرق مجرى اسمه « جولد زيهر » قال : إن القرآن المدنى أقل بلاغة من القرآن المكى !! وتبعه فى هذا اللغو بعض الذين كانوا يدرسون فى كلية الآداب . وبقوا فى أماكنهم ينشرون هذا الإلحاد ، بل حفظت لهم مناصبهم إلى أن ماتوا .

ونحن نريد أن نوجه النظر إلى أن الغزو الثقافى له تسلل وله مداخل ، وله سوآته ويجب أن نحتاط لديننا وعقائدنا من عدوان المستشرقين والمبشرين وسماسرتهم فى هذا البلد .

وحديثنا المهم فيما يتصل بهذا الغزو فى خطبتنا الثانية إن شاء الله أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمدلله ﴿ **الذى يقبل التوبة عن عباده . ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ [الشورى ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء ، وسيد المصلحين ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

عباد الله أوصيكم ونفسى بتقوى الله عز وجل . واعلموا أيها المؤمنون أننا نواجه مستقبلاً يحتاج منا إلى اليقظة الكاملة ، والوعى الدقيق ، والنظر الفاحص المنقب لكل ما يراد بنا أو يبيت لنا ، والسبب فى هذا أن مصر هى طوعاً أو كرهاً دماغ الإسلام وقلبه ، وأن نجاح الإسلام فيها نجاح له فى العالم أجمع ، وأن ضياع الإسلام فيها ضياع له فى العالم أجمع ، بل الأمر ليس أمر ضياع ، وإنما الأمر أمر المكانة ، يوم يدحرج الإسلام من مكانته كدين أول ، وموجه أول ، وأسس أول لكل بناء خلقى وثقافى وتشريعى واجتماعى ، يوم يدحرج الإسلام من هذه المكانة لتكون له مكانة ثانوية أو ثالثية أو رابعية ، فمعنى هذه الدحرجة أن مستقبل الإسلام سيمضى إلى الغروب إن لم يكن اليوم فغداً وإن لم يكن غداً فبعد غد !! .

ولهذا فإن المحافظة على مكانة الإسلام كموجه أول فى كل شيء له أهمية فى بلدنا !! .

إن مكانة مصر ومكانة الإسلام فيها موضع دراسة ذكية لمن يكرهون هذا البلد ويتآمرون على مستقبله ، وقد شاء الله تعالى أن تقع حرب رمضان وأن تكون هذه الحرب نقلة بعيدة المدى ، ودعما سماويا مباغتا لهذه

الأوضاع فى العالم العربى والعالم أجمع ، فإذا الايمان يعلن عن وجهه الصبيح ، وحقيقته الحلوة ، واذا الجيش الذى حمل عبء دعايات مرة ، ومواقف مصنوعة ، إذا هذا الجيش يزأر بكلمة التوحيد ويمشى تحت صدى التكبير الذى يملأ الأودية ، ويهز الآفاق ويصل الى غرضه .

اريد أن أقول : لقد أحرزنا نصراً مرحلياً بعد هزيمة سوداء صبغت الوجوه بالذل والعار، أريد أن أسأل ما الذى أكسبنا هذا النصر الآن ؟ وما الذى أكسبنا الخزى والهزيمة من قبل ؟

التحقيق فى هذا أن أوضاع الأمة قبل سنة ١٩٦٧ كان يجب أن تنتهى بالهزيمة !! وأن أوضاع الأمة قبل معركة العاشر من رمضان كان معها الأمل فى جنب الله أن يضع خيرا فى الأيدى الممدودة له ، وأن يجعلها ترجع بما يبيض وجهها ويرفع رأسها .

قبل ١٩٦٧ كان هناك إذلال لطوائف كثيرة من هذه الأمة ، كان هناك حرب على الإسلام ، كانت هناك مساءات تديسا،كان هناك استبداد أعمى ، كانت هناك معتقلات مفتحة ، كان سجن كبير يعتبر الإسلام جريمة ، أما عندما دخلنا المعركة الأخيرة كانت أبواب الحرية قد بدأت تتفتح رويدا رويدا ، صفيت المعتقلات ، عاد الجيش إلى كلمة التكبير فى تمريناته ، وكان ذلك لا يعرف له ، بدأت أمتنا ترجع إلى دينها دون قلق أو خوف ، كانت الخيانات التى كانت على مستوى عال بدأت تنزاح عن تاريخنا وعن صدرنا وعن مجتمعنا ، ولكن أيرضي هذا الذين صنعوا هزيمة ٦٧ ؟ لا ، لن يرضيهم هذا ، والذين صنعوا الهزيمة من كُتاب خدموا الجبروت ، وتملقوا المستبدين ، وعاشوا يصنعون للأمة الإلحاد الذى يعميها عن الله ، أهؤلاء يرضون أن تنعم الأمة بالإيمان والحرية ، وأن تأخذ طريقا جديدا يعود بها إلى الله ؟

لا ، إنهم لا يريدون هذا ، إنهم يريدون استئناف نفس الأوضاع التى كانت قبل سنة ٦٧ ، قد تسأل ما الذى يريدون استئنافه ولأقل بصراحة لقد فهمت أن الأصوات التى يجب أن تختفى لا تزال عالية وأن الذين صنعوا الهزيمة لا يزالون يريدون أن يصنعوها مرة أخرى لا أدرى ، لقد استقدمت بعض

الصحف « بول سارتر » طاغية الوجودية وعموداً من أعمدة الكفر فى فرنسا ، وجاءت معه بعشيقته !! واقتحم ارجل الدل وعشيقته القصر الجمهورى ، وكان ينبغى أن يحرم على رجل وعشيقته ، لكن مراكز القوة وأسباب الشر كانت تريد أن تعرض على أمتنا الإلحاد ، والانحلال وأن مجىء رجل مع عشيقته أمر عادى .

والآن يستقدم من فرنسا زعيم لتحالف اليسارى الاشتراكى . ما حاجتنا إلى هؤلاء ؟ ما الذى نتلقاه من هؤلاء ؟ لكن الذين صنعوا هزيمة سنة ٦٧ يريدون أن يصنعوا هزيمة أخرى لبلدنا .

إن الذين قادوا معركة النصر هم المؤمنون ، ومنهم الحاج حافظ سلامة زعيم السويس غير منازع ، الرجل الذى رفض الاستسلام وخرج مع الجنود والمؤمنين من مسجد الشهداء فى السويس ، وقاتل حتى هزم اليهود وردهم بعد أن أحرق دباباتهم . وردهم خارج المدينة وجعلها مدينة محترمة صامدة .

هذا الرجل بقى فى المعتقل ستة وعشرين شهرا ، يذوق الذل ، حتى خرج أخيرا فى أيام الحرية وأدى واجبه ؟ لم يقل هذا الانسان أنا ما أدافع عن بلد ذقت فيه الذل ، لا ، ما قال هذا ، عهد الذل انتهى ، ينبغى أن ينتهى إلى الأبد ، إن أعداء الإسلام أصحاب حيلة ، وقد بدءوا الآن يمكرون كيف يعودون بالأمة إلى الشتات الذى كانت فيه ؟

ستسمع ألف كلمة إلا كلمة الإسلام ، ستقرأ قضايا كثيرة إلا قضايا الإسلام ، سترى أن ضيوفا يجيئون حمراً أو صفراً ، ولن يجاء برجل يمثل الإسلام !!

لم ؟ هؤلاء لم يرثوا مصر . إن مصر التى شاء الله أن يكسر قيودها ، وأن يحرر أرضها ، ينبغى أن يعلم الناس الآن أن هذا التراب حرام على الأصوات التى خدمت الجبروت ، وبقيت فى كنف الذل تهتف له وتبشر به ؟

ليس هؤلاء قادتنا ، إن قادتنا هم الذين حموا راية الإيمان وبكوا من خشية الله ، وبشروا بالحق ، وبقوا إلى جانب الكتاب والسنة .

إننا نريد أن تصحو هذه الأمة ، إن الأمة التى تنسى ولا تذكر لا تستحق البقاء .

وقديما قيل فى مصر :

نُسيت روعته فى بلد كل شىء فيه يُنسى بعد حين

ونحن اذا كنا ننسى كل شىء بعد حين فلا نصلح للبقاء .

ينبغى أن نعرف أن الايمان أساس نهضتنا ، وأن الإسلام سياج عزنا ، وأن راية الحق هى التى ينبغى أن ترفرف علينا ، وأن الذين خدموا الإلحاد ، وجاءوا بزعمائه من أوربا رجالا أو نساءً ، أو الذين يريدون تعكير صفونا وتوسيخ فكرنا ، وجعل حياتنا تعتمد على مصادر من الخارج هذا كله غثاء ولغو ، نحن ينبغى أن نبنى على قواعدنا ، وأن ننطلق من مبادئنا ، وأن نتجه إلى غاياتنا وأهدافنا .

نحن أغنياء عن « بول سارتر » ، وعن « ميتران » وعن بقية أولئك الذين عاشوا فى الغرب يحرسون ضلاله .

وأنا أعلم وغيرى يعلم أن سارتر جاء هنا وبعد يوم كان فى إسرائيل !

وأنا أعلم وغيرى يعلم أن زائر مصر الحالى صديق لإسرائيل وصديق لزعيمة إسرائيل !

فما الذى يجعل أمتنا تتسول الرجال والثقافات على هذا النحو الأعمى !

لكن هى طبيعة القوم ، هى طبيعة العصابة التى تآمرت على مستقبل بلدنا من أمد غير طويل .

إننا بحاجة ملحة إلى أن نعرف الايمان ورايته ، ولا نمشى إلا تحت هذه الراية حتى نصل إلى غايتنا أن شاء الله .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير واجعل الموت راحة لنا من كل شر »[1]

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾ [الحشر ١٠]

عباد الله

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل ٩٠]

أقم الصلاة

• • •
• •
•

---

(١) رواه مسلم والنسائى وأحمد

كَانَ خُلُقُهُ ٱلْقُرْآنْ

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

١٤٠١ هـ — ١٩٨٠ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فقد قال ربنا تبارك اسمه وصفاً للكتاب العزيز : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد** ﴾ [الزمر : ٢٣]

معنى أن القرآن متشابه فى هذه الآية : أن معانيه متماثلة على كثرة السور ، وأن المحاور التى يدور عليها متقاربة وإن تعددت الآيات وطالت .

وليس معنى التشابه هنا ما يقابل المحكم فى قوله تعالى : ﴿ **هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات** ﴾ [آل عمران : ٧] .

المقصود بالمتشابه فى آية سورة الزمر : أن معانى القرآن الكريم على كثرتها تدور على مبادىء معروفة محدودة ، وأغراض معينة واضحة ، ولذلك فإن فى الإمكان القول بأنها متشابهة .

وأطننا فى الجمعة السابقة أوضحنا أن القرآن الكريم دارت آياته الكثيرة على أربعة معان :

أولا : وصف القرآن الكريم للكون ، وحديثه عن المادة وآفاقها وقواها وأسرارها .

ثانيا : تاريخ الماضين وسرد قصصهم .

ثالثا : اليوم الحاضر وما فيه من تكاليف ، وما يقع على الناس من أعباء .

رابعا : مشاهد القيامة وما إلى ذلك مما يتصل بالحساب من ثواب وعقاب .

معنى المثانى : الإزدواج فى الجمع بين أمرين . فالقرآن الكريم فى تربيته للنفوس وفى توجيهه للأمم يجمع بين مصلحتى الروح والجسد ، بين منطقى الفكر والعاطفة ، بين مصلحتى المعاش والمعاد ، بين الوعد والوعيد ، بين الرغبة والرهبة .

قلت : إننا فى هذا الشهر نتحدث فى السيرة الشريفة ، فى النبوة الخاتمة وصاحبها عليه الصلاة والسلام ، وقد بدأت بالحديث عن القرآن لأن نبينا عليه الصلاة والسلام كان قرآنا حيا فى مسلكه ، فى خلقه ، فى شمائله ، فى عبادته ، فى جهاده ، فى حربه ، فى سلمه ، فى سفره ، فى إقامته ، فى انتصاره ، فى انهزامه ، فى صحته ، فى مرضه ، فى خلوته ، فى جلوته ، فى شئونه كلها .

صَحَّ عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أنها سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت للسائل : ألست تقرأ القرآن ؟ قال : بلى ، قالت : فإن خلق نبى الله ﷺ كان القرآن (١)

المعنى الذى شاع هذا الحديث أنه ما من خير جاء فى القرآن أو بر أو فضل أو محمدة إلا والنبى عليه الصلاة والسلام قد تخلق بذلك ، وظهر به ، واصطبغت نفسه بحقيقته ، وما من شر أو مرذول من السلوك والعمل حذّر

---

(١) رواه مسلم فى صلاة المسافرين ـــ باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه ١٦٨/٢ ، ١٦٩

القرآن منه ونهى عنه إلا ابتعد النبى عليه الصلاة والسلام عنه وكان أبعد ما يكون عن اقترافه أو القرب منه .

هذا هو المعنى الشائع لحديث ، كأن الحديث يجعل دائرة القرآن فى شمائل النبى وسيرته لا تتعدى الأخلاق .

فى تأملى لسيرة وفى تأملى لآفاق النبوة وجدت أن الحديث يمكن أن يكون أوسع دائرة وأرحب آفاقا ، يمكن أن يكون المعنى المقصود أن النبى ﷺ كان قرآنيا فى حياته كلها .

كيف كان قرآنيا فى حياته كلها ؟

ذكرت لكم أن القرآن الكريم — فى العصر الأول فيه — عرّف رب العالمين عن طريق آثاره فى الكون وإبداعه فى الخلق ، فهو يعرف الله جلّ جلاله فيقول :

﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾ [الروم : ٤٨] .

﴿ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ [غافر : ٦١] .

﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء، وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ [غافر : ٦٤] .

﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ [غافر : ٧٩ ، ٨٠] .

فهنا نجد أن الوصف لله سبحانه وتعالى هو بتوجيه الأنظار إلى أسمائه الحسنى وصفاته العليا فى كتاب الكون المفتوح وفى هذا العالم الذى يسر لنا كل ما فيه وسخرت لنا سماواته وأرضه .

كان النبى عليه الصلاة والسلام فى هذا الجانب من القرآن شديد الحس

بالوجود الإلهي ، ومعنى « خلقه القرآن.. » في هذه الناحية : أنه لا ينظر إلى شيء إلا ويرى الوجود الأعلى مسيطرا عليه ، نافذا فيه ، واضحا من خلاله ، يتضح هذا في ذكره لله واستشعاره مجده ونعمه ووجوده .

فالله جل شأنه في كل شيء زمانا ومكانا ، وقبل أن نشرح الزمان والمكان أجيء بآية من سورة الأنعام تقول : ﴿ **قل لمن ما في السموات والأرض قل لله** ﴾ [الأنعام : ١٢] .

فهذه الآية تتحدث عن المكان ، والآية التي بعدها تتحدث عن الزمان ، قال تعالى : ﴿ **وله ما سكن في الليل والنهار ، وهو السميع العليم** ﴾ [الأنعام : ١٣] .

ملاحظة هذه المعاني زمانا ومكانا كانت تظهر في حياته عليه الصلاة والسلام نوعا من التسبيح والتحميد والتمجيد والذكر والشكر لم يعرف مثله في حياة بشر آخر ، كان إذا أصبح قال :

« **أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه النشور** » (١) .

« **أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وسنّة نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين** » (٢) .

« **اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر** » (٣) .

---

(١) تتمة الدعاء « وإذا أمسى قال : أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه المصير » رواه البزار وإسناده جيد . كذا في مجمع الزوائد ١١٤/١٠

(٢) رواه أحمد في المسند ٤٠٦/٣ ، ١٢٣/٥ والدارمي في الاستئذان — باب ما يقول إذا أصبح ٣٧٨/٢ والنسائي في عمل اليوم والليلة — ذكر ما كان النبي ﷺ يقوله إذا أصبح ص — ١٣٣ والطبراني في الكبير — في الدعاء . وقال في صحيح الجامع (٤٦٧٤) : صحيح .

(٣) رواه أبو داود في الأدب — باب ما يقول إذا أصبح ٤١٢/١٤ والنسائي في عمل اليوم والليلة ص ١٣٧ وابن حبان وصححه (موارد الظمآن رقم ٢٣٦١) وابن السني رقم ٤١ والبيهقي في الشعب . وقال النووي في الأذكار : ٧٤ إسناده جيد

وكان يحمد ربه قائلا :

« يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك » (١) .

إلى آخر هذه التسبيحات والتحميدات التي لهج بها لسانه ، وعمر بها جنانه ، وتحركت بها عواطفه ، وتركها في تراثه نورا يقود الناس إلى ربهم ويربطهم به أوثق رباط .

كان في شعوره هيمنة الله على الكون ينظر إلى القريب والبعيد فلا يرى إلا قدرة الله وجلاله ، ينظر إلى الهلال وقد بدا فيقول :

« اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام ربي وربك الله » (٢) .

كان إذا نزل المطر حسر (٣) ثوبه حتى أصابه من المطر ، فإذا سئل قال :

« لأنه حديث عهد بربه تعالى » (٤) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « **كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال : اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به ، وإذا تخيلت** (٥)

---

(١) رواه ابن ماجه في الأدب — باب فضل الحامدين ١٢٤٩/٢ وفي إسناده قدامة بن إبراهيم ، ذكره ابن حبان في الثقات ، وصدقة بن بشير ، لم أر من جرحه ولا من وثقه ، وباقي رجال الإسناد ثقات . كذا في الزوائد

(٢) رواه الترمذي في الدعوات — باب ما يقول عند رؤية الهلال . وقال : هذا حديث حسن غريب ٤١٣/٩ ، ٤١٤ وأحمد في المسند ١٦٢/١ والدارمي في الصوم — باب ما يقال عند رؤية هلال ٢ ٧ والحاكم وابن حبان وزاد و « التوفيق لما تحب وترضى » . وقال في صحيح الجامع (٤٧٢٦) : حسن

(٣) أي كشف بعض بدنه

(٤) رواه مسلم في صلاة الاستسقاء — باب الدعاء في الاستسقاء ٢٦/٣ ومعنى حديث عهد بربه أي بتكوين ربه إياه ومعناه أن المطر رحمة وهي قريبة العهد بخلق الله تعالى لها فيتبرك بها .

(٥) تخيلت السماء : أي تغيمت وتهيأت للمطر .

السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر ، فإذا مطرت سرى عنه فعرفت ذلك فى وجهه قالت عائشة · فسألته ، فقال : لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا » (١) .

كان إذا رأى قرية يريد دخولها قال :

« اللهم ربَّ السموات السبع وما أظللن ، وربَّ الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما ذرين فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها » (٢) .

هذا هو تجاوب النبى مع ما فى القرآن من وصف للكون .

المنظر العادى يرى الشمس تطلع ويراها تغيب ، يرى الريح تعصف ويراها ترقد فلا يهتز

أما نبينا عليه الصلاة والسلام فقلبه مرتبط بمن سخر الشمس والقمر ، وبمن شق الأرض عن النبات ، وبمن أدار القمر هلالا ثم عاد كالعرجون القديم ، إلى آخر ما فى ذلك من مظاهر الكون .

كان ارتباطه بالقرآن تطبيقا ، هو يقرأ القرآن وشعوره وهو يقرأ أنه مع الكون ، يعرف رب الكون من خلال صفحات هذا الكون الكبير .

هذه ناحية ، وهى معرفة الكون وأسراره وآثاره جلّ جلاله فى ملكوته الضخم ، وتجاوب النبى ﷺ معه .

---

(١) رواه البخارى فى بدء الخلق ــ باب ما جاء فى قوله : **﴿ وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ﴾** ١٣٢/٤ ومسلم فى صلاة الاستسقاء ــ باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم والفرح بالمطر ٢٦/٣ .

(٢) رواه النسائى فى عمل اليوم والليلة ٣٦٨ وابن خزيمة وابن حبان (موارد الظمآن ٢٣٧٧) والحاكم ١٠٠/٢ وقال . صحيح الإسناد ٤٤٦/١ وابن السنى رقم ٥٢٩ والبيهقى فى السنن ٢٥٢/٥

الناحية الثانية : تريخ الماضين وسرد قصصهم ، تاريخ الحياة ، تاريخ الناس مند ظهروا على ظهر هذا الكوكب وبدأ نشاطهم يملأ الأرجاء ، إن هذا التاريخ يصور مدنيات ظهرت وبادت ، وقرى عمرت بالإيمان وبالفجور ثم حصدت وعادت إلى ربها ليسألها عما قدمت وأخرت ، هذا التاريخ يحكيه القرآن الكريم ليعيش نبينا ﷺ وهو يتلاقى معه .

فى سورة الأنعام نقرأ قوله تعالى ـــ وهو يصف عمل المرسلين بين الناس ـــ : ﴿ **وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون** ﴾ [الأنعام : ٤٨ ، ٤٩] ثم يجرى رب العالمين على لسان نبيه ﷺ هذا الكلام ﴿ **قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلىَّ قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون . وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون** ﴾ [الأنعام : ٥٠ ، ٥١] ثم يقول الله له بعد جدال مع المشركين : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين** ﴾ [الأنعام : ٥٢] .

هذا كلام يوجَّه به النبى ﷺ وهو يتعامل مع المشركين فى مكة ، لكن لا جديد تحت الشمس ، وما يقع له فى مكة وقع مثله لأول المرسلين نوح ، قال تعالى : ﴿ **.. وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين . قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون . أم يقولون افتراه قل إن**

افتريته فعليّ إجرامي وأنا بريء مما تجرمون . وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ [هود : ٢٩ — ٣٦] .

القصة واحدة ، والقضية واحدة ، والتلاقي بين الموضوعين ظاهر ، إلا أننا نجد القرآن الكريم وهو يذكر قصة نوح قبل الطوفان يتجاوز العصور الطويلة بعد الطوفان إلى عهد البعثة المحمدية ، ثم في أثناء سرد قصة نوح تجيء آية : ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ وهي كلام عن موقف المشركين في مكة مع النبي الخاتم ﷺ وهو يؤسس عقيدة التوحيد ويطارد خرافات الوثنية ، تجيء هذه الآية — أثناء الحديث عن نوح — فتنقل الماضي كله إلى حاضر الناس وتنقله إلى يومنا هذا ، وهي تشير إلى أن الإنسان الكبير الذي كان خلقه القرآن كان فعلا يعيش مع ماضي الإنسانية ومع حاضرها ، وأن موقفه ممن كذبوه وآذوه وتربصوا به هو موقف الأنبياء من قبل ، وأن النتيجة واحدة ، ولذلك قال الله في آخر السورة : ﴿ **وكلًا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ [هود : ١٢٠ — ١٢٣] .

كان خلقه القرآن ، كان مع القرآن في وصفه للكون ، كان مع رب الكون وهو يبدي مظاهر قدرته وحكمته في العالم الذي نعيش فيه .

كان خلقه القرآن ، كان مع القرآن في سرده قصص الأولين ، وفي عرضه لما أصاب أولئك الأولين من خير أو شر ، من نصر أو هزيمة ، من عقاب أو عفو ، كان مع هذا التاريخ يعيش فيه ويبقى معه .

فهو قرآن يتحرك ، لأنه مع القرآن في وصفه لله عن طريق التدبر في آفاق الملكوت ، ومع القرآن الكريم في وصفه لفعل الله بخلقه وهو يحكي التاريخ القديم ، وما تضمن من قصص يجب أن نلتفت إليها وأن نستفيد منها ، فإن قصص الأولين ليست مقطوعة عن حاضر العالم .

من علماء المادة من اعتبر الزمن بعداً رابعاً مع الطول والعرض والعمق ، ونظرية النسبية تشير إلى هذا ، وقد كتب أحد الأطباء فى كتاب « الإنسان ذلك المجهول » (١) ما يؤكد هذه الحقيقة .

وقد أشار بعض المفسرين عندنا إلى أن الزمن بعد رابع فى حياتنا ، لأننا نجىء بعد أسلافنا ، ونحن نحمل رسالتهم ، ونتبنى قضاياهم ، ونسير إلى أهدافهم ، ونقر ما فعلوا ، وندافع عنه ، فنحن مسئولون عما قدموا وأخروا .

وهذا صحيح ، وبهذا فسَّر العلماء قوله تعالى لبنى إسرائيل فى المدينة : **﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم . وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾** [البقرة : ٤٩ ، ٥٠] .

بعض الناس يقول : ما لليهود فى المدينة والنجاة من فرعون وأهله ؟! الصلة مقطوعة .

لا ، الصلة قائمة ، ما داموا يتبنون عقائد آبائهم ، ويسيرون وفقها ، ويدافعون عنها ، وينشرون حضارتها ، فهم مسئولون ومؤاخذون .

والواقع أن الإنسانية تشبه رجلا فى الخمسين أو الستين من عمره ، إنه يجب أن يتذكر ماضيه ، فهو مسئول عما كان فى شبابه وما فرط منه فى أيامه الأولى ، وينبغى أن يعتبر مما كان منه .

ولذلك فإن قصص القرآن الكريم ـــ فى الحقيقة ـــ إنما يشير إلى هذا البعد الرابع فى كيان الأمم وفى شخصيتها عندما يحكى القرآن لنا ما كان ، لأن ما كان ليس غريبا علينا ، إنه يعنينا أتم العناية ، فيجب أن نكترث به ، وأن نلتفت إليه ، وأن نستفيد منه ، والرجل العظيم القرآنى النزعة الذى حمل هذا القرآن كان يمثل هذه المعانى .

المعنى الثالث : اليوم الحاضر وما فيه من تكاليف .

---

(١) الدكتور ألكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول : ١٨٥ ، ١٨٦ ط مكتبة المعارف ـــ بيروت .

إن القرآن الكريم يأمر وينهى ، يعلم ويربى ، يعظ ويذكر ، لنسير وفق مراد الله لنا ، ووفق ما حط لحياتنا على ظهر الأرض ، ورب العالمين لا يستفيد من طاعات الناس شيئا ، ولا يضره من معاصى الناس شيئا ، إنما يعمل ذلك لمصالح العباد أنفسهم . ﴿ **وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين** ﴾ [النحل : ٣٠] .

والواقع أن الناس ـــ الآن وقبل الآن ـــ قسمان :

قسم يريد أن يحيا وفق هواه ، ما يتجه بتوجيه الله له ، إنما يريد أن ينبعث من رغباته ومن شهواته ومن أهوائه وآرائه لا يبالى بشىء .

وقسم يستمع إلى هدايات الله ويرى أن فيها مصلحته ورحمته ، وأن من الحكمة أن يعيش وفق الخط الذى أمره الله أن يستقيم عليه .

حاضر الناس أو ما هم عليه فى معتقداتهم وفى أعمالهم وفى أحوالهم كلها كان نبينا عليه الصلاة والسلام صورة جيدة له ، فهو فيما يصيبه من خير أو شر يرى أصابع القدر فى كل شىء ، هناك ناس ـــ كما وصف الله ـــ : ﴿ **فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين** ﴾ [الحج : ١١] .

رأينا نبينا عليه الصلاة والسلام فى أشد الساعات تعباً له يستقيم لقدر الله ، ويرجو من الله الرضا . فى هزيمة « أحد » كان المصاب شديدا ، وكان الجرح عميقا ، وكان الألم مستوليا على المؤمنين غما بغم ، ومع ذلك فإن النبى عليه الصلاة والسلام فى أعقاب المعركة قال لأصحابه : « استووا حتى أثنى على ربى » !!

المتنبى لما أغضبه سيف الدولة قال :

فإن يكن الفعل الذى ساء واحداً فأفعاله اللائى سررن ألوف (٢)

---

(١) رواه أحمد فى المسند ٢٢٤/٣ والحاكم ٥٠٧/١ ، ٢٣/٣ ، ٢٤ وقال : صحيح على شرط الشيخين وقال الألبانى إنما هو صحيح فقط فإن فيه عبيد بن رفاعة ولم يخرج له الشيخان

(٢) ديوانه ٤٦٧/١

عن نكبر نبينا عليه الصلاة والسلام عن أن تضرب له مثلا من موقف شاعر مع ممدوحه ، ولكننا نضرب مثلا صغيرا ليعلم الناس أن الموصولين بالله يشغلهم ما يحسون به من رِفْدِ الله ومجده ، وما يشغلهم من تسبيحه وحمده ، إن ذلك كله يخفف من آلام الحياة إذا أحاطت بهم ، بل لعل ما يشغلهم أولًا وآخراً هو إرضاء الله .

في غزوة « الخندق » ظل القتال أمدا غريبا حتى ذهبت العصر فكان حزن النبي ﷺ عليها شديدا وقال : « ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس » (١) !

المعنى الرابع : اليوم الآخر وما يتصل به .

اليوم الآخر ذكر في القرآن وفي السنة كثيرا ، والموت ذكر في القرآن وفي السنة كثيرا ، ويسعى أن يُعرف شيء في هذه النواحي ، لماذا ؟ لأن الناس تظن أن الدين هدم للدنيا ، أو أن الدين يبني الآخرة على أنقاض الأولى ، أو أن المتدينين نظرتهم تشاؤمية انسحابية ، هكذا يتصور الناس الدين ، وهذا غير صحيح .

الواقع أن السبب في كثرة كلام الله جل جلاله عن الدار الآخرة هو كسر غرور الناس بالدنيا ، فإن انشغال الناس بحاضرهم واحتباسهم في آلامهم وآمالهم الحاضرة يكاد يذهلهم ذهولًا مطلقا عن اليوم الذى ينتظرهم ، فيريد الله أن يبين لأى إنسان ليستطيع في لحظة أن ينتقل من صحراء الحريرة إلى أنهار النعم في لحظة شهادة !! لحظة وحيدة سريعة تنقله من دار ليس فيها إلا الشظف إلى دار أخرى فيها النعيم المقيم والرحيق المختوم !!

هذا نوع من المعادلة ، في علم الطبيعة يقولون : إن ذراع المقاومة مع المقاومة يعادل ذراع القوة مع القوة .

---

(١) رواه البخاري في الجهاد ــ باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة ٥٢/٤ ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ــ باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ١١١/٢ .

فالتعادل لابد منه ، لكي يكون هناك توازن ، والناس يفقدون توازنهم عندما يعبدون الأولى وينسون الآخرة ، فلابد من إعادة التوازن ، ولو أن إنسانا آثر الآخرة ونسي الأولى لكان مخطئا ، فإنه ما يستطيع أن يكون آخرته إلا من نجاحه في دنياه ، وما يستطيع أن ينصر دينه إلا بامتلاكه للدنيا وفهمه لقوانينها وتسخير هذا الفهم أو الملك لنصرة الحق وتأييده ، فلابد من هذا ، وعلى ضوء ذلك نفهم قول الرسول ﷺ : « **إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها** » (١) .

لماذا يغرسها والآخرة تقوم ؟

لأن الغرس طلب للآخرة ، لأن الغرس عبادة تضمن الآخرة ، لأن الغرس يغني المؤمنين عن مدِّ أيديهم إلى طلب معونة الكافرين ، لأن الغرس هنا ضمان للأولى ، ثم مع الإيمان تسخير لهذه الضمانات في إعزاز المؤمنين وإعفافهم .

وكان نبينا عليه الصلاة والسلام إذا قرأ القرآن يقرأ مترسلا إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مرَّ بسؤال سأل ، وإذا مرَّ بتعوذ تعوذ (٢) .

ورووْا أنه كان في الصلاة يوما فتأخر فسئل بعد ذلك فقال : « **لقد رأيت في مقامي هذا كل شيء وُعِدتُهُ ، حتى لقد رأيتني أريد أن آخذ قطفاً من الجنة حين رأيتموني جعلت أتقدم ، ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا حين رأيتموني تأخرت** » (٣) !!

هذا إحساس إنسانٍ الروحانيةُ الفوارة تغلب على شخصيته أحيانا فتكاد تسلخه عن الإهاب الآدمي ليرى مالا يستطيع الآخرون أن يروه ، وهو نبي مُلْهَمٌ وإنسان يُحَدَّث من السماء !!

---

(١) رواه أحمد في المسند ١٨٤/٣ ، ١٩١ والبخاري في الأدب المفرد ـــ باب اصطناع المال ص ٦٩ وعبد بن حميد . وقال في صحيح الجامع (١٤٢٤) . صحيح . وقال في فيض القدير : ورواه أيضا البزار والطيالسي والديلمي . قال الهيثمي : ورجاله ثقات وأثبات .

(٢) جزء من حديث طويل رواه مسلم في صلاة المسافرين ـــ باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل ١٨٦/٢

(٣) رواه البخاري في كتاب العمل في الصلاة ـــ باب إذا انفلتت الدابة في الصلاة ٨٢/٢ ، مسلم في صلاة الكسوف ـــ باب صلاة الكسوف ٢٨/٣

هذا فى نظرى معنى « كان خلقه القرآن » .

معنى كان خلقه القرآن : أنه — فى حياته على ظهر الأرض وبين آفاقها وأرجائها وتحت السماء الرحبة ، ومع تاريخ الحياة والأحياء على امتداده الطويل ، وفى زحام الأحياء الذى يلهى بمشاغله ومتاعبه ، وفى هذه النهايات التى ستظرها حصاداً لحياتنا على ظهر الأرض — كان يتجاوب مع القرآن الكريم !!

القرآن كتاب مشحون بفنون من الثقافات التى تتصل بالظاهر والبطن ، واليوم والغد ، والدنيا والآخرة ، والأخلاق والمسالك ، والنيات والظواهر .

إن هذا القرآن إذا تجاوب إنسان معه صاغه صياغة جديدة فى أحواله كلها ، ثم يمشى المؤمنون بعد ذلك على منهج نبيهم ﷺ وقد أجرى الله على لسانه : ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣]

هذه هى الأسوة الخاتمة ، وتلك صلتها بالقرآن فى معانيه التى تتشابه أو التى تزدوج .

هذا هو كتابنا الذى يجمع بين التربية والتعليم ، بين الرغبة والرهبة ، بين الوعد والوعيد ، بين الخوف والرجاء ، بين الدنيا والآخرة ، بين الروح والجسد ، بين العقل والعاطفة . هذا الكتاب الذى تشابهت معانيه وهو يصف ملكوت الله وحياة الأولين ومستقبل الآخرين .

هذا الكتاب كله تجسد سلوكا وجهادا ، عبادة وقيادة ، تشريعا ومعاملة وسياسة فى مسلك النبى الخاتم ﷺ ، فكان بهذا قديرا على تغيير الدنيا إلى وضع آخر وإلى وجهة أخرى .

وجدير بأتباعه إذا اعتنقوا القرآن وفهموه وتثقفوا منه وعاشوا فى وجوده أن يقوموا بتلك الرسالة وأن يؤدوا ما عليهم لله .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ **الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمدا رسول الله إمام النبيين وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فهذا تقويم السنة الميلادية المقبلة ، وجدت دساً فيه وإهانة لديننا وافتئاتا على نبينا ﷺ ، وأنا لا أريد شيئا أكثر من الدفاع وإلقاء شعاع من الضوء على ما فى هذا من غش .

هذا التقويم الذى أصدرته مؤسسة الأهرام التجارية — وأظنها تتبع القطاع العام — فى ٢٨ صفر سنة ١٤٠١هـ أو فى ٤ يناير سنة ١٩٨١م كتبت فى ظهر الورقة الأولى ما يأتى

قال محمد ﷺ : « **انصر أخاك ظالما أو مظلوما** » (١) .

وقال المسيح عليه السلام : « **أحبوا أعداءكم . أحسنوا إلى مبغضيكم . باركوا لاعنيكم . وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم** » (٢) .

هذا كلام يحتاج إلى تعليق هادىء ، فأما حديث : « **انصر أخاك**

---

(١) نص الحديث : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، فقال رجل يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوما أفرأيت إذا كان ظالما كيف أنصره ؟ قال : تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره » رواه البخارى فى الإكراه — باب يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه ٩/٢٨ ، ٢٩

(٢) إنجيل لوقا الإصحاح السادس

ظالما أو مظلوما » فتتمته ما يأتى : « قال رجل يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوما أفرأيت إذا كان ظالما كيف أنصره ؟ قال تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره » .

هذا معنى الحديث فجاء الكاتب وأخذ الجزء الأول ، كما يجىء إنسان ويقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة » !!

وأين « وأنتم سكارى » ؟

المهم : لا تقربوا الصلاة !!

وبعد أن بتر الحديث وأفهم الناس أن محمدا ﷺ رجل يقول لأتباعه : انضم إلى أخيك معتديا أو معتدى عليه ، قال عن المسيح إنه قال . « أحبوا أعداءكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، باركوا لاعنيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم » .

أما أن المسيح قال هذا فليس بكثير على نبى التسامح والمحبة أن يقول هذا ، ولكنه أيضا قال كلاما آخر . ففى الإصحاح العاشر من إنجيل . « متّى » يقول : « لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاما على الأرض . ما جئت لألقى سلاما بل سيفا » !!

وفى الإصحاح الثانى عشر من إنجيل « لوقا » يقول : « جئت لألقى النار على الأرض » !!

صاحب مؤسسة الأهرام التجارية أراد أن يوهم الناس فاختار حديثا وبتره على طريقة :

ما قال ربك ويل للألى سكروا بل قال ربك ويل للمصلينا

منطق السكارى والحشاشين ينتقل إلى مؤسسة الأهرام التجارية فتقول : محمد يأمر الناس بأن ينضموا إلى إخوانهم ظالمين ومظلومين .

هذه واحدة ، فى ٦ يناير و ٧ يناير وهو ميلاد السيد المسيح عند الأقباط جاء الكاتب بأبيات لأحمد شوقى :

وُلد الرفق يوم مولد عيسى والمروءات والهدى والحياء
وازدهى الكون بالوليد وضاءت بسناه من الثرى الأرجاء
وسرت آية المسيح كما يسرى من الفجر فى الوجود الضياء (١)

هذا كلام صحيح ، ونحن نؤيده ، فإذا أردت أن تتحدث عن ميلاد محمد ﷺ بعد أن تحدثت عن ميلاد عيسى ﷺ فماذا تقول ؟

كان يمكن أن تنقل عن شوقى ، نقلتَ له أبياتا فى مدح عيسى عليه الصلاة والسلام انقل من شوقى البيت الأول — حتى — من الهمزية .

وُلد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء (٢)

لا ، لم يقل هذا ، بل قال ما يأتى :

فى يوم الاثنين الموافق ٢٣ إبريل سنة ٥٧١م كان مولده — مولد من ؟ الحقد طفح ، ما قدر أن يقول : مولد محمد — كان مولده فى بيت أمه السيدة آمنه بنت وهب بعد وفاة أبيه عبد الله بن عبد المطلب ، فى هذا اليوم الثانى عشر من ربيع الأول يحتفل المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها بمولده ﷺ .

هذا هو الذى قيل ، نحن نعفو وندعو للعفو ، لكن نقول للدولة : من أخطأ يؤدب ، ولا ينبغى أن يترك مبشر يشتغل بمنطق السكارى أو منطق الحشّاشين ليتناول صاحب الرسالة ودين الأمة بهذه الطريقة .

إننا أهل سماحة ، وقلت : إننى — فقط — أدفع عن نبينا وعن أمتنا ، وأوضح أننا نكره العدوان . ولكننا نرفض من الآخرين أن يستغلوا طيبتنا فى النيل منا وإهانة ديننا ونبينا عليه الصلاة والسلام ، وسننتظر ما يصنعه المسئولون مع مؤسسة الأهرام التجارية التى رأت أن تشتغل بالتبشير على آخر الزمان .

---

(١) الشوقيات : ٢٧/١ .

(٢) الشوقيات : ٣٢/١ .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا لتى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

* * *

---

(١) رواه مسلم فى الذكر باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر مالم يعمل : ٨١/٨ .

عرضٌ موجز لمسيرة الدعوة الإسلامية
خلال أربعة عشر قرناً

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن العقل الإنسانى ينضج مع طول الدراسة وكثرة التجربة ، والإيمان بالله يسمو ويستوى — أيضا — مع طول الدراسة ، وكثرة التجربة ، وملاحظة القدر الأعلى فيما يكون من شئون الناس ، وفيما يقع لهم من ضحك أو بكاء ، ومن هزيمة أو نصر ، ومن رفعة أو ضعة .

ومن هنا أمرنا رب العالمين أن ندرس التاريخ ، وأن نستخلص العبر منه ، وأن ننتفع بما كان من أحوال الناس وبما كان من سنن الله فى هذه الأحوال ، وذلك حتى ينضج العقل والإيمان معا ، قال تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ﴾ [الحج : ٤٦] .

وعندما قرعت مسامعى أنباء الوحدة المرتقبة بين « مصر » و « ليبيا » شعرت بشيء من الرضا ، ولكننى فى الوقت نفسه قلت : ينبغى أن نعود إلى ماضى أمتنا الطويل نقف بإزائه وجها لوجه ، نتفرس فى

ملامحه ، ونتعمق فى معانيه ، ونرجع منه بعظات تصون غدنا ، وتحدو مستقبلنا ، وتسدد خطانا إلى الغاية المنشودة حتى لا نرتجل تصرفا نندم عليه ، وحتى لا يعبث بنا الأعداء كما عبثوا بنا قديما .

وفى ساعة من طواف العقل بالماضى وجدت أن هذا الدين الذى نعتنقه سلخ من عمره — المديد إن شاء الله — أربعة عشر قرنا ، وأن هذه القرون الأربعة عشر يمكن أن تقسم على خمس مراحل متميزة ، وبداهة لا يمكن لبشر أن يتحدث عن الإسلام فى خطبة ، ولكنى أتابع خطاً بيانيا يمثل الانحدار والارتفاع فى هذه المراحل الخمس لكى نعود على عجل بعد سياحة سريعة إلى حاضرنا لنواجه يومنا وغدنا ببصيرة مفتوحة وفكر مستنير .

إن المراحل الخمس التى مرّ بها تاريخنا خلال أربعة عشر قرنا يمكن أن توجز فى :

أولا : عصر النبوة والخلافة الراشدة .

ثانيا : عصر الدولة الأموية .

ثالثا : عصر الدولة العباسية .

رابعا : عصر الدولة العثمانية .

خامسا : عصر الانحلال والتمزق والفرقة والتقسيم الذى بدأ منذ الهجوم الاستعمارى على الدولة التركية وإسقاط الخلافة العثمانية ، وتحويل المسلمين فى أرجاء العالم إلى أمة ممزقة لا يجوز أن تجتمع على دينها ولا أن يرتفع لإسلامها علم واحد .

هذه هى المراحل الخمس فى تاريخنا الطويل .

فإذا نظرت إلى عصر النبوة وجدت أن محمداً عليه الصلاة والسلام — كما قلت بإيجاز — ربّاه الله جلّ جلاله ليربى العرب به ، وربّى العرب به ليربى بهم الناس أجمعين !!

فاستطاع خلال حياة الرسالة — التى لا تتجاوز ثلاثا وعشرين سنة — أن يوحد الأمة العربية وكانت قبائل نافرة وطباعا شرسة غليظة وقوى مبعثرة هنا وهناك .

استطاع هذا النبى الكريم ــ بوحى الله ، وبإشراق النبوة ، وبصفاء الرسالة ــ أن يجمع العرب قبل أن يموت فما تركهم إلا وهم أمة : الحق روحها ، والإخلاص هو الذى يدور فى جهازها العصبى ، والانطلاق لله هو الذى يحدوها تتحرك به أو تسكن ، فجاءت دولة الخلافة ، وكانت دولة التكوين للنواة الإسلامية ، دولة الصراع مع الباطل ، دولة التطبيق لمبادىء الإسلام وتعاليمه .

ويلاحظ أن دولة الخلافة منحت المسلمين حقوقا رحبة ، وفهم المسلمون ــ لأول مرة فى تاريخ الدنيا ــ أن الحاكم ــ بلغة عصرنا ــ موظف عمومى ، أجير للناس ، يكدح لهم ، ويأخذ مرتبه نظير عرق جبينه الذى يتصبب وهو يخدم الأمة ويسعى فى مصالحها ، وليس له حق مقدس ، وليس له حق السمع والطاعة إلا فيما يرضى الله .

وعرف عن دولة الخلافة الراشدة أنها وفّرت للفرد امتداده المطلق ، وعزته الموفورة ، فكان الأمير يقول للناس : « **أيها الناس : إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى** » (١) .

وعُرف فى تاريخ الدولة الراشدة أن المال كان لمصلحة الأمة جمعاء ، فما توافر فى بيت ليحتكر أو يستبد به أحد ، وما ضاعت أسرة أو قبيلة من الناس وفى الأمة مال موفور .

كانت الأمة الإسلامية تمثل الرشد السياسى فى العالم يومئذ ، ولم يعرف فى تاريخ الأولين والآخرين عدل سياسى أو اجتماعى كالعدل الذى توافر للأفراد يومئذ !!

إلا أن شيئا حدث يعتبره المؤرخون النقدة عيبا للجماهير ، إن الجماهير ــ أحيانا ــ تخطىء فى استغلال الحريات الكثيرة التى تمنحها ، وربما أسرفت فى استعمال هذه الحرية إلى حد يسىء إليها ، وبعض الملاحظين

---

(١) جزء من خطبة لأبى بكر رضى الله عنه رواها ابن اسحاق بإسناد صحيح . كذا فى البداية والنهاية لابن كثير ج ٦ ص ٣٠١ .

يقول : إن العمال في « انكلترا » يستعملون السعة والمرح والعدالة والأمانة ووفرة الكرامة البشرية هناك لإملاء مطالب شخصية .

قد يكون ذلك صحيحا أو خطأ ، ليس هذا شأني ولا هو موضوعي ، إنما الذي أوجه النظر إليه أن جماهير المسلمين في عهد الخلافة الراشدة عَبَّت من الحرية حتى بطرت ، وبلغ من حريتها أنها زحفت على المدينة المنورة تريد أن تناقش الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه بعض تصرفات نسبت إليه ، وأياً كانت هذه التصرفات فما كانت تبيح فتنة ولا تسبب ثورة ، ولكن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان خليفة راشدا ، ما فكر في أن يستعمل عصبيته ولا أن يستثير أحبابه وأنصاره وأقاربه لضرب الثورة — أو بتعبير العصر الحديث لإطلاق الرصاص على المتظاهرين — لا ، كان الرجل أعف نفسا ، وأشرف طبعا ، وأشد تقديراً لحريات الجماهير مما يتصور الناس ، فقتل بهذه السياسة (١) .

وجاء بعده عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فشغب عليه بعض المتطعين من أتباع الإسلام أو ممن يدعون التقوى والتوغل في العبادة من الخوارج وأشباههم ، فكانت فترة حكمه التي قضاها في الخلافة — وهي خمس سنوات — فترة إعياء نفسي ، وإرهاق عصبي ، وتعب موصول ، وكان أصدق ما قيل في عليّ بن أبي طالب وهو يذهب إلى ربه بعد أن قُتل غدرا البيت الذي تمثلت به السيدة عائشة رضي الله عنها عندما بلغها مقتل عليّ :

فألقت عصاها واستقر بها النّوى كما قَرَّ عيناً بالإياب المسافر (٢)

---

(١) فقد رووا أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال للذين عنده في الدار من المهاجرين والأنصار — وكانوا قريبا من سبعمائة ، فيهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ومروان وأبو هريرة وخلق من مواليه ، ولو تركهم لمنعوه فقال لهم : أقسم على من لي عليه حق أن يكف يده وأن ينطلق إلى منزله ، وقال لرقيقه : من أغمد سيفه فهو حر !! (البداية والنهاية لابن كثير : ج ٧ ص ١٨١)

(٢) قال ابن برى : هذا البيت لعبد ربه السلمي ، ويقال لسليم بن ثمامة الحنفي (لسان العرب ج ١٥ ص ٦٥)

استراح الرجل كما يستريح المسافر المتعب عندما يصل إلى بيته ويلقى رحاله ويريد أن يطمئن إلى يومه قبل غده .

المهم أن الدولة انتهت وجاء بعدها حكم سياسى استبدادى ، وهو ما يقع عالبا فى أعقاب الحريات الكثيرة التى لا تحسن الجماهير استغلالها ، فجاء الحكم الأموى ، وتميز هذا الحكم بأمور تحسب له وأمور تحسب عليه .

فأما ما يحسب له : فقد مضى فى طريق التحرير والفتح ، واستطاع أن يمد رقعة الإسلام شرقا وغربا إلى أبعد ما وصلت إليه تقريبا ، وصل إلى « الصين » شرقا ، وإلى « فرنسا » غربا ، وتوغل فى « فرنسا » وفى جنوب « سويسرا » ، وتميزت الدولة الأموية أيضا بأن الطابع العربى كان واجهتها وصبغتها .

وأما ما يحسب عليه : فقد وقع نوع من الاستبداد السياسى ، ومع الاستبداد السياسى حدثت أخطاء أطاحت بالحكم الأموى ، ذلك أن طبيعة الاستبداد السياسى حصر الحكم فى أسرة ، وحصر الملك فى أفراد معينين ، وبناء طبقات أو بيوتات تعيش على هامش هذا الملك المعضوض ، ثم الافتيات على الناس فى الأموال وفى الحريات ، ثم التنكر للكفايات الكبيرة عندما تظهر هنا وهناك ، ثم انضم إلى هذا أن الواجهة العربية تجهمت للأجناس الأخرى ، وهذا خطأ ، فإن العروبة فى الإسلام ليست قربة جنس ، ولا عرقا دمويا يصل بين جماعة من الخلق ، إن العروبة فى الإسلام لسان أو لغة هى وعاء الوحى ، فمن أجاد اللغة ودخل فى الدين فهو عربى مسلم ولو كان أبوه أمريكيا .

هذه التصرفات أنشأت حالة من البلبلة ، فإن كبار القادة لم يجدوا التكريم الذى ينبغى أن يوفر لهم ، فـ « محمد بن القاسم » (١) — شاب فى

---

(١) محمد بن القاسم بن محمد الثقفى : فاتح « السِّند » وواليها من كبار القادة ، ومن رجال الدهر فى العصر المروانى ، ويعنيه حمزة بن بيض الحنفى بقوله :

« قاد الجيوش لسبع عشرة حجة »

العشرين من عمره — قاد جيشا فتح به « السند » — لو أن هذا القائد فى بلد كفرنسا لجعلته مثل « نابليون » ، لو أنه فى انجلترا لجعلته مثل « ولسن » ولكنه فى بلد تأكل الكفايات أو فى جو يحتقر العبقريات ، فقال الرجل متمثلا وهو يعذب :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر !!

وفاتح الأندلس رجع مهانا (١) !!

لم ؟ لأن الحكم الاستبدادى يعطى سافهه من حوله ، ويرمى بالمغارم على الآخرين ، ولا يكرم إلا من يخضع له أو يجعل ذمته أجيرة للتافهين الذين يحكمون .

المهم أن الدولة الأموية انهارت بخيرها وشرها ، وجاءت الدولة العباسية ، وهذه هى المرحلة الثالثة ، وهى مرحلة تحتاج إلى شىء من الدراسة . لماذا ؟ لأن هذه الدولة فتحت أبواب الترجمة من أقطار الدنيا ، واطلاع المسلمين على ثقافات الأجانب وعلى أنواع المعرفة التى تشيع بين الناس شىء مطلوب ولكن فى حدود وإلى نطاق معين لا يعدوه .

إن الإسلام دين الفطرة السليمة ، ودين العقل الراشد ، وهو بهذه الطبيعة الفطرية الفكرية مفتوح لجميع الثقافات ومفتوح أمام جميع الحضارات والأجناس ، ولكن على أساس التمحيص والنقد وميز الصواب

= كان أبوه والى البصرة للحجاج ، وولى الحجاج محمداً ثغر السند فى أيام الوليد بن عبد الملك ، وانبسطت يده فى البلاد فتحا وتنظيما إلى أن كان فى « ملتان » وجاءته الأنباء بوفاة الحجاج ثم الوليد بن عبد الملك ، وولاية سليمان بن عبد الملك ، وكان سليمان شديد النقمة على الحجاج وعماله ، فما ولى بعد موت الحجاج عمد إلى أقربائه وكتابه وعماله فنكبهم ، وعزل محمد بن القاسم ، وأمر بحمله من السند مقيدا ، فحمل إلى « واسط » وعذب بها ، فقال شعرا يعاتب به بنى مروان ، فأمر سليمان بإطلاقه فأطلق ، ثم قتله معاوية بن يزيد بن المهلب ، وقيل : مات فى العذاب (الأعلام ٦/٣٣٣)

(١) موسى بن نصير ، عزله سليمان بن الوليد ، فانصرف إلى وادى القرى بالحجاز وأقام فى حالة غير مرضية إلى أن توفى فى سنة ٩٧هـ وكان شجاعا عاقلا كريما تقيا ، لم يهزم له جيش قط ، أما سياسته فى البلاد التى تم له فتحها فكانت قائمة على إطلاق الحرية الدينية لأهلها وإبقاء أملاكهم وقضائهم فى أيديهم (الأعلام ٧/٣٣٠)

من الخطأ ، على أساس ألا تطرح ما عندك وتعجب بما عند غيرك وإن كان خرافة .

والذى حدث أن فلسفة اليونان والسّريان وسخافات الرومان ومن إليهم من أهل الأرض دخلت بلادنا واختلطت مع الثقافة الإسلامية اختلاطا أساء إليها .

ثم وقعت الحضارة الإسلامية فريسة بين نوعين من التصرفات : نوع المنحلين الذين يبحثون عن الشهوات واللذات .

ونوع المترمتين المعزولين ممن تركوا الدنيا تسير وفق هواها وهم المتصوفون الذين أخذوا جانبا فى صوامعهم أو بيوتهم وأخذوا يعبدون الله جانبا !!

وانتهزت الصليبية العالمية المتربصة هذه الميوعة الفكرية وهذا الاضطراب النفسى ، وهجمت على بلاد الإسلام هجوما اكتتبت أوربا كلها فى فرقه،وأسهمت جميعها فى إمداده بالقوى المالية والعسكرية التى تعين عليه ، فكان الإنكليز إلى جانب الفرنسيين إلى جانب الإسبان والطليان إلى جانب النمساويين،كان هؤلاء جميعا فى صف واحد ، وانطلق هذا السيل المجنون يولى وجهه شطر بلادنا ، ويحاول ــ خلال مائتى سنة ــ أن يدمر ما أمامه وأن يسقط أعلام التوحيد تحت سنابك خيله !!

وانتهت الحروب بعد كَرٍّ وفَرٍّ وهزائم وانتصارات بأن خسرت أوربا هذه الجولة وعادت كسيرة النفس مقهورة لا تلوى على شىء .

وكان ينبغى أن يفكر المسلمون يومئذ ، وأن يقفوا على أعتاب الماضى ليدرسوا ما الذى حدث ، ما الذى سبب لهم تلك النكبات ، ما الذى أنقذهم أخيرا من هذه الورطات ، إلا أن العرب كانوا فى حال من البلبلة والهوان جعلهم لا يحسنون التصرف ، فنهض الجنس التركى بالخلافة الإسلامية ، وأشرف على مستقبل المسلمين فى القارات الثلاث المعمورة يومئذ : آسيا وإفريقيا وأوربا .

وهنا نجد أنفسنا أمام المرحلة الرابعة من التاريخ الإسلامى ، هذه

المرحلة تميزت بأمور خطيرة ، فإن الحس الحاكم جس تركى تعصب لتركيته لغة ودما ، وبذلك وقعت فجوة غائرة عميقة بين الأتراك وبين الإسلام والحس العربى والأجناس الأخرى . لم ؟ لأن الإسلام عربى فى مصادره التربوية والتوجيهية والاجتماعية والسياسية ، القرآن عربى ولا يمكن أن يتترك ، والسنة عربية لأن الرسول عليه الصلاة والسلام عربى ، ومصادر الثقافة الإسلامية عربية ، وأحد أمرين : إما أن ينسلخ القائد الذى يقود المسلمين من تركيته ليكون عربيا ويقود العرب ويقود الإسلام والمسلمين ، وإما أن يتخلى عن القيادة للقادرين عليها من العرب ، وهذا ما لم يفعله الترك ، ولذلك حدث ما يأتى :

بدأ المسلمون فى أنحاء الأرض يضعفون ماديا وأدبيا ، وبدأت مصابيح الثقافة تنطفىء فى مدائن الإسلام وقراه . وفى الوقت الذى أخذ فيه عصر الإحياء يصعد بالأوربيين فى سُلّم الترقى كان الحكم التركى يهبط بالمسلمين فى سُلّم التردى ، وبعدت مسافة الحضارة بين المسلمين من ناحية وبين الأوربيين من ناحية .

صحيح أن الأتراك كانوا مسلمين متعصبين للدين ، يحبونه ويسفكون دمهم من أجله ، ولكن العاطفة وحدها لا تكفى فى نصرة عقيدة ولا فى إقامة دولة ولا فى بناء حضارة ..

لقد رووْا أن جنديا تركيا كان ينام يوما فصحا فى جوف الليل فوجد قدميه تتجهان إلى نافذة فيها مصحف ، ففزع الرجل ووقف طول الليل على قدميه شاهراً سيفه يقول : مصحف شريف !

الرجل خاف على نفسه من الله أو ظن أن اتجاه أقدامه إلى المصحف كفر !

فكانت النتيجة أن استيقظ طول الليل وترجم عن حبه أو عن إكرامه للمصحف بهذا الأسلوب ، كان الأتراك متدينين ، وعندما أعيد الأذان إلى بلادهم من بضع سنين كانوا يبكون فى الشوارع ! لكن العاطفة الدينية لا تكفى ، بل يجب مع العاطفة أن يكون هناك عقل نير، وعلم واسع، وتجربة

حصيفة وتمكن من الدنيا راسخ ، يجب أن يكون مع العاطفة ما يعين على نجاحها .

وما يستطيع الترك — وهم متعصبون لجنسهم ولغتهم — أن يكونوا القادة الحقيقيين للعالم الإسلامى ، وكان الأوربيون يدرسون هزائمهم ، فلما هجموا على الأتراك وعلى العالم الإسلامى كله كانت الكفة فى جانب الهاجمين .

حقاً استمات الأتراك وغير الأتراك من الأجناس المحكومة فى الدفاع وقتل كثيرون ..

من مائة وأربعين سنة قرر الحاكم الفرنسى فى « الجزائر » أن يستولى على أجمل مسجد فى العاصمة — مسجد « كيتشاوة » (١) — وأن يحوله إلى كنيسة . وفعلا تحرك سلاح المدفعية الفرنسى ومعه سلاح المهندسين وهجما على المسجد ، وقتل وراء الأبواب نحو أربعة آلاف عربى (٢) وهم يقاومون هذا الجنون من التعصب والحقد !! ولكن تمت الهزيمة وتحول المسجد إلى كنيسة ، ولم يستطع الأتراك أن يصنعوا شيئا ، وكل ما حدث أنه بعد استقلال الجزائر حوّل المسلمون الكنيسة مرة أخرى إلى مسجد ، هذا كل ما أمكن صنعه .

لكن الذى حدث أن الهجوم الاستعمارى فى هذه المرحلة الخامسة والأخيرة استطاع أن ينتهى إلى رمى الخلافة فى البحر وإسقاط علم الإسلام فى المجال السياسى العالمى ، وتحويل المسلمين إلى أمة يتيمة ليست لها أبوة ثقافية ولا عسكرية ولا حكومية تحمل آلام الإسلام أو تترجم عن مآربه ورغائبه .

---

(١) يقوم هذا المسجد المشهور فى حى كتشاوة من أحياء مدينة الجزائر ويرجع تأسيسه إلى سنة ١٠٢١/١٦١٢ ثم أعاد ترميمه وأكمله الباى حسن سنة ١٢٠٩/١٧٩٤ (مساجد لحسين مؤنس ص ٢٤٣)

(٢) عند هذه العبارة لم يتمالك الشيخ الجليل أن بكى ، وحق لإنسان مشغول القلب بالإسلام وقضاياه أن يبكى ، والعجيب أن المسلمين الذين قتل منهم هذا العدد — وهو قليل من كثير — يبعثون لطلب المدات والملاهى .

أمور يضحك السفهاء منها ويبكى عندها الخبير اللبيب

جاء عصر المرحلة الخامسة — عصر التمزيق — وهذا العصر كتب فيه على المسلمين أن يعيشوا فى بلادهم حيث كانوا،لكن على أساس أن لا يكون الرباط الإسلامى منظورا إليه فى تأسيس قرابة مشتركة بينهم وبين غيرهم !!

المسلم فى « الفلبين » إذا ذُبح يُذبح ، من يبكى له ؟ لا أحد إلا بعض الأفراد الذين فى نفوسهم عاطفة وفى قلوبهم بقايا من الشعور بالأخوة الإسلامية ومن الإحساس بقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » (١) .

المرحلة الخامسة تتميز بأن المسلم حيث كان يدرس تاريخ بلده دون أن يصل هذا التاريخ بالتاريخ الإسلامى ، فالمسلمون فى « نيجيريا » — وفى نيجيريا أربعون مليونا من المسلمين — قد يدرسون شئون بلدهم ، فإذا درسوا الجزيرة العربية — إذا حدث أن درسوها — فإنهم يدرسونها كما يدرسون الجزائر البريطانية ، أما أنها منبت محمد عليه الصلاة والسلام ومصدر الإسلام وأساس الرباط الذى يجمع مسلمى نيجيريا بمسلمى مصر بمسلمى السعودية بمسلمى الهند فلا !!

فى هذا العصر — عصر التمزيق — يسمح للفلسفات والمبادىء الفكرية أن تنتعش وأن تنتشر وأن تجد من يدعو لها ، ولكن لا يسمح للكيان الإسلامى أن يتلاقى .

أشبهَ المسلمون رجلا ضرب بالنار،وشتت أولاده فى بلاد كثيرة وقيل لكل منهم : احذر أن تلتقى بأخيك ، بل قيل لكل منهم : إذا حاولت — حيث كنت — أن تشير إلى الماضى قتلناك !! هذه سياسة أوربا الاستعمارية نحو العالم العربى والإسلامى .

بعد هذه المراحل الخمس أحب أن أذكر حقيقة دينية : إن الأمة الإسلامية قد تمرض ولكنها لا تموت ، إن الأمة الإسلامية قد تبلى ولكنها

---

(١) رواه البخارى فى الأدب — باب رحمة الناس والبهائم ١٢/٨ ومسلم فى البر — باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٢٠/٨ .

بعدئذ ، وفعلاً مع أودية الموت التى وجد المسلمون أنفسهم داخلها ، ومع أسباب التلف التى أحاطت بهم من كل ناحية كان هناك من يقاوم بجبروت هذا الزحف: بالقدم ، باللسان بالتربية بالتوجيه ، بالحكم ، بكل ما لديه من طاقة ، ولم يمت العملاق ، لم يمت الإسلام ، بل الذين يرقبون الأحداث من الأوربيين ــ على اختلاف ألوانهم ــ يعلمون أن العالم الإسلامى يوشك أن يتمخض عن نهضة كبيرة ، وأن المسلمين يشبهون جذوة نار تحت تراب ، لابد أن يمسح هذا التراب ثم تكشف الجذوة عن دفئها وحرارتها وتألقها .

الأمة الإسلامية بدأت تنتعش ، ومظاهر الوحدة التى تبدأ ، ومرحلة الوحدة التى لمحنا بشائرها الآن نستقبلها بحفاوة لأنه لا معنى لبقاء الخطوط التى وضعها المستعمرون من إنكليز وفرنسيين وطليان وغيرهم ، لا معنى لبقاء هذه الفرقة .

لكن ينبغى أن نعلم أنفسنا أن نبض الوحدة بين العرب وبين المسلمين كلهم هو الدين ، وأن أعداءنا سوف يستميتون ليصلوا إلى أحد أمرين : إما أن يقتلوا هذه الوحدة فلا توجد أبدا ، وإما أن يجعلوها وحدة بلا دين فتموت تلقائيا كما ماتت الوحدة بين مصر وسوريا ، لأن بعض السوريين حرص أن يكون الإسلام بعيدا عن الوحدة ، فلما وضع دستور الوحدة لم يجىء فى نصوصه ما يشير إلى أن الإسلام دين الدولة !!

أما الآن فنحن فى مصر قررنا أن الإسلام دين الدولة ، وقررنا إلى جانب ذلك أن الإسلام المصدر الرئيسى للتشريع ، وإخواننا فى ليبيا قرروا كذلك أن يكون الإسلام دينا للدولة ، وتعاونوا مع بعض الفقهاء والمفكرين الإسلاميين أن يجعلوا الشريعة قانونا ، وبدأ العمل العلمى فى هذا .

إذن نحن نستبشر أن توجد وحدة فى إطار الإسلام ، تنبع من روحه ، وتتدفق إلى غايته ، وتلتف الجماهير حول راية التوحيد وهى مطمئنة إلى وفائها وبذلها وتضحيتها .

يجب أن نرقب بدهاء وبصيرة ويقظة دسائس أعداء الإسلام ــ وما أكثرهم ــ إنهم سيستميتون إما لمنع الوحدة أو لجعلها تولد سقطاً أو

جنينا ميتا بأن تكون بعيدة عن الإسلام .

يجب أن نذود هؤلاء الوحوش عن وحدتنا ، عن تراثنا ، عن ماضينا وحاضرنا ، عن شرفنا فى الدنيا ووجاهتنا عند الله .

إن الإسلام هو ديننا الذى تبيضُّ به وجوهنا يوم أن نلقى ربنا ، وهو أيضا مصدر قوتنا عندما نلقى أعداءنا فى هذه الأرض ، والعصر عصر العقائد المتناحرة ، يخدعكم ويكذب عليكم من يقول : إن النصرانية تركت نفسها ، إن اليهودية تركت دابها ، إن الشيوعية تجردت أو تمردت على تعاليمها .

إن هذا العصر هو عصر العقائد ، استيقظت اليهودية بكل ما لديها من أحقاد تاريخية وخرافات دينية ، واستيقظت كذلك جميع النزعات والديانات الأخرى .

فالقول بأن الإسلام يضعف فى وقت يقوى فيه غيره ، أو يحيى جانبا فلا يتولى الزمام بينما تولت الزمام فى أجناس الأرض الأخرى عقائدها وأديانها ، فهذا مالا يسمع ومالا يقبل ، واحذروا على دينكم الخطافين من حملة الأقلام والدساسين من رجال السياسة الذين يحاولون أن يجعلوا من وحدتنا وحدة ميتة بإبعادها عن الإسلام وعقائده وشرائعه .

ديننا إيمان ونظام ، عبادة ومعاملة ، عقيدة وشريعة ، بتعبير العصر الحديث : دين ودولة ، وعلى هذا سرنا ، ونحن ندعو الله أن يبارك الخطى الطيبة التى بدأت .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ **الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ [الشورى . ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، إمام الأنبياء وسيد المصلحين

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

أيها الإخوة : وأنا جالس هنا استمعت إلى القرآن المذاع ، وأظنه مذاعا من الاسكندرية لأنى أظن الخطبة هناك ، استغربت موقف المسلمين من كتابهم ، القارىء صوته جيد وله استعراضات فنية واضحة ، المستمعون ما أظن أن المعانى خطرت ببالهم ، لأنى عندما استمعت إلى قوله تعالى : ﴿ **كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ [الرحمن : ٢٦ ، ٢٧] .

جرى خاطرى فى هذه الدنيا كيف أن خضرتها ستجف ، وأن حركتها ستهمد ، وأن عمرانها سيخرب ، وأن ستارة ستنهى الرواية الطويلة العريضة بكل ما فيها من ضحك وبكاء ، وفرح وحزن ، ويحتكم بعد ذلك البشر إلى ربهم ﴿ **فريق فى الجنة وفريق فى السعير** ﴾ [الشورى : ٧]

لكن هذا الخاطر الذى مرَّ فى طارده وطواه صوت الناس الذين يستمعون لأنه صوت محنون ، كانوا يحيون القارىء طبعا ، أما المعنى فلا .

لو أن إنسانا عبّر عن المعنى بصوت لتأوه من الألم ، لأن كون الموت يعدو على الحياة ويمضى أعراسها ويحولها إلى مآتم مسألة محزنة . لكن لا تأوه .

يجب على أمتنا أن تغير موقفها من القرآن ، القرآن ليس كتاب أغان يتلوى القارىء به ويطرب المستمع إلى نغماته وترانيمه ، القرآن لغير هذا

نزل ، القرآن كتاب حياة ، الكتاب الذى نقرؤه على الموتى يقول الله فيه ﴿ **لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين** ﴾ [يس : ٧٠] .

وأخيرا أيها الإخوة : فإن لى رجاء أبسطه إلى كل إنسان منكم ، إن الحب فى الله عاطفة يباركها رب العالمين ، وفى الحديث الشريف :

« **ما تحاب اثنان فى الله تعالى إلا كان أفضلهما أشدهما حبا لصاحبه** » (١) .

وأنا أعرف أن الله سترنى فجعل ناسا كثيرين يحبوننى ، لكننى أرجو أن يختفى تقبيل اليد من هذا المسجد ، أرجو بإلحاح ألا تقبل يد ، أرجو أن يشعل بحثم الصلاة ، أرجو أن يمتنع تقبيل اليد ، إننى أتقدم بهذا الرجاء ولى أمل أن ينفذه كل مسلم فى هذا المسجد ، فإن تقبيل اليد تحول إلى دلالة أكرهها ويكرهها المسلمون ، ليس فى ديننا كهانة ولا تسلط على الناس بأى معنى من المعانى ، ثم ما يعرف أحد منا ما مصيره عند ربه ولا ما مكانه عنده ، فنرجو أن ينتهى هذا التقليد

« **اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر** » (٢) .

﴿ **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم** ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

---

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه كذا فى الجامع الصغير ورمز له بالصحة . وقال فى صحيح الجامع الصغير (٥٥٩٤) : صحيح . ورواه أيضا الطبرانى فى الأوسط وأبو يعلى والبزار بنحوه ورجال أبى يعلى والبزار رجال الصحيح غير مبارك بن فضالة وقد وثقه غير واحد على ضعف فيه كذا فى المجمع ٢٧٦/١٠ .

(٢) رواه مسلم فى الذكر ــ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨ .

حركة الارتداد بين الماضي والحاضر

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

١٩٧٢/١٢/٨م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له . له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين

أما بعد :

ففي بدء الدعوة إلى الإسلام كان الذين يدخلون فى هذا الدين يعتنقونه مخلصين ، وتنشرح صدورهم به ، فيتحملون من أجله الأذى والتعب ، ولذلك لم يكن فى مكة نفاق .

عندما بدأت الدعوة إلى الإسلام كان الناس أحد رجلين : إما رجل آمن بالله فهو يتحمل فى سبيل إيمانه غربة الروح وتعب الذين تنكروا له وضاقوا به ، أو رجل كافر يحارب الإسلام فى صراحة ويضع العوائق فى طريقه علانية ، ومن هنا يقول التاريخ : لم يكن فى مكة نفاق .

كان الناس إما مؤمن صريح أو كافر صريح ، فلما انتقل الإسلام من مكة إلى المدينة دخل فى مرحلة أخرى ، ربما وجد ذوو الأطماع الذين يطلبون المال أو الوجاهة أو المظاهر ، ربما وجدوا أنفسهم مسوقين إلى أن يلتحقوا بهذا الركب المتحرك ، وربما زينت لهم مآربهم أن مغانم الدنيا فى اللحاق به .

هؤلاء الدين التحقوا — وإيمانهم مزعوم أو واهن — أخرجتهم تعاليم الإسلام ، ذلك لأنهم تظاهروا بالإيمان وقلوبهم منه خاوية ، لكن الإيمان لا يدع أصحابه يتسترون بأفواههم ويتمردون عليه بأعمالهم **﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾** [العنكبوت : ٢ ، ٣] .

وكان الاختبار الذى محّص النفوس وَسَبَرَ غورها ، وكشف المعادن وبيّن زيفها ، كان ذلك ما تضمنه الإسلام من تعاليم كثيرة ، فإن شُعب الإيمان شتى ، والمؤمن عندما ينتسب إلى الدين فإنه يُكلف بين الحين والحين أن يتردد على المسجد للصلاة ، يُكلف بين الحين والحين أن يدفع مالا يطلب منه زكاة أو نفقة ..

هذه التكاليف كانت بلاءً شديدا على ضعاف الإيمان ، فالمنافقون الذين طووا قلوبهم على الكفر — وإن أظهروا الإسلام — كان يضايقهم أن يتفقدوا بين صفوف المصلين فلا يوجدوا ، كانوا يتكاسلون عن الذهاب إلى المسجد للصلاة الجامعة **﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾** [النساء : ١٤٢] .

وإذا كلفوا بنفقة فدفعوها اعتبروا ما دفعوه غرامة موجعة ، ورأوا أنفسهم مضطرين إلى دفعها فما ينتظرون عليها ثوابا ، لأنهم لا يؤمنون بالله ولا بما يدخر عنده ، إنهم مكرهون **﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ﴾** [التوبة : ٩٨] .

هذا النوع من الناس — من المنافقين — كان يحرجهم أمران شديدان جدا : الأمر الأول : الجهاد فى سبيل الله ، والأمر الثانى : الحكم بما أنزل الله .

فأما الأمر الأول : فإن الجهاد فريضة لتأمين الدعوة ، وحماية المجتمع ، وكسر عدوان الطاغين ، ورفع راية التوحيد ، هذا الجهاد — وفيه مشقات

كثيرة ، وتعريض النفس والمال للضياع — ما يرضى به أو يسرع إليه إلا مؤمن واثق من ربه مُلْقٍ قياده إليه ، ولذلك يقول جل شأنه في وصف المؤمنين والمنافقين : ﴿ **لا يستئذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستئذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون** ﴾ [التوبة : ٤٤ ، ٤٥] .

وكما كشف الجهاد عن طبائع المنافقين فإن إلزام الناس بشرائع الله كان يحرج القلوب الخادعة والأفئدة المنافقة ، ويكشف ضعف صلتها بالإسلام ، ولذلك أنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾ [النساء : ٦٥] .

انكشفت ملامح النفاق عن طريق الوحي تارة ، وعن طريق التكاليف التي حددت مواقف المؤمنين والكافرين تارة أخرى . وانتهى أمر المنافقين على عهد النبي ﷺ إلى واحد من أمرين : إما أن يؤمنوا إيماناً صريحاً ، وإما أن يتواروا فيما هم فيه فلا يشعر بهم أحد

لكن بعد أن لحق النبي عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى انفجر الضلال انفجارا رهيبا في المجتمع الإسلامي ، وكشف الكفر عن وجهه صراحة إذ ارتد عدد كثير من الناس ، وأخذ الارتداد صورة من صورتين : إما الرفض الصريح للإسلام ، وإما القبول الحرفيّ للإسلام ، والرفض للصلة العملية التي تربط بين الناس وبين الدولة المسلمة وهي الزكاة مثلا .

تعرض الإسلام بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام لمحنة قاسية ، غير أن الخلفاء الراشدين والسابقين الأولين والكتائب المؤمنة برجالها والرجال الذين أخلصوا قلوبهم لله وأسلموا وجوههم إليه، هؤلاء جميعا التفوا حول أبي بكر الصديق وقاتلوا المرتدين، سواءً كان الارتداد دعوة إلى الشرك أو رفضا لدفع الزكاة .

أريد أن أشرح هنا شيئا يعرف منه الارتداد ، لأن موضوعنا الذي

تدور عليه اليوم ، ونريد أن نشرحه ، ونحدد دائرته ، ونبين مواقف الناس منه ، ونحاكم المسلمين وغير المسلمين إليه هو الارتداد .

ما هو الارتداد ؟

إن أحدا يبخل بالزكاة ، لأنه بخيل ، لأن فى نفسه كزازة (١) ، ولكنه إذا أكره على دفعها دفَعها ويده ترتعش أو ونفسه مصطربة ، ولكنه يدفعها ويعزى نفسه بشتى الأمور يمكن أن يقبل إسلامه ، ولو أنه لم يدفعها وفرّ منها وتظاهر بالإسلام يمكن أن يوصف بأنه مسلم مريض القلب أو مسلم منحرف السلوك ..

أما أن يقول أحد الناس : لا أدفع الزكاة ، ولن أدفعها ، ولن أسمح لأحد أن يطلبها منى ، وسأوعز إلى الآخرين ألّا يدفعوها . فمعنى ذلك أن هذا الرفض تحول إلى عداوة مكشوفة حاسمة للوحى الإلهى والأمر الإلهى ، وأن هذا الإنسان احتار فى وضح النهار موقفه وأراد أن يجعل هذا الموقف وضعا اجتماعيا مقررا ..

ومن هنا فلا كلام فى أنه مرتد ، ارتد عن الإسلام ولو قال إنه موحد ، ما دام قد أعلن خلعه لربقة الإسلام فى ركن من أركانه أو فى ما هو معلوم من الدين بالضرورة فمعنى هذا أنه كفر كفرا تاما .

ولأضرب المثل من عالمنا الحالى : لو أن امرأة كاتبة قالت : أنا أرفض أن يكون الرجل أكثر حظا من المرأة فى الميراث، إن هذا ظلم ، إن هذا تحقير للمرأة ، إن هذا نوع من الرجعية فى رسم أوضاع الأسرة !!

هذا كلام لا يقبل بتة أن يكون معه إيمان ، ولا يمكن أبدا أن نعد صاحبته مسلمة ، هى بهذا مرتدة بيقين .

لو أن رجلا من الناس رسم موقفه فى الحياة على أنه لا يمكن أن تحرم الخمر ، ولا يمكن أن يحرم الزنا ، ولا يمكن أن تقطع يد السارق ، ولا يمكن أن يجلد القاذف ، ولا يمكن كذا وكذا ..

---

(١) رجل كز اليدين : بخيل

هذا النوع من الناس ــ بموقفه هذا ــ أعلن بيقين أنه انسلخ عن الإسلام ، ورمى ربقته من عنقه ، وأصبح لا دين له ولو قال فى بجاحة : أنا مسلم . إنه كاذب كاذب ، هو مرتد بيقين ، اتفق العلماء على أن إنكار معلوم من الدين بالضرورة كفر بالله واليوم الآخر .

قصة الارتداد ترجع بنا إلى الوراء فى التاريخ الإسلامى كى نتعرف موقف الإسلام من المرتدين ، فإن بعض الناس ــ فى عصرنا هذا ــ يريد أن يجعل من الارتداد لونا من حرية الرأى ، يريد أن يجعل من الارتداد نوعا من التفكير الذى ينبغى أن يأخذ حماية من القانون أو حماية من المجتمع ، وبالتالى يريد أن يعرض نفسه على أنه شىء لا ينبغى أن يستغرب ولا أن يعترض !!

قلت : إن مكة ما كان فيها نفاق ، وقلت : إن المنافقين فى المدينة كشف أمرهم ، وفضحت أحوالهم وبرىء الله ورسوله منهم ، وأقيم المجتمع الإسلامى إقامة بيت على الخُلّص من المؤمنين وعلى الواضح المستقر من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ

فى أثناء تكوين الدولة وبناء المجتمع حدثت حركات ردة جزئية أو موضعية ، فمثلا أراد اليهود أن يعبثوا بالإسلام وأن يصدوا الناس عنه وأن يمحوا تهمة التعصب عن أنفسهم ، فقال بعضهم للبعض الآخر : ما علينا من حرج لو أننا أعلنا الدخول فى الإسلام بعض الوقت ، وحتى ينتشر هذا الإعلان ويعرف الناس أننا دخلنا فى الإسلام ولسنا متعصبين ثم نرتد عنه ونقول : بدا لنا أنه دين غير صحيح ، وبدا لنا أن هذا الدين ينبغى أن يترك ، وإذن فالناس سيتركونه جميعا ويقولون: إن أهل الكتاب أعرف منا بطبائع الأديان وحقائقها ، وما كان لديهم تعصب ، فقد أسلموا ولكنهم وجدوا أن الإسلام لا يجدى فارتدوا !!

فى هذا الموقف يقول رب العالمين : ﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من**

يشاء والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ [آل عمران : ٧٢ ــ ٧٤] .

حركات الارتداد المفتعلة من هذا النوع كان يجب أن تقاوم ولذلك جاء حديث : « **من بدل دينه فاقتلوه** » (١) .

لقد كان اليهود آمنين على أنفسهم ما داموا يهودا، أما أن يفتعلوا مؤامرة ليدخلوا الإسلام ثم ليخرجوا منه حتى يزلزلوا قوعده بهذا الأسلوب فلابد أن يعاقبوا .

هذه واحدة ، شيء آخر لابد أن يعرف ، وهو أن معاهدة الحديبية عندما عقدت أراد النبى عليه الصلاة والسلام أن يتخلص من كل مهزوز الضمير ضعيف الإيمان فى المدينة ، فأباح لمن يرتد أن يخرج إلى مكة دون حرج ، وما ارتد أحد ، لقد تكشفت الأمور وعرف الناس الحق من الباطل .

لكن الارتداد على أنه نوع من حرية الرأى مسألة يجب أن تناقش ، ونحن نناقش عنا ، لو أن امرءا كفر بالله وحده وبنى حياته الشخصية على ذلك ، وزوى عنا جانبه ، وطوى على الضلال قلبه ، ما استطعنا أن نصنع له شيئا ، فإن القلوب إلى الله وهو علام الغيوب ، وهو الذى يحاسب الناس على إخلاصهم أو غشهم ، على إيمانهم أو كفرهم ، لكن الإيمان فى المجتمع الإسلامى هو وقود الدولة عندما تتحرك ، وأساس المجتمع عندما ينهض ، والرباط الذى يشد التعاليم ويصون الأمن ويقيم الحدود ويجمع الشمل .. بمعنى أن الإيمان عندنا ليس رأيا شخصيا ، لا ، لقد عرف القاصى والدانى أن الإسلام عقيدة وشريعة ، أن الإسلام إيمان ونظام ، أن الإسلام عبادة ومعاملة . وليس فى الدنيا مجتمع يسمح للمنتسبين إليه أن يعملوا المعاول فى جدرانه لينقضوها ويهدوها .. ليس فى الدنيا دولة تقول للناس : من حق أى إنسان أن يسقطنى أو أن يتمرد علىّ ، أو أن لا ينفذ تعاليمى ، أو أن يهدم قوانينى ، أو ما إلى ذلك ، ليس فى الدنيا دولة تصنع هذا .

---

(١) رواه البخارى فى استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم ــ باب حكم المرتد والمرتدة ٩/١٩ .

وعندما يقيم الإسلام دولته فهو يقيم حدودا ، ويضع قواعد ، وبالتالى فإن الارتداد لن يكون حركة قلب زائغ ، ولو اكتفى بهذا فإن الله يعلمه ، وهو الذى يتولاه ، ولكن الارتداد هنا سيكون محاولة لقلب نظام الدولة وهدم تعاليمها ، وهو ما يرفضه الإسلام ، وبالتالى فإن الإسلام جعل الارتداد يعاقب بالقتل .

الارتداد جريمة تسمى في العصر الحديث الخيانة العظمى ، هل تسمح دولة من الدول أن تبيح لفرد من أفرادها تسليم أسرارها لأعدائها ؟ هل تسمح دولة من الدول لواحد منها أن يعين أعداءها عليها أو ينقض نظامها ؟ هذا مالا يمكن ، وذلك السر فى أن الإسلام رفض الارتداد .

الارتداد عُرِفَ فرديا ، ولكنه فى العالم العربى والإسلامى الآن يشكل تيارات جماعية !! كيف ؟

إن الاستعمار العالمى عندما هجم على البلاد الإسلامية منذ قرون — أياً كان مصدره شرقيا كان أو غربيا — استهدف أن يقضى على الإسلام ، والقضاء على الإسلام لا يلجأ إليه أصحابه بوسائل صبيانية أو طفولية ، لا ، إنهم لن يقولوا للناس : كفرنا بالله لأننا لم نجده ، لن يقولوا للناس : كفرنا بمحمد لأنه بدا لنا أنه كذاب ، لن يقولوا للناس : تركنا الإسلام لأنه رجعية ..

إن هذه المشاقَّة الصريحة تكشف جانبهم ، وتعرى نياتهم ، وتعرضهم للفشل ، ولكنهم يريدون أن يكفروا الناس بالله وبنبيه وبتعاليم الإسلام بأساليب ملتوية وبطرق مختلفة .

عندما دخل الاستعمار العالم الإسلامى استمات فى أن يلغى فى العالم الإسلامى شرائعه التى يقوم عليها ، وأن يبيح فيه الخمر والزنا ، وذلك حتى ينشر فى كيان الأمم الإسلامية جراثيم العفن والضياع ، وقد فعل ووصل فى أغلب البقاع إلى ما يريد ، لولا المقاومة الباسلة التى تبديها جماهير المؤمنين فى أرجاء العالم الإسلامى ، أولئك الذين أبوا أن يحنوا رؤوسهم للضلال ، ورفضوا أن ينقادوا للتيار الآثم الفاسق الذى يتمرد على كتاب الله وسنة

رسوله ﷺ ، والذين حموا ولاءهم ومحبتهم لدينه وحرصهم على تعاليمه صبغة ثابتة فى أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، بقى هؤلاء – إلى الآن – يقاومون التيارات الآثمة الماجنة التى تريد أن تضيع الإسلام وسط بلاده .

ثم هجم على المسلمين – وذلك قدر الله – **اليهود فى العصر الحديث** ، وبدأ الهجوم سياسيا أولا ثم عسكريا أخيرا ، وتمكن اليهود من أن يقسموا الأرض الإسلامية قسمين ، رموا بأحدهما شرقا وبالثانى غربا ، واستطاعوا أن يفصلوا بين شرق العالم الإسلامى وغربه براً بإسرائيل التى أنشأوها ، وهم يريدون توسيع رقعتها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا .

والظاهر أن اليهود لما هجموا لم يضعوا نقابا على وجوههم ، ولم يضعوا ستارا على نياتهم ، لقد جاءوا معلنين بأنهم يهود ، وبأنهم يريدون إقامة مملكة إسرائيل ، لقد عالنوا بهذا فى وقت كان قادة الفكر العربى والإسلامى فى بلادنا يحاولون إبعاد الدين عن المجتمع ، ويصفون الذين يتمسكون بالدين بالتأخر والرجعية . ولأضرب مثلا يتكشف منه الناس بدقة ما وصلوا إليه وما يمكن أن يصلوا إليه إن لم يستيقظوا ، إن الضربات المتتابعة تنزل بالعالم الإسلامى والعربى بوصفه دماغ الإسلام وقلبه ، وهذا العالم العربى يوشك أن يدخل فى صراع دام مع اليهود ، وهذا الصراع الدامى إذا بقيت الأمور تمشى على النحو الذى كانت تمشى عليه قديما فإن النتيجة ستتكرر ، ونحن ما انتصرنا على اليهود فى حرب إلى الآن ، لأننا ما كنا نقاومهم بدين ، بينما كانوا يهجمون علينا بدين ، وما يَفُلُّ الحديد إلا الحديد .

فى بعض القرى أو فى بعض الحارات يوجد ناس مجرمون أوغلوا فى الجريمة ، ما يعرفون غيرها ، يجيئهم المجرم الصغير أو الغر يقول لهم : أنا آكل من اللصوصية – أنشل الركاب – ولكنى سجنت ، فيقولون له : دع النشل ، وجرب السطو على البيوت ليلا ، ويعود بعد أن يأخذ عقوبة فى السجن ، فيقولون له : جرِّب تزوير النقد ، ويجرب تزوير النقد ثم يعاقب ويجيء ، فيقولون له : جرِّب القمار ، إنهم يقولون له كل شيء إلا أن يقولوا له : جرِّب المشى على الصراط المستقيم ، جرِّب أن تكسب رزقك من

حلال ، جرّب أن تؤمن بالله وتكدح وتأكل من عرق جبينك !! لماذا ؟ لأنهم مجرمون موغلون في الإثم ، ما للإيمان في قلوبهم أثر ولا لله في أفئدتهم من وقار ولا من خشية ، فكيف ينصحون ؟

ويوجد الآن من يقول للعالم العربي : اعتمد على روسيا ، اعتمد على أمريكا ، اعتمد على فرنسا ، اعتمد على انجلترا ، إنهم يكتبون كثيراً في تضليل العالم العربي وفي إتاهته عن طريق الله ، وما يقول أحدهم أبدا للأمة المشردة الجريح المنكوبة : جربي الصراط المستقيم ، جربي العمل بالإسلام والتجميع عليه ، جربي أن تحاربي تحت راية التوحيد ، جربي أن يكون القرآن المحور الذي تدور عليه حركة المقاومة وتنطلق منه جيوش التحرير ، هؤلاء يقولون : أرسلوا للجنود صور الغانيات المومسات ، لعل الجندي يموت وفي أحضانه صورة مومس ..

إذا كان الغراب دليل قوم * يمر بهم على جيف الكلاب

إن هؤلاء الذين يقودون حركة الفكر أو يمسكون بزمام القلم في العالم العربي إذا لم يكونوا مرتدين — وأنا أعلم أنهم مرتدون عن الإسلام — فهم طابور خامس (١) يعمل لحساب الاستعمار العالمي أياً كان نوعه أحمر أو أصفر ، هؤلاء خطيرون على مستقبل أمتنا ، وينبغي أن يكذبوا ويجبهوا عندما يرسمون وسائل الكفاح لبلدنا .

إن الناس تمسكوا بأديانهم ، وليس الإسلام عارا حتى يكون التمسك به مسبة ، إن المرتدين من حملة القلم يريدون أن ننهزم في حرب رابعة وفي حرب خامسة لأنهم لا يعرفون إلا طريق الهزائم ، إن الكتاب الذين يكرهون كل تجمع إسلامي ويضيقون به هؤلاء لابد أن يعرف أنهم ارتدوا من قديم عن الإسلام ، ليس لهم بالله إيمان ، ما شرفت أجسادهم بسجدة لله في محراب للعبادة ، هؤلاء يجب أن يعرفوا .

---

(١) يطلق هذا اللقب على الجواسيس ، وقد ابتكر هذا الاسم (الطابور الخامس) الجنرال فرانكو الذي تمكن عام ١٩٣٦ من الاستيلاء على الحكم في اسبانيا رغم أن قواته كانت مؤلفة من أربعة طوابير فقط ، وعندما سئل عن سبب نجاحه بهذه الطوابير الأربعة قال : كان هناك طابور خامس ، وعنى به مؤيديه وأعوانه من المدنيين

إن العودة إلى الإسلام لا تعنى فقط نقل قضية فلسطين من الميدان العربى إلى ميدان أكبر منه ، ولكنها تعنى ما هو أخطر من ذلك ، تعنى أننا نحارب الخمول والبرود وعدم المبالاة وقلة الاكتراث والاستهانة بالقيم ، إننا نحارب البلادة الشائعة ، والفتور المنتشر ، والاختلاسات والسرقات ، والاستهانة بالمال العام .

أنا لو كنت عربيا مسيحيا ومخلصا للبلدى لقلت للعرب : يا أهل البلد إنكم فى تاريخكم الماضى ما تكونتم أمة إلا بالإسلام ، وما ارتفعت لكم راية ، ولا نضرت وجوهكم كرامة إلا بالإسلام ، وأنتم تواجهون دينا يريد أن يقص أجنحتكم بل أن يخلع قلبكم من بين أضلاعكم ، ولابد أن تحاربوه بعقيدة ، إن القوميات إلى الآن جربت نفسها وفشلت فلم لا يترك للإيمان أن يجمع وللإسلام أن يتحرك وأن ترتفع رايته ؟

ما قال أحد من العقلاء أو دارسى التاريخ قديما وحديثا : إن حرب فلسطين حرب سياسية أو حرب تجارية ، لقد قيل قديما وحديثا : إنها حرب دينية ، حتى جاء التافهون ممن لا علم لهم ولا عقل يريدون تغيير التاريخ وتشويه الحقائق ، فسموا الحروب الصليبية القديمة حروبا تجارية أو سياسية ، أصحابها قالوا : إنها صليبية ، وآباؤنا قالوا : إنها صليبية ، والإثارات كلها كانت دينية ، حتى جاء التافهون فى هذا العصر يقولون : إنها ما كانت حربا دينية !!

هذا الكذب على التاريخ إلى متى ؟

حتى تضيع العواصم كلها وتسقط المدينة المنورة فى يد اليهود ؟ لابد أن تصحو الأمة ، لابد أن يكون التجميع على الإسلام ، ما دامت الحرب يهودية علنية فليكن الدفاع إسلاميا علنيا ، نربى على الإسلام ، نجمع على الإسلام ، نستثير الشعوب الإسلامية فى الشرق والغرب ، إن الحرب عندنا فى فلسطين لاستنقاذ المسجد الأقصى حرب دينية ، والمسجد الأقصى ليس ملك بعض القبائل فى (الدلتا) أو فى (الصعيد) أو فى (الأردن) أو فى (سوريا) إنه بيت الله وملك المسلمين قاطبة .

الحرب دينية ، ويجب أن تأخذ طابعها ، وأن يكون التجميع باسم الإسلام وعليه ، والمسيحيون العرب بين أمرين : إن شاءوا الوفاء لذمتهم وأرضهم وكانوا إلى جوارنا فى هذه الحرب فبها ونعمت ، وإلا فليتركونا وليصمتوا وما نلومهم ، وإذا كنا نحن المسلمين عجزة عن القتال إلا بهذا العون فبطن الأرض خير من ظهرها ، إما أن نحيا — كما نريد — باسم الإسلام أونموت كما نريد . أمّا أن نسمع للكذابين يكتبون فى الصحف الكثير عن الحرب وأطوارها وأوهامها وما ينتظر منها وما يرجى لها ، وما يفكر أحد من هؤلاء فى ذكر الله ولا العودة بالأمة إلى كتابة ولا استثارة المشاعر الدينية الرابية النامية من أربعة عشر قرناً فى أرضنا .. فهذا ما لا ينبغى أن يكون .

هؤلاء قادونا إلى العار قديما ، ولا تزال دور هذه الصحف كعشعش اليوم،ما ينعق فيها إلا طلاب الخراب لهذه الأمة فلنحذرهم على ديننا وعلى بلدنا .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم (١) .



(١) للأسف البالغ لم تسجل الخطبة الثانية

أَحْوَالُ المُسْلِمِينَ فِي الفِلِبِّين (١)

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن موضوع الخطبة اليوم فرضه عليّ واقع لا يمكن تجاهله ، وملابسات لا نستطيع أن نتعامى عنها ، موضوع هو فى ظاهره تاريخى أو سياسى ، ولكنه فى حقيقته يتصل بعقيدتنا وحاضرها ومستقبلها .

الموضوع هو أن (بابا روما) ذهب فى سفرة شاقة طويلة إلى البلاد التى يطلق عليها اسم (الفيلبين) وهو اسم مرور مستعار ، وضعه الغزاة الأسبانيون على جزر كانت إسلامية مائة فى المائة ، وبدأوا حركة تنصيرها من بضعة قرون ، ومضوا فى طريقهم حتى استطاعوا أن يحققوا جزءا كبيرا من نياتهم وأن يبلغوا شوطا بعيدا من أهدافهم .

---

(١) الفيلبين من الجزر الكثيرة والتى تقع فى جنوب الصين وشمال شرق أندونيسيا وحدودها البحرية بحر الصين الجنوبى وبحر سولو غربا وبحر سيليبز جنوبا والمحيط الهادى (بحر الفيلبين) شرقا ومضيق باشى شمالا . ولها حدود إقليمية مع تايوان والصين وماليزيا وأندونيسيا ، وتبلغ مساحتها ١١٥٦٠٠ ميل مربع . يقطن الفيلبين نحو ٥٠ مليون نسمة يعمل غالبيتهم فى الزراعة والغابات والمؤسسات ويعتبر شعبا فقيرا بوجه عام . والديانات مختلفة أهمها النصارى والوثنيون والمسلمون (١٥ ٪ من المجموع العام) وقد وصلها الإسلام فى القرن الثامن الهجرى عن طريق التجار المسلمين من الهند والجزيرة العربية وشرق آسيا وقد كان للمسلمين كيان كبير فى البلاد وخاصة فى جنوبها إذ أسسوا ممالك مستقلة قبل الحكم الأسبانى فى البلاد وبعده . وعرفت البلاد بهذا الاسم نسبة لفيليب ماركوس أحد ملوك أسبانيا السابقين .

الجزر ما كانت تسمى الفيبين ، ولكن (فيليب الثانى) ملك أسبانيا كان رجلا معروفا بتعصبه لكثلكة وقتله لأعدائها ، فأخذ الاسم ووضع على مجموعة من جزر الهند الشرقية ، الجزر كانت إسلامية كلها ، وكان المذهب السائد هناك مذهب الإمام الشافعى ، وكان العلماء من أهل البلاد أو ممن جاورها من جزيرتى (جاوة) [١] و (سومطرة) [٢] .

ثم جاء مبشر يعرف فى تاريخنا الذى ندرسه بأنه مستكشف جغرافى ، وهو مبشر بالنصرانية اسمه (ماجلّان) [٣] انتفع ماجلان بخبرة بعض التجار العرب ووصلوا به أو وصل بهم إلى المضيق الذى يعرف فى الجغرافيا الآن بأنه مضيق ماجلان ، ولما كانت الأرض التى بلغها إسلامية ، وكان الرجل مبشرا بالنصرانية فقد حاول أن يرفع الصليب على الأرض التى بلغها فقتل هنالك وانتهى أمره .

لكن أمر الجزر لم ينته ، فقد شرع الأسبان يوجهون إليها حملاتهم ويبذلون الجهود لمحو التوحيد وإقامة التثليث مكانه ، وبدأ صراع فيه مرارة وفيه حرقة ، لأن المسلمين الذين دافعوا عن دينهم لم يجدوا الكثير من العون ، ولم يسعفهم إخوانهم من أماكن كثيرة ، فقاتلوا فى معركة تشبه أن تكون معركة انسحاب ، وكان ما نزل بهم فادحا مخوفا !!

ومابُدٌّ من أن أذكر التاريخ ، ولما كنت معتل الجسم لا أستطيع أن أؤلف ، ولما كانت الحقائق التى أريد نشرها وثائق ، فمن الخير أن أقرأ ما ورد أو ما نشر ، وما نشر لمؤلف انكليزى ترجمه مهندس مسلم مصرى هو الدكتور مصطفى مؤمن ، وقد نشرت هذه الوثائق مجلة سعودية تصدرها رابطة العالم الإسلامى .

---

(١) تقع هذه الجزيرة فى أندونيسيا وهى جزيرة متوسطة يفصلها عن سومطرة مضيق سندا .

(٢) تقع هذه الجزيرة أيضا فى أندونيسيا وهى أكبر جزيرة فى البلاد .

(٣) ماجلان (ت ١٥٢١) : ملاح برتغالى ، لقى تأييدا من أسبانيا لاقتراحه القائل بمحاولة الوصول إلى مبقة عن طريق الغرب ، فأقلع (١٥١٩) ومعه ٢٧٠ رجلا على خمسة مراكب وعبر من الأطلنطى إلى الهادى عن طريق المضيق الذى حمل اسمه . واتجه صوب (ش غ) ووصل الفلبين حيث قتل .

وقد بدأ عرو هده البلاد فى القرن السادس عشر ــ أى من أربعة قرون ــ وإبرازاً للغاية المنشودة مه فقد رصت جثث المقاومين الشجعان على نحو هيئة صيب ودلك سنة ١٥٧٦ ويقول المؤلف : إنه أول صليب صنع بأجساد المسلمين ونرجو أن يكون آخرها !!

وينشر المؤلف نص الأمر الصادر من الحاكم العام الأسبانى « فرانسيسكو دى ساندى » لقائد الحملة المشئومة التى استهدفت غرو جزيرة « سولو » وهى جزيرة إسلامية مائة فى المائة يقول · اقرأ معى واحبس أنفاسك ولتكن آذانا وعيونا لتفهم ، يقول الحاكم الأسبانى للقائد الدى قاد المعركة :

« إننى آمرك بسد أفواه الدعاة إلى دين محمد ، إذ هو دين شرور وآثام ، وليس هناك من بديل عن النصرانية عقيدة ودينا ، ولما كان الدعاة القادمون من « بورنيو » (١) مثلهم فى الدعوة إلى الإسلام فواجبك مصارحتهم بأن غرضنا هو تعميم النصرانية ، ولدى اعتناقهم لها فستتركهم يعملون فى أرضهم دون أن يصيبهم أذى من جانب سادتهم النصارى الأسبان ، وترصد بقوة من يدعو لدين محمد ، وألق القبض عليه ، ثم سقه إلى مكبلا مخفورا » !!

لكن الحملة فشلت فشلا ذريعا ، وأعاد الحاكم الأسبانى الكرة فى السنة الثانية ، وتتابعت الحملات حتى السادس من إبريل سنة ١٦٢٦ حيث استطاع القائد الأسبانى « جواندى » أن يقتحم موقعا خلوا من السكان وأن يحتل ــ ليلا ــ ربوة ذات مكان حصين يفاجىء منه سكان جزيرة « سولو » بضربات مدفعيته ، واستبسل السلطان المسلم « دتونا » فى الدفاع عن الأرض الطاهرة ، ولكنه لقى هو ورجاله شهادة جماعية إجماعية ، واستطاع الأسبان أن يجعلوا هذه البقعة منطلقا لحملات غزو على بقية معاقل المسلمين فى هذه الجزر .

---

(١) تقع فى أندونيسيا وهى شبه جزيرة حيث إن قسمها الشمالى يتبع لماليزيا .

يقول المؤلف : وردَّ السلطان « قدراك » حملة عارمة ، ثم وقع اتفاقا سنة ١٦٤٥ مع السلطات الأسبانية لضمان سلامة قوافل الطرفين وتبادل المنافع ، وفى مقابل ذلك سمح لهم ببناء كنيسة فى جزيرة المسلمين ، ولكنهم نقضوا العهد بعد أعوام قلائل فتصدى لهم السلطان ولاذوا بالفرار تاركين وراءهم هيكل كنيسة خاوية ، وفى سنة ١٨٢٥ — أى بعد مائتى سنة — فقد الأسبان مستعمراتهم عدا « عذراء ماليزيا » .

هذا كلام يحتاج إلى شرح ، فإن دولة أسبانيا التى نصَّرت نحو أربعين فى المائة من السكان المسلمين بطرقها التى أشرنا إليها وقعت فى ضائقة مالية ، فماذا تصنع ؟

باعت الجزر بمن فيها وما فيها لأمريكا !! فحلَّ الأمريكيون فى الفيليبين محل الأسبان ، وبعد خمسة أشهر قرروا شراءها مقابل مائتى مليون دولار دفعوها لأسبانيا .

وهنا أعلن الشعب برمته الحرب ضد الغزاة الجدد ، واستمرت الحرب بين المسلمين والأمريكيين إلى سنة ١٩٠١ وفى تلك السنة تألفت لجنة من « الكونجرس الأمريكى » لوضع تشريعات للفيليبين ، حاولت تحويل المسلمين عن معتقداتهم دون جدوى ، فماذا تصنع ؟

رأى الأمريكيون أن خير علاج للمسلمين هو اجتثاثهم بشن الحرب « البكتيرية » عليهم وعلى ما شيتهم ، فاجتاحت أوبئة الكوليرا والجدرى والطاعون البابونى جزيرة « ميندناو » ثم جزيرة « سولو » سنة ١٩٠٣ .

وبلغ ضحايا حرب الأوبئة حسب تقدير لجنة « تافت » الأمريكية مائتى ألف أو يزيدون ، ونفقت مئات الألوف من الدواب بأوبئة الحمرة وطاعون الماشية .

وهكذا خسر المسلمون أنفسهم وأموالهم بالخسيس المزرى من الغدر ، كما تعرضت للهلاك آلاف مؤلفة من الدواب العجماء التى لا تدرى شيئاً .

وتحولت جزيرة « عذراء ماليزيا » تحت حكم الأمريكيين المباشر ، وفى عهد الأمريكيين تكونت وزارة خاصة بشئون « مينداناو » و « سولو » وفى فترة الانتقال ألحق — فى غفلة من الزمن — المسلمون باختصاص وزارة الداخلية الفيليبينية .

ويقول المؤلف كلاما كثيرا خلاصته . أن الأمريكيين رعوا شئون الفيليين على النحو الذى رعاها من قبل الأسبان ـ أى حرب متصلة ضد الإسلام ـ وتسلطت ضد الإسلام عصابات مسيحية مكونة من المتعصبين الذين يسمون « فئران » .

ويقول المؤلف : إن جماعة « ايلاس » أو الفئران هى أخطر الجماعات الكاثوليكية وأشدها تعصبا ضد المسلمين ، ولها تنظيم سرى هدفه الأول الاستيلاء على الأرض الإسلامية وإبعاد أهلها عنها ، ويتدرب أفراد هذا التنظيم فى إسرائيل !!

وحفزاً لهم فى إلحاق الأذى بالمسلمين والتنكيل بهم وضعت تسعيرة بالمكافآت التى تصرف لمن يصيب مسلما بإحدى هذه العاهات :

١ ـ أذن المسلم ثمنها ١٠٠ بيزوس .
٢ ـ أنف المسلم ثمنها ١٠٠ بيزوس .
٣ ـ إصبع المسلم ثمنها ٥٠ بيزوس .
٤ ـ كف المسلم أو ذراعه ثمنها ٢٥٠ بيزوس .
٥ ـ عين المسلم ثمنها ألف بيزوس ، أى ما يوازى خمسة وثلاثين جنيها استرلينيا ..

ما أرخص المسلمين !!

وتشن هذه العصابة حرب إبادة على المسلمين لإخلاء الأرض منهم وتوريثها للصليبيين ، وقد أصبحت معسكرات اللاجئين المسلمين تضم ما يربو على خمسمائة ألف لاجىء أو مشرد !

وقد كشف المسلمون الأقنعة عن وجود تواطؤ خبيث بين حكومة « ماركوس » ـ الحاكم الحالى ـ وأولئك الفئران المسلحين .

ويمضى الكاتب فى عرضه لأمور ما نحتاج إلى تفاصيلها ، لكن الذى قرأته واستمعت إليه فى الإذاعات أن « بابا روما » لقى المسلمين فى جنوب « ميندناو » وقد استمعت إلى تلخيص ما قاله فوجدت أنه يريد تفاهما وحقوقا متبادلة وكلاما من هذا النوع ، ولعله قال لهم : إن الله محبة ، ولعله

قال لهم كلاما من هذا النوع الذى نعرف قيمته الشكلية وندرك أن حقيقته جوفاء لا شىء فيها .

قلت فى نفسى : هل يعى المسلمون فى شرق العالم العربى وغربه من الأطلسى إلى الخليج هذه الحقائق ؟

لا . المسلمون لا يدرون شيئا عن تاريخ الإسلام وامتداداته فى شرق آسيا التى انتزع جزء منها وسمى « الفيلبين » .

المسلمون هنا لا يدرون شيئا ، إنما الذى أذكره أن المسلمين هناك يحبون الإسلام ويدفعون عن أهله ، وعندما تورط العرب هنا فى حروب صليبية فإن إخوانهم المسلمين من جاوة ، وسومطرة ، وتركستان ، وأفغانستان ، وبلاد ما وراء النهر لم يتركوا العرب وحدهم ، فالذى قهر الصليبيين هو صلاح الدين الكردى ، والذى قهر التتار وهزم المغول هزيمة منكرة هو قطز وهو من تركستان .

لا بأس أن يُعرف الفارق بين ما فعله المسلمون القادمون من هذه البلاد البعيدة بعد أن انتصروا على الصليبيين وبين ما فعله غيرهم ، وينبغى أن تُعرف أخلاقنا وأخلاق غيرنا .

معى كتاب مترجم أيضا ، يتحدث الكاتب ــ وهو رجل إنكليزى ــ عما فعله صلاح الدين عندما استرد بيت المقدس ووقع نحو مائة ألف صليبى فى يده فيقول :

الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية ، فبينما كان الفرنج منذ ثمانٍ وثمانين سنة يخوضون فى دماء ضحاياهم ، لم تتعرض الآن دار من الدور الصليبية للنهب ، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه ، إذ سار رجال الشرطة بناءً على أوامر صلاح الدين يطوفون بالشوارع يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين !!

وقد دهش المسلمون عندما رأوا البطريرك يؤدى عشرة دنانير مقدار الفدية المطلوبة منه ويغادر المدينة وحده وقد انحنت قامته لثقل ما يحمله من الذهب ، وقد تبعته العربات التى تحمل ما يحوزنه من الطنافس والأوانى

المصنوعة من المعادن النفيسة !! وبفضل ما تبقى من منحة الملك « هنرى الثانى » تقرر إطلاق سراح سبعة آلاف من الفقراء !!

يقول المؤلف الإنكليزى : من المناظر التى تدعو إلى الأسى والحزن ما حدث من التفات « العادل » — وهو لقب شقيق صلاح الدين — التفت إلى أخيه صلاح الدين يطلب منه إطلاق سراح ألف أسير على سبيل المكافأة عن خدماته له ، فوهبهم له صلاح الدين ، فأطلق « العادل » على الفور سراح ألف أسير مسيحى !!

وإذا اجتهد البطريرك هرقل لأن يلتمس هذه الوسيلة الرخيصة لفعل الخير لم يسعه إلا أن يطلب أيضا هو الآخر من صلاح الدين أن يهب له بعض الأرقاء ليعتقهم فأعطاه صلاح الدين سبعمائة أسير !! كما جعل صلاح الدين لـ « بليان » خمسمائة أسير !!

ثم أعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل امرأة عجوز ، ولما أقبل نساء الفرنج اللائى افتدين أنفسهن وقد امتلأت عيونهن بالدموع فسأل صلاح الدين أين يكون مصيرهن بعد أن لقى أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم أو وقعوا فى الأسر ؟

أجاب بأن وعد بإطلاق سراح كل من فى الأسر من أزواجهن ، وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا كل بحسب حالته !!

والواقع أن رحمته كانت على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين فى الحملة الصليبية الأولى !!

هذا ما كتبه المؤلف الانكليزى ، وفى الجزء الثالث من كتابه — الذى نشرته دار الثقافة ببيروت — يقول عن أفعال الغزاة المسيحيين : اضطر الغزاة إلى أن يفكروا فى ترك البلاد ، لكن صار الأسرى المسلمون مصدر حيرة لهم ، فماذا يصنعون ؟

أعلن قائدهم فى برود شديد يوم ٣٠ أغسطس سنة ١١٩١ أن صلاح الدين قد نقض عهده ، وأمر بالإجهاز على ألفين وسبعمائة أسير من المسلمين كانوا على قيد الحياة ، فاشتد حماس عساكره للقيام بهذه المجزرة !!

حاول المسلمون أن يبذلوا الجهود لوقف المذبحة ولكنهم عجزوا عن الوصول إلى إخوانهم ، وعندما وصلوا لم يجدوا إلا بقعة تناثرت عليها الجثث المشوهة المتعفنة !!

هذا تاريخ ، الذى أسأل عنه : هل يدرس هذا التاريخ ؟ حقيقة الوضع فى الفيليبين أن المسلمين هناك صدرت أوامر بإخراجهم من الأرض الخصبة التى يزرعونها ، وبدأت الحكومة تقاتلهم لإخراجهم من هذه الأرض .

وتصوروا أن المصريين فى « الدلتا » صدر أمر بإخراجهم من « الدلتا » ليعيشوا فى الصحراء ، ماذا يصنعون ؟

لابد أن يقاتلوا ، وقاتلوا منذ تسع سنين إلى الآن ، الجريمة التى ترتكب فى الفيليبين جريمة إبادة جنس مما ينص على معاقبة مرتكبها قانون الأمم المتحدة ، لكن القانون لا يطبق إذا كان الذين يبادون من المسلمين !!

أين هذه البلاد التى كانت عامرة بالإسلام ؟

لا وجود لها ، كل ما أذكره الأبيات التى قالها أحد الشعراء (١) فى الأندلس :

تبكى الحنيفية البيضاء من أسف	كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية	قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس	ما فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة	حتى المنابر ترثى وهى عيدان
أعندكم نبأ عن أهل أندلس	فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم	أسرى وقتلى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطعُ فى الإسلام بينكُمُ	وأنتُمُ يا عباد الله إخوان
ألا نفوس أبِيَّاتٌ لها همم	أما على الخير أنصار وأعوان

هذا كلام أذكره على أنه تاريخ ، ولكن هذا التاريخ يمكن أن يتكرر ،

---

(١) هو أبو الطيب الرندى

ويمكن أن ينتقل من مكان لمكان ، وفى دراستى هزائم المسلمين — ابتداء من أحد — ما وجدت هزيمة وقعت بالمسلمين إلا كانوا هم سببها ، حتى إن القرآن الكريم لما حدَّث المسلمين أو أجابهم عن تساؤلهم « أنى هذا » ؟ كان الجواب ﴿ **قل هو من عند أنفسكم** ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

الصليبية تطارد الإسلام من قديم ، وهذه حقيقة يجب أن تدرس وأن تعرف . ومحاولة التعطية عليها محاولة سمجة وفاسقة . ولذلك رأيت أن أكشف زيارة « بابا روما » للفيلبين ، لأن الرجل يريد أن يضع طابعه على ما بقى من أرض الإسلام هناك !!

ثم انضم إلى الصليبيين فى عدوانهم على الإسلام الشيوعيون ، والتمدد الشيوعى خطير ، وقد أخذ نصف العالم الإسلامى فى آسيا ، لأنه — كما ذكرت فى كتابى « الإسلام فى وجه الزحف الأحمر » — كانت « سيبريا » مسلمة وقد قتل ملكها وفقئت عينه وهو يدافع عنها ، كانت « القرم » مسلمة ، كانت « الأرال » مسلمة ، كانت « أذربيجان » مسلمه .

امتد الروس — والروس فى مساحتهم الطبيعية ما يملكون أكثر من أرض تشبه مساحة مصر — فى الشرق ، وأخذوا آسيا حتى بلد « البخارى » فى « أوزبكستان » وضعوا يدهم عليها .

الأمة الإسلامية تشبه المغفل الذى لا يحميه القانون ، لأنه لا يعرف مصلحته ، ويخيل إلىَّ أن المسلمين أصيبوا بمرض « فقدان الذاكرة » فهم ما يدرون ما وقع لهم ، وبالتالى لا يعرفون ما سيقع لهم . وبقاء الأمة على هذا النحو خطر تتعرض له عقيدة التوحيد نفسها ، ولذلك وجدت أن الدين يفرض علىَّ أن أنفخ التراب عن هذه الحقائق ، وأن أبدى الصورة القبيحة لهذه الأوضاع حتى يراها المسلمون فيخجلوا من تفريطهم ومن نسيانهم لربهم .

أنا لا أخاف — والله — من الضغط الصليبى أو الضغط الشيوعى ، ولكنى أخاف من الغفلة الإسلامية ، وهذه الغفلة تبدو فى مظاهر كثيرة .

وقد بدأت نهضة ، ولكن الذين يحاربون النهضة أخذوا يعملون

المسمين يفقدون فقدان الأولويات . يعنى لو أن عندك مائة جنيه وبيتك حال من كل شيء ، فإن المائة جنيه نصرف ابتداء فى شراء تموين ، فى شراء الضرورات التى لابد منها للبيت ، فإذا ذهب المغفل واشترى راديو أو تليفزيون فماذا يصنع بهذا ؟!

الأمة الإسلامية فيها أزمة أخلاق ، فيها أزمة عبادات صحيحة ، فيها أزمة دفاع عن العقائد الحقيقية ، ومع ذلك فإن أعدادا من المسلمين يفكرون فى أمور ما يفكر فيها عاقل .

والآن وجدت أن عدوين يشقان طريقهما إلى الأرض الإسلامية :

العدو الأول يقول : الإسلام كتاب من غير سنة !!

وقد رأيت هؤلاء فى باكستان ، ورأيتهم فى السودان ، وامتدت أحصارهم أخيرا إلى القاهرة ، وقادهم — فيما أعلم — العقيد « معمر القذافى » .

والواقع أنه عندما تضيع السنة فسيضيع القرآن بعدها ، كأن العدو بلغ من خبثه أن قال : اقسم المعركة قسمين : اضرب السنة أولا ، فإذا انتهيت منها ، انفردت بالقرآن فأجهزت عليه .

وضرب السنة جنون ، لأن المفسر الأول للقرآن هو محمد عليه الصلاة والسلام فى قوله وفعله وتقريره ، فإذا ضاع التفسير أو إذا ضاعت المذكرة التفسيرية للقانون فماذا يبقى ؟

العدو الثانى يقول : الإسلام دين لا دولة !!

وقد استؤجر لهذا أناس أصحاب أسماء لامعة كمصطفى كمال أتاتورك ، وجمال عبد الناصر ، أما مصطفى كمال فقد صنع له الحلفاء زعامة ليجعلوا منه رجلا ، وما كان رجلا ، كان جاسوسا مرتدا خائنا قذرا ، وأما جمال عبد الناصر فشخص متهور ، مقامر لا مغامر ، ما دس يده فى خضراء إلا يبست ، ولا دخل معركة إلا انهزم فيها ، وقيل : إنه أبو العباقرة !!

الإسلام دين ودولة ، كتاب وسنة .

الإسلام له ماضيه وحاضره ومستقبله .

الإسلام له أمة فى لمشرق والمغرب لا يمكن قبول تقسيمها .

باسم التثليث يخرج رجل من « روما » ليذهب إلى أقصى المحيط الهادى ليلقى إخوان العقيدة !!

أما عقيدة التوحيد فلا رباط لها ، ولا أبوة ثقافية أو روحية تلم شملها !!

هذه الحقائق لابد أن تعرف ، وعلى المسلمين إذا كانوا عقلاء أن يعرفوا الأولويات ، فإذا كان أعداؤنا قد جمعوا شملهم على إذهاب قلبتا ومعتقداتنا وأخلاقنا وتقاليدنا وشرائعنا وكل ماله أثر فى حاضرنا ومستقبلنا ، فما يجوز بتة أن يشتغل المسلمون بالتوافه أو أن يتعاركوا على مالا معنى له .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ **الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون هم عذاب شديد** ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

أيها الإخوة : أضرب لكم مثلا لتعرفوا أن قلة الفقه تضع الإسلام فى مآزق حرجة ، جاءنى ذات يوم رجل من الناس يشكو خطيبا فى أحد المساجد — وكنت يومئذ مسئولا عن المساجد — قال : الإمام يتهم الرسول بالنفاق !!

قلت له : أعوذ بالله ، يا رجل ما يفكر فى هذا أحد ، ولا يخطر ببال امرىء من الناس .

قال : ذكر لنا أن عائشة رضى الله عنها قالت : « **استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال : ائذنوا له بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة ، فلما دخل ألان له الكلام ، قلت يا رسول الله قلت الذى قلت ثم ألنت له الكلام ، فقال . أى عائشة : إن شر الناس من تركه الناس أو ودعه الناس اتقاء فحشه** » (١) .

قلت له : الحديث صحيح .

قال : أليس هذا نفاقا ؟

قلت له : أنت جهول لا تحسن الفهم ، هذا أدب اسمه مداراة السفهاء ، وهو أدب عالمى ، وكان معى المرحوم كامل كيلانى فقال . فى شعر

---

(١) رواه البخارى فى الأدب — باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب ٨/٢٠ ومسلم فى البر والصلة والآداب — باب مداراة من يتقى فحشه ٨/٢١ .

« شكسبير » كلام عن مداراة السفهاء يشبه ما قاله الشاعر العربى :

لو أن كل كلب عوى ألقمته حجرا   لأصبح الصخر مثقالا بدينار

مداراة السفهاء أدب عالمى لا يزال الناس مكلفين به فى كل زمان ومكان .

هذه واحدة ، أمس قرأت ردا على شيء كنت ذكرته وهو حديث : « **بعثت بين يدى الساعة بالسيف حتى يعبد الله تعالى وحده لا شريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم** » (1) .

هذا الحديث فهمه أحد الناس على أن الإسلام ينتشر بالسيف ، وجاء آخر فكذب الحديث !

قلت : كلا الفريقين جاهل ، وقد ذكر النبى ﷺ وظيفته فقال : « **أنا محمد ، وأحمد ، والمقفى ، والحاشر ، ونبى التوبة ، ونبى الرحمة ، ونبى الملحمة** » (2) .

يعنى أنا نبى السلام ، وأنا نبى القتال ، من سالمنى سالمته ، ومن قاتلنى قاتلته ، فإذا حرض على قتال البغاة والمعتدين فهو نبى الملحمة ، وعندئذ يقول : « بعثت بين يدى الساعة بالسيف » ، والسيف هنا محكوم بقول الله جلّ جلاله : ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « **وجعل رزقى تحت ظل رمحى** » إشارة للمجاهدين ألا يخافوا ، فإن خسائر الحرب قد تكون مرهقة ، ولكن ثمراتها فى النهاية تكون رغدا لمن يضحكون أخيرا لأنهم يضحكون كثيرا .

---

(1) رواه أحمد ٢/٥٠ وأبو يعلى فى مسنده والطبرانى فى الكبير كذا فى الجامع الصغير ، وقال فى صحيح الجامع الصغير (٢٨٣١) . صحيح وقد علق البخارى فى صحيحه بعضه ٤/٤٩ وقال الحافظ فى شرحه : هو طرف من حديث أخرجه أحمد من طريق أبى منيب ... وله شاهد مرسل بإسناد حسن أخرجه ابن أبى شيبة من طريق الأوزاعى عن سعيد بن جبلة عن النبى ﷺ بتمامه .

(2) رواه مسلم — بدون « ونبى الملحمة » — فى الفضائل — باب فى أسمائه ﷺ ٧/٩٠ والزيادة عند الطبرانى وأحمد ، وقال فى صحيح الجامع (١٤٧٣) : صحيح

هذا معنى الحديث ، والحديث ليس من رواية البخارى ومسلم ، ولكنه من رواية أحمد بسند صحيح .

الأمر يحتاج إلى الفقهاء ، من قديم كان هناك بعض الناس معروفين بالنزق ، يجرون وراء كل شيء بدون تثبيت ، فقال الله معاتبا هؤلاء : ﴿ **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ [النساء : ٨٣] .

لَعَلِمَه من ؟ أى صعلوك ؟ لا ، « لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

للأسف يجيء ولد الآن يقول : الشافعي أفسد مصر !! ثم يقول : هم رجال ونحن رجال !!

والله الشافعي رجل وأنت عيِّل .

يا مسلمون ، الأمة الإسلامية فى مهب الرياح ، وهناك أولويات تتطلب أن نلتفت إليها ، أما أن تضيع الفيلبين ، وتبدأ إضاعة أندونيسيا ، وقد حدد لها خمسون سنة كى تصبح ، أما أن أقرأ أنه قد وضع لأفريقيا أن لا ينتهى القرن العشرون إلا وثمانون فى المائة منها قد دخلوا فى المسيحية ، أما أن أقرأ هذا وذاك ثم أجد صعاليك فى ميدان الفكر الدينى تمزق الأمة بكلام تافه وقضايا محقورة وأمور لا معنى لها فإن هذا ليجعلنى أخشى على الأمة وعلى مستقبلها بل على يومها القريب لا على غدها البعيد .

« **اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا . واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر** » (١) .

﴿ **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم** ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

---

(١) رواه مسلم فى الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل — ٨١/٨ .

الشَّخصيَّة العَربيَّة عَوامِل اضمِحلالها وَعَناصِر ازدهَارهَا

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية
١٩٨١م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فقد اهتممت بدراسة الطبيعة العربية وتعرُّف خصائصها النفسية والفكرية ، لم ؟ ألأنني عربي ؟ ما أظن ذلك السبب الدافع ، لأنني أعلم أن العروبة لغة لا دم ، وأن عربا قد يولدون في أعماق الجزيرة لا يمثلون خصائص العروبة ولا رسالتها ، بينما يولد رجل في « بخارى » كأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري صاحب « الجامع الصحيح » أو كصلاح الدين الكردي ومع ذلك فإن كلا الرجلين ـ وإن لم يكن من دم عربي ـ فهو أقرب إلى العروبة وأخلص لوظيفتها ورسالتها من غيره .

ثم أنا أعلم أنني مصري ، وهل المصريون عرب ؟ هم بيقين استعربوا بالإسلام ، أي عرَّبهم الإسلام ، لكن أهم قبل ذلك عرب ؟

ما يعنيني هذا ، ربما تحدث علماء الأجناس في أن المصريين عرب أو غير عرب .

أنا ما يعنيني أن يكون « رمسيس » عربياً أو بدوياً أو أى كائن ، إنما يعنى أن المصريين تعربوا بالإسلام ، وأصبحوا بالإسلام عربا ، لذلك اهتممت بالطبيعة العربية عن رغبة في دراسة الشخصية العربية وعوامل اضمحلالها وعناصر ازدهارها ، ووجدت أن الجنس العربي يمكن — بتعبير لا فلسفة فيه ولا تعقيد — أن تذكر له ثلاثة أدوار :

دور قديم هلك فيه هذا الجنس .

ودور وسيط ازدهر فيه هذا الجنس وساد .

ودور معاصر اضطرب فيه هذا الجنس ، وتنازعته أسباب النماء والفناء فهو بينهما عَصِىٌّ طَيِّع ، وهو بينهما مقبل مدبر ، والمعركة بين الصحة والمرض أو بين العافية والسقام لا تزال دائرة في دمه وفي بيئته ، ونحن نرى — ثقة في الله — أن العاقبة ستكون خيرا إن شاء الله .

لكن مابد من دراسة أدوار هذا التاريخ ، لابد أن يعرف لم باد الجنس العربي قديما ، لأن الخصائص تتوارث أحيانا ، وعندما يقرأ المسلم الفاقه سورة الأعراف أو سورة هود أو سورة الشعراء، يجد أن الأنبياء العرب بذلوا جهودا حارة في فطام العرب عن رذائلهم واقتيادهم إلى ربهم وتحميلهم رسالة الإسلام ، ولكنهم عجزوا عن الارتفاع إلى هذا المستوى ، وغلبتهم خصائص من جنسهم أو من دمائهم فأهلكتهم ، وقال الله يصف هذه الأجناس البائدة : ﴿ **فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ [العنكبوت : ٤٠] .

إن الله لا يظلم جنسا من الأجناس ، وليس بينه وبين فئة من الفئات أو طائفة من الطوائف أو أمة من الأمم عداوة ، ولكن يصلح الناس فتطيب لهم الحياة ويمهدون لأنفسهم عنده ، فإذا أسفُّوا فإنما تدور الرحى [١] على أكبادهم لتطحنها ، وما يظلمون إلا أنفسهم .

---

(١) الرحى : الأداة التي يطحن بها ، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب

إنى أذكر هذه الخصائص التى ظهرت فى العرب البائدة لأننى — كما قلت — أرى التاريخ لا يستحدث له جديد على ظهر الأرض ، يكاد يكرر نفسه ، حتى قيل فى المثل الرومانى : « لا جديد تحت الشمس » وحتى قيل فى المثل العربى (١) :

كل خليل كنت خاللته	لا ترك الله له واضحة
كلهم أروغ من ثعلب	ما أشبه الليلة بالبارحة

نجىء إلى « عاد » ، لم هلكوا ؟

كانت لديهم كبرياء غريبة ، كان لديهم جبروت غريب ، يقول الله جل شأنه ﴿ **وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين . قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العلمين** ﴾ [الأعراف : ٦٥ — ٦٧] .

سبحان الله ! نبى من أنبياء الله يخاطَب بهذه اللهجة ؟!

إنه الكبر والجبروت ﴿ **فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة** ﴾ [فصلت : ١٥] .

هذا الجبروت انتهى بهم إلى أن نزل عليهم من السماء عذاب أودى بهم ، كانوا عمالقة — وكما تجىء عاصفة فَتُطَوِّحُ برأس النخلة — كان هؤلاء يأتيهم العذاب من عند الله فيحصد بهم الأرض ، وتطير منهم الأعناق ، ويبقون على الثرى كأنهم أعجاز نخل منقعر !!

قال تعالى : ﴿ **كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر . إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابى ونذر** ﴾ [القمر : ١٨ — ٢١] .

نجىء إلى « ثمود » لم هلكوا وبادوا ؟

---

(١) صاحب هذا المثل طرفة بن العبد كما فى عيون الأخبار : ٥/٢

كان لديهم جحود عريب ، اقترحوا أن تجيئهم ناقة من الصحر ، فانشق الصخر عن ناقة ـــ كانت معجزة واضحة ـــ ﴿ **وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها** ﴾ [الإسراء : ٥٩] .

جحدوا بعدما أتتهم البينات ﴿ **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون** ﴾ [فصلت : ١٧] .

ثم إن الكلام يطول فى شمال الجزيرة حيث كانت الأيكة وقرى مدين وشعيب الذى يسمى خطيب الأنبياء ، وكيف نصح قومه ألا يبخسوا الناس حقوقهم ، وألا يفتاتوا عليهم ، وأن بقية الله خير لهم ، هذا إلى جانب القرى الشاذة التى استمرأت الفساد ، وارتكبت فى ناديها المنكر ، واقترفت الآثام .

فالجنس العربى فى بداية تاريخه فسق عن أمر الله فضرب ضربة أطاحت به وانتهى أمره ، ويقول القرآن الكريم فى سورة هود ـــ وهى سورة تحدثت عن الأنبياء العرب ـــ ﴿ **فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾ [هود : ١١٦ ، ١١٧]

هذه مرحلة للجنس العربى ، ثم جاءت مرحلة أخرى ، انتهت العرب البائدة ، واصطفى رب العالمين إنسانا مطهرا مبرءا مصونا نبيلا مجيدا ، اختار محمدا ، ورباه ليربى العرب به ، وربى العرب به ليربى الناس جميعا بهم ، وكانت المعجزة أن القبائل التى هلكت فى الأولين وباد تاريخها أصبحت بأثر هذا النبى المبارك وبالتربية الراشدة التى وضع أسسها واتضحت معالمها فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تلوس أكفانها القديمة ، وترتدى حلة قشيبة ، وتخرج على الناس بمبادىء جديدة تقول : « **إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع** » (١) .

---

(١) رواه ابن ماجه فى الصدقات ـــ باب لصاحب الحق سلطان ٨١٠/٢ وقال فى صحيح الجامع (٢٤٢١ ـــ ١١٠٣) : صحيح . متعتع : أى من غير أن يصيبه أذى يقلقه أو يزعجه

خرجت مبادىء جديدة يقول فيها رئيس الدولة أبو بكر رضى الله عنه : « **أما بعد : أيها الناس فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أرجع إليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله** » (١) .

ولذلك وقف بدوى فى بلاط كسرى — هو رِبْعِىُّ بن عامر — يقول للفرس ويقول لغير الفرس ممن ورثوا جبروت الملك ، وفساد الحكم ، واستبداد الفرد ، وسيطرة العصبيات العمياء ، يقول لهم :

« **إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام** » (٢) .

إن كلمة التوحيد وضعت أسسا مكينة لما يسمى فى عصرنا : حقوق الإنسان . هذه الحقوق جعلت رجلا — قهر الجبابرة ، هزم الروم والفرس — كعمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى قاتل أخيه فقال له — بطبيعة الإنسان الذى يرى قاتل أخيه ، وقد أسلم — : والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم !!

فيقول له الأعرابى : يا أمير المؤمنين أيمنعنى هذا حقى ؟ قال : لا (٣) فهنى أكرهك لكن حقك يصل إليك كاملا ، لا دخل للكره ولا للحب فى محاباة أو ظلم أو إيثار ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾ [المائدة : ٨] .

ولذلك كانت الخلفية وراء ربعى بن عامر مشرقة عندما يقول للناس : جئنا نخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام !!

---

(١) رواه ابن اسحاق بإسناد صحيح كذا فى البداية والنهاية لابن كثير ٣٠١/٦ .

(٢) انظر البداية والنهاية ٣٩/٧ ، والكامل فى التاريخ ٣٢٠/٢ .

(٣) انظر البيان والتبيين : ٤٣/٣

كانت الخلفية — فعلا — مشرفة ، لأن الناس تسامعوا أن عمر وأبا بكر من قبله وأن الحكام المسلمين كانوا — فعلا — نماذج لتقوى الله ، والسبب فى هذا الإسلام .

هذا الإسلام جعل سادة الأمصار العربية من الأعاجم (١) . سأل الخليفة الأموى الوليد أو سليمان : مَنْ سيد البصرة ؟ فلان . من سيد الكوفة ؟ فلان . من سيد مصر ؟ فلان . من سيد دمشق ؟ فلان ، كلهم كانوا أعاجم ، ما عدا واحدا فقط كان عربيا !!

ما الذى جعل الأعاجم يسودون ؟

الإسلام الذى ألغى التفرقة العنصرية ، وجعل الخلفاء يصلون وراء الحسن البصرى ، وما كان عربيا (٢) ، وجعلنا نتعلم كلنا من البخارى ، وما كان عربيا ، وجعلنا نحب صلاح الدين الكردى ، وما كان عربيا !!

الحضارة العربية حضارة إنسانية ، شارك فى صنعها فقهاء القرآن والسنة من كل جنس ، حتى الأدب العربى شارك فى رفع رايته وتصفية ديباجته وإبراز جماله الفنى شعراء فيهم الرومى والفارسى والعربى .

ومضت هذه الحضارة ، لكن اشتبكت فى مسيرتها بالعداوات التقليدية ، هل نحن اشترينا عداوة اليهود أو النصارى ؟ لا ، يقول التاريخ لولا ظهور الإسلام لباد اليهود !! فإن اليهود آووا إلى بلاد الإسلام فى وجه الاضطهاد الذى نزل بهم فى كل مكان حلوا فيه .

نحن — بطبيعة ديننا الفكرية — أصحاب سماحة ، وأصحاب نظر عقلى ، وأصحاب احترام للدليل . لكن عندما يعرض بعض الناس سلعا كاسدة أو مغشوشة فينصرف الناس عنها إلى صاحب سلع جيدة وبضائع نقية فإن صاحب البضائع المغشوشة يرجع بالحقد ، وقد قال الله لنبيه ﷺ : **﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ﴾** [البقرة : ١٢٠] .

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون — فصل فى أن حملة العلم فى الإسلام أكثرهم العجم : ٣٣٧

(٢) يجيء الحسن من أب « ميسان » يدل على أنه كان ينتمى إلى أسرة غير عربية

لقد مضى المسلمون — فى تاريخهم الطويل — يخدمون الإنسانية ، ثم بدأ التاريخ الإسلامى يترنح ، وبدأت الأمة الإسلامية تضطرب ، إننى قرأت رأى ابن خلدون فى العرب ، وهو رأى شديد ، لكن يبدو أنه صحيح ، فإن ابن خلدون يقول : « إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة » (١)

يستحيل أن ينهض العرب إلا بنبوة ، يستحيل أن تقوم للعرب دولة إلا بشريعة سماوية ، يستحيل أن يدعم للعرب كيان إلا بالإسلام ، فإذا فرط العرب فى الإسلام فرطوا فى مجدهم ، وفرطو فى كيانهم ، وفرطوا فى حياتهم وشرفهم ، وأصبحوا ألعوبة فى أرض الله ، بل أصبحوا أعداء لأنفسهم قبل أن يكون غيرهم عدوا لهم .

ولقد نظرت إلى الأمة العربية فى عصرها الحاضر فوجدت أن برنامجا للارتداد العام وضع فى أوربا بشقيها : الشرق الشيوعى ، والغربى الصليبى ، وضع هذا البرنامج لجعل المسلمين يرتدون عن دينهم ، وأخذ هذا البرنامج يطبق بطريقة فيها دهاء ومكر .

وأحب أن أقول : إن تطبيق هذا البرنامج يستدعى أولا : محاربة الأخلاق الإسلامية ، محاربة التقاليد الإسلامية ، نزع الولاء لله ورسوله وجعل الولاء لشىء آخر ، وبدأ هذا التطبيق فعلا .

عندما أنظر للعرب الآن أجد أعراض المرض ظهرت كلها عليهم

• كان فى « ليبيا » شعب إسلامى احتلت أرضه « إيطاليا » ولكنه بقيادة « عمر المختار » يقاوم ، ثم جاء استقلال ، فى ظل هذا الاستقلال يقاد إمام مسجد إلى السجن إذا قال : قال رسول الله ﷺ كذا !! أهذا استقلال ؟ أم أن أيام عمر المختار وأيام المقاومة الإسلامية للاحتلال الإيطالى كانت أشرف ؟

• كان فى « سوريا » شعب إسلامى احتلت أرضه « فرنسا » ومع

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون : ١٢٦ ط المطبعة الأزهرية

ذلك فإن المقاومة الإسلامية استماتت فى استبقاء الإسلام ، وجاء بعد ذلك استقلال ، فى ظل هذا الاستقلال رفض البعث العربى أن يكون الإسلام دين الدولة !! إذن ما يكون دين الدولة ؟! شيء آخر غير الإسلام !! أهذا استقلال ؟ أم أن المقاومة الإسلامية للاحتلال الفرنسى كانت أفضل ؟

واستمعنا إلى من يقول : تكون فلسطين علمانية فيها اليهود والنصارى والمسلمون !!

أنا أرى أن فلسطين يوم أن ترتد عن الإسلام يكون وجودها تحت الحكم اليهودى أو وجودها كافرة شيئا يساوى بعضه البعض الآخر !!

لا قيمة لاستقلال بدون إسلام ، لا قيمة لنا إن لم ندخل فى الإسلام ونؤدى حق الله علينا .

الذى حدث أن الاستعمار العالمى استمات فى أن يسلخ المسلمين عن دينهم ، وأن يتوسل بحكام لا دين لهم كى يبلغ أهدافه ، وظهرت الرذائل المخبوءة فى الحس العربى يسفك العرب دم بعضهم بالبعض الآخر على نحو غريب .

كنت أقرأ من يومين معرة الاحتلال الانجليزى فى بلدنا : « حادثة دنشواى » [1]وقلت فى نفسى وأنا بين الضحك والبكاء : دنشواى ! دنشواى تمثل واحدا من الألف مما وقع فى السجن الحربى فى ظل جمال عبد الناصر ، دنشواى تمثل واحدا من الألف مما وقع فى سجن القلعة وفى سجن أبى زعبل وفى سجن طرة ، دنشواى تمثل واحدا من الألف مما وقع فى حلب وحماة وحمص !!

---

(١) وقع هذا الحادث فى ١٣ يونيه ١٩٠٦م عندما قدم خمسة من الضباط الانجليز إلى دنشواى بمحافظة المنوفية لصيد الحمام فأصيب برصاصهم بعض الأهلين ، ومن ثم هوجم الضباط ، فأصيب بعضهم ومات أحدهم ، فثار المعتمد البريطانى « لورد كرومر » وعقدت محكمة خاصة لمحاكمة المصريين ، فقضت بإعدام أربعة من الأهالى وجلد وحبس ثمانية منهم ، ونفذ الإعدام والجلد فى دنشواى نفسها . وقد أثار هذا الحادث الرأى العام العالمى

إن الله أهلك عادا قديما لأنهم كانوا كما وصفهم الله ﴿ **وإذا بطشتم بطشتم جبارين** ﴾ [الشعراء : ١٣٠]

فهذا البطش بطريق الجبروت ألم يظهر مرة أخرى فى دمشق والقاهرة فى ظل حكام لم يتقوا الله ، وكانوا عملاء للاستعمار العالمى ؟ هذا خط مشى فيه الاستعمار العالمى وأعانه عليه قوم آخرون من جلدتنا .

أيها الإخوة : إن مصر ـــ وأنا أعلم بحقيقة مصر وخطورة وضعها السياسى والاقتصادى والعالمى ـــ كانت الدعامة فى حماة العالم الإسلامى من الصليبية وحروبها فى العصور الوسطى ، وكانت دعامة العالم الإسلامى عندما اجتاحت ألويه التتر بغداد ومضت جحافلهم تريد أن يُظلم العالم كله أمام زحفها حتى اصطدمت بالجيش المصرى فى فلسطين وانهزم التتار .

إن مصر هى العاصمة الثقافية للعالم الإسلامى ، هى العاصمة الروحية للعالم الإسلامى ، ولذلك فإن المؤامرات تخفى وتظهر حينا بعد حين كى ترتد مصر والعرب كلهم عن الإسلام .

وشُغل المسلمون بمحاقر الأمور ، وتركوا دهاقين السياسة العالمية يرسمون خططهم وينفذونها فى صمت . فماذا كانت النتيجة ؟ وجدنا الجامعة العربية تتفق مع إمبراطور الحبشة على أن يأخذ أرتريا وهى قطعة من أرض الإسلام ، وأخذها وبدأ تنصيرها ، كما بدأت سياسة تنصير عامة من آخر وادى النيل إلى القاهرة والاسكندرية .

وكان مما جعله عبد الناصر لضرب الإسلام أن أوهن قوى الأزهر وقوى الجماعات الإسلامية ، ودعم الآخرين وهيأ لهم فرص ضخمة للظهور والنجاح والتفوق .

لعله قدر سابق ، لعلها إرادة الله الرحمن الرحيم ، لعلها مشيئة مالك القوى والإرادات أن مصر اعتصمت بحبل الله ، وقررت أن تبقى على الإسلام .

وهنا أقول بشىء من الصراحة والوضوح : إن مصر إسلامية شكلا وموضوعا ، وإن مصر ستبقى أرض الإسلام وموئل تعاليمه ومثابة جنده ،

وستبقى رية الإسلام فيها ، ولن يسمح بتة بتغيير التربة الإسلامية فى مصر ، وكل من سولت له نفسه — فى أمريكا أو أوربا أو من الشيوعيين فى موسكو أو بكين — أن يصطنع من المؤامرات أو يفتعل من الحركات ما يغير به الطبيعة الإسلامية لمصر فإنه لن يلقى إلا الفشل ، وما دمنا أحياء ، وما دام أبناؤنا من بعدنا ، وما دام تلامذتنا من ورائنا فإن مصر ستبقى بلد الإسلام ، وستتكسر أمواج الغزو على الشاطىء الصلب ، وسيبقى هذا البلد للإسلام بعز عزيز أو بذل ذليل ، لن تسمح أبدا بأن تتحول مصر عن الإسلام ، ولن تنجح المؤامرات التى تريد تحويل مصر عن الإسلام .

ولذلك فإننا نؤكد هذه الحقيقة لدور مصر الإسلامى ، ثم نقول : إن مصر — كأى بلد إسلامى آخر — احتضنت أقليات دينية ، وستبقى أسعد الأقليات فى العالم الإسلامى ما دام الإسلام فى مصر ، ولا ضمان للأقليات الدينية فى العالم الإسلامى إلا إيماننا بالله واعتصامنا بكتابه واتباعنا لسنة نبيه ﷺ .

وكون الأقليات الدينية تحاول — بالاتصال بأمريكا وأوربا — أن يكون لها عز أو شأن ، فإن ذلك لن يحقق قصدها ولن يرفع لها خسيسة ، ويستحيل أن يبقى لها مكانها إلا فى وسط مصر المسلمة وكل بلد إسلامى يريد أن يوفى لربه ولتراثه ولدينه .

ولنقلها صريحة . ليس فى مصر مكان لـ « سعد حداد » (١) وليس فى مصر مكان لـ « يعقوب حنا » (٢) جديد ، إن مصر الإسلامية ستبقى مصر الإسلامية .

---

(١) الرائد سعد حداد قائد الميليشيا المسيحية اللبنانية : ضابط لبنانى منشق ، وعميل إسرائيل وقرينها فى التعصب العنصرى ، وقد ذهب إلى حيث ألقت

(٢) ولد المعلم يعقوب فى « ملوى » حوالى عام ١٧٤٥ من حنا ومريم غزال ، والتحق فى عهد « على بك الكبير » بخدمة « سليمان » أغا الانكشارية أو رئيسها ، وعندما جاءت الحملة الفرنسية على مصر .. تظاهر مع الفرنسيين ، وجعلوه سرى عسكر القبط ... فجمع شبان القبط وحلق لحاهم وزياهم بزى مشابه بعسكر الفرنساوية ... وصيرهم عسكره وعزوته وجمعهم من أقصى الصعيد ، وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى — التى هو ساكن بها — خلف الجامع الأحمر ، ...

وبمناسبة الأحداث الأخيرة (١) ذهبت وجملة المسئولين عن الدعوة الإسلامية من رجال الجماعات الإسلامية والهيئات الإسلامية إلى وزير الداخلية (٢) وتكلمنا معه وقدمنا له مطالبنا ، وأقول : إن المطالب أجيبت .

حقيقة الأحداث : هناك ألفان وخمسمائة متر حاول بعض الناس اغتصابها ليبنوا عليها بدون إذن الدولة والشعب معبدا لغير المسلمين مع عدم حاجتهم تماما إلى هذا المعبد .

تقرر نهائيا أن يبنى المسجد ومعهد دينى فى هذا المقر ، وبقى على الأزهر أن يؤدى رسالته أو واجبه ، وسيؤدى هذا ، وستعين الجماعات الإسلامية على بقاء المكان للإسلام .

أما الذين قتلوا واعتدوا وأجرموا فسوف يأخذ القضاء العادل مجراه فيهم وعلى عجل ، وشيء أخير وهو أن تجريد المعتدين من السلاح لابد منه ، ولابد أن يأخذ دوره وامتداده ، وقد انتهت الأمور إلى هذا .

لكنى أنظر إلى الوضع بعد ذلك فأرى أن الأمة الإسلامية تحتاج إلى أن نعيد النظر فى الطريقة التى نفكر بها والطريقة التى نحيا بها ، فإننا مذهولون عن المؤامرات الاستعمارية الكبرى التى تريد الإجهاز على ديننا والنيل منه ، تفكيرنا سطحى ، شغلنا بالتوافه ، والأمر يحتاج إلى أن تعرف أمتنا — كما قلت — المؤامرات العالمية الكبرى لضرب الإسلام فى العالم الإسلامى وفى مصر بالذات !! .

— وبنى له قلعة ، وسورها بسور عظيم وأبراج ، وباب كبير يحيط به بدنات عظام ، وكذلك بنى أبرجا فى ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية ، وفى جميع السور المحيط والأبرج حيقانا للمدافع وبندق الرصاص على هيئة سور مصر الذى رممه الفرنساوية ، ورتب على باب القلعة — الخارج والداخل — عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلا ونهارا ، وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنساوية » [تاريخ الجبرتى] وفور توقيع وثيقة استسلام وجلاء جيش الاحتلال الفرنسى بادر يعقوب فخرج مع جيش الاحتلال ومات فى عرض البحر ووضعت جثته فى برميل من الخمر حتى لا يتعفن إلى أن وصلوا إلى مارسيليا ودفنوه !! وهكذا كان يعقوب هذا الطابور الخامس المسلح الذى قاتل ضد مواطنيه الثائرين ولكنهم يريدون افتعال قضية له ، واختاروا هذا المسخ بالذات ليجعلوه رائد القومية المصرية !!

(١) أحداث الزاوية الحمراء بالقاهرة فى يوم الأربعاء ١٩٨١/٦/١٧م .

(٢) محمد نبوى إسماعيل

وهذا لا يقتضى حماسة يوم ولافصاحة خطيب ، لا ، هذا يقتضى سياسة مدروسة بعيدة المدى ، فإن اليهود لما أرادوا اغتصاب فلسطين وضعوا خطة بعيدة لمدى تنفد على عشرات السنين ، ولا أدرى ما الذى يجعل المسلمين يضعون خططا لأيام أو لأسابيع ؟! السياسات البعيدة المدى لابد منها ، لابد أن يكون لنا من نتعلم منه ، ومن يشرف على نواحينا المادية والأدبيه ، ويحنو على الإسلام ، ويتألم لألمه ويفكر بمشاعره وقضاياه ، لابد من هذا كله .

إن أمتنا الإسلامية تعيش فى العالم الآن وفيها غفلة غريبة ، جاءت امرأة من الولايات المتحده الأمريكية فى أوائل الأربعينات ، وراحت إلى أسيوط (١) . وبدأت عملية تنشير ، وحصيلة تبشيرها الآن مستعمرة من نحو عشرين فداناً فيها نحو ألفى رجل وامرأة دخلوا المسيحية على المذهب البروتستانتى !!

المرأة — فى صمت — اشتغلت بأخذ اللقطاء وتربيتهم وتدريبهم وتعليمهم ، وهم الآن يشغلون مستعمره داخل أسيوط ، لماذا يكون الفكر التبشيرى طويل الأمد ، طويل البال ، واسع الحيلة ، بينما الفكر الدينى عند المسلمين طائش سريع ملتهب ويخمد على عجل ؟

إن المسلمين يجب أن يكون لهم — فعلا — من يرسم لهم هذه السياسات الطويلة المدى ويبصرهم بيومهم وحاضرهم ومستقبلهم ، يبصرهم بتاريخهم العابر وما يستفاد منه من عبر .

إن كل حكم — على أى شبر من أرض الإسلام — يخاصم الإسلام هو عميل مرتد يشتغل لحساب الشرق الشيوعى أو الغرب الصليبى ، وكلاهما الآن مسلح وذكى

مخاصمة الإسلام لا تجوز ، الولاء كله للإسلام ، والحب كله لله ولرسوله ، وما عدا ذلك فهو تبع ، نحن نريد أن يعلم القاصى والدانى أن مصر لن تكفر بالله ، لن تهجر الإسلام ، إننا لن نقبل عمالة لشرق أو لغرب .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

---

(١) محافظة أسيوط إحدى محافظات الصعيد المصرية

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ **الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمدا رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

عباد الله : أوصيكم ونفسى بتقوى الله

وأرى أيها الإخوة أن تنتهى المأساة التى يمر بها البلد ، فلا داعى لإشعال الحرائق ، ولا داعى للمضى فى فتن لا يعرف لها أول من آخر ، وليس معنى هذا أن نسلم أعناقنا للحرارين ، بل نكون أذكياء فى الدفاع عن أنفسنا ، حاذرين فى ألا تقع أقدامنا فى حبائل الغادرين الخونة .

أيها الإخوة : إننا إن شاء الله بعد صلاة الجمعة سنصلى صلاة الغائب على من مات من المسلمين فى هذه المحنة ، وسنجمع أيضا بعض التبرعات للمنكوبين الذين نالهم ما نالهم بعدما أخذوا غدرا .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١)

---

(١) رواه مسلم فى الذكر ـ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلًا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

* * *

نظرات في سورة البقرة (١)

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

١٩٧٣/١١/٣٠

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

فإن الله جل شأنه سَمَّى خطبة الجمعة ذكراً في قوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾ [الجمعة : ٩] .

والذين يسعون إلى هذا المسجد إنما يجيئون كي يُكَوِّنوا من الحشود الماثلة فيه بين يدى الله مجلس ذكر كبير لرب العالمين .

ثم إن الوقت الذى يقضونه هنا محاسب عليه أمام الله ، فلا يجوز أن يضيع إلا فيما هو جدٌّ ونافع وجامع لثواب الدنيا والآخرة .

وقد رأيت أن أبدأ تفسير السورة الكبرى فى القرآن الكريم وأنا أتمثل هذين المعنيين ــ أننا جئنا هنا نذكر الله جل جلاله ، وأن أوقات الذين يجيئون هنا غالية لا يجوز أن تضيع إلا فيما هو خير .

السورة التى أردت أن ألقى نظرات عليها ـــ هذا اليوم وأياماً أخرى إن شاء الله ـــ هى سورة البقرة ، وهى أطول سور لقرآن الكريم ، وأملؤها بالأحكام ، وأحفلها بالعبر والهدايات .

روى عن أنس رضى الله عنه : « **كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدَّ فينا يعنى عَظُم** »[1] أى عَظُمت منزلته وأصبحت له مكانة ، وذلك أن الحفظ قديماً ليس كهيئتنا الآن . نحن أشرطة حيَّة تحفظ القرآن الكريم أحرفاً وألفاظاً ، أما الأولون فكانوا يحفظون القرآن الكريم على نحو آخر ، كانوا يستعينون على حفظه بالعمل به ، كانوا يستوعبون ما فيه من نور ، يستبطنونه فى سرائرهم فهى به مُشرقة ، وهم به على درجة من الإيمان والصلاح والاستقامة يَشْرَكون بها الملأ الأعلى !! .

أحب أن أوجه النظر إلى خطأ شائع بين المسلمين ، إنهم يظنون أن الآيات تُجمع فى السورة من السور ويُركم بعضها فوق بعض ، وكما تنظر إلى دُكَّان جُمعت فيه السلع ورُمى بعضها فوق البعض الآخر دون ترتيب أو ضبط أو تنسيق ، بعض الناس يظن سور القرآن تجمعت الآيات فيها على هذا النحو ، رُكامٌ من الأحكام ليس هناك ضابط ولا رابط فى حشده وسَوْقه ، وهذا خطأ كبير .

ولذلك اجتهدت أن ألقى نظرات على التفسير الموضوعى للقرآن الكريم من على هذا المنبر ، وتفسير سورة البقرة سنأخذ فيه هذا المنهج : أن السورة كلها وَحدة مرتبطة متناسقة ، لها محور تدور عليه ، ولها أول يمهد للآخر ، وآخر يصدق الأول ، ومهما طالت السورة فإن المعنى الذى نقرؤه الآن يَطَّرد فى سور القرآن ، ومن أول هذه السور سورة البقرة .

بينى وبين نفسى ـــ وأنا أشرح القرآن الكريم وأفسره ـــ سميتها ـــ أى سورة البقرة ـــ سورة (الأتقياء) !! .

---

(١) رواه أحمد ٣/ ١٢ .

وقد تسأل : لم سميت هذه السورة ـــ بينك وبين نفسك ـــ بهذه التسمية ؟ .

والجواب : لأنى لاحظت ـــ فعلًا ـــ أن السورة كلها تدور حول حقيقة التقوى ومعالمها وما يوصل إليها وأقسام الناس منها ومواقف الأولين والآخرين من حقيقة التقوى !! .

لابد من نظرة مجملة سريعة ، ثم نظرة مفصلة قليلة ، ثم نظرات جانبية مختلفة ، فلننظر النظرة السريعة . النظرة السريعة أن السورة بدأت تقول : **﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾** [البقرة : ٢] .

هذا القرآن بعيد عن الشبهات ، لا تتسلل إليه ريبة ، أما الكتب الأخرى فإن الريب تكتنفها ..

إن الله صان هذا الوحي الخاتم ، وجعله مبرءاً عن أى شك ، فما فيه حقائق مقطوع بها ، يستحيل أن تكون فى هذا الكتاب عقائد أو عبادات أو معاملات أو أخلاق أو أحكام جزئية أو كلية فيها شىء من الخلل **﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾** .

أوجه النظر إلى كلمة (المتقين) فإن مفتاح السورة إنما تُمسك به عندما تقف هنا وقفة متدبرة .

أولًا : من هم المتقون ؟ الجواب : **﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾** [البقرة : ٣ ، ٤] لكن ما التقوى بعد هذه الأوصاف المجملة للأتقياء ؟ .

هنا أخذت السورة تُفيض فى شرح التقوى ، وأوجه النظر إلى أن السورة نحو خمسين صفحة ، وأنه ما من صفحة أو صفحتين إلا وكلمة (التقوى) ترد تقريباً ..

ولأضرب الأمثلة : فى الصفحة الأولى **﴿ هدى للمتقين ﴾** بعد صفحة واحدة تجد التقوى أساساً فى العقيدة ، أن توحد الله وتعبده عبادة مبرأة من كل شرك شاعراً بأنه الذى خلقك وخلق أجدادك من قبلك ويخلق

أولادك من بعدك : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾[البقرة : ٢١] .

ثم بيّن أن الجنة أعدت للمتقين ، ثم بيّن أن الأمة التى حملت الوحى قديما ـ وهى أمة بنى إسرائيل ـ سقطت عن مستوى التقوى ، وبيّن الله جل شأنه لم سقطت عن هذا المستوى ، وما الذى فعلته حتى فقدت خلق التقوى وأصبحت أمة فاجرة لا عهد لها ولا شرف ، ثم بيّن للأمة التى استُخْلفت بعد ذلك وحملت مشعل الوحى كيف تتقى وما معالم التقوى فى سلوكها ، فوجدنا آية ـ وسط السورة ـ جامعة تبين كيف تبلغ الأمة حقيقة التقوى : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين** ﴾ وبهذا أكد المعنى الأول وهو الإيمان بالغيب . فى أول السورة : ﴿ **ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ هنا يجيء نفس المعنى : ﴿ **وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** ﴾ [البقرة : ١٧٧] ﴿ **وأولئك هم المتقون** ﴾ لأن السورة بدأت : ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ !! ألقوا معى بالكم فإن سورة من خمسين صفحة غاب عن كثير من الناس أنها تدور على محور واحد ، وظنوها مجموعة من الآيات رُكِمَ بعضها فوق بعض على غير نظام وإلى غير هدف ، وهذا باطل .

أخذتْ السورة ـ بعد ذلك ـ تبين للأمة التى أُنشئت بعد بنى إسرائيل وأؤتمنت على رسالات السماء كيف تتقى الله ، وأوجه النظر هنا إلى أن أغلب آيات الأحكام فى هذه السورة قُرِنَ بالتقوى ، خذ مثلا قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

خذ مثلا قوله تعالى : ﴿ **ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون** ﴾ [البقرة : ١٧٩] ، خذ مثلا قوله تعالى : ﴿ **الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى**

واتقون يا أولى الألباب ﴾ [البقرة ١٩٧] . خذ مثلا قوله تعالى — وهو ينظم العلاقة فى البيت : ﴿ **نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين** ﴾ [البقرة ٢٢٣] ، حتى عند تنظيم الطلاق يقول . ﴿ **وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم** ﴾[البقرة ٢٣١] ، ويظل الأمر بالتقوى ماشياً فى صفحات السورة حتى تصل إلى الصفحة الأخيرة وهو ينظم المعاملات بين الناس فيقول — بعد أكبر آية فى القرآن وهى آية الدَّيْن . ﴿ **وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه** ﴾ [البقرة ٢٨٣] تكررت كلمة ﴿ **التقوى** ﴾ فى السورة نحو أربعين مرة لأن الدعامة التى نهضت عليها السورة هى : ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ ، وعندما قلت : إننى — بينى وبين نفسى — رمزت للسورة فى دماغى بأنها سورة (**الأتقياء**) إنما قصدت بذلك أن هذه السورة وضعت المواصفات لتقوى الله ، ومعنى التقوى : أن تعرف الله ، لكن أى معرفة ؟ . معرفة نظرية صورية ؟ لا . التقوى أن تعرف الله معرفة تتحول إلى خشية نفسية وخوف عاطفى وإجلال وجدانى لله جل شأنه !! .

هل التقوى معرفة وخشية كلاهما داخل النفس البشرية فقط ؟ لا ، لابد أن يظهر ذلك فى السلوك:عبادة . معاملة . خُلقاً ، لأن هذه السورة تتناول المجتمع ، ففى ميدان العبادة يقال ﴿ **كتب عليكم الصيام** ﴾ [البقرة ١٨٣] وفى ميدان التشريع يقال : ﴿ **كُتب عليكم القصاص** ﴾ [البقرة ١٧٨] وفى ميدان السياسة والدولة يقال : ﴿ **كتب عليكم القتال** ﴾ [البقرة ٢١٦] اللفظ واحد ، يشمل تشريعات عبادية واجتماعية وسياسية ، لأن التقوى لا تنقسم ولا تتفك ، فالضمير التقى هو الضمير الذى يكون الإنسان به مؤتمناً على صلاته وصيامه ، على قضائه بين الناس

وحكمه فى شئونهم ، على خصومته فهو ما يخاصم إلا لله ، وما يحارب إلا لله ، الكيان الإنسانى كله ما يَنْضج ولا يَعْظُم ولا يَكْرُم إلا بمقدار ما تصقله التقوى !! .

هذه نظرة مجملة على السورة ، كأنى فى طائرة أطوف بمدينة كبيرة فأنا ألقى نظرة مجملة سريعة !! .

لكن عندما أبدأ فأنظر نظرة متفحصة متأنية لكل جانب أجد أن السورة ــ وهى تتحدث عن الأتقياء ــ بينت أن الناس ثلاث فرق : مؤمنون أتقياء ، وكفار ملحدون فجرة ، ومنافقون هم فى باطن أمرهم لا إيمان لهم ، ولكنهم فى ظاهر أمرهم ــ ورعاية لمصالحهم ــ يلتحقون بركْب المؤمنين !! آيتان أو ثلاث فى المتقين ، آيتان فى الكافرين ، ثلاث عشرة آية فى المنافقين !! .

أُعلعل البصر قليلًا ــ مع أول السورة لأجد هذه الكلمة فى وصف المتقين : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ ما هو الغيب ؟ الغيب شىء وراء المحسوس ..

من قديم كان ناس يقولون : ما نؤمن إلا بالمادة ، ما نؤمن إلا بالمحسوس ، يجىء رَجل إلى النبى ﷺ وفى يده عَظْمٌ وهو يُفتته ويُذْريه فى الهواء وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال : « نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار »[1] يستطيع الذى خلق أولا أن يخلق أخيراً !! .

لكن ما هو منطق الجاهلى ؟ هو ما يتردد الآن فى بعض الصحف من أن الإيمان بالغيب ليس تفكيراً عقلياً !! .

---

(١) قال السيوطى فى لباب النقول فى أسباب النزول ص ٢٢٧ : أخرجه ابن أبى حاتم من طرق عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدى وسموا الإنسان أبى بن خلف وقبل أن يسوق السيوطى هذه الرواية لابن أبى حاتم قال : أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : جاء العاصى بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته فقال : يا محمد أيبعث هذا بعد ما أرم ؟ قال : نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم فنزلت الآيات ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة .. ﴾ إلى آخر السورة ..

إننا نؤمن بأن الله موجود ، ونحن لا نُحِسُّ الوجود الإلهي بأصابعنا ، نحن لا نُحِسُّ عقولنا بأصابعنا ، نحن لا نُحِسُّ أرواحنا بأصابعنا ، فكيف نتصور أن رب المادة والروح يمكن أن يُدْرَكَ بالحس العادى ؟ هذا مستحيل ، ولذلك كان الإيمان بالغيب شيئاً مستهجناً عند من عبدوا الحس ﴿ **كلا إن كتاب الفجار لفى سجين . وما أدراك ما سجين . كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين . الذين يكذبون بيوم الدين . وما يكذب به إلا كل معتد أثيم . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين** ﴾ [المطففين : ٧ ــ ١٣] أى خرافات الماضى ، والماضى يجب أن يُترك ، الإيمان بالله ، الإيمان بالوحى أساطير الأولين !!

هذا الكلام تكرر كثيراً : ﴿ **ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾[الأنعام : ٢٥] الكلام عن الماضى وأن الماضى خراف وأن ما نرثه عن الأوائل هو الخرافات ليس كلاماً جديداً من اختراع العصر الحاضر ، لا ، هذا كلام قديم ، عندما كان الوحى الأعلى يتلى على الناس كان الملحدون يقولون نفس الكلام الذى يقال الآن فى بعض الصحف !! الإيمان بالغيب شىء لابد منه ، لأننا نحن البشر ما نستطيع أن نرى إلا أجساماً معينة ووفق مسافات معينة فإن طالت المسافة عجزنا عن الرؤية ، وإذا دقت الأجساد أو صَغُرت عجزنا عن الرؤية ، والله أكبر وأجل من أن يُرى أو يُلمس أو يُحس على هذا النحو الذى يفكر فيه الذين يصفون أنفسهم بالعلم ولا علم لهم .

هذه السورة بدأت تصف المتقين وتبين أن المتقين الذين يؤمنون بالغيب يضمون إلى ذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويؤمنون بما نزل أولًا من كتب على أنبياء الله جميعاً ، وأن هذا الإيمان الشامل لابد منه لكل من يريد استيعاب الإيمان والتصديق بما عند الله . بدأت السورة بعد ذلك تتحدث عن بنى إسرائيل ، والحديث عن بنى إسرائيل نوجه النظر إليه من وجوه :

أول هذه الوجوه أن القوم كانوا فعلًا — كما ذكرت السورة — قوماً مُفَضَّلين : ﴿ **يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين** ﴾ [البقرة ٤٧] ، لكن إسرائيل الذي فُضِّل وفُضِّل أبناؤه على العالمين ثم فُضِّل وفُضِّل أولاده ؟ تقول السورة نفسها : إن إسرائيل — وهو يعقوب — كان نبياً يدعو إلى توحيد الله ، وكانت دعوته امتداداً لدعوة جده إبراهيم ، وكان هذا النداء بتوحيد الله ، والحرص على هداية الناس به كان ذلك المثل الأعلى الذي يتوارثون تبليغه والتجمع عليه : ﴿ **أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون** ﴾ [البقرة ١٣٣] **فهل** أولاد إسرائيل الآن على مستوى الرسالة التي بلغها إسرائيل ؟ لا ليسوا على المستوى ، من الناحية النظرية الكتاب الذي بين أيديهم مشوه ، مليء بالمفاسد الخلقية ، إن الذي يقرأ سِفر (نشيد الإنشاد) الذي لسليمان — وهو موجود في العهد القديم — يقرأ جُملًا عاهرة ، وعبارات سيئة رديئة مبيئة بالانحلال ، مليئة بالدعوة إلى الفسق والإثم ، وما يتصور في كتاب مقدس أن ينطوي على هذه المآسي والمخازي .

وسِفر (التكوين) — وهو حجر الزاوية في العهد القديم — سِفر مليء بوصف الله بالجهل والندم والتجسد والأكل مع البشر والمصارعة لبعض الخلق وما إلى ذلك مما لا يمكن أن يكون كلاماً مقبولًا ولا معقولًا !! .

ثم إن فكرة إسرائيل التي قامت على أساسها الدولة فكرة مليئة بالشرور والغطرسة ، وعندما كنت في (المغرب) نقل لي صديق — يعرف الفرنسية — تصريحاً لـ (بن جوريون) — وهو شيخ مشلول الآن بين يدي ربه — يقول : إن الله خلق الكون في ستة أيام ولم يكن لديه وقت لإصلاحه فنحن الذين نتولى إصلاحه بدلًا عن الله !! .

هذا الكلام سجله صديق لي في مجلة سويسرية معروفة الاسم ورقم العدد .

ماذا أثمر هذا الكلام ؟ .

أثر أن اليهود فى العالم كله من وراء اضطرابه النفسى والخلقى والاجتماعى ، ولذلك فإن القرآن عندما خاطب هؤلاء قال لهم : دعوا ما لديكم واتبعوا النبى الجديد الذى يعلمكم ، إن كانت لكم مكانة فيستحيل أن تبلغوها إلا إذا تبعتم لصالحين وإمام الصالحين محمد بن عبد الله : ﴿ **يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلًا وإياى فاتقون** ﴾ [البقرة : ٤٠ ، ٤١] .

هذه المعانى كما ذُكرت لبنى إسرائيل ذُكرت كذلك بالنسبة للمسلمين ، ما معنى هذا ؟ .

من إنصاف القرآن أنه عندما يُشرِّح كيان الأمم الهالكة يذكر محامدها ومعايبها على سواء ، وعندما يذكر الأمة التى تحمله وتبلغه ــ وهى الأمة الإسلامية ــ يذكرها كذلك بأنها إن لم تؤد ما عليها ضاعت ، وإن لم تلتزم السُّنن المرسوم زاغت ، ولذلك يقول للمسلمين : ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولًا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون . فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون** ﴾[البقرة ١٥١ ، ١٥٢] ومعنى ﴿ **فاذكرونى أذكركم** ﴾أنكم إذا نسيتمونى فسأنساكم ، إذا لم تؤدوا حقى فلا عهد لكم عندى ، إذا لم تلتزموا منهج التقوى الذى رسمتُه ــ فى هذه السورة ــ فإنكم سيطبق عليكم ما ينطبق على الأمم قبلكم !! .

عندما نستعرض السورة تفصيلًا سنجد أن التقوى شَمِلت نظام الأسرة ، نظام البيع والشراء ، نظام الزواج والطلاق ، نظام الرضاعة ، نظام اليمين ، نظام الإيلاء ــ وهو الحلف على شىء معين بالنسبة للمرأة .

السورة هنا شملت أغلب الأحكام التى ورد بها القرآن الكريم ، وبينت أن إقامة هذه الأحكام فى جملتها هى التى تجعل المجتمع الإسلامى تقياً ، وتجعل الأمة الإسلامية جديرة برعاية الله .

وكما بدأت السورة بالحديث عن الإيمان والتقوى وعن الإيمان بما ورد من كتب سابقة وبالمرسلين الذين جاءوا بهذه الكتب خُتمت السورة بما بُدئت به : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ ثم ختمت بهذه الأدعية : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [البقرة ٢٨٥ ، ٢٨٦] هذا الختام أَعْقَبَ تفصيلات اتصلت بأول السورة ، أول السورة تحدث عن الإيمان بالغيب ، ومن الإيمان بالغيب الإيمان بالبعث ، ولذلك تجد في أواخر السورة حديثاً عن الإيمان بالغيب وهو يشرح البعث : ﴿ أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ [البقرة : ٢٥٩] لكن الله عز وجل لا يُطلب منه أن يُرى كل إنسان معجزة مادية ،كي يعقل وكي يصدق وكي يؤمن ، إنه يقول للإنسان : منحتك عقلًا وأدلك على ما تعرفنى به : إنك عندما تأكل طعاماً ميتاً فاقد الحس — طُبخ فى النار — فإن هذا الطعام الميت — بعد عدة ساعات — يتحول فى جسدك إلى كيان حى !! يتحول الطعام فى جسدك إلى خلايا حيَّة ، يتحول إلى عظم ولحم ودم وأعصاب وشعر وأظافر !! .

كيف يتحول ؟ لا ندرى ، لكن الذى ندريه أن هذا الإنسان يولد ووزنه رطلان — تقريباً كيلو — ثم يتحول إلى مائة كيلو تقريباً !! .

كيف تحول الجماد — الطعام — إلى حياة فى كياننا ؟ هذا ما تشير إليه السورة عندما تتحدث عن هذا الملكوت الضخم : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر

بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ [البقرة ١٦٤] .

سورة البقرة ، يمكن أن نقول بإجمال : إنها تحدثت عن التقوى فى أول صفحة منها ثم أخلصت بعد ذلك تصف معالم التقوى ، ووسائل بلوغ التقوى ، ومن هم الأتقياء ، وغير الأتقياء وأحوال الأمم القديمة ، وأولها أمة بنى إسرائيل ، كيف سقطت عن مستوى التقوى ، كيف جاءت الأمة الإسلامية بعد ذلك ، وكيف ورثت الوحي الأعلى ، وكيف تتقى الله ، كى تؤدى رسالته ، وكى تكون أهلًا للاستخلاف فى الأرض ، وكيف تعتمد على الله فى إيمانها وعبادتها ، وفى النهوض بالتكاليف التى حُمِّلَتها ..

إن الله جل شأنه عندما أمرنا أن نقوم بما أوجب علينا خلال هذه السورة المطولة من عادات ومن أعمال ومن تكاليف فإنه كلفنا أن نبذل وسعنا ، وطلب منا أن نستغفره فيما نخطيء فيه أو ننساه وطلب منا كى نثبت على الدين وكى نتمكن من العيش به أن نستمد منه العون فى الانتصار على الكافرين الذين يحاربون هذا الدين والمنتسبين إليه .

هذه صورة سريعة لسورة البقرة ، يحتاج الأمر بعد ذلك ـــ كما قلت لكم ـــ إلى صورة مفصلة لبعض أركان هذه السورة الكبرى .

نرجو أن يوفقنا الله إلى تكوين هذه الصورة فى خطب أخرى .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ **الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ماتفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ [الشورى ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعــد :

فأريد أن أوجه النظر إلى شيء يتصل بحياة العرب والمسلمين فى عصرنا الحاضر ، عندما اتجه الاستعمار العالمى إلى إقامة دولة لإسرائيل على أنقاض فلسطين كان يريد أن يبلغ هدفه عن طريقين :

أولًا : بإرسال اليهود من نحو تسعين دولة إلى المقر الجديد الذى اختاره لهم .

ثانياً : إشاعة الفوضى العقائدية والأخلاقية فى الكيان القريب ، وفى الكيان الإسلامى العام ، حتى لا يستطيع هذا الكيان العربى بعد تمزيق عقائده وأخلاقه أن يقاوم السرطان الذى غُرس داخله .

صار الأمران معاً ، عندما أوجد بنى إسرائيل على أنقاض فلسطين كان فى الوقت نفسه يوجد داخل أمتنا أشخاصاً وهيئات وحكومات ، وظيفتها أن تحطم عقائد الإيمان ومعاقد الفضيلة وتجعل الأمة لا إيمان لها ولا صلة لها بالله !! .

وبذلك تعجز عن مقاومة اليهود الذين جاءوا متعصبين لدينهم متمسكين بتوراتهم ، لاحظتُ أن الصراع بين الإيمان والكفر أخذ طريقاً

طويلًا ، لكن شاء الله ـــ رحمة بنا ومنة علينا ـــ أن يجعل هذه الأمة تثوب إلى رشدها وترجع إلى ربها وتستمسك بصيحة التوحيد التي انبعثت خلال صفوفها المقاتلة ، وأدرك أهل الشرق والغرب جميعاً أن العرب فى معركتهم الأخيرة(1) كانوا جنساً آخر لأن الإيمان عاد إلى قلوبهم ، لأن تكبير الله طهر أفواههم ، وجمع صفوفهم ، ووحد كلمتهم ، وأزال ما بينهم من جفوة(2) .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر »(3) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلًا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عبـــاد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصـــــلاة ...

* * *

---

(١) معركة العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ م

(٢) طى تعليق بسيط للأسف لم يُسجل

(٣) رواه مسلم فى الذكر ـــ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨

نظرات في سورة البقرة (٢)

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

١٩٧٣/١٢/٧

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

فكتابنا العظيم الذى لا ريب فيه ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مصدر اليقين الراسخ ، والإيمان البالغ ، وسائق للأدلة القوية والبراهين الدامغة !! .

هذا الكتاب ناشر الإيمان فى الدنيا على وجهه الصحيح ، ومصورُ الحقائق التى يحتاج الناس إليها فى معاشهم ومعادهم !! والناس بإزاء هذا الكتاب صنفان :

صنف آمن بما جاء فيه ، وصنف صدَّ عنه وكفر به .

وفى الصحائف الأولى من سورة البقرة حديث عن الصنفين معاً : الصنف المؤمن التقى ، الحريص على مرضاة ربه ، الراغب فى ادخار شيء عنده يلقاه به يوم القيامة . هذا الصنف من الناس ندع الكلام فيه قليلًا إلى صنف آخر .

الصنف الآخر هم الذين كفروا ، وقد قسمتهم سورة البقرة قسمين :

القسم الأول : ظهر بكفره ، واستعلن بضلاله ، ولم يجد حرجاً فى أن يكون مواجهاً للناس بما عنده .

القسم الثانى : ظهر بالإيمان ولكنه أسرّ الكفر ، ظهر بالهدى ولكنه أبطن الضلال ، هذا الصنف سرعان ما تكشف الأيام عن خباياه ، وتفضح سرائره ، ويبدو للناس ما اكتتم من أمره ، وهم المنافقون ، والمنافقون كفار يقيناً ، إلا أنهم — كما قلت — لمصالح خاصة تظاهروا بغير ما فى باطنهم ، وقد تحدث القرآن عنهم فى هذه السورة وفى غيرها ، فى هذه السورة تناولهم بهذا الأسلوب : ﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** ﴾ [البقرة : ١١ — ١٣]

ونقف وقفة قصيرة عند هذا التوضيح لموقف المنافقين والكفار ، فقد تبين لنا من دراسة هؤلاء الكافرين أنهم صنفان : صنف يعرف الحقيقة ، ويدرك أن رسل الله جاءوا بالبينات ولكنه لشهوة غالبة ، لمال يحتاج إليه ، لمنصب يحرص عليه ، لطمع من أطماع الحياة العاجلة ، لشىء من هذا أو ذاك يرفض أن يصدق وأن يستكين لله وأن يلبى مطالب الدين ، هذا النوع من الناس يعرف الحقيقة ولكنه يرفض أن يصدق بها وأن يخضع لها !! .

فى هذا الصنف يقول الله عز وجل : ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ [النمل : ١٤] فى هذا الصنف يقول الله عز وجل : ﴿ **سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين** ﴾ [الأعراف : ١٤٦] أساس هذا الكفر أن العقل سليم عرف الحقائق ، ولكن القلب مريض رفض أن يُذعن وأن يُسلم !! هناك نوع آخر من الكفر أساسه أن العقل نفسه لا يُحسن النظر ، البصيرة نفسها لا تدرك الحقيقة ، صاحب هذا النوع من الكفر أعمى لا يرى ، ولكنه يكابر معتقداً أن ما عليه حق مع أنه ضال ! .

وهذا مسلك المنافقين الذين يقال لهم :

﴿ لا تفسدوا فى الأرض ﴾ فيكون جوابهم : ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾!! يقال لهم : ﴿ آمنوا كما آمن الناس ﴾ فيكون جوابهم : ﴿ أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾!! .

هذا النوع من الناس ـ الذى يكفر لأن له وجهة نظر سيطرت عليه وحجبت عنه الحق ، ونسجت على عينيه وقلبه غشاوة ـ يقول الله فيه : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً . ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزواً ﴾[الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٦] ولن يخرج الكفر فى صوره عن هذين الصنفين :

صنف يعرف الحق ولكنه يكره أن يستجيب لندائه لغلبة الشهوات عليه ، وصنف آخر طُمست عينه وبصيرته فهو لا يرى إلا ضلاله وخباله

وكلا الصنفين ضال لأن الإيمان الحقيقى نضارة فى العقل تجعل المؤمن حسن الرؤية للحقائق وفَحْوةٌ[1] فى القلب تجعل المؤمن إذا عرف الحق انشرح له صدره ، وأذعن له ضميره ، واستقام به فعله ، وصلحت به سريرته وعلانيته ، ونحن ندعو الله أن يجعلنا من أولئك الذين يجمعون بين يقظة العقل ويقظة القلب .

هذا النوع من الناس هو الذى بدأت سورة البقرة تتحدث عنه ، وتبين أن الإيمان ليس تصوراً نظرياً فقط ، ولكنه إلى جانب حُسن التصور للحقائق استقامة خلقية : ﴿ هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [البقرة : ٢ ، ٣] .

صورت السورة مواقف أهل الحق ومواقف أهل الباطل من كافرين صرحاء ومن كافرين متوارين مداهنين مخادعين . ثم بدأت السورة تعلن

---

(١) الفحوة : القطعة من العسل ما دام لم يعصر من شمعه

طريق التقوى العام وهو أن الله واحد وأن محمداً نبيه . أما أن الله واحد فدليل ذلك : هذا الملكوت الضخم ، من الذى خلقنا ؟ من الذى خلق آباءنا ؟ من الذى خلق الأرض التى نحيا فوقها ونأكل من ثمراتها ونعيش على خيراتها ؟ .

الجواب : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾[البقرة : ٢١ - ٢٢] ليس لله ند ، هو واحد أحد فرد صمد ، هذا الإله الواحد له نبى خاتم ، أحيا تراث النبيين من قبل ، ولخصه أجمل تلخيص فى الكتاب الذى نزل عليه وهو القرآن الكريم الذى بدأ الحديث عنه فى أول السورة بأنه ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ ، هذا الكتاب الذى لا ريب فيه كُتب له الخلود ، هل كُتب له الخلود على أنه وعاء للهدايات الصحيحة وانتهى الأمر عند هذا الحد ؟ .

إن هذا الكتاب كتاب التحدى ، والرسول الخاتم لابد أن يكون له إلى قيام الساعة إعجاز يدل عليه ، يدل على أنه موفد من عند الله ، مرسل إلى الخلائق كافة ، ولذلك كان التحدى بهذا الكتاب ، هذا الكتاب بين أيديكم من كان يستطيع أن يأتى بسورة منه فليفعل : ﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾[البقرة ٢٤] .

بدأت الصفحات الأولى فى السورة تعلن حقائق الإيمان بالله الواحد وبالنبى الخاتم عليه الصلاة والسلام ، كان المفروض أن أولى الناس بتصديق هذا النبى والالتفاف به والاحتشاد حوله أهل الكتاب ، لكن أهل الكتاب رفضوا الإيمان ، ورفعوا راية التحدى والطغيان ، وأخذوا يهاجمون النبوة الخاتمة هجوماً أعمى ، ولذلك كان نصف السورة الأول ـــ تقريباً ـــ يدور حول مواقف اليهود من هذا الدين ومن صاحبه ، ولا تزال الأيام تكشف عن عظمة هذا الكتاب كأنما نزل يوم الناس هذا ، لأن حديثه المستفيض عن بنى إسرائيل ، وتقريعه المستمر لهم ، وتنديده بآثامهم وأخلاقهم كل هذا يجعل القرآن الكريم كتاب الساعة وسيظل كذلك إلى قيام الساعة !! .

إن الكتاب تُفسره الحوادث ، وتكشف الأيام عن أن ما يحتاج الناس إليه فى شئونهم كلها قد تعرض له وقضى فيه .

وصفت سورة البقرة بنى إسرائيل فذكرت : أولًا أنهم لا يشكرون النعمة ، وأنهم يجحدون فضل الله ، وأن تمردهم على نعم الله التى نزلت عليهم سيحيط بهم اللعنة إلى قيام الساعة ، يقول الله لبنى إسرائيل : ﴿ **وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد** ﴾ [إبراهيم : ٧] .

ويقول موسى عليه السلام لبنى إسرائيل : « إن الله لا يحتاج إلى شكركم ، ولكن هذا الشكر هو الذى يرشحكم للنعمة أن تنزل عليكم وأن تكثر فيكم .. فإنك أيها الإنسان ترفض أن تعطى فضلك من لا يُحِسُّ به ، ومن لا يشكرك عليه ، ومن لا يهتم بما أسبغت عليه من خير ، فإنك تحرمه لأنك تقول فى نفسك : لم أعطى من لا يشعر بى ، ولا ينوه بفضلى ، ولا يذكرنى بخير ، ولا يُحِسُّ أن لى عليه يداً ؟! .

﴿ **وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد** ﴾ [إبراهيم : ٨] .

كانت أعراض بنى إسرائيل مستباحة لأن النساء يُتركن لحياة مجهولة المستقبل قطيعة الصورة والعَرْض ، أما البنون فتسفك دماؤهم وتقطع أعناقهم ويستراح منهم : ﴿ **وإذا نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾ [البقرة : ٤٩] .

بينت السورة أن الله أنقذهم من هذا الذل ، ونجاهم من هذا الهوان ، والانقاذ من الذل شيء عظيم ، يقول أبو الطيب المتنبى[1] :

واحتمالُ الأذى ورؤية جانيه * غذاءٌ تضوى به الأجسام[2]

(١) ديوانه : ١/٣٢٦ .

(٢) يقول : إن الصبر على الإساءة والإقامة على رؤية المسيء يورثان دوام المشقة والكمد فيكون غذاء للأجسام تهزل به كما تهزل بالأطعمة الخبيثة !! .

ذلَّ من يغبط الذليل بعيش * رُبَّ عيش أخفُّ منه الحِمام[1]

نجى الله بنى إسرائيل من هذا الهوان لكنهم جحدوا هذه النعمة ونسوا صاحبها ، ولذلك يقول الله جل شأنه : ﴿ **سَل بنى إسرائيل كَم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب** ﴾ [البقرة : ٢١١] .

ثانياً : بعد أن بينت السورة أنهم لا يشكرون النعمة بينت أنهم لا يصدقون فى التوبة ، فإن الله طلب منهم أن يسمعوا ويطيعوا ، طلب منهم أن يسارعوا إلى مرضاة ربهم وإلى فعل الخيرات وترك المنكرات لكنهم وهنت عزائمهم وتبلدت مشاعرهم ، وبلغ الأمر أن احتاجوا كى يأخذوا الدين بقوة ، بحماس ، برغبة ، بإرادة واعية ، احتاج الأمر إلى أن يرفع عليهم الطور : ﴿ **وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون . ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين** ﴾ [البقرة ٦٣ ، ٦٤] .

ثالثاً : بعد ذلك بينت السورة أن النفسية اليهودية معطوبة من عدة نواح ، أول عطب فيها أنها تعصى الله عن تقصير لا عن قصور ، عن تجاهل لا عن جهل ، وهذا معنى قوله : ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون** ﴾ [البقرة : ٧٥] أى أن كفرهم بعد معرفة ، أى أن ريبهم بعد إدراك ، والذى يعصيك عن تقصير متعمد لا عن قصور غالب ، الذى يعصيك عن تجاهل بقدرك لا عن جهل سيطر عليه جريمته أكبر !! .

لكن ما السبب فى هذا ؟ .

السبب فى هذا :

رابعاً : أن غروراً غلبهم وملأ نفوسهم ، زعموا أنهم أولاد الأنبياء ،

---

(١) يقول . لا يغبط الذليل على حياته إلا من كان ذليلًا لأن الحياة إنما هى فى العز ، فإذا فقده الإنسان كان الموت أخف محملًا عليه خنوه عما فى الذل من غصص المشقة والهوان

وأنهم ما داموا أولاد الأنبياء فإن مكانتهم لا ترتبط بعمل يتقدمون به ولا بتقوى تصبغ أخلاقهم بالشرف . ﴿ **وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مالا تعلمون** ﴾ [البقرة ٨٠] وردَّ عليهم جل شأنه فبين أن الناس جميعاً سواء عنده ، وأن من أصلح العمل بلغ الشأو الرفيع ، وأن من أفسد العمل سقطت مكانته : ﴿ **بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ [البقرة ٨١ ، ٨٢] تناولت سورة البقرة بني إسرائيل على هذا النحو ، لكن يجيء سؤال لماذا يحكي القرآن الكريم هذه الأحداث الكثيرة علينا نحن المسلمين ؟ .

والجواب : أن القرآن الكريم عندما يشرح الأمم التي ماتت ، وعندما يضع تحت المجهر المدنيات التي تفسخت والحضارات التي انهارت إنما يفعل ذلك ليبين ما هي الجرائم التي فتكت بهذه الأمم وأسقطت تلك الحضارات ، وذلك حتى تستفيد الأمة الأخيرة أو الأمة الإسلامية من مصارع الأولين فلا تسلك مسلكاً يشبههم ولا تتخلق بخلق سبق أن وقع منهم ، وقد حذَّر النبي ﷺ أمته تحذيراً بالغاً وبيَّنَ أن الأمة سيغلبها التقليد الأعمى وربما تبعت مسالك من قبلها ، جاء في الحديث الصحيح : « **لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ تبعتموهم . قلنا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟** »[1] .

في سورة البقرة قصة عن بني إسرائيل ذكرها القرآن الكريم والمقصود بها تعليمنا نحن ، فإن بني إسرائيل — كما ستسمعون — أخذ عليهم أنهم لم يشكروا النعمة ، ولم يصدقوا التوبة ، وأنهم اغتروا بجنسهم ، وتعصبوا لما لديهم ، ونسوا حقوق ربهم ، ولم يلتفتوا إلى الصواب الذي عُرض عليهم ،

---

(١) رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة — باب قول النبي ﷺ لتتبعن سنن من كان قبلكم ١٢٦/٩ ومسلم في العلم — باب اتباع سنن اليهود والنصارى ٥٧/٨ .

هذا كله ربما اتصل بالحياة الداخلية في المجتمعات ، لكن المجتمعات لا تحيا وحدها بل تحيا وسط عائلة دولية لها أفراد كثيرون ، وكثيراً ما تصطدم الأمم بأمم أخرى فماذا يكون الموقف ؟ وما السبب في أن أمماً تنهزم ثم تنتصر أو تنتصر ثم تنهزم ؟ .

هنا نجد سورة البقرة قد لخصت لنا في حدود صفحة وبصف قصة أمة انهارت لأسباب ثم تراجعت إليها الحياة لأسباب ، فما أسباب انهيار هذه الأمة ؟ وما طريق ازدهارها وانتصارها ؟ .

بدأ الكلام عن هذه الأمة في قوله تعالى :

﴿ **ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف** ﴾ لم خرجوا ؟ ﴿ **حذر الموت** ﴾جبناء ، لم يحسنوا الدفاع عن أرضهم تركوا الأرض دون أن يدافعوا عنها بجرأة وحسارة ، تركوها حذر الموت ، العربي قديماً كان يفضل أن تنهدم داره وتتحول أنقاضاً دون أن يتركها نهباً لعدو ، يقول سعد بن ناشب[1] :

سأغسل عني العار بالسيف جالبا
علىَّ قضاءُ الله ما كان جالبا
وأذهلُ عن داري وأجعل هدمها
لِعِرْضِيَ من باقي المذمة حاجباً[2]

لكن هذه الأمة تركت المدن وتركت الأرض دون دفاع حقيقي ، ويبدو أن ذلك كان لأن القادة جبناء ليسوا قادة مقاومة ، ولكنهم كانوا أمراء ترف ، وكانوا ساسة لهو ولعب ..

﴿ **ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت** ﴾ خرجوا من ديارهم حذر الموت : ﴿ **فقال لهم الله موتوا** ﴾ التفسير الصحيح الذي اخترناه أن الله أماتهم أدبياً ، أي عاشوا في

(1) شاعر من أهل البصرة توفي نحو ١١٠ هـ انظر ترجمته في الأعلام ٨٨/٣ والبيتان من قصيدة له ـ انظر عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٨٤/١

(2) إشارة إلى دار له بالبصرة كان هدمها بلال بن بردة بن أبي موسى الأشعري ، وقيل: هدمها الحجاج وأحرقها .

الدنيا لا كرامة لهم ، لا شرف لهم ، لا وزن لهم ، وهذا هو الموت : ﴿ **فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم** ﴾لكن ما طريق الحياة ؟ .

الإحياء هنا إحياء أدبي ، وطريق الحياة الأدبية أمران : قتال وبذل ، قتال فى سبيل الله ، وبذل للمال فى سبيل الله.فى القتال فى سبيل الله تقول الآية التى تلى هذه الآية مباشرة : ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم** ﴾ [البقرة : ٢٤٤] فى البذل فى سبيل الله تقول الآية التى تلى هذه الآية مباشرة :

﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون** ﴾[البقرة : ٢٤٥] .

إن طريق الحياة أمام الأمم بذل النفس وبذل المال .

هذه قصة لم يذكر الله فيها أنها لبنى إسرائيل ، لكن هذا الإجمال فى القصة أخذ عنوانه وحقيقته فى الآيات التى تلت هذه الآيات والتى استغرقت نحو صفحة بدأت بقوله تعالى ــ توضيحاً وتفصيلًا : ﴿ **ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكًا نقاتل فى سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا** ﴾خشى نبيهم أن يجبنوا كما جبنوا أولًا فقال لهم : أخشى إن جاء ما تطلبون أن يفتضح كذبكم ، وأن يكشف جبنكم : ﴿ **قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا** ﴾ هل كانوا صادقين ؟ لا : ﴿ **فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلًا منهم والله عليم بالظالمين** ﴾ [البقرة : ٢٤٦] هذا أيضاً إجمال ، بدأ تفصيله وتوضيحه : ﴿ **وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكًا** ﴾ فكان تساؤلهم : ﴿ **أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم** ﴾[البقرة : ٢٤٧] .

تحتاج هذه الآية إلى شرح مطول ، لم ؟ لأن المال له فلسفة ، وله فى الحياة أثر ، اعتبر اليهود المال أساساً حقيقياً فى تقويم الأشخاص ، وفى

كسب الحياة ، وفى تسخير الدنيا . وهذا الكلام فيه نصف الحق ونصف الباطل ، فهم المسلمون أيام جهالتهم أن المال لا لزوم له ، وأن الفقر دلالة التقوى وأحسن طريق إلى الوصول إلى الجنة !! وهذا الكلام فيه باطل كثير وضلال ضخم ، والحق غير هذا وذاك ، المال ــ لاشك ــ شديد الأثر فى الحياة الفردية والاجتماعية ، وعندما سيطر اليهود عليه فى عالمنا المعاصر ساقوا مائتى مليون أمريكى كقطيع غنم ، لأن المال فى أيدى البنوك والشركات التى يهيمن عليها اليهود ، ولما فقد المسلمون المال أو لم يحسنوا كسبه عن طريق الاستثارة وذكاء الاستثمار عاشوا فى الدنيا غرباء على الحضارة .

ما يجوز أن نظن فقد المال دليل تقوى ، ومن الخيبة أن لا تُحسن استغلاله فى هذه الدنيا لرفع دينك ، وتقوية إيمانك ، ومساندة مروءتك ، وإعلاء حقك ، كونك تُكْبِر الغنى لأنه غَنِىٌّ جهل ، وكونك تتجرد من المال على أساس أن هذا طريق التقوى جهل ، خذ المال وأحسن تسخيره فى خدمة دينك .

وقد بُلِى المسلمون بصنفين من الناس : فقراء لا يحسنون الكسب ، وأغنياء يملكون ويبذلون فى الترف .

هؤلاء اليهود قالوا لنبيهم : كيف تختار علينا ملكًا رجلا فقيراً ؟ فقال لهم : إنه قد يكون مُقِلًا فى ماله ولكنه خِصْبٌ فى مواهبه ، غنى فى خصائصه ، سعة علمه ، وسعة طاقته ، وقدرته المادية والأدبية ترشحه لهذا ، وفعلًا أخذ هذا الملك يؤدى واجبه ، فكيف يعالج شعباً سرت فيه اللذة وخدرته وأذهلته عن أمور كثيرة ؟ أحياناً تبتلى الأمم بعبادة الهوى والملذات والمظاهر ، والأمم التى تبتلى بعبادة الملذات والمظاهر لا تصلح لا فى الدفاع عن نفسها ولا فى تبليغ رسالتها .

أراد طالوت أن يمحص الجيش الذى خرج كى يقاتل به : ﴿ **فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلًا منهم** ﴾ .

أتباع الشهوات الذين يسارعون إلى مرضاة أنفسهم رفضوا إطاعة الأمر الذى صادم رغباتهم وقالوا . لا ، لابد أن نشرب ، تشربون ؟ لا تصلحون فى ميدان الجندية ، وإنما يصلح فى ميدان الجندية من يتحمل العطش ، ومن يقدر على نفسه إذا تطلعت ويردها إذا تحركت .

﴿ فشربوا منه إلا قليلًا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه ﴾ كان هذا آخر اختبار : ﴿ قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ نظروا إلى أنفسهم فوجدوا أنفسهم قلة ، وعرفوا أن عدوهم كثير فى عُدده وفى عَدده ، لكن منطق القتال عند حملة الحق لا يخضع للقلة ولا للكثرة ، لا يخضع للمظاهر المادية : ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ ودارت المعركة ﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده ﴾ توجهوا إلى الله ﴿ قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ﴾ ثم تقرر الآيات هذا القانون الاجتماعى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

من الذى نزل عليه هذا الدرس ؟ ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين ﴾ [البقرة : ٢٥٢]

نزل على محمد عليه الصلاة والسلام ، محمد عليه الصلاة والسلام الذى تلا على الناس خلال صفحة ونصف من سورة مطولة كيف أن الأمم تموت أدبياً إذا نكصت على أعقابها ، وبخلت بأموالها ، وكيف أنها تحيا أدبياً ومادياً يوم تتشجع وتتوكل على الله وتواجه عدوها دون تهيب لقُواه أو لقُوى من يسانده ، المهم أن تكون لك بالسماء صلة ، ولك من الله ظهير ، هذا هو الأساس : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين ﴾ .

صفحة من هذه السورة تحمل تاريخاً سياسياً واجتماعياً ملخصاً ، اختُصرت فيه العبر ، وعُرضت على الناس فى هذا القرآن الذى بدأت السورة تتحدى به لأنه من عند الله .

هذا بعض ما فى سورة البقرة من هدايات نعرضه ولنا عود إن شاء الله .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ..

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ **الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ماتفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾[الشورى ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد .

فقد قرأت تساؤلًا لبعض لصحفيين عن أسباب تخلف الأمة العربية والإسلامية ، وهو تساؤل ليس جديداً ، فأنا أحد الدين وجهوا هذا السؤال لأنفسهم ولغيرهم من ربع قرن تقريباً ، وكانت كتاباتنا وخطاباتنا الدينية إجابة عن هذا السؤال ، ولقد كشفت فيما كشفتُ عنه أن من أهم أسباب تخلف العرب والمسلمين أن نُظماً مستجدة هيمنت عليهم وصرّفت أمورهم ، ولقد قررنا أن الحكم الفردى لا شرف له ، ولا دين له ، لا حرية حيث يكون هناك استبداد سياسى ، لا دين حيثْ يكون هناك استبداد سياسى ، لا حضارة حيث يكون هناك استبداد سياسى ، إننا معشر العرب والمسلمين أحوج أهل الأرض إلى الحرية التامة .

أقول هذا باسم الإسلام ، لأنى أعلم أن دينى ينتشر فى جو الحرية ، وأنه يُحتضر فى جو الاستبداد ، دينى قائم على العقل ، قائم على الإقناع ، ولذلك فإن أعداءه يستميتون فى جعل الحريات تختنق وتتلاشى ليصلوا إلى تشويه هذا الدين والقضاء على أتباعه محلياً وعالمياً .

إننا نحتاج ــ فى العالم كله ــ إلى جو حر ، فإن الإسلام مظلوم ،

الناس لا تعرفه ، الإسلام دين مجهول فى القارات الخمس ، لقد جرى استفتاء فى انجلترا وفرنسا وهولندا وفى دول أوربا فكانت الشعوب — من اليهود — ضدنا .

والسبب أن ديننا غير معروف ، قضايانا غير معروفة ، ما يوجد لنا أولياء أمور يعرضون هذه القضايا الدينية والمدنية ويدافعون عنها ويستعملون العلم الكثير كى ينصروها .

إن الاستبداد من عدة قرون قام على أفراد جهلة ظنوا أنفسهم علماء أغبياء ظنوا أنفسهم أذكياء ، قاصرين ظنوا أنفسهم أصحاب باع طويل !! فكانت مصارع الإسلام والمسلمين على أيديهم .

إننا نريد الحرية ، والكتّاب الذين يتساءلون الآن ما سبب التخلف ؟ هؤلاء كانوا خدماً للاستبداد ، ولذلك فأنا أنظر إلى تساؤلهم بريبة وباحتقار . إن كانوا حقاً يريدون أن تنهض أمتنا فلنجتهد فى أن تسود أمتنا أجواء الحرية العقلية والدينية والمدنية .

إننا ندرك أن أمتنا الآن فى حرب وأنها تواجه عدواً خسيساً غادراً من ورائه أحقاد القرون وتعصبات لا نهاية لسوادها ، وأن الأمر يحتاج إلى أن تتماسك الأمة وراء قادتها ، لكنى أقول : عندما ندرك النصر إن شاء الله أو عندما نصل إلى مرحلة حاسمة مع هذا العدو فلابد أن نبنى مجتمعنا على المعنى الذى أقول .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر »[1] .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلًا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر ١٠] .

---

(١) رواه مسلم فى الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر مالم يعمل ٨١/٨ .

عبـــاد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل - ٩٠]

أقم الصـــــلاة ...

* * *

نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ البَقَرَة (٣)

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه
١٩٧٣/١٢/١٤ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أمـــا بعـــــد :

فحديث الجمعة اليوم نظرات أخيرة فى سورة البقرة — السورة التى وضعتْ منهاج التقوى ، وشرحتْ حقيقته ، وقسَمتِ الناس بحسب عقائدهم ومسالكهم إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين .

وسنرى — بإذن الله — كيف أن السطور الأولى فى هذه السورة قد تغلغل معناها ، واطرد ما فيها من عبرة وحكمة إلى السطور الأخيرة فى هذه السورة المباركة .

نبدأ بالجملة الأولى : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ [البقرة ٢ ، ٣] .

الإيمان بالغيب نوعان : نوع يتصل بالسلوك ، ونوع يتصل بالعقيدة ..

فالذى يتصل بالسلوك يَمسُّ حبنا المال ، وحبنا الحياة ...

إن الله يأمر بالصدقة ، والصدقة تجعل الإنسان ينزل عن المال الذى يملكه . والمال حبيب إلى الإنسان ، عزيز عليه ، فإذا قيل له : أنفق فى سبيل الله وسيخلف الله عليك فى المستقبل . فإن نفسه سوف تحدثه : لِمَ أفقد ما بيدى اليوم فى انتظار ما قد يجيء خفيا فى الغد ؟

فإذا قال الإنسان لنفسه : إن الله وعد ويجب أن أثق فى أنه سبحانه سيخلف . ربما حدثته نفسه : عصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة !! هنا يتدخل الإيمان بالغيب فى النفقة أو فى الصدقة فيجعل الإنسان – لصدق إيمانه بربه وبوعده – يعطى ما بيده – الآن – موقنا بأن ما غاب لا بد أن يتحقق ، وأن الخلف الذى لا وجود له – الآن – هو موجود حتما ، وسوف يجيء ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم** ﴾ [البقرة : ٢٦٨] .

هذا إيمان بالغيب يتصل بالسلوك . هناك أيضاً إيمان بالغيب يتصل بالسلوك فى الجهاد أو فى الكفاح أساسه أن أصحاب الدعوات – غالبا – يبدأون سلوكهم أو سيرتهم أو دعاياتهم فى وجه جبابرة يفرضون سلطانهم ويقذفون بالرهبة فى قلوب غيرهم ، وعندما يتجرأ أصحاب الحق وهم ضعاف فإن وساوس الشيطان ستتجه إليهم . ما الذى يجعلكم تناوشون الأقوياء وتتعرضون لبطشهم ؟ وما الذى يجعلكم تفقدون طمأنينتكم – الآن – فى انتظار نصر يعدكم الله به فى المستقبل ، والمستقبل غيب لا يُدرى متى يجيء أو متى يتحقق ؟ هذا المعنى شُرح فى سورة هود فى قوله تعالى – وهو يجعل الداعين إليه والمتحدثين باسمه يرقبون المستقبل بأمل وتفاؤل – : ﴿ **وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ [هود : ١٢١ – ١٢٣] .

هذا الغيب إلى أن يجيء ربما تعرَّض حملة الحق لمتاعب فى أموالهم أو أجسادهم أو أعراضهم أو حقوقهم ، لكن تجيء سورة البقرة فتقول : لكن ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنو معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب** ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

إنه قريب لأن كل آتٍ مُحَقَّق قريب مهما تطاول الزمن فى انتظاره ، فما دام لا بد منه فهو قريب ، ومن هنا جاء المثل العربى : « **إن غداً لناظره قريب** » .

هذا نوع من الإيمان بالغيب يتصل بالسلوك ، فالإيمان برزق الله ، والإيمان بنصر الله غيب ينبغى أن يطمئن إليه المحرومون والمحروبون .

هناك إيمان بالغيب يتصل بالعقيدة ، فإن الله عز وجل إنما يُعرف بأوصافه ، وأوصافه إنما تُعرف بآثارها فيما بيننا ، فإن الله ليس مادة تُحسُّ بالأيدى ، ولكن الذات الأقدس يُعرف بآثاره بيننا ، وقد صورت سورة البقرة الغيب من هذه الناحية فيما وقع من حوار بين نبى الله إبراهيم وبين أحد الجبابرة الذى كفر بالله لأنه مَلَكَ السلطة الواسعة والسطوة البالغة ، وروت السورة القصة : ﴿ **ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ [البقرة ٢٥٨] .

فإبراهيم عرَّف ربه بصفاته ، نحن الذين نؤمن بالله نعلم أن الله حاضر فى قلوب العارفين ، وأن أنوار وجوده تتزاحم بها آفاق السموات والأرض ، ولكن هناك ناسا نُسجت على بصائرهم غِشاوات سميكة ، وعلى عيونهم حُجب غلاظ ، هؤلاء يكفرون بالغيب ، ويكفرون بوجود الله ، وهؤلاء موجودون فى كل زمان ومكان ، ولكن لا وزن لهم فى منطق العقل ولا فى منطق العلم

هذه كلمة الإيمان بالغيب ، معناها يترقرق داخل صفحات السُورة فى أماكن كثيرة شرحنا نماذج لها

بعد الإيمان بالغيب : ﴿ **ويقيمون الصلاة** ﴾ [البقرة ٣] .

جاء ذكر الصلاة مرات فى هذه السورة ، مرة فى أنها تعين على الخشية والتحمل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين** ﴾ [البقرة ١٥٣]

ومرة فى أنها من أركان البر والتقوى : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

وليست الصلاة عبادة فردية يناجى فيها المرء ربه وانتهى الأمر ، لا . الصلاة فى الإسلام تعاون الجماعة فى تنظيم صفوفها والاحتشاد لها وبناء مساجدها وترويج هذه الشعيرة بحيث تشرف على بقية ساعات النهار والليل وبحيث تكون ظاهرة فى البرنامج الفردى والاجتماعى للأمة ، ولذلك وجدنا هذه السورة تأمر بالصلاة فى الحرب والسلم على سواء : ﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتم** ﴾ أى عند الحرب ﴿ **فرجالا أو ركبانا** ﴾ أى صلوا مشاة أو راكبين ، فإذا انتهت الحرب ﴿ **فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون** ﴾ [البقرة : ٢٣٩] .

فالصلاة ركن اجتماعى ، ولذلك ـ فى هذه السورة ـ بيّن جل شأنه أن كل محاولة لجعل المساجد ثانوية فى المجتمع ، أو تدمير هذه المساجد بالحروب أو تأخير رتبتها بالفسوق ، كل هذا ظلم فادح : ﴿ **ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين** ﴾ [البقرة : ١١٤] .

هكذا تحدثت سورة البقرة ، ثم أشارت السورة إلى أن بقاء المساجد عامرة بالمؤمنين هو أثر دفاع المؤمنين عن هذه الشعيرة وعن هذه البيوت التى رُفعت قواعدها فى الدنيا بذكر الله ، وهذا معنى قوله جل شأنه : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين** ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

هذا المعنى شُرح فى سورة أخرى : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم**

ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ [الحج ٤٠] .

فإقام الصلاة شعيرة اجتماعية إلى جانب أنها شعيرة فردية ، وقد تبين — فعلا — أن المسلمين لو أنهم أقاموا الصلوات اجتماعيا واهتم بها كيانهم العام لضبطوا الشهوات ، وحسموا الأهواء ، وربوا جيلا يحكم غرائزه لا جيلا تحكمه غرائزه ، وقد وصف الله لأجيال المنهارة التي ترنو إلى الدنايا ، وتُنكّس رؤوسها وراء الضلالات والغوايات فقال : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا** ﴾ [مريم ٥٩] .

بعد هاتين الكلمتين ﴿ **يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة** ﴾ تأتى الصفة الثالثة ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ [البقرة ٣] .

النفقة عند أغلب العلماء ما دامت مقترنة بالصلاة فهى الزكاة المفروضة ، لكن التحقيق العلمى أنها أوسع من الزكاة المفروضة ، فإن الله يأمر — هنا — بأن كل مسلم ينفق مما رزقه الله ، وحديثنا عن الإنفاق — الآن — يقتصر على ناحيتين اهتمت بهما السورة اهتماماً شديداً .

فقوله تعالى — فى أول السورة — : ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ جملة قصيرة ، لكن استغرق الكلام عن الزكاة — فى آخر السورة — نحو ثلاث صفحات ، بدأ بذكر الأجر العظيم ، والأضعاف المضاعفة التى يكتبها الله لمن أنفق .

ومن ناحية مهمة فإن الناس يتصورون — غالبا — أن العطاء حرمان ، والحقيقة أن العطاء يشبه الشجرة عندما تُقلَّم ، فتقطع غصونها ، وتقل أوراقها ، ولكنها بعد حين تعود أكثر فروعا وأغزر أوراقا ، كذلك العطاء يقلل ما لديك — الآن — ولكنه بعد قليل يضاعفه ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم** ﴾ [البقرة ٢٦١] .

ناحية أخرى يهتم الإسلام بها جدا جدا وهى : احذر أن تعطى لتُذل ، احذر أن تعطى لتكسر النفوس ، احذر أن تمن بما أعطيت مهما كان كثيراً ، احذر أن تطلب وجوه الناس بما تتصدق به ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس** ﴾ [البقرة : ٢٦٤] .

لا تكسر نفوس الناس بما تُسديه إليهم من معروف فإن هذا العطاء هو حق الله عليك إذ مَوَّلك وكثَّر ما عندك . وقد ضرب القرآن مثلا غريبا لحاجة الإنسان إلى ثواب معروفه حاجة ماسَّة : ﴿ **أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** ﴾ [البقرة : ٢٦٦] .

تفسير هذا المثل : تصور نفسك أعددت لشيخوختك ــ من الآن ــ بستانا كثير الشجر ، كثير الثمر ، مليئا بالخير ، أعددته لعجزك أيام الشيخوخة وضعفك أيام الكبر وحاجة أولادك ــ فى هذه الآونة ــ إلى هذه الكفالة التى يَسَّرها الله لك ، أيَسُرُّك أن تجيء جائحة سماوية ، أو أن تَسْتَعر نار مُحرقة فى جَنَبَات البستان فَتُقَوِّضَهُ وتحوله إلى رُكام ؟

أى فجيعة تصيب من أدركته الشيخوخة عندما يفقد ماله ؟ فجيعة ضخمة ، إن الله يقول للإنسان : فجيعة هذا المخلوق فى ماله الذى ارتبط به أمله هى فجيعة المنَّان والمرائى فى صدقاته التى ضاع أجرها بالمن والأذى ، بالرياء والمكاثرة !!

جملة رابعة فى السورة تتعقل ويطول تعقُّل ما فى هذه الجملة من معان : ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ [البقرة : ٤] .

. والحقيقة التى يجب أن يعلمها الناس أن نبينا محمدا ــ عليه الصلاة والسلام ــ عندما جاء وشرَّفه الله بهذا القرآن الكريم لم يجيء بدين يمكن أن يكون مع الأديان الأخرى فرعاً لها أو فرعاً مساوياً لها ، يعنى كما تقسم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف يمكن أن تقسم الأديان إلى يهودية ونصرانية وإسلام ، لا ، القرآن قال : رسالة محمد بالدين كله ، بالإسلام كله !!

إن هذه الرسالة استوعبت الحقائق التي تلقاها — مِنْ قبلُ — نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وجمهور الأنبياء !!

ولذلك — في هذه السورة — يقول الله لليهود والنصارى — عندما يجادلون أهل الإسلام وأبناء القرآن — : ﴿ **وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ﴾ [البقرة : ١٣٦]

فكأن محمداً — عليه الصلاة والسلام — جاء يقول : أنا أكرر وأؤكد وأشرح وأنقّي الوحي الذي نزل على الأنبياء من قبلي وأومن بهم واحداً واحداً وأدعو أمتي إلى هذا الإيمان بي وبمن سبقني على أننا جميعاً — معشر الأنبياء — نمثل وحدة كاملة .

ورُوي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ فغضب فقال : « **أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به ، والذي نفسي بيده لو أن موسى ﷺ كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني** »(١) .

هذه الحقيقة هي التي تجعل السورة — هنا — تقول لأهل الكتاب — في بساطة — . لماذا الجدل ؟ ﴿ **قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون** ﴾ [البقرة : ١٣٩] .

فنحن نؤمن بالأنبياء جميعاً وبالكتب التي نزلت عليهم لا بكتب نُسبت إليهم وهم أبرياء منها .

---

(١) رواه أحمد ٣٨٧/٣ وقال في المجمع : رواه أحمد وأبو يعلى والبزار وفيه مجالد بن سعيد ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما ١٧٣/١ ، ١٧٤ والمتهوكون : المتحيرون . والتهوك : كالتهور . والمتهوك : الذي يقع في الأمور بلا روية .

هذه الجُمل التى رسمت منهج التقوى انضم إليها شىء لا بد من توجيه النظر إليه وهو أن كل حقيقة ليس لها حارس يمكن أن تضيع ، وإذن لا بد من حراسة لهذه الحقائق التى جاء بها الإسلام . لكن ما ضرورة الحراسة ؟

ضرورة الحراسة أن ناسا كثيرين لا تطيب خواطرهم ، ولا يهدأ بالهم ، ولا تستريح أعصابهم إلا إذا أتعبوا المسلمين وفتنوهم عن دينهم !!

هذا النوع من الناس ما خلا منه عصر من العصور ، فالذين يكفرون بالله كفراً أصلياً ، وينكرون وجوده بدءاً كالماديين ــ الآن ــ والذين يؤمنون بالله إيماناً رائغاً مزوراً على نحو ما قال القرآن : ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ [يوسف : ١٠٦] .

كِلا الفريقين يستميت فى أن يقف حركة الإسلام ، وأن يمنع الناس من أن يدخلوا فيه !! فماذا نصنع ؟ أنترك هذه الحقائق للصوص العقائد ينهبونها ويأتون عليها ونعيش ضُلّالا أم ندافع عنها ؟

كان القرآن طبيعياً جداً عندما قال للناس إن القتال صعب ، وإن فرضه يشق على المكلفين لأنه تعب ، لأنه تَرْكٌ للأوطان حيث استراح الإنسان بين أهله وأولاده وعشرائه وأصدقائه ، وتعريضٌ للتلف ، وفقدان الحياة بعضاً أو كُلا !! لكن الله جل شأنه يقول للإنسان : كذّب العاطفة الأولى التى تجعلك تؤثر حياة الهدوء والراحة ، كذّب هذه العاطفة فإن الذين يؤثرون حياة الهدوء والراحة لا بد أن يفقدوها ويفقدوا شرفهم معها ، قال تعالى : ﴿ **كتب عليك القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

وسورة البقرة نزل أغلبها فى السنتين الأوليين من الهجرة ، وفى السنتين الأوليين من الهجرة كان اشتباك المشركين مع المؤمنين فى « بدر » وكان اشتباك المسلمين مع اليهود فى « بنى قينقاع » تقريباً ، وسبق قبل ذلك اشتباك كلامى حول القبلة .

على كل حال حدث أن النبي ﷺ أمر بسرية من السرايا[1] أن ترصد الطرق ، وأن تحصي على العدو حركاته ، وأن توقع به بعض الخسائر إذا كان سيتجه إلى كذا وكذا ...

وفعلًا أدَّت السرية واجبها ، لكن شيئا حدث جعل عملها تكتنفه ريَب ومجادلات ، فقد وقع القتال في آخر رجب ، أي في الشهر الحرام !!

وهنا أحدث المشركون دعايات واسعة ضد محمد ﷺ وصحبه قالوا : إن هؤلاء قد استباحوا الشهر الحرام وقاتلوا فيه وصنعوا كذا وكذا !!

وتضايق المسلمون وحزن النبي ﷺ وكثر في ذلك القيل والقال حتى نزل الوحي حاسماً هذه الأقاويل ومؤيداً مسلك عبد الله بن جحش تجاه المشركين : ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل** ﴾ [البقرة ٢١٧] .

كلمة « الفتنة » يظنها العوام أنها النميمة ، لا . ليس هذا صحيحاً ، المقصود بالفتنة — هنا — الضغط على المستضعفين ، ومحاولة ردهم عن دينهم ، وتحويلهم بالقوة عن إيمانهم ، والفتنة — هنا — هي ما يصنعه المستبدون بأهل الإيمان عندما ينظرون إليهم نظرة استضعاف ، ويحاولون أن يبطشوا بهم حتى يردوهم عن دينهم ، هذا معنى قوله تعالى : ﴿ **والفتنة أكبر من القتل** ﴾ أي أكبر من القتال ، وأكبر من قتل الأنفس ، لأنها قتل للمبادىء ، وقتل للأرواح ، وإحراج لأصحاب العقائد ، وخنق للضمائر الحيَّة ، وترويع للمؤمنين ، وذلك كله لا يجوز .

وكشفت السورة أن الجهاد عندنا ليس جهاد عدوان ولكنه جهاد لرد العدوان : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ [البقرة ١٩٠] وفي هذه السورة أيضاً : ﴿ **لا إكراه في**

---

(١) هي سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه وكانت في رجب من السنة الثانية انظر السيرة النبوية لابن هشام تحقيق عمر عبد السلام ٢ / ٢٤٣

الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ [البقرة ٢٥٦]
وفى هذه السورة أيضاً : ﴿ **الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ [البقرة ١٩٤]

وهذه الحرب ضحاياها ، وسوف يموت ناس ــ بغير شك ــ فى كل صراع بين الهدى والضلال ، فى كل كفاح بين الحق والباطل ، لكن ينبغى أن يعلم الأحياء جميعا ــ والمؤمنون خاصة ــ أن الذى يُقتل فى سبيل الله لا ينتقل إلى موت إنما ينتقل إلى عُرْس ، إلى حياة أرق وأزكى وأنضر وأشرف !! ولذلك رفض الإسلام أن يسمى هؤلاء موتى ، ورفض أن يقال إنهم أموات ، ففى هذه السورة : ﴿ **ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون** ﴾ [البقرة ١٥٤] .

ما أكثر الذى لا نشعر به فى دنيانا ، إنك فى عالم وحدك من إحساسك ، لكن أنت فى إحساسك الخاص لا تسمع دبيب كل متحرك على ظهر الأرض وهم ملايين الملايين ، ولا تُبصر إلا ما أمامك ، لكن وجه الكرة الأرضية ــ وهى جزء تافه فى الوجود كله ــ مبسوط أمام البصير بكل شىء جل شأنه !!

فنحن لا نشعر بالكثير ، وهذا لا نشعر بوجود الشهداء ، لكنهم موجودون ، وسيبقى وجودهم مغيبا حتى تنقضى فترة الاختبار فى هذه الدنيا قائمة لا عش فيها ، ثم يترك الناس هذه الدنيا ليلحق ميت الغد بميت اليوم ، وهل الناس إلا كذلك ؟

هكذا الدنيا ، حقيقة لا بد منها ، وإن كان أغلب الناس لا يعترفون بها !! وصدق الحسن البصرى عندما قال : ما رأيت حقاً أشبه بباطل من الموت !! هو حق ، ولكنه شبيه بالباطل ، لماذا ؟ لأن الناس لا تريد أن تعترف به !!

سورة البقرة ــ التى تحدثنا فيها ثلاث جُمَع الآن ــ سورة متماسكة ،

وأنا أريد أن أنفي ما يتصوره البعض من أن سور القرآن رُكمت فيها الآيات بطريقة عشوائية جزافية ، لا . السور كلها نُظِّمت على أساس أن لها محوراً تدور عليه وهدفاً ، ولذلك فإن آخر أدعية هذه السورة ضَمَّ الإيمان بالله إلى الإيمان بالغيب إلى السلوك البشرى إلى الأخطاء التى تحتاج إلى مغفرة الله إلى الجهاد وانتظار المجاهدين أن ينصرهم الله على الكافرين ...

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾

[البقرة : ٢٨٥ ، ٢٨٦]

هذا النصر هو تحقيق للحراسة على حقائق الدين التى يقوم بها جمهور المجاهدين .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله : ﴿ **الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام الأنبياء ، وسيد المصلحين

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــــد :

عباد الله : أوصيكم ونفسى بتقوى الله عز وجل . وأريد أن أشرح إشارة ظهرت ــ على هذا المنبر ــ فى الأسبوع الماضى ...

لقد قلت : إن الذين عاشوا سماسرة الاستبداد لا يجوز لهم أن يقترحوا إصلاحات لأمتنا . وسألنى البعض . ماذا تريد بهذه الإشارة ؟ وأنا أجيب بشيء من التوضيح . إن بعض الناس ألَّفوا ــ من أنفسهم ــ جماعة أطلقوا عليها « التعمير الحضارى » . وعندما نظرت إلى أسماء الذين يشتغلون بالتعمير الحضارى ــ كما كوَّنوا أنفسهم ــ وجدت جماعة من الماديين الذين يكفرون بالله وينكرون وجوده ، وجماعة من الصليبيين الذين لا تنتهى أحقادهم على الإسلام ولا تُخمد نارهم يوما !!

إن أمتنا لا تدرى ــ جيدا ــ كم يحقد الآخرون عليها ، ولو كنتم أصحاب حس دقيق لشعرتم بهذا الحقد ..

إن « بابا روما » ركب « خَنْطُورا » فى « روما » وسار به كى يؤيد إجراءات التقشف . لم يا رجل ؟ ما السبب فى هذه الإجراءات ؟ من أجل اليهود ، إن الحقد فى نفوس هؤلاء جعلهم ــ لأنهم يكرهون محمدا وأمة محمد وأتباع محمد إلى آخر الدهر ــ يعملون هذا !!

أما سألتم أنفسكم : ما الذى يجعل العالم يتحمل البلاء من أجل هؤلاء اليهود ؟ السبب أنهم يكرهون محمدا والإسلام والمسلمين ، وهذه الكراهية تأخذ طريقها بأساليب ملتوية .

إننا نحن الذين ملأنا الدنيا بالحضارة ، وعرّفنا الناس حريات العقل والضمير . صحيح أننا تأخرنا فى القرون الأخيرة ، لكن من الذى تقدم فى القرون الأخيرة ؟ من يكفرون بالله ؟ من يعبدون الطاغوت ؟ من يعيشون أحلاس الشهوات ؟ لا . إن الذى يعمر الحضارة الغاربة هم الذين يؤمنون بمحمد ﷺ . أما الكفرة فلا يقبل منهم هذا ، وقد رأينا هؤلاء كانوا يرسلون « زغاريد لنساء »[1] عندما كان الإيمان فى محنة فى بلدنا ، وعندما كانت كلمة التكبير جريمة تلصق أصحابها بالهوان !! الآن يتحدثون عن الحضارة ؟!!

هؤلاء آخر من يتكلم عن معالم الحضارة وعن التعمير الحضارى . أنا رجل مسلم أعرف أن ديننا كفل حرية الرأى ، وأنه الدين الوحيد الذى أعطى « الأقليات » فى كنفه أن تتبوأ مناصب كبيرة !! أمّا غيرنا فهو قاتِل « الأقليات » وقاتِل العقائد ، وقاتِل الحقائق !!

فهل يجىء هؤلاء — وهم مرضى — ليجعلوا أنفسهم أطباء لأمة تنظر إليهم باحتقار ؟!!

هؤلاء كانوا سماسرة الاستبداد ، وكانوا دعائم الإلحاد ، فلا نقبل منهم أن يعمروا حضارة ، وليفعلوا ما يفعلون فنحن أيقاظ لهم ، وسوف يبقى الإسلام بدعاته ورجاله وأمته إلى آخر الدهر يؤدون حق الله عليهم أداء كاملا إن شاء الله رب العلمين .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر »[2] .

---

(١) زغرد البعير : ردَّد هديره فى حلقه والمرأة : رددت صوتها بلسانها فى فمها عند الفرح .

(٢) رواه مسلم فى الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨ / ٨١ .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عبـــاد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقـــم الصـــلاة

* * *

الذكر (حقائقه ووسائله)

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد :

فإن أشرف ما يمر بالخاطر ، وأنضر ما يتحرك به اللسان ، وأزكى ما يؤثر في الأخلاق والمسالك هو ذكر الله سبحانه وتعالى .. فإن هذا الذكر يسدد خطوات الإنسان على طريق الحياة الصحيحة ، ويبصره بالرسالة التي خلق من أجلها ، ويجعله عبداً يرتفع في مستواه إلى الملأ الأعلى ..

والذكر ليس حالة عضوية ، ولكنه حالة نفسية ، ومعنى أنه ليس حالة عضوية أن الله يقول للإنسان : ﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ [الكهف : ٢٤] ولم يقل له : واذكر ربك إذا سكت .

السكوت قد يكون حركة اللسان إذا توقف عن الكلام ، أما حالات الغفلة والذهول والنسيان فهي حالات نفسية ، والمقصود من الذكر أن يعالج هذه الأحوال ، ويجعل الإنسان في حال من الصحو واليقظة والإحساس بوجود الله سبحانه وتعالى وبرقابته وبشهوده الذي لا يخبو سناه على كل ذرة في الكون . وكما قالوا في علم الطبيعة : إنه لا مجال للفراغ ، بمعنى أن الإناء إذا كان ممتلئاً بالماء فهو ممتلىء بالماء ، وإذا خلا من الماء فهو ليس فارغاً ، إنه مملوء بالهواء ، لا فراغ في الطبيعة .

كذلك أوعية القلوب ، إن هذه الأوعية لا تعرف الفراغ ، فإذا لم تملأها بذكر الله امتلأت بوساوس النفس وهواجس الشيطان ، ومغريات الهوى ، إذا لم تكن لديك الطاقة التى تحرك جوارحك فى طريق الاستقامة فإن الجوارح ستتحرك ولكن على طريق آخر فإنه لن يترك القلب فارغاً بل سيتحرك بشىء ما ، فإن لم يتحرك بذكر الله تحرك بغيره ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً** ﴾ [الكهف : ٢٨]

من لم يملأ الرحمن قلبه ملأ الشيطان قلبه ، لا فراغ ، إذن لابد من أن نراقب أنفسنا حتى يبقى الذكر دائماً ملء قلوبنا ، ولذلك كُلّفنا بهذا الذكر : ﴿ **واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين** ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] تضرعاً : تذللاً ، خيفة : رهبة،دون الجهر من القول : أى لا ترعق ، فإن الزعيق يضيع العقل .

ولذلك عندما ذكر بعض الناس ــ وهم سائرون فى الصحراء ــ بصوت عال قال لهم النبى ﷺ : « **أيها الناس اربَعُوا[1] على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إن الذى تدعونه سميع قريب** »[2] .

بالغدو والآصال : الغدو : أول النهار ، والآصال ــ جمع أصيل ــ آخر النهار : أى اذكر ربك باستمرار ، وفى سورة أخرى : ﴿ **فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون** ﴾ [الروم : ١٧ ، ١٨] .

وللذكر وسائل أو طرق شرعية ، نبدأ فنتعرض لها ونحصى ما أقدرنا الله عليه .

* من هذه الوسائل : القرآن الكريم ..

---

(١) أى ارفقوا .

(٢) رواه البخارى فى الدعوات ــ باب الدعاء إذا علا عقبة ١٠١/٨ ، ١٠٢ ومسلم فى الذكر ــ باب استحباب خفض الصوت بالذكر ٧٣/٨ ، ٧٤ .

فإنه يذكر بالله وبعظمته وبحقوقه وبما ينبغي له ، ويبني الصلة به على الرغبة والرهبة والوعد والوعيد ، وقد قال تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب** ﴾ [ص ٢٩] وقال : ﴿ **هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب** ﴾ [إبراهيم ٥٢] .

فالقرآن كتاب تذكير إذا نسي الفكر ، وكتاب إيقاظ إذا نام القلب ، وكتاب تسديد على الطريق إذا اعوجت الخطى وزاغ الإنسان عن سواء السبيل .

* من هذه الوسائل : الصلاة ..

فالصلاة أساس لتذكير الإنسان بربه ، فهي — أولاً — أفعال تضمنت كل ما يُحيَّا به العظيم ، كان الناس قديماً يحيون العظماء تارة باليد ، وتارة بالوقوف ، وتارة بالركوع ، وتارة بالقعود المهذب ، وتارة بالسجود .

مُنع هذا كله للناس ، وجُمع هذا كله لله ، فبين يدي الله يقوم الإنسان قانتاً ويركع ويسجد ويجلس ويحيي ربه ، وهو في قيامه يقرأ القرآن ، وفي ركوعه وسجوده يسبح بحمد الله العظيم أو بحمد الله الأعلى .

ومثل هذه الصلوات تشبه أن تكون وجبات روحية دسمة ضخمة توجه الإنسان طول يومه إلى أن يبقى في حضرة ربه وإلى أن يستمد منه وإلى أن يتقيه ويخشاه ، وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ **وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون** ﴾ [العنكبوت ٤٥]

يعني أن ما تُورثه الصلاة من ذكر الله وما تتركه من طابع نقي مشرق على ضمير الإنسان يجعل الإنسان أنأى وأبعد من الإلمام بالدنايا والهبوط إلى الحضيض ، لأن الصلاة وذكر الله أكبر من ذلك .

* من هذه الوسائل : المأثورات ..

وقد ورد أن النبي ﷺ كانت له مأثورات كثيرة : قبل أن يأكل وبعد

أن يأكل ، قبل أن يلبس وبعد أن يلبس ، قبل أن يذهب إلى الخلاء وبعد أن يذهب إلى الخلاء ، قبل أن ينام وبعد أن ينام ، كانت أحواله كلها ذكراً ، فهو يتقلب فى أشعة متجددة لا تنتهى أنفاسها ، ولا تخمد أنفاسها من شعور مرَّار بذكر الله لا ينتهى أبداً ، وهى حياة انفرد بها خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ..

كان إذا نام قال : « **باسمك ربِّ وضعت جنبى وبك أرفعه إن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به الصالحين** » (١) .

وتارة — إذا نام — يقول : « **اللهم إنى أسلمت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، اللهم آمنت بكتابك الذى أنزلت وبنبيك الذى أرسلت** » (٢) .

وكان إذا لبس ثوباً جديداً قال : « **الحمد لله الذى كسانى هذا الثوب ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة** » (٣) .

وكان إذا طعم قال : « **الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين** » (٤) .

وكان إذا أصبح قال : « **أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه النشور** » وإذا أمسى قال : « **أمسينا**

---

(١) رواه البخارى فى الدعوات — باب حدثنا أحمد بن يونس ٨٧/٨ ومسلم فى الذكر والدعاء — باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٧٩/٨

(٢) رواه البخارى فى الوضوء — باب فضل من بات على الوضوء ٧١/١ ومسلم فى الذكر والدعاء — باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٧٧/٨

(٣) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وأحمد والحاكم والدارمى وابن السنى وقال فى صحيح الجامع الصغير (٦٠٨٦ — ٢٠١٥) : حسن

(٤) رواه أبو داود فى الأطعمة — باب ما يقول الرجل إذا طعم ٣٢٩/١٠ والترمذى فى الدعوات — باب ما يقول إذا فرغ من الطعام ٤٢٤/٩ ، ٤٢٥ والنسائى فى عمل اليوم والليلة ص ٢٦٥ وابن ماجه فى الأطعمة — باب ما يقال إذا فرغ من الطعام ١٠٩٢/٢ وأحمد ٣٢/٣ ، ٩٨ وقال فى ضعيف الجامع (٤٤٤٣) : ضعيف

وأمسى الملك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه المصير ﴾ (١) .

وله فى ذلك أذكار كُتبت فى كتب مطولة ، ولا يُعرف — كما قلت — نظير لهذا الذكر الموصول .

لكن يحتاج فهم الذكر إلى تأمل فى كتاب الله وفى سنة رسول الله ﷺ ، لماذا ؟ .

لأن الأمم المتدينة عندما ترق صلتها بدينها تأخذ الدين مظهراً لا مخبراً أو لفظاً لا معنى أو صورة لا حقيقة ، ولذلك لم يكن هناك بُدٌّ من العودة بالمسلمين إلى حقيقة الذكر حتى يعرفوا ما يطلب منهم شرعاً .

فمن الذكر — الذى هو ركن فى الدين — أن يحب الإنسان ربه أكثر مما يحب ماله عندما يطالب بإخراج الركن الشرعى وهو الزكاة .

معنى ذكر الله هنا : أولاً : ذكر أمره ، ثانياً : ذكر وعده ، فقد وعد بأن ما تخرجه من مال سيرتد إليك حتماً لأنه قال : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ [سبأ : ٣٩] .

وحلف النبى ﷺ فقال : « ما نقص مال عبد من صدقة .. » (٢) .

ومعنى هذا الذكر أنك يوم ترفض إخراج الركن فأنت أولاً : لا تعترف بحق الله ، وأنت ثانياً : تكذب وعده . ولذلك قال جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾ [المنافقون : ٩ — ١١]

---

(١) رواه البزار وإسناده جيد . كذا فى مجمع الزوائد ١١٤/١٠ .

(٢) رواه الترمذى فى الزهد باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر وقال : حديث حسن صحيح ٦١٥/٦ — ٦١٧ وأحمد ٢٣١/٤ وقال فى صحيح الجامع (٣٠٢٤) : صحيح .

هذا ذكر من وراء إقامة الركن الشرعي الذى تنهض عليه المجتمعات الإسلامية من قديم ، وهل انتشر الإلحاد فى الأرض إلا بسبب نسيان حق الله واشتعال نيران العداوة والبغضاء فى نفوس الفقراء والمحتاجين ؟ هذا ذكر لابد منه ، وطبعاً يمتد هذا الذكر مع ضرورات العطاء ، فعندما يكون هناك جهاد فى سبيل الله فإن الجهاد يكون بالنفس والمال ، والمال معادل للروح ، فالبخل به يكون مع غفلة عن الله أو مع نسيان للحق ، فالذكر هنا حقيقة لابد من استصحابها شرعاً . ولا يغنى عن الإنسان أن يقول كلمة يذكر بها ربه وهو كَزٌّ [1] يمنع حق الله من أن ينطلق من ماله أو من خزائنه إلى بيوت المحتجين والفقراء والمساكين .

* هناك ذكر لله فى إبان الجهاد ، وهو ذكر لابد منه لحماية الأمة وللدفاع عن عقيدتها ولإعلاء رايتها .

ما ضاع المسلمون فى مراحل هزائمهم المختلفة — إلى يومنا هذا — إلا بعد أن عمهم حب الدنيا وكراهية الموت ، فإذا انهزم ذكر الله وأداء حقه والدفاع عن دينه والموت فى سبيله أمام حب الدنيا وكراهية الموت فقد ضاع الدين ، وما وجدت أمتنا انهزمت قديماً أو حديثاً إلا إذا علا فى ضمير الفرد حبه لنفسه عن حبه لربه ، حبه لحياته عن حبه لآخرته ، ذكره لما يشتهى ونسيانه لما كُلف به وطولب .

كان سقوط « غرناطة » — آخر دولة لبنى الأحمر فى الأندلس — سقوطاً يخزى المسلمين ، لأن بعض الفدائيين من أهل النجدة والوفاء استماتوا فى إثارة الحمية الدينية وجعل المسلمين يقاتلون « فرناندو » ، « إيزابيلا » المسيحيين اللذين قاتلا الأمة الإسلامية ، ولكن الملك الصغير [2] الذى كان يملك الأمة الإسلامية أمضى معاهدة التسليم ، وكان إمضاء المعاهدة ، صكا نهائياً بضياع الإسلام من الأندلس !!.

ذكر الله — هنا — يمنع من هذا الضياع ، يقول الله جل شأنه :

---

(١) كز الشيء — كزازة وكزوزة — يبس وانقبض من البرد . ورجل كز اليدين : بخيل .
(٢) أبو عبد الله الصغير آخر ملوك غرناطة الإسلامية

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** ﴾ [الأنفال : ٤٥]

قد يكون الذكر ركناً فى الدين عندما يهمس الشيطان فى قلبك : ارتكب هذه الحماقة ، افعل هذا الشر ، اسقط فى هذه الشهوة ..

لكن نداء الإيمان يقول لك : اتق الله ، إن الله قيوم على الناس ، إن الله رقيب على العباد ، احذر لقائم على كل نفس بما كسبت .

هذا المعنى هو قوله جل شأنه : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ [الأنفال : ٢]

وهذا هو معنى الحديث الشريف : « **سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله** » ومن هؤلاء السبعة : « **ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله** » (١)

« هناك ذكر — أيضاً يكون ركناً فى الدين — وهو ما يجعلك تثق فى أن الله لن يخذلك وأنت تعمل له ، لن يضيعك وأنت تتوكل عليه ، لن يتركك وأنت تستجير به وتنتظر منه .. وهذا معنى قوله جل شأنه : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ [الرعد : ٢٨]

الذكر هنا سناد حقيقى للتوكل على الله والاعتماد عليه والاستمداد منه والثقة فيه ، إن الآخرين قد يعتمدون على بشر ، والبشر يموتون أو يضعفون ، لكنك تعتمد على الله ، والله لا يموت : ﴿ **وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً** ﴾ [الفرقان : ٥٨]

وجدت — وأنا أدرس الذكر فى القرآن الكريم — أن أساس الذكر

---

(١) رواه البخارى فى الأذان — باب من جلس فى المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد ١٩٨/١ ومسلم فى الزكاة — باب فضل إخفاء الصدقة ٩١/٣ .

هو معرفة الله بمعرفة أسمائه الحسنى وصفاته العُلى معرفة صحيحة ، وقد لاحظت فى آيات التشريع وفى آيات وصف الكون حشداً من أسماء الله الحسنى ما ذكر إلا لحكمة ، لأنه — فعلًا — نوع من التذكير نحتاج إلى فهمه

مثلًا المهاجر فى سبيل الله دفاعاً عن دينه أو طلباً للنجاة بإيمانه أو سعياً لتكوين دولة للإسلام فى مكان آخر ، ماذا يرجو هذا المهاجر ؟

ينتظر من الله الخير ، فى نفسه اشتياق إلى حالة أحسن وأمل فى أن الله يعطى العطاء الأوفى .

نجد هذا المعنى مرتبطاً باسم من أسماء الله الحسنى أو بصفة من صفاته العلى ، قال تعالى ﴿ **والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين . ليدخلنهم مدخلًا يرضونه وإن الله لعليم حليم** ﴾ [الحج ٥٨ ، ٥٩]

الآيات وصفت رب العالمين بأنه خير الرازقين ، وبأنه : عليم حليم .

ثم مضت الآيات تقول : ﴿ **ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور** ﴾ [الحج ٦٠]

قد تهاجر — كما حدث للمسلمين — وتقاتل المشركين من موطنك الجديد ، فكن عدلًا وردَّ ما عليك ، العفو من شيم الكرام ، كن مع الآخرين على نحو ما ذكرت الآية من وصف لله . ﴿ **إن الله لعفو غفور** ﴾ .

ثم مضت الآيات تقول : ﴿ **ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وأن الله سميع بصير** ﴾ [الحج ٦١] أجزاء من النهار تَسْوَدُّ بعد أن كانت بيضاء وتتحول إلى ليل فى الشتاء ، وأجزاء من الليل كانت سوداء تبيض وتتحول إلى نهار فى الصيف !! هكذا رب الليل والنهار يصنع بالعالم ﴿ **يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وأن الله سميع بصير** ﴾ .

ثم تمضى الآيات فتقول : ﴿ **ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون**

من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾ [الحج ٦٢].

ثم يُعرفك بالله عن طريق المطر فى الكون : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير . له ما فى السموات وما فى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد . ألم تر أن الله سخر لكم مافى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ [الحج ٦٣ — ٦٥] .

وحدث أنه فى سبع آيات متتابعة نحو خمسة عشر اسماً من أسماء الله الحسنى ، تُذكِّر به وبعظمته وبجلاله وبنعمته وبفضله . هذا عندما يوصف الكوْن والحياة ، بينما نجد أن تعريف الناس بالله قد يوجد وهو يؤرخ للحياة ، فمثلًا يقول الله : ﴿ سل بنى إسرائيل كم ءاتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾ [البقرة : ٢١١] .

كلمة . ﴿ ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته ﴾ شرط .

ما جواب الشرط ؟.

جواب الشرط : يعاقبه الله .

لكن الجواب هنا يحذف ويأتى اسم من أسماء الله أو صفة من صفات الله : ﴿ ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾ !! .

مثال آخر ..

المسلمون يعتزون بدينهم ، والكافرون يضحكون من هذا الاعتزاز : ﴿ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ﴾ فيكون الرد الإلهى : ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ [الأنفال ٤٩]

أصل الجواب ومن يتوكل على الله ينصره الله ، يأخذ بيده ، يعز جانبه ..

طوى هذا الجواب ، وذكر بعض أسمائه الحسنى : ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ !! .

ختام الآيات القرآنية بأسماء الله الحسنى ليس ختاماً عشوائياً ، وإنما هو ختام مقصود به ربط الناس بربهم .

وهذا نجده فى كثير من الآيات ـــ بل كل آيات القرآن على هذا النحو ـــ فمثلًا فى سورة البقرة تقرأ قوله تعالى :

﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم . وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم . والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحاً ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم ﴾ [البقرة ٢٢٤ ـــ ٢٢٨]

هنا صيغت الأحكام بطريقة تربط المسلمين بربهم ، وتجعل رقابتهم لله مستمرة .

فى اعتقادى لو أن أمتنا مشت مع كتابها فى وصفه لرب العزة ، وفى تشريعه للعباد ، وفى حديثه عن الكون وآفاق العالمين . وفى تذكيره للناس على النحو الذى عرضناه لأمكن عمل منطق علمى أشرف من المنطق الذى يسود العالم الآن .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ **الذى يقبل التوبة عن عبادة ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام النبيين وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـد ..

أوصيكم ونفسى بتقوى الله عز وجل

واعلموا أيها المسلمون أن ديننا هذا دين قيم ، وأنه لا يعرف نفاسته البُله والجهال ، وإنما يحتاج إلى علماء راسخين ليدركوا حقائقه ويبصروا بها الناس .. فإن عبادة شريفة كذكر الله وقعت بين أصابع ملوثة أو أفكار هازلة فجعلت من الذكر ما يسمى ـــ فى عرف بعض المغفلين ـــ الرقص الدينى !! .

كيف يكون فى الإسلام رقص دينى ؟! .

هذا الدين الذى حرَّر العقل الإنسانى من الخرافة ، وحرر القلب الإنسانى من الهوى ، وحرَّر السلوك الإنسانى من العوج ، هذا الدين الذى قال للإنسان : لا تضع قدمك إلا حيث تعرف : ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً** ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

هذا الدين الذى قال هذا الكلام وحده لأمة التى تنتسب إليه تعمل على أسس أنها لن تحاسب لا على سمع ولا على بصر ولا على فؤاد ، فهى تمشى

تخبط خبط عشواء فى كل شيء ، وحولت ذكر الله إلى بعض أوراد ما أنزل الله بها من سلطان أو إلى أحفال رقص يفقد الناس فيها عقولهم ووقارهم وكرامتهم .

طبعاً الإسلام لا يعرف هذا ، لأن الآيات الأولى فيه تقول للإنسان : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم** ﴾ [العلق ١ — ٥]

والعجيب أن الدين الذى يبدأ الآيات الأولى فيه بالقراءة والقلم يتحول أتباعه إلى جماهير من الأميين يزحمون العالم الثالث ، لا ثقافة لهم ، ولا ارتقاء ، ولا نضارة فى الفكر ، ولا تنظيم لمقدمات ، ولا معرفة لمنطق طبيعى !! .

لماذا ؟ لأنهم جهلوا دينهم .

قلت : كما أن السمك يموت إذا خرج من الماء — لأن حياته فى الماء — أو كما أن الإنسان يموت أو يختنق إذا ضاع منه الهواء — لأنه لا يحيا بدون هواء — فكذلك الإسلام ، ما يمكن أن ينتعش وأن يقوى إلا بأدواته التى سممت أجزاء منها .

ذكر الله فى الكون وفى الحياة وفى التاريخ وفى التشريع وفى كل شيء كيف : يختفى هذا الذكر ويتحول إلى شطح ونطح وقفز ووثب وعودة إلى الوثنيات التى يمثلها الهنود عبدة القردة وما إلى ذلك ؟! .

أحب أن أوجه النظر إلى أن النضج الفقهى أساس لفهم الإسلام ولعرضه ، ممكن عندما ينضج العنب أن يحول إلى زبيب ويبقى له قدر من القيمة الغذائية بعد أن يجف ، ممكن بعد أن ينضج البلح أن يتحول إلى تمر وتكون له قيمة غذائية جيدة وهو تمر ، لكن ما الحال إذا جفف البلح وهو أخضر ؟ لا يصلح ..

ما الحال إذا جفف العنب قبل أن ينضج ؟ لا يؤكل .

هناك عقول إسلامية جففت قبل أن تنضج !! .

لا يمكن أن يصلح لشيء هذا النوع من الناس سواء كبر منصبه أو قل ، لأن الإسلام علم لا ينتهي .

كان نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام نموذجاً فريداً عندما قال — كما أمره ربه — : ﴿ **رب زدني علماً** ﴾ [طه : ١١٤] وموسى عليه السلام — وهو من أولي العزم — قيل له هناك من يعرف أكثر منك . اجتهد الرجل وذهب وهو يقول : ﴿ **لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً** ﴾ [الكهف : ٦٠] ما أزهد المسلمين في العلم ، ما أقل عناية المسلمين بالعلم ، ما أشيع الخرافات والأوهام بين المسلمين !! .

الذكر الحقيقي ليس شقشقة لسان ، وليس عمل الفم وهو يمضغ الكلام ، إنما الذكر الحقيقي لله . قلب ينبض بمشاعر الرغبة والرهبة ، ويمشي على الأرض وهو يرنو إلى السماء ، يخشى ربه ويرجو منه الوقار ، وينتظر عنده الخير ، ويؤمل في الدار الآخرة يوم اللقاء .

« **اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر** [(١)] .

﴿ **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾ [الحشر : ١٠] .

عبـــاد الله :

﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ [النحل : ٩٠]

أقم الصـــلاة ...

---

(١) رواه مسلم في الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨ .

نفحات الرحمة وبشريات الخير

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فقد كان سلفنا الأول مرتبطا بالقرآن الكريم على نحو يجدى عليه فى الدنيا والآخرة ، كان إذا قرأه أو سمعه تدبره ، فنزلت الآية على عقبه هُدى وضياءً ، ونزلت على قلبه برداً وسلاما ، ولا يزال من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين يقرأون القرآن على هذا النحو .

إن الله فاوت بين الناس فيما منحهم من مواهبه ، قد تكون هناك أصوات حسنة ، وقد تكون هناك أصوات معتادة ، الذى هُدى إلى ألفاظ الأذان من صحابة النبى عليه الصلاة والسلام رجل وضيء القلب ، عظيم الإيمان ، بلغ من صفائه أن تضح قلبه بإلهام من الوحى الأعلى ، ومع ذلك فإن كلمات الأذان — كما عُرِضت على النبى عليه الصلاة والسلام — تخير لها عليه الصلاة والسلام من يؤديها بصوت رقيق ، فاختار بلال بن أبى رباح وقال : « **فإنه أندى صوتا** » (١)

---

(١) هذه العبارة وردت ضمن حديث طويل رواه أبو داود فى سننه فى كتاب الصلاة — باب كيف الأذان ١٦٩/٢ والترمذى فى أبواب الصلاة — باب ما جاء فى بدء الأذان ، وقال : حديث حسن صحيح ٥٦٣/١ وابن ماجه فى كتاب الأذان — باب بدء الأذان ٢٣٢/١ وأحمد ٤٣/١ والدارمى فى كتاب الصلاة — باب فى بدء الأذان ٢٨٦/١ . والصحابى الذى هدى إلى ألفاظ الأذان هو عبد الله بن زيد بن عبد ربه بن ثعلبة الأنصارى الخزرجى أبو محمد المدنى صحابى مشهور مات سنة اثنتين وثلاثين وقيل استشهد بأحد .

والقرآن الكريم يقرؤه الكثيرون ، ولعل البعض أن يكون أندى صوتا من الآخر ، هذه مواهب ، ولعل البعض يكون بعمق إخلاصه ، وصدق أدائه ، وحلاوة ترتيله أسبق إلى القلوب ، فهو يملؤها خشوعا لله ، واستجابة لتوجيهاته ، وكما قيل : الخط الحسن يزيد الحق وضوحا ، والكتاب المطبوع طبعا حسنا يمكن أن يعرض فيه الحق عرضا مغريا بالقبول . هذا شيء نذكره بين يدى كلام عن أثر القرآن فى نفوس المستمعين

قرأت أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج يَعُسُّ (١) بالمدينة ذات ليلة ، فمر بدار رجل من المسلمين ، فوافقه قائما يصلى ، فوقف يستمع قراءته فقرأ ﴿ والطور ﴾ حتى بلغ ﴿ إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع ﴾ قال : قسم ــ ورب الكعبة ــ حق . فنزل عن حماره ــ هكذا يقول ابن أبى الدنيا ــ واستند إلى حائط ، فمكث مليا ثم رجع إلى منزله ، فمكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه (٢) .

هذا رجل رقيق القلب ، شديد الإحساس بخشية الله ، شديد التكبير لما يقع منه من أخطاء ، فهو يظن أن أخطاءه جبل إذا انهد على رأسه أودى به ، فهو لذلك هياب من الوعيد الإلهى .

هذا شيء ينبغى أن يذكره المسلمون عندما يستمعون إلى القرآن ، وتمر بهم آيات كثيرة فيها الوعيد الشديد ومع ذلك فكأن القلوب معلقة بالرصاص أو بالحديد لا يخشع أحد ، ولا يكترث أحد ، كأن القرآن يتلى بين من لا يعى !!

ندع سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وخشيته لله عز وجل التى جعلته يمرض عندما أحس كأن لفحاً من الوعيد الإلهى قد يصيبه مع أنه رجل من المبشرين بالجنة ، ندع هذا لنرى كلاما آخر فيه بشريات ، فالناس تحب البشريات أكثر مما تحب عناصر الرهبة والتخويف ..

---

(١) يعس بالمدينة : أى يطوف بالليل يحرس الناس ، ويكتشف أهل الريبة .

(٢) رواه ابن أبى الدنيا ، قاله ابن كثير فى تفسيره : ٧ /٤٠٦ .

يروى الحاكم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : إن فى سورة النساء لخمس آيات ما يسرنى أن لى بها الدنيا وما فيها . ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ و ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ و ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ و ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ﴾ و ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾ (١) .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ثمان آيات فى سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت :﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ ، ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ﴾ ، ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ ، ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ ، ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ ، ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ ، ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ﴾ ، ﴿ ما يفعل الله بعذابكم ﴾ (٢) .

وعندما كنت أخطب فى مسجد عمرو بن العاص كنت قد وصلت إلى هذه الآيات فيما أذكر ، وأظننى شرحتها أو أحصيتها ، فقلت : نعود الحديث فى نفحات الرحمة ، وبشريات الخير ، وآفاق الأمل التى نحتاج إليها ، لعلها تدفعنا إلى أن نقبل على ربنا ، وأن نطيع أوامره ونسير على صراطه المستقيم .

ونحن نشرح بإيجاز هذه الآيات دون ترتيب ، وإنما نريد أن نتبع المعنى ، ونريد أن نأخذ الثمرات ما اقترب منها لأيدينا .

آية ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ تجعلنا نصحح خطأ شائعا بين الناس وهو أن كل معصية هى دون الشرك .

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك ــ كتاب التفسير ٣٠٥/٢ . وقال : هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن سمع من أبيه ، فقد اختلف فى ذلك .

(٢) انظر القرطبى : الجامع لأحكام القرآن : ١٦١/٥ .

وهذا كلام يحتاج إلى تصحيح وتنقيح ، لماذا ؟

لأن هناك معاصي قد تكون مساوية للشرك تماما ، وقد تكون أشد منه

أولا : ما هو الشرك ؟

أن يؤمن بعض الناس بالله ، ويؤمنوا مع ذلك بآلهة أخرى يستشفع بها إليه ، يزعمونها أولادا ، يزعمونها آباءً ، يزعمونها ملائكة كجبريل ارتفعوا به — وهو روح القدس — إلى أن يكون إلها .

هذا شرك ، لكن ألا ترون أن هذه المعصية الكبيرة التي لا تغتفر هي دون الإلحاد في الألوهية ؟

واحد شيوعي ، أو واحد من المنتسبين إلى الحضارة المادية في الغرب يقول : لا إله ، هل هذا مشرك ؟ هذا ليس بمشرك ، هذا معطل ، هذا شر من المشرك ، ومعصيته وإن كانت شركا أو مساوية للشرك فلا غفران لها بتاتا .

هناك شيء آخر يساوي الشرك تماما وهو رفض مبدأ السمع والطاعة ، أو رفض مبدأ الخضوع لله ، إبليس كان يعرف أن الله موجود ، وكان يعرف أن الله واحد ، ولكنه — مقبوحا مطرودا — قال لله : لا أطيعك ، لا أسمع أمرك ، لا أنفذ لك طلبا ، فهو يعرف الله ، ويعرف أنه واحد ، ويكلم الله ، لكن أى كلام ؟ كلام من رفض مبدأ السمع والطاعة .

ديننا يسمى الإسلام ، ومعنى الإسلام : التسليم لله ، الاستسلام لتوجيهات الله ، ليس لى مقترحات أغير بها أمر الله أو نهيه ، معنى الإسلام : الاستسلام والخضوع ، فليست لى إرادة أمام إرادة الله ، وفى الحديث : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » (١) .

فمن رفض مبدأ السمع والطاعة فهو مساوٍ للمشركين تماما ، ولذلك قال علماؤنا — وصدقوا فيما قالوا — : إن من رفض واجبا ، أو استباح

---

(١) قال الألباني : إسناد ضعيف رجاله ثقات غير نعيم بن حماد : ضعيف لكثرة خطئه وقد اتهمه بعضهم انظر كتاب السنة لابن أبي عاصم : ١٢/١

محرما فإنه خرج بهذا عن مبدأ السمع والطاعة ، جحوده للواجبات ، واستباحته للمحرمات تجعله منسلخاً عن الإسلام .

فمن قال : إن عقوبة الزنا وحشية . أو إن عقوبة السرقة وحشية فهذا القائل انسلخ عن مبدأ السمع والطاعة ، وأصبح زميلا لإبليس فى رفضه لأوامر الله .

إذاً التدين الحق : إيمان بالله الواحد ، وإقامة العلاقة به على مبدأ السمع والطاعة

هنا شيء ، قد تقوم العلاقة على مبدأ السمع والطاعة ، ولكن ينهزم الإنسان أمام شهوة غالبة ، أو أمام عقبة طارئة ، أو تنزلق قدمه فى طريق لم يحسن السير فيها ، أو ما إلى ذلك من أنواع المخالفات .

ما دام مبدأ السمع والطاعة مقررا فى نفس المسلم فإن أخطاءه لا تخرجه عن دين الله ، ولنضرب لذلك مثلا ..

روى البخارى فى صحيحه عن عمر بن الخطاب أن رجلا على عهد النبى ﷺ كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارا ، وكان يضحك رسول الله ﷺ ، وكان النبى ﷺ قد جلده فى الشراب ، فأتى به يوما فأمر به فجلد ، فقال رجل من القوم : اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به ، فقال النبى ﷺ : **« لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله »** [1] .

أنا عندما قرأت الحديث ترددت فيه ، وبدأت أعلق البصر فى معناه ولا أدرى ، أسأل نفسى : كيف يحب الله ورسوله ثم يشرب الخمر ؟!

وبدأت أدرس ، وأتتبع التجارب ، وأذكر أحوال الناس قديما وحديثا ، ثم انتهيت إلى ما أذكره لكم ، وهو أن بعض الناس قد يتعطل من إرادته شيء خطير بسبب الإدمان ، يقول الطبيب لمن يشرب الدخان : ضررك وموتك فى هذا ، ومع ذلك يشرب ، وقد رأيت أحد الشيوخ

---

(١) أخرجه البخارى فى الحدود ــ باب ما يكره من لعن شارب الخمر وإنه ليس بخارج من الملة ١٩٧/٨ .

الكبار — وهو من بلدنا — أصيب بشلل ، فذهبت إليه ، وسمعته يرجو الطبيب — وقد حرم عليه التدخين تحريما باتا — أن يأذن له فى سيجارة أو فى سيجارتين ، والدكتور يأبى ، والشيخ يرجو ويتوسل ويلح !! فاستغربت ثم علمت أن الإدمان قد يعطل شيئا أو يصيب جانبا فى المخ بالشلل فما يحسن الإنسان التصرف !! .

وقلت يوما لرجل يسكر : لم لا تدع السكر ؟ فبكى وقال : ادع الله لى ! فأدركت أن الرجل مؤمن وأن مشيئته معطلة ، وتذكرت ما روى عن عيسى عليه السلام « .. **ولا تنظروا فى ذنوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا فى ذنوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية** » (١) .

وتذكرت أن رجلا (٢) فى جند سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه أخذ متهما بسكر — وله شعر يدل على أنه يعشق الخمر (٣) — وحبس فى بيت سعد ، فلما هاجت ريح الجهاد (٤) ، ودارت رحى المعركة ، كاد الرجل يجن فى سجنه ، وتوسل إلى امرأة سعد يقول لها (٥) : هل لك إلى خير ؟ قالت : وما ذاك ؟

قال : أن تخلين عنى وتعيريني البلقاء — وهى فرس سعد — فلله علىّ إن سلمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلى فى قيدى . فأبت ، فقال :

كفى حزناً أن ترتدى الخيل بالقنا * وأترك مشدوداً على وثاقيا
إذا قمت عنّانى الحديد وأغلقت * مصارع دونى قد تصم المناديا

فرقت له امرأة سعد وأطلقته وأعطته البلقاء فرس سعد فركبها وحمل على المشركين .

---

(١) رواه مالك فى الموطأ فى كتاب الكلام — باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله ٢/٩٨٦

(٢) هو أبو محجن الثقفى .

(٣) ذكره ابن الأثير فى الكامل : ٢/٣٣١ وهو :

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمة * تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى بالفلاة فإننى * أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

(٤) أى فى غزوة القادسية سنة أربع عشرة .

(٥) انظر نفس المصدر .

المهم فى هذا أن الرجل قال كلاما من أثر إدمانه لسكر ، وهو قد تاب ، وتاب الله عليه ، والآية تقول : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ [النساء : ٤٨]

لكن ما معنى كلمة « لمن يشاء » ؟ هل هى محاباة ؟

أولا : من حق رب العالمين أن يعطى دون أن يقف بشر ليقول له : لم ؟ هو الملك ، ما دخلك أنت ؟

لكن الحقيقة أن المقصود بكلمة « لمن يشاء » أنه عليم بالناس ، بطوايا صدورهم ، بخبايا قلوبهم ، عليم بالشخص الذى صدرت عنه المعصية ، هل كان مغلوبا على أمره ؟ هل كانت هناك ملابسات تخفف الحكم عليه ؟

الله هو العليم بالناس ، وهو الذى يدرى بدقة من هو أهل مغفرته ، ومن هو أهل طرده من رحمته ، وعلى هذا نفهم معنى الحديث القدسى : « **يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالى ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى ، يا ابن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة** » (١) .

هذا الحديث محكوم بأن هذا عبد يدعو ويرجو ويؤمن ويعرف ربه معرفة حسنة ، ولكن قد تقع منه أخطاء يسكب الدمع عليها ويتألم لانزلاقه إليها ، فهو مسلم ، ولاشك فى إسلامه .

إن الذى يجزم بطرده من رحمة الله هذا الذى يكفر بالله ، وينكر وجوده ، أو يشرك بالله ، أو يجحد معلوما من الدين بالضرورة ، أو يستبيح محرما رفض الإسلام أن يقع الناس فيه ، أو يسقط واجبات أمر الله العباد أن يؤدوها ، أو يرفض مبدأ السمع والطاعة .

---

(١) رواه الترمذى فى أبواب الدعوات ــ باب ما جاء فى فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده ــ وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه (تحفة الأحوذى ٥٢٥/٩) وأحمد فى المسند ١٦٧/٥ والدارمى فى الرقاق ــ باب إذا تقرب العبد إلى الله ٤١٤/٢ .

هذا أساس للآيات الخمس التي ذكرها عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، ثم تجيء الآيات الأخرى بعد ذلك مكملة للمعنى الذي درنا حوله الآن .

الآية الأولى من الآيات الخمس ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما** ﴾ [النساء : ٣١]

ما هي الكبيرة ؟ الكبيرة ما ورد في الإسلام مقرونا بلعن ، أو مقرونا بوعيد شديد ، أو مقرونا بعقاب فيه رهبة وفيه تخويف ، هذه هي الكبيرة .

والكبائر كثيرة ، فإذا يرى الإنسان من هذه الكبائر وابتعد عنها ، ثم وقعت منه صغائر — والصغائر كثيرة — فإن الله يغفر لعباده الصغائر فضلا منه ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما** ﴾ [النساء : ٣١]

وهذا يجعل أدب الإسلام يسيطر علينا عندما نرى بعض المخطئين ، فما يجوز أن نتهمهم بالفسوق والكفر لأنهم ارتكبوا أشياء هي صغائر ، وهذه الصغائر مغتفرة يوم يجتنبون الكبائر

والآية الأخرى : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما** ﴾ [النساء : ٤٠]

ما أظن أحدا يخاف من الله ظلما ، فإن الله عَدْل ، وإذا سألتني قلت : والله نحن نخاف من العدل ، لأننا إذا عوملنا بالعدل ما ننجو من العقاب ، ماذا لو قيل لك : أنت أطعمت ، وأنا أطعمت وسقيت وكسوت وآويت ؟

فبقدر ما كسوتك وآويتك وأطعمتك وسقيتك تذهب العبادات التي عملتني بها ، وتبقى عريان بعد ذلك تحتاج إلى الفضل الإلهي !!

إننا لو عوملنا بالعدل هلكنا ، لأننا في الحقيقة فقراء إلى فضل الله ، وإلى عفو الله ، وإلى رحمة الله ، وإلى مغفرة الله ، ممكن جدا أن نعامل بالعدل فتطيش كفتنا ويضيع عملنا ، فنحن من ناحية العدل موقنون بأن الله عدل ، ولكن الحاجة الملحة هي أن نكون أملا لفضل الله وعفوه ورحمته ، وهذا العفو ، وهذه الرحمة ما يلقاها متكبر .

وأنا أنبه المتدينين إلى أن يكونوا أصحاب قلوب رقيقة خصوصا مع من لا يزالون فى الظلمات ، فإن رسول الله ﷺ « **حدث أن رجلا قال : والله لا يغفر الله لفلان ، وإن الله تعالى قال : من ذا يتألى علىّ أن لا أغفر لفلان ، فإنى قد غفرت لفلان وأحبطت عملك** » (١) .

هذا مع أن بعض المتعبدين عنده قسوة غريبة ، أو يظن أنه ببعض العبادات — التى قام بها هو — قد ملك على الله خزائن الرحمة وأبواب الجنة !! وهذا خطأ فاحش ، وإلى هذا يشير ابن عطاء الله السكندرى فى حكمته : « معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا » .

الآية الأخرى : ﴿ **ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما** ﴾ [سورة النساء : ١١٠]

ليس فى الإسلام أكثر من أن الإنسان إذا اتسخ أن يغسل نفسه ، وقلب الإنسان كبدنه ، فكما أن البدن — على ظهر الأرض — يتعرض للغبار ولأتربة الجو ، وكما أن هناك أجهزة للعرق وللفضلات تجعل هذا الجسم محتاجاً باستمرار إلى التطهير والتنقية فكذلك القلب الإنسانى يحتاج باستمرار إلى التطهير .

وعندما تخطىء لا تذهب إلى بشر لتقول له : أنا أخطأت فاغفر لى — كما يوجد فى بعض الديانات — لا ، أنت أخطأت أنت الذى ترجع إلى ربك وتصطلح على سيدك ، وتستأنف حياة أنقى وأرق .

الآية الخامسة : ﴿ **ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما** ﴾ [النساء : ٦٤]

هذه الآية كشفت عن مكانة النبى ﷺ وأن استغفاره للمخطئين باب عظيم إلى التوبة عليهم ورضوان الله الذى ينتظر لهم ، كان المنافقون — كما

---

(١) رواه مسلم فى البر والصلة والآداب — باب النهى عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى ٣٦/٨ .

قال الله — : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ [المنافقون : ٥ — ٦] .

لكن المفروض أن المؤمن يجيء إلى الله وإلى الرسول عليه الصلاة والسلام — وكان ذلك فى حياته ﷺ — فيسأل ربه الرضا ، ويطلب من نبيه ﷺ أن يغفر الله له .

وقد كان النبى عليه الصلاة والسلام يدعو لأهل الطاعات ، فإذا جاءه رجل بزكاة دعا له تنفيذاً لأمر الله : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

كلمة « وصل عليهم » أى ادع لهم ، فعن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنهما قال : « كان النبى ﷺ إذا أتاه رجل بصدقة قال : اللهم صل على آل فلان ، فأتاه أبى فقال : اللهم صل على آل أبى أوفى » (١) . ومعنى الصلاة : المغفرة والبركة والثناء ورفعة الدرجة .

هذه هى الآيات الخمس التى اتفق ابن مسعود رضى الله عنه مع ابن عباس رضى الله عنهما على أنها من مفاتيح الرجاء ومن أبواب الرحمة ، وزاد ابن عباس رضى الله عنهما ثلاث آيات متتابعات هى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ [النساء : ٢٦] .

القرآن الكريم نزل ليجعل الأمة الإسلامية امتدادا للنبوات القديمة — لنوح وموسى وعيسى — فى العقائد وأصول الإيمان ومكارم الأخلاق ، أما الفروع الفقهية ، والشرائع العملية فقد قال الله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ [المائدة : ٤٨] .

---

(١) رواه البخارى فى الدعوات — باب قول الله تعالى وصل عليهم ٨/٩٠ ومسلم فى الزكاة — باب الدعاء لمن أتى بصدقته ٣/١٢١ .

قد تختلف الأديان من ناحية الفروع ، أما الأديان من ناحية الأصول فهى متفقة ، فأتبـاع موسى غير يهود العصر الحاضر ، وأتباع عيسى غير نصارى العصر الحاضر ، يهود ونصارى العصر الحاضر صلتهم بموسى وعيسى صفر ، أما نحن فأتباع موسى وعيسى ومحمد عليهم جميعا الصلاة والسلام .

والآية الثانية : ﴿ **والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما** ﴾ [النساء : ١٧] .

الله جل جلاله فى دينه ومراده من خلقه وهديه وأمره ونهيه إنما يريد أن يرفع مستوانا ، وأن يزكى سرائرنا ، وأن يبيض صحائفنا ، أما غيره فيريد أن يزيغ بنا ، وأن نعوج عن الحق ، وأن نلوث بالأقذاء بواطننا ، وأن يبعدنا عن ربنا وولى نعمتنا .

الآية الثالثة : ﴿ **يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا** ﴾ [النساء : ٢٨] .

رعاية للضعف البشرى ، رعاية لأننا خلقنا من طينة هذه الأرض ، رعاية لما يغلب غرائزنا من نزوات السوء ، رعاية لذلك كله عاملنا رب العالمين بهذه السماحة ، يضاعف الحسنات ، ويغفر السيئات ، ويغفر ما دون الشرك ، ويفعل الكثير رحمة منه بعباده : ﴿ **ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم** ﴾ [غافر : ٧] .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله موفق العاملين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى المؤمنين ، وأشهد أن محمدا رسول الله سيد الأنبياء والمرسلين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

عباد الله أوصيكم ونفسى بتقوى الله عز وجل .

أيها الإخوة : نريد وقد تحدثنا عن الذنب ومغفرته ، والعصيان والتوبة منه ، نريد أن يعرف المسلمون شيئا عن طبيعة الطاعة وطبيعة المعصية فى ديننا كما فسر ذلك المشتغلون بالتربية .

لماذا أشرح هذا ؟

لأن المخادعة بالدين أو بأداء الشعائر الشكلية أصبح شيئا فى أخلاق المسلمين الآن ، لنضرب مثلا :

الشح رذيلة ، البخل معصية ، وفى الحديث : « **اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملوا على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم** » (١) .

وهل انتشرت الشيوعية وانتشر ضلال كثير فى الأرض إلا لأن المبتلين بالفقر لم يجدوا عونا مسعفا من المبتلين بالغنى ، لم يجدوا معاملة عادلة إن عملوا ولا إعانة سخية إن تعطلوا .

البخل رذيلة ، فكيف نتخلى عن هذه الرذيلة ؟

---

(١) رواه مسلم فى البر والصلة والآداب ــ باب تحريم الظلم ١٨/٨ .

بالكرم ، لا توبة منها إلا بالكرم ، كيف ؟ بتدريب النفس على العطاء ، لأن الرسول ﷺ قال « **إنما العلم بالتعلم ، وإنما الحلم بالتحلم ..** » (١)

تكلف العطاء تكن يوماً ما كريما ، قاوم شح نفسك تكن يوماً ما كريما ، فإذا حدث أن رجلا قال . الشح رذيلة والبخل معصية ، والعلاج أن أصوم غداً وبعد غد وأصوم ثلاثة أيام من كل شهر .

لا يصلح هذا ، فإن هذا تغطية للمرض وليس إزالة للمرض ، الكبر مرض والعناد مرض ، كيف يزولان ؟ أن تكون سمحا ، وأن ترفض العناد ، وأن ترهد في الجدل ، لكن إذا بقيت عنيدا ومجادلا فهل يغني عنك أنك تصلى كثيرا أو تصوم كثيرا ؟ لا ، المرض كما هو ، كل ما حدث أن الوساحة النفسية غطيت ببعض الأوراق حتى لا تراها العين ، ولكن الذى يعلم السر وأخفى يعرف نفسك .

من هنا يجب أن نتعلم كيف نربى أنفسنا ، وكيف نبتعد عن كثير من الخطايا والهنات التى لا تليق بالمؤمنين ، والتى لا يغطيها — عند الله — أن تكثر الصلاة أو تكثر الصيام ، إنما تقبل الصلاة يوم تكون ممحاة (٢) ، تمحو سوء القول وسوء العمل ، وفحش القول وفحش العمل ، وردىء الخلق وردىء السلوك ، عندئذ تكون الصلاة تطهيراً ومغفرة ، أما انحناء الجسد وقيامه فإن هذا ما يصنع شيئا لتطهير الإنسان .

نحن نريد أن نعرض الإسلام بأخلاقنا وأحوالنا عرضا حسنا ، لأن التدين الشكلى أساء إلى ديننا وأساء إلى سمعتنا ، إن أسلافنا أتقنوا لغة لم يعرفوا غيرها : الخلق !! الخلق لغة عملية ، اتقنوا هذه اللغة فانفتحت لهم البلاد ودان لهم الناس ، صاحب الخلق يملك الكثير ، لكن يوم يتحول الدين إلى شكليات فإن أصحابه لن ينالوا شيئا به ، ولن يكسبوا خيرا من ورائه ، ولن يسلوا إليه يدا حسنة فى شرح الصدور به ودك حصون الضلال باسمه .

---

(١) تتمة الحديث « .. ومن يتحر الخير يعطه ، ومن يتق الشر يوقه » رواه الدارقطني في الأفراد والخطيب البغدادى فى التاريخ وإسناده ضعيف كما فى الجامع الصغير للسيوطي (فيض القدير ٢٥٦٩) وهو فى صحيح الجامع الصغير (٢٣٢٨) حسن .

(٢) الممحاة خرقة يزال بها الوسخ ، وقطعة من القماط أو نحوه يستعمل لمحو الخط

نريد أن نعرف ديننا معرفة صالحة ، وأن تكون أخلاقنا وأعمالنا شرحا عمليا صالحا لهذا الدين الذى شرفنا الله به .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » [1] .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله : **﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾** [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة



(١) رواه مسلم فى الذكر ــ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨

نَظَرات في سُورَة النِسَاء (١)

العناصر الخمسة التى
تتكون منها سورة النساء

خطبة الجمعة

بجامع عمرو بن العاص
١٩٧٤/٣/١٥ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعــد :

فإننا نقف اليوم وقفة استهداء وتدبر أمام سورة النساء ، وسورة النساء سورة مدنية ، وهى السورة الثالثة فى المصحف الشريف . وعلى عادتنا فى التفسير الموضوعى نحاول أن نلتقط صورة سريعة لهذه السورة المباركة ، ونحاول أن نجمع ملامحها ونُقَرِّب معانيها فى هذه اللحظات القصار التى تؤدى فيها الخطبة .

بدأت السورة بقول الله جل شأنه ــ ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم : يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالًا كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾ [النساء : ١] تفيد هذه الآية أن الازدواج طبيعة الأحياء ، ففى عالم النبات يوجد الذكر والأنثى ، وفى عالم الحيوان يوجد الذكر والأنثى ، بل إن القرآن الكريم وجه النظر إلى أن المادة نفسها تقوم على الازدواج ، قال تعالى : ﴿ **ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** ﴾ [الذاريات : ٤٩] وظاهر من هذا الازدواج أن بقاء الإنسانية والحيوانية وامتداد العمران بهذا التكامل بين الذكورة والأنوثة ، كأن الأجناس المختلفة ما تمتد جيلًا بعد جيل إلا عن هذا الطريق ــ طريق التلاقى والازدواج : ﴿ **سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾ [يس : ٣٦] .

ولا يبقى متفرداً بوجوده، غير محتاج إلى آخر ــ لأن ذاته تفردت بوجود أرق من كل ما نفكر فيه ــ إلا الله جلَّ شأنه الذى ﴿ **لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ [الإخلاص : ٣ ، ٤] .

أما بقية الخلائق فإنها تقوم على هذا الازدواج ، فإن الإنسان يألف جنسه ، ويعيش معه ، وعن هذه المعايشة بين جنسين أو بين فردين من جنس واحد يتم امتداد الوجود .

والنظرة العامة لهذه السورة تجعلنا نلتقط عدة معان شاملة ، يمكن أن نقول : إن الصفحات الخمس أو الست الأولى فى هذه السورة تتحدث حميماً عن قضايا الأسرة .

ثم بعد حديث عن العقيدة والأخلاق ، وبعد تنبيه إلى ضرورة تخليص النفس من الغش والرياء يبدأ فى السورة حديث آخر عن أهل الكتاب ، يبدأ هذا الحديث من قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل . والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً** ﴾ [النساء : ٤٤ ، ٤٥] وأهل الكتاب الذين تحدثت عنهم هذه السورة : يهود ونصارى ، ولكلا الجنسين خصائص برزت عندما تحدث القرآن عن كلا الفريقين على حِدَة .

ثم نجد حديثاً – بعد ذلك – عن المنافقين ، وحديثاً آخر عن ضعاف الإيمان ..

وما الذى يبرز النفاق ويكشف خبايا المخادعين ؟ .

وما الذى يَعْجِم[1] أعواد المؤمنين ويبين الصُّلب منها والهَشّ ؟ .

أمران : الجهاد فى سبيل الله ، والحكم بما أنزل الله .

وقد دارت السورة بعد ذلك على هذين الأمرين اللذين يكشفان نفاق المنافقين وضعف الضعفاء .

هذه سورة النساء بإجمال ..

يمكن أن نُجمل العناصر التى تكونت منها سورة النساء فى هذه العناصر الخمسة :

١ – حديث عن الأسرة وقضاياها ، أخذ الجزء الأول من السورة فى نحو ست صفحات .

٢ – حديث عن أهل الكتاب من يهود ونصارى ، أخذ ما يلى الحديث عن الأسرة ، وخُتمت به السورة فى حديث عن النصرانية ومزاعمها .

٣ – حديث عن المنافقين وعن ضعفاء الإيمان

٤ – حديث عن الجهاد فى سبيل الله .

٥ – حديث عن الحكم بما أنزل الله .

قلنا : إن الفائدة من الدراسة الموضوعية لسور القرآن الكريم أنها تعطيك فكرة عَجْلى عن السورة بحيث إذا رجعت إلى نفسك وأخذت تتلو كتاب ربك وتتدبر ما أودع الله فيه من هدايات تعرف أين تسير وما الذى يواجهك ، فإن من العجز الذى وقع فيه بعض المفسرين والقراء أنهم ظنوا

---

(١) عَجَمَ الشيء عَجْما وعُجوما : عَضّه ليعلم صلابته من رخاوته . ويقال : عجم فلاناً ، وعجم عوده : امتحنه واختبره .

آيات القرآن الكريم رُكم بعضها فوق البعض الآخر دون رباط واضح ودون خُطة بينة !! .

وهذا من العجز فى تدبر القرآن والقصور فى إدراك معانيه ومعاريه .

إننا بحاجة إلى تدبر سورة النساء خصوصاً هذه الأيام لم ؟ لأن أوائل السورة تحدثت عن قوانين الأسرة وقضاياها وعلاقة المرأة بالرجل .

وظاهرٌ أن الإسلام يرفض الرهبانية ، ظاهر أن الإسلام لا يرى أن الغريزة الحسية رجس من عمل الشيطان ـــ كما تحدثت بعض الديانات !!

الإسلام يرى ـــ وهو دين الفطرة ـــ أن الزواج عبادة ، وأن علاقة الرجل بامرأته علاقة طبيعية ينبغى أن تُصان فى إطار من تعاليم الشريعة ونطاق من حدود الله .

تصوُّر بعض الناس أن الغريزة الجنسية يجب أن تُكبح إلى الأبد وأن تقهر داخل تعتيمات مشددة من رهبانية قاسية ، هذا التصور ينكره الإسلام ، والأساس فى هذا أن طبيعة الفضيلة العموم والنفع .

بمعنى أنك تقول : الصدق فضيلة ، فإذا عمَّ الصدق ارتقى الناس وانتفعوا .

الأمانة فضيلة ، فإذا عمَّت الأمانة ارتقى الناس وانتفعوا .. فإذا قلت مع المعاصرين : الرهبانية فضيلة ، فإذا عمَّت الرهبانية باد الجنس البشرى وتلاشى .

فلا فضيلة إذن فى هذه الرهبانية لأن نهايتها أن تقهر البشر فى حرب لا معنى لها .

إنما قام الإسلام على عمل جميل وهو ضبط الغرائز البشرية ، وضبط الغرائز البشرية مسألة معقولة ومعروفة ، فإن الماء يروى الظمآن ويحفظ الحياة ، وهو بالنسبة إلى الأرض يروى الأرض ويُحيل جَدْبها خصباً .

لكن متى يكون الماء كذلك ؟ .

يوم يؤخذ بقدر وتُوضع له أنظمة ..

الغرائز الحسية كذلك ، إذا أطلقت فى فيضان مدمر قتلت البشر ، أما إذا وُضع لها نظام مضبوط معقول كانت مصدر حياة للناس ، وقد نظم الإسلام الغريزة الحسية فلم يطلقها ليتحول البشر إلى حيوانات ، ولم يُقيدها التقييد الذى يبيد البشرية أو يجعل انسياق الحسى علامة فيها والشذوذ المستقبح شارة لها ، بل أباح الزواج ورحّب به ، وهشّ له ، وأعان عليه بكل جهده .

وكما أباح الإسلام الزواج أباح التعدد لِمَ ؟.

لأنه يرى أن الفائض السائق بين المجتمعات كلها لا يعالج إلا بهذا الأسلوب .

يعنى إذا وجد نسوة زائدات مستعدات للزواج وكان عدد الرجال المستعدين للزواج أقل فما الحل ؟ .

الناس هنا بين أمرين . إما أن يفرضوا رهبانية على المرأة الزائدة فلا تتصل برجل أبداً ، وإما أن تتصل بالرجال عن طريق الزنا والبغاء .

وإما أن تشرك امرأة أخرى فى رجل تنتسب إليه وينفق عليها ويكون أولادها منه حاملين لاسمه .

أى الحلول أشرف للمرأة ؟ .

أن تكون محبوسة إلى الأبد فى سجن الرهبانية ، أو مطلقةَ العنان فى ميدان البغاء والحيوانية أم تكون شريكة لامرأة أخرى فى رجل يرعاها ويوفر لها حياة الشرف والاستقامة ؟! .

إن الإسلام لما أباح التعدد كان منطقياً فى هذه الإباحة ، ثم هو قبل ذلك وبعده ما أباحه إلا لمن يقدر على تبعاته ويستطيع العدالة فيمن جمع بينهن فى بيته .

قضايا الأسرة تحتاج إلى كلام طويل نرجئه إلى حديث آخر لأنى أريد أن ألقى نظرة شاملة عاجلة على عناصر السورة الأخرى .

لقد تحدثت السورة عن أهل الكتاب من يهود ونصارى ، بدأ حديثها عن اليهود بقول الله جل شأنه : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من

الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ﴾ [النساء ٤٤]
وقول الله بعد ذلك : **﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم .. ﴾** [النساء ٤٩] وقول لله : **﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلًا ﴾** [النساء . ٥١] هذا الكلام عن اليهود لابد أن نلحظ فيه أن الإسلام يعتبر الضمير اليهودى ضميراً ملوثاً ، وأنه يعصى الله عن إدراك لمعصيته ، وأنه يعرف الحق ويحيد عنه !! وذلك بعكس كثير من النصارى فهم ـــ إن صحّ التعبير ـــ مخلصون فى ضلالهم !! .

تعبير مستغرب ، ولكن أحياناً يخطىء الإنسان ، ويوغل فى الخطأ ، ويتحمس لخطئه أو خطيئته وهو مغْلَقُ الذهن ، حائر الفكر ، مُشتت الخُطى لا يعرف له هدفاً سليماً ولا غاية صائبة ، وقد يكون هذا الحائر الذى فقد الاستقامة فى مسلكه وفكره قد يكون خطراً جداً على الحقيقة وعلى الإيمان لأن كثيراً من الناس فى هذا المضمار ينطبق عليهم قوله تعالى : **﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾** [فاطر ٨] وقوله تعالى : **﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالًا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾** [الكهف ١٠٣ ، ١٠٤] اليهود مغضوب عليهم . لماذا ؟ .

لأن شراسة طباعهم ، وقساوة قلوبهم ، وسماجة أعمالهم ، والكبر الذى يَصبغ سيرتهم وحياتهم يجعلهم جُرآء على الله ويجعل ما يصدر عنهم من آثام ظاهر الشر بادى القبح ، فهم مثلًا ـــ كما تروى سورة النساء ـــ يُسئلون من قريش ـــ وقريش وثنية ـــ أنتم أهل كتاب خبراء بالوحى تدركون طبيعة المنتسبين إلى السماء وإلى الكتب السماوية دُلُونا : أنحن على الحق أم محمد ؟ فيكون جوابهم اليهود : أنتم على الحق !! عجباً !! .

إذا كنتم أهل كتاب سماوى تؤمنون بالله وبموسى نبيه وبما أرسل بعد موسى من أنبياء فإن الله الواحد لا يجوز بتّةً أن يكون له شريك ، وأن تكون هذه الأصنام التى لا تضر ولا تنفع والتى عكف عليها القرشيون آلهة مع الله أو وسائط وشفعاء إليه .

يذكر القرآن الكريم الشهادة المزورة التي أعطاها ليهود إخوانهم عبدة الأصنام في قوله جلّ شأنه : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلًا ۝ أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً** ﴾ [النساء : ٥١ ، ٥٢] ومن علامات التعمق في الضلال أن هؤلاء يتمنون للمسلمين أن يتركوا كتابهم ونبيهم وألا يعرفوا ربهم وألا يشرحوا الوحدانية على النحو النضير الجليل الذى ذكره القرآن الكريم !! .

بينما نجد أن النصارى في تأليههم للمسيح وزعمهم أنه إله أو جزء إله أو شبه إله أو ابن إله أو ما إلى ذلك مما عاشوا به وبشروه وتعصبوا له نجد أن القرآن الكريم يتناول هؤلاء ليشرح لهم الحقيقة مبيناً أنهم أهل غلو وأنهم ضلوا السبيل : ﴿ **يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له مافى السموات ومافى الأرض وكفى بالله وكيلًا** ﴾ [النساء : ١٧١] .

ثم هل يوجد في أهل السموات وأهل الأرض من يشعر بغضاضة حين يسجد لله ؟

كلا ، فإن البشر والملائكة وكل حى له عقل يكون في أشرف أحواله وأزكى أوصافه وأطيب أوقاته عندما يحنى صلبه راكعاً أو ساجداً ليقول لربه في خشوع وإجلال وإعزاز : سبحان ربى الأعلى !! وهذا معنى الآية الشريفة : ﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً** ﴾ [النساء : ١٧٢] .

إن شرف العباد في عبوديتهم لله ، ما من نبى ولا ولى ولا ملك ولا بشر إلا وعظمته في أن يحنى رأسه ، وأن يتجه بقلبه ، وأن يُسلم لله وجهه ، وأن يقول في أدب وتواضع لله جل شأنه : أنا عبدك وأنت ربى !! .

هذه حقيقة ، وكان النبى ﷺ يؤكد هذه الحقيقة بقوله : « **اللهم**

إلى عبدك بن عبدك بن أمتك ناصيتي بيدك ماض فيَّ حكمك عدل فيَّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سمَّيت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي »[1] هذه هي العبودية . من عيسى ؟ ومن غيره ؟ .

عباد لله لا يزيدون ولا ينقصون !! .

هكذا تناولت سورة النساء اليهود والنصارى ، وسنفصل ذلك في وقت آخر إن شاء الله .

بين تناول السورة للفريقين بعدها تناولت صنفين من الناس : الصنف الأول : منافق ، والصنف الثاني : ضعيف الإيمان .

ما الذي كشف الصنفين معاً ؟ .

كشفهما فرض الجهاد ، وتحكيم الله جل جلاله في قضايا الناس أصحاب القلوب المريضة يكرهون الحكم بما أنزل الله ، وما أكثر هؤلاء الآن . سنتحدث في خطبة أخرى إن شاء الله عن ناس يستميتون الآن كي يُحرِّموا الحلال وهو زواج الرجل بامرأة ثانية بينما هم خُرس — سكتوا سكوت القبر — عن اتصال الرجل بامرأة أخرى دون حرج !! .

لقد قرأنا في الصحف منذ أيام كيف أن فتاة حمقاء ركبَت سيارة مع رجل — مع ذئب ، هو لا يستحق أن يوصف بأنه رجل — فلما انتهك عِرضها وداس شرفها وذهبت إلى القضاء قيل لها : لقد ذهبت باختيارك ، لا دخل للقانون في أمرك !! .

لا يستطيع القانون أن يصنع شيئاً ، فإن القانون يبيح الزنا بالتراضي !! .

---

(1) رواه أحمد ۳۹۱/۱ ، ٤٥٢ وقال في مجمع الزوائد (۱۳٦/۱۰ ، ۱۸٦) : رواه أحمد وأبو يعلى والبزار إلا أنه قال وذهاب غمي مكان همي والطبراني ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان

أنا أعجب ولا ينقضى عجبى ، أين المتحدثات عن قضايا المرأة يقلن : هذا لا يجوز ، غيروا هذا القانون واقطعوا الطريق على هؤلاء الذئاب أو الكلاب ؟ سُكوت ، سكتن سكوت القبر !! أما النطق ، أما الهيجان ، أما الأصوات العاجزة فضد قانون الأسرة وحده !! ستتحدث إن شاء الله عن ذلك .

المهم أن الحكم بما أنزل الله كشف المنافقين ، قال جل شأنه : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً * وإذا قيل لهم تعالو إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً** ﴾ [النساء : ٦٠ ، ٦١] .

هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا رفضوا أن يُحكم الله فيهم ورسوله ، فكان الرد عليهم : هذا كفر ، ما دمتم تريدون أن تتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمرتم أن تكفروا به فلا بد أنكم كفرتم بالله ، وتمضى السورة تشرح هذا الكفر : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾ [النساء : ٦٥]

الكلام عن هؤلاء المنافقين يطول .

نجىء — على عجل — إلى كلام السورة عن ضعفاء الإيمان ، ويبدأ هذا الكلام فيذكر هؤلاء الضعاف بأمرين :

الأمر الأول : حرصهم على الحياة ، خوفهم من الموت ، رغبتهم فى المتع ، زهدهم فى وعد الله الذى وصف فيه الدار الآخرة .

هذا المعنى تناولته السورة من أول قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا** ﴾ [النساء : ٧٧] .

بيَّن القرآن الكريم هنا أن ناساً من المسلمين أدوا الواجبات الأخرى لأنها سهلة الأداء فلما كُلِّفوا بالقتال فى سبيل الله خشُوا على حياتهم ،

وأحبوا أن يبقوا على ظهر الأرض أطول عمر ممكن . فكان جواب القرآن لهم : إن الأجل ليس وفق رغبة الإنسان ولا هو بتعرضه للأخطار أو ابتعاده عنها ، الآجال عند الله ، لا سلطان لبشر عليها ، وكما قال شوقي .

وقد ذهب الممتلي صحة * وصحَّ السقيم فلم يذهبِ[1]

وقال ابن الرومي :

أعمارنا جاءت كآى كتابنا * منها طِوال فُصلت وقِصار

هذه مسألة إلهية ، وعندما يجيء الموت فلا يصده حصن : ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا** ﴾ [النساء : ٧٨] أغلب الناس يتصور أن الحسنة والسيئة تعنى الطاعة والمعصية ، وهذا غلط ، فإن الذين يقولون للرسول ﷺ هذا الكلام لا يقصدون إطلاقاً أن الحسنة الطاعة والسيئة المعصية ، إنما يقصدون ــ وهذا تعبير القرآن فى أغلب الآيات ــ بالحسنة الحال الحسنة من رخاء ومن أفراح ، ويقصدون بالسيئة الحال السيئة من أزمات ، ومن قحط ، ومن ضيق .

تأمل قول الله تعالى : ﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون * فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ [الأعراف : ١٣٠ ، ١٣١] .

فالحسنة : الحال الحسنة من ربيع خصب وأيام رخيَّة .

والسيئة : الحال السيئة من أزمات وقحط .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى فى نفس السورة : ﴿ **وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون * ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مسَّ آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون** ﴾ [الأعراف : ٩٤ ، ٩٥] .

---

(١) الشوقيات : ١٤٨/٢ .

هذا معنى الحسنة والسيئة في الآيات هنا .

فهؤلاء الذين ضعف إيمانهم كانوا يفرون من التكاليف الشاقة خوفاً على حياتهم .

الأمر الثانى : أنهم ناس فوضويون ، خِفافٌ طائشون .

وهذا عيب لا أزال أراه فى الأمة الإسلامية ، خصوصاً بعدما ضعف إيمانها وقلّ يقينها ، وشاع الاضطراب فى أمورها ، يقول الله فى وصف هؤلاء الضعاف من المؤمنين : **﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾** [النساء : ٨٣] .

والمعنى : أن هؤلاء يطيرون وراء كل رأى ، فى أيام السلام ، أو فى أيام القتال يستخفهم أى كلام يشاع فيجرون وراءه ولوكانوا أهل عقل وتثبت لكان رؤساء من أهل العلم يسألونهم ويستفتونهم ثم ينزلون على رأيهم وعلى حكمهم .

والذى لاحظته فى الأمة الإسلامية ــ وأنا آسف ــ أن هذه الأمة منذ فقدت الخلافة الصحيحة فقدت الوالد الحانى ، والأب العطوف ، والأستاذ المعلم ، والمربى الصادق ، فكانت النتيجة أن أصحاب الديانات الأخرى يرجعون إلى حكمائهم كاليهود لهم حكماء صهيون تجد التاجر اليهودى أو المهندس اليهودى يترك الأمر للحكماء ، فهؤلاء يرسمون الخطة وعلى الشعب أن يتبع ، وكذلك يفعل النصارى .

أما الأمة الإسلامية فإن أئمتها وعقلاءها إما أضاعتهم الأيام بإضاعة الخلافة الراشدة ، وإما سقط لواؤهم فى المجتمع لشيوع الفسق والخيانة وضياع الدين فأصبح أمر الناس بأيدى من لا ينصح ولا يعقل ، والأمة أحوج ما تكون فى سلمها وحربها إلى أن تسأل أولى الذكر كما قال تعالى : **﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾** [الأنبياء : ٧] .

ما أحوج أمتنا إلى أهل الذكر يقودونها فى سلمها وفى حربها . خمسة عناصر تلمحها ــ على عجل ــ فى سورة النساء :

١ ــ قضايا الأسرة أولًا .

٢ ــ ثم كلام عن أهل الكتاب بشقيهم (اليهود والنصارى) شاع في أول السورة وآخرها .

٣ ــ ثم كلام عن المنافقين وعن ضعفاء الإيمان ، وسبب الكلام عنهم : الحكم بما أنزل الله[1] ، والقتال في سبيل الله[2] وهما قوام السورة بعد ذلك .

هذه نظرة عَجْلى إلى سورة النساء ، أوصي بعد ذلك من يقرأون السورة أن يقرأوها وهم يدركون كيف يتنقلون بين جنباتها ، ويغفر الله لنا ولكم .

* * *

---

(١) هذا هو العنصر الرابع

(٢) هذا هو العنصر الخامس

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون * ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فأوصيكم ونفسى بتقوى الله عز وجل .

أيها المسلمون :

أمتنا بحاجة إلى نهضة نسائية رشيدة . لم ؟ لأن هناك بعض المتدينين لا يعقلون قضايا المرأة ويشطرون فيها بحماقة وقلة فقه ، ولو وُكّل الأمر إليهم لحبسوا النساء فى البيوت فلا عبادة ولا علم ولا عقل ولا فكر ولا نشاط ولا شيء !! .

هذا النوع من المتدينين الجهلة ينبغى أن يُحرم من الكلام باسم الله !! .

النهضة النسائية الرشيدة تحتاج إلى أن يُطرد نوع آخر من المتحدثين فى قضايا المرأة وهم عبيد أوربا الذين يريدون إشاعة الخنا فى بلادنا ، والذين لا يعنيهم أمر العفة ولا أمر الأسرة ولا يبالون أن ينْقلوا ما هنالك بعمى غريب !! ومع أن الأسر فى أوربا أسر على ورق ، ومع أن الغرائز الجنسية جعلت الأعراض كلأ مباحاً ، مع هذا كله فإن من أعمى الله بصائرهم وأبصارهم من النساء والرجال يريدون نقل هذه الحضارة إلى بلادنا !! .

لا أريد لا تدين الحمقى الذين لا فقه لهم ، ولا انحلال الكذبة الذين لا شرف لهم ولا عرض !! .

قضيةُ المرأة تحتاج إلى نهضة نسائية راشدة وأقول : أنا أعرف نساء فى السلك الجامعى ـــ أساتذة ـــ يُشْرِفن الآن على بيوت الطالبات وعلى أعمال نسائية جليلة فى خدمة المرأة ، وعندما أُرسلن إلى مؤتمرات كتبن تقارير تبكى دماً على حالة الإسلام فى البلاد التى ذهبن إليها .. وأعرف نساء فى وزارة التربية والتعليم كن يدعوننى إلى خطبة الجمعة فى المدرسة بأولياء الطالبات مع الطالبات أنفسهن .. هؤلاء كن نُظَّار مدارس ولهن نشاط دينى بارز ، وعطف على تعاليم الإسلام وانعطاف إليها واضح

وأعرف أديبات مسلمات يكتبن كتباً رقيقة فى خدمة الدين ورفض التبرج ولهن أقلام رائعة .. أسأل نفسى وأسأل هذه الأمة لم لا يقود هؤلاء النسوة الحركة النسائية فى بلادنا ؟! .

أنا أريد أن تقود النسوة امرأة تصلى وتزكى وتصوم وتحج البيت ، أما أن يتصدر قياد النسوة فريق من العجزة يقلن فى بجاحة : إن مصر منفتحة مع الأمزجة ـــ دفاعاً عن شارع الهرم ومباذله ومخازيه ومعاصيه ، فهذا كلام غريب .

نحن بحاجة إلى نهضة نسائية رشيدة ، لكن من يقود هذه النهضة ؟ اللائى كتبن ضد الاحتشام وافترين الكذب على الطالبات العفيفات ؟ هؤلاء يجب طردهن فوراً من ميدان النهضة النسائية ، نريد تسليم النهضة النسائية إلى نساء عفيفات عاقلات محصنات آمرات بالمعروف ناهيات عن المنكر حافظات لحدود الله .

إننا نعلم أن الإسلام صان المرأة وكفل لها حقوقاً عظيمة وجعل إنسانيتها فوق الظنون .

يوم كانت مؤتمرات تنعقد فى أوربا تسأل : هل للمرأة روح أم ليس لها روح ؟ وإذا كان لها روح فهل هى روح إنسانية أم حيوانية ؟ يوم وقع هذا فى أوربا كان الفقهاء فى الأمة الإسلامية يقولون : إن المرأة فى بيت زوجها

يبغى أن يوفر لها الزوج من يخدمها[1] !! .

هذا الكلام العجيب يطوى كله ويُردم كله ويجىء بعض النسوة الجاهلات المتبجحات يردن أن يطرحن الإسلام ظهرياً وأن يقدن حركة نسائية لا تعرفها أمسا .

إنى أقول . إذا بقى زمام النهضة النسائية فى أيدى نسوة يحاربن العصبية وقوانين الله ويسكتن على قوانين الزنا وقوانين العُهر فإن هذه النهضة لن يبارك لها فى خطوة وسنكون لها بالمرصاد .

لقد انتهى إلى الأبد العهد الذى كان يُفرض علينا فيه من يتحدث باسمنا ونحن نرفضه ، وانتهى إلى الأبد أيضاً العهد الذى يتصدر النسوة فيه من يريد أن يتحدث باسمهن وهن لا يعرفنه .

نحن أمة مؤمنة ، الرجال مؤمنون ، والنساء مؤمنات ، فإذا كان هناك رجل لا دين له أو امرأة لا دين لها فلتتحدث بأى اسم إلا اسم هذه الأمة .

إن أمتنا تريد أن ترتبط بدينها وكتابها ، وهى تأخذ دينها لا من المتبجحات الكاذبات على الله وعلى الناس ولكنها تأخذ دينها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

قلت — ولا أزال أقول — فى الميدان النسائى الآن نسوة أساتذة فى الجامعات وفى وزارة التربية والتعليم وغيرها . ويوجد علماء لهم القول فى صياغة القوانين ، ويوجد بعد ذلك خبراء بالمجتمع الأوربى وما فى المجتمع الأوربى من فسق وانحلال .

---

(١) قال فى بداية المجتهد (٢/٥٤) : هل يجب على الزوج نفقة خادم الزوجة ؟ وإن وجبت فكم يجب ؟ والجمهور على أن على الزوج النفقة لخادم الزوجة إذا كانت ممن لا تخدم نفسها ، وقيل بل على الزوجة خدمة البيت ، واختلف الذين أوجبوا النفقة على خادم الزوجة على كم تجب نفقته ؟ فقالت طائفة يجب على خادم واحدة ، وقيل على خادمين إذا كانت المرأة ممن لا يخدمها إلا خادمان وبه قال مالك وأبو ثور . ولست أعرف دليلاً شرعياً لإيجاب النفقة على الخادم إلا تشبيه الإخدام بالإسكان فإنهم اتفقوا على أن الإسكان على الزوج للنص الوارد فى وجوبه للمطلقة الرجعية » انتهى

فكيف يتصور بعض الناس أن القوانين الإسلامية يُلعب بها بعيداً عن هذه الحقائق كلها ؟! .

هذا مستحيل ، هذا مستحيل .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر »[1] .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلًّا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾ [الحشر ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل ٩٠] .

أقم الصـــــلاة ....

* * *

(١) رواه مسلم فى الذكر ـــ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨

نظرات فى سورة النساء (٢)

المحور الذى تدور عليه السورة
إرساء قواعد المجتمع وتبيين معالمه

خطبة الجمعة

بجامع عمرو بن العاص
فى ١٩٧٤/٣/٢٢ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شىء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـد :

فقد وصلنا فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم إلى سورة النساء ، وألقينا نظرة عاجلة ــ ولكنها واعية ــ على هذه السورة الكريمة ، وبيَّنا أن بنيَة هذه السورة تتكون من خمسة عناصر :

العنصر الأول والثانى :

حديث عن الأسرة المسلمة وقضاياها وهداية الله فى شأنها ، ثم حديث عن أهل الكتاب أولًا حديث عن اليهود استعرض المآسى الخلقية والاجتماعية

التى شاعت فيهم واستفاضت بينهم .

ثانياً : حديث عن النصارى استعرض المتناقضات فى العقيدة التى أذهبت لُبهم ، وحيّرت شعبهم .

العنصر الثالث والرابع والخامس :

ثم حديث عن المنافقين الذين صمعت شخصيتهم ، وتذبذبت وجهتهم فلم يُحسنوا أن يضموا إلى إحدى الطائفتين فيكشفوا عن إيمان صريح أو كفر صريح ، ثم حديث عن المؤمنين الضعاف الذين لم يقْو الإيمان فى أفئدتهم ، ولم يهيمن هيمنة وثيقة على مسالكهم وتصرفاتهم فشاع فيها بعض الخلل وكان منها لهذا المجتمع ضعف ووهَن،ثم حديث عن الحكم بما أنزل الله والجهاد فى سبيل الله .

هذه العناصر ــ بداهة ــ لم تقسم تقسيماً فنياً على أجزاء السورة ، فإن القرآن الكريم لا يعرف هذه التقسيمات العلمية المحدَثة ، وإنما كان الحديث عن هذه العناصر جميعاً ملتحماً بعضه مع البعض الآخر ، وربما تماسك السياق فى السورة كلها فرأينا حديثاً عن الأسرة يتحلل حديثاً عن هذه الطوائف .

وقد سألنى بعض الإخوة المتابعين قال : إننا أَلِفنا فى التفسير الموضوعى أن نعرف المحور الذى تدور عليه السورة ، وقد كُشف فيما تناولنا من سور سابقة ، فما المحور الذى تدور عليه سورة النساء .

والجواب : أن هذه السورة ــ باتفاق المسلمين ــ نزلت فى المدينة المنورة ، والوحى النازل فى المدينة المنورة يتجه غالباً إلى المجتمع الإسلامى يُرسى دعائمه ويبين معالمه ، وذلك على عكس ما يُعرف فى الاتجاه المكى من تناول النفس الإنسانية وغرس الإيمان فى أعماقها ، وبنائها على المنافحة والمجالدة وتحمُّل الأذى فى سبيل الله حتى يمكن أن ينهض هذا البناء المؤمن فى وجه العقبات الكثيرة التى تعترضه .

أما فى المدينة المنورة ــ بعد أن تكوَّن للمسلمين مجتمع ــ فإن اتجاه الوحى فى السور المدنية إلى دعم هذا المجتمع وإرساء القواعد التى ينهض عليها وتوضيح المعالم التى لابد أن يصطبغ بها وأن تظهر فيها خصائص الأمة

الحديدة ، وسورة النساء ــ من هذه الناحية ــ تقوم على دعم المجتمع الإسلامي وحياطته وتبيين وسيلته وغايته .

ولما كانت الأسرة أساس كل مجتمع صاح كان لابد أن تتحدث السورة في صفحات طوال ــ في نحو ست صفحات ــ عن الأسرة وقضاياها ، ثم لمَّا كانت الأمة في المدينة تتكون من طوائف كثيرة ــ من يهود ونصارى ومنافقين ومؤمنين ضعفاء يحتاجون إلى تقوية ــ بيَّنت السورة هنا ما يجب على الأمة الإسلامية بإزاء هذه النزعات الموجودة خلالها .

سورة النساء وضَّحت نظام الأسرة توضيحاً ينطوى على كثير مما لابد من بيانه وكشفه لأنه خالف ما كان شائعاً بين الناس .. كتابيين وغير كتابيين .

فالإسلام ــ في بناء الأسرة ــ استحب الزواج وأباحه ويسَّره ، وهو يفعل ذلك لأمرين :

أولًا : لأنه يريد أن تبقى مواكب الإنسانية موصولة السعى والنشاط على ظهر الأرض ، ولا يوجد طريق محترم لبقاء الإنسانية ممتدة على مرِّ السنين إلا الزواج .

ثانياً : لأن بناء الأسرة يقوم على التراحم ولسكينة النفسية ولذلك فإن الغريزة الجنسية ــ في نظر الإسلام ــ ليست رجساً من عمل الشيطان ، وليس سحقها هدفاً له ، وإنما الاعتراف بها جزء من منطق الفطرة ــ التي هي الصفة الأولى في الإسلام .

فكَّر بعض الناس ــ من عند أنفسهم لا من عند الله ــ أن يُحَرِّموا الزواج ، وأن يجعلوا هذه الغريزة نفثة[1] شيطان ..

فماذا جنت الإنسانية من ذلك التفكير القاصر ؟ .

جنت الإنسانية من ذلك عوجا في السيرة واضطراباً في السريرة حتى إن العقلاء في أوربا ــ لمَّا رأوا أن الرهبنة لن تنتج إلا الفساد في الظلام ولا

---

(١) نفث : نفخ

أن الغريزة تسللت كي تنفس عن نفسها إلى أنواع شاذة من السلوك — رأوا تحريم الرهبانية بعد تجارب خمسة عشر قرناً من الاضطراب والخلل !! الإسلام جنّبنا هذا كله ، وأراحنا من تجارب بائسة ومن آلام مُرّة وبيّن النبي ﷺ أن الزواج سنته وسنة المرسلين من قبله : ﴿ **ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية** ﴾ [الرعد ٣٨] .

وعندما حاول بعض أصحابه الغُلو وأرادوا أن يشتغلوا ألواناً من العبادة تتجاوب مع هذا الجماح[1] قال النبي ﷺ[2] . « ... **أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني** »[3] .

الحقيقة أن الإسلام اعترف بالغريزة الحسية وبنى لها السلوك الوحيد الذي يقبله ، قال : هذه الغريزة تُحبس إلا في بيت الزوجية ، هذه الغريزة تُقيد إلا مع الحلال الطيب : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون ۞ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ۞ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾ [المعارج ٢٩ — ٣١] أي المعتدون .

وكما تحدثت سورة النساء عن الزواج تحدثت عن الطلاق ، وقد قال العلماء فيه — وهو رأي علمي دقيق لكثير من المؤلفين المسلمين — إن الأصل في الطلاق الحظر بقوله جل شأنه — في هذه السورة : ﴿ **فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيراً** ﴾ [النساء ٣٤] .

---

(١) جمح الفرس جمْحاً وجموحاً وجماحاً : عتا عن أمر صاحبه حتى غلبه . ويقال : جمح الرجل : ركب هواه فلا يمكن ردُّه

(٢) بدءُ الحديث عن أنس رضي الله عنه قال : جاء ثلاثة رهْط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالّوها فقالوا وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم أما أنا فإني أصلي الليل أبداً ، وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله ﷺ فقال « أنتم الذين . إلخ »

(٣) رواه البخاري في النكاح — باب الترغيب في النكاح ٢/٧ ومسلم في النكاح ١٢٨/٤ .

أى ما دامت المرأة مطيعة فإن الاساءة إليها جريمة ، ولا معنى لهذه الإساءة ، ثم إذ حدث أن تغيرت العاطفة فإن الرجل ينبغى أن يتهم نفسه كما أمر الله : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً** ﴾ [النساء : ١٩] .

ولذلك ورد أن رجلاً ذهب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال له : أريد أن أطلق امرأتى .. قال له : لم ؟ قال : لا أحبها .. قال له : ويحك أو كل البيوت بُنى على الحب ؟ فأين التذمم والوفاء ؟ .

أين العهود والأخلاق والحياء والوفاء ؟ .

إن الإنسان ينبغى أن يكون فى هذا تقياً . وقد ورد أن أبا أيوب رضى الله عنه طلّق امرأته فقال له النبى ﷺ : « **إن طلاق أم أيوب كان حوباً** »[1] أى إثماً .

والقصد من هذا أن الإسلام يريد ـــ فعلاً ـــ أن تبنى البيوت على أنها مَحاضن ، ليست فقط متَنَفَّساً للغريزة الجنسية فى جو طهور مقبول ، ولكنها أيضاً مَحاضن ، أى مدرسة كبيرة يُربى فيها الولد ـــ ابناً كان أو بنتاً ـــ تربية دينية تجعل مستقبله ينشأ فى كفالة الله وتعاليمه يتعلم فى البيت الصلاة،يتعلم فى البيت الاستئذان ، يتعلم فى البيت ستر العورات وعدم الهجوم عليها ، يتعلم فى البيت الكثير مما لابد أن يتعلمه .

وتحدثت سورة النساء عن المواريث ، وكانت المواريث إما مضطربة فى جزيرة العرب ، أو ليست هناك تعاليم محددة تتصل بها فى الديانات الكتابية الأخرى ، فجاء الإسلام وكذّب العرب فى حرمانهم المرأة من الميراث وقال فى حسم : ﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قلّ منه أو كثر نصيباً مفروضاً** ﴾ [النساء : ٧] .

---

(١) قال فى مجمع الزوائد (٢٦٢/٩) : رواه الطبرانى وفيه يحيى بن عبد الحميد الحمانى وهو ضعيف

وفرض الإسلام المواريث نظاماً اجتماعياً لو دُرس لعُرف أنه يكمل جو الأسرة من سلف لخلف ، ويُشيع الطمأنينة بين الآباء والأبناء ، وفى الوقت نفسه فإنه جزء من النظام الكونى فى المواريث .

إن الشيوعيين يرفضون قضية الميراث ويقولون : ما يجوز توريث مال ، وهم فى هذا يكذبون على سنن الله الكونية ، لم ؟ .

لأن سنن الله الكونية تُورِّث الإنسان طوعاً أو كرهاً ما هو أخطر من المال ، تورثه الذكاء أو الغباء ، تورثه الوسامة أو الدمامة ، تورثه الطول أو القصر ، تورثه المزاج الهادىء أو المزاج العنيف !! .

إن المواريث المادية — فى الجسم — والأدبية والفكرية تنتقل من الآباء والأمهات إلى الأولاد ، والأموال التى تورث وفق هذا النظام الكونى ليست إلا جزءاً قليلًا مما فُرض على الناس أن يرثوه ..

وإذا أردنا منع المواريث فلنمنع ميراث الأخلاق وميراث الطباع !! وهذا مستحيل .

وتقسيم المواريث فى الإسلام انفرد المولى سبحانه وتعالى به وقال — مذيِّلًا آية المواريث — **﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً ﴾** [النساء : ١١] .

فعِلْمُه وحكمته أساس فى التوريث ، وقد ختمت آيات المواريث بقول الله جل شأنه : **﴿ تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم * ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾** [النساء : ١٣ ، ١٤] .

وبعض الناس يعود إلى الجاهلية الأولى يريد أن يحرم البنات من المواريث ، وهذا جهل وتضليل ويدخل حتماً فى الوعيد الإلهى : **﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾** [النساء : ١٤] وقد جاء فى السنة : « **إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فإذا أوصى حاف** (١) **فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل**

---

(١) أى جار وعدل عن نهج الصواب

النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة »[1] .

وجاء فى السنة أيضاً عن النعمان بن بشير قال : « **انطلق بى أبى يحملنى إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله اشهد أنى قد نحلت**[2] **النعمان كذا وكذا من مالى فقال : أكلَّ بنيك قد نحلت مثل مانحلت النعمان ؟ قال : لا . قال : فأشهد على هذا غيرى . ثم قال : أيسرك أن يكونوا إليك فى البر سواء قال : بلى . قال : فلا إذاً** »[3] .

لكن قال الفقهاء : إن بعض الأولاد قد تُزوجه فى حياتك فإذا أعطيت البعض الآخر — وصية — ما يُسوى بينه وبين من تزوج فلا جوْر فى هذا ، فهذه تسوية وليست تمييزاً ، وإذا علّمتَ ولداً على حساب الآخر فأُعطيت من جهل زيادة فلا حرج فى هذا ، فأنت بهذا تُسوِّى ولا تفاوت .

والمجتمع قاضٍ أمين على هذا ، فإن كانت الوصية جوْراً وجب رفضها ، وإن كانت عدلًا وجب إمضاؤها ، وفى قلب كل مسلم يؤمن بالله ما يجعله يدرك أين يضع قدمه ؟ وكيف يعامل ولده ؟ .

هذا المعنى من معانى الإسلام حُدِّد فى سورة النساء بدقة .

ما بدأت به سورة النساء من حديث عن الأسرة نحن نمر به على عجل كأننا فى قاطرة تُرقب بسرعة — وهى تمشى بنا — معالم الجانبين .

الطوائف التى يتكون منها المجتمع لابد من معالجتها ، وسورة النساء — كما قلت — تدور على محور ، ومحورها الذى تدور عليه هو إرساء قواعد المجتمع ، وتبيين معالمه .

والمعروف أن المجتمع الإسلامى مجتمع فكرة ، أى أنه ينهض على دين

---

(1) رواه أحمد ٢٧٨/٢ وابن ماجه فى الوصايا — باب الحيف فى الوصية ٩٠٢/٢ وقال فى ضعيف الجامع الصغير وزيادته (١٤٥٨ — ٤٣٩) : ضعيف .

(2) أعطيت .

(3) رواه مسلم فى الهبات — باب كراهة تفضيل بعض الأولاد فى الهبة ٦٦/٥ ، ٦٧

ويحيا به ويحاكم الآخرين عليه ، ومعنى هذا أن الصبغة الإسلامية يجب أن تسود الأمر والنهى ، ويجب أن تتضح فى المدرسة وفى المحكمة وفى التقاليد ، وفى القيم ، وفى الشارع ، وفى البيت ، وفى علاقات الجوار ، وفى الملابس ، كل ما تتكون منه البيئة أو ينشأ المجتمع من تراكمه ومن تجمعه يتدخل الإسلام فيه لأنه — كما قلنا — دين ينهض على فكرة ، والفكرة التى ينهض عليها واضحة .

هذا دين يقوم على أن الله واحد ، وأن محمداً ﷺ نبيه ، وأن الإله الواحد أنزل كتاباً ينبغى أن يؤتمر بأمره ويُنهى بنهيه ، وأن النبى الخاتم ﷺ جاء بتطبيق عملى ينبغى أن يُتأسى به فى هذا الميدان .. ولمَّا كان المجتمع قائماً على الفكرة فإن قيامه على الفكرة بدأ يَغُزُّ(1) المنتسبين إليه زوراً ، وذلك أن ناساً ما كان عليهم من بأس أن يزعموا الإسلام ، لكن كيف يُسلم لهم زعمهم إذا كان هذا الدين عبادة ومعاملة وعقيدة وشريعة وإيماناً ونظاماً ؟ .

هنا بدأت طبيعة الإسلام تكشف المنافقين : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً * فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً * أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً** ﴾ [النساء ٦٠ — ٦٣] إذاً هؤلاء — الذين يكرهون الاحتكام إلى الله وشرعه — إيمانهم زَعْمٌ وليس حقاً

هؤلاء الذين يضيقون بالفكرة الإسلامية ويريدون محوها ويريدون أن يناوشوا هذا المجتمع ليأتوا على قواعده هؤلاء يجب أن يُردعوا ، ومن حق هذا المجتمع أن يدافع عن نفسه وأن يستنقذ المستضعفين الذين وقعوا فى

---

(1) غَزَّ الثوب أو الجسم بالإبرة ونحوها : وخزه وخزاً خفيفاً . وهذا الغَزُّ يكشف الصادق من الكاذب

برائن افتنايس من الأقوياء ، ولذلك أمر بالقتال : ﴿ **فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً * وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً** ﴾ [النساء ٧٤ ، ٧٥] إذاً لابد من قتال ، لابد من جهاد تُكَوَّن أجهزته وتهيَّأ عُدته المنافقون بداهة ـــ يرفضون هذا ، ويضيقون به ، ويريدون أن يفرُّوا ، إنهم يفرون من الرسول ﷺ وهو إمام فى المسجد يصلى بالناس لأنهم ـــ كما وصفتهم السورة : ﴿ ... **إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلًا** ﴾ [النساء ١٤٢]

فإذا كانوا يفرون منه وهو إمام فى المسجد فهل يثبتون معه وهو رئيس دولة يأمر بالجهاد ؟ .

إنهم ـــ بداهة ـــ يريدون أن يفروا من أعباء القتال ومن مغارم بذل النفس والمال ، وهنا يقال للمسلمين : قاطعوا أولئك المنافقين وابتعدوا عنهم ، احذروا أن تنقسموا فى معاملتهم : ﴿ **فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلًا * ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً** ﴾ [النساء : ٨٨ ، ٨٩] .

السورة تبنى مجتمعا يعيش بخلق معين ولهدف معين فمن خرج على هذا الخلق فهو خصم للمجتمع ، ومن تنكر لهذا الهدف فهو خصم للمجتمع ، ولذلك فإن الذين أرادوا المداهنة وأرادوا أن يعيشوا معيشة مزدوجة الشخصية قيل لهم : لستم مؤمنين : ﴿ **بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً * الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً * وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله**

يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً ﴾ [النساء ١٣٨ ــ ١٤٠] .

هناك أيضاً ضعفاء الإيمان ، ما هو الإيمان ؟ .

تكبير الكبير وتصغير الصغير ، إحقاق الحق وإبطال الباطل ، إنزال العالم منزلته ، سؤال أهل الذكر ، الرجوع إلى الإخصائيين فيما ينبغى أن يرجع إليهم فيه .

لكن ضعفاء الإيمان لا يحسنون العمل فإنهم يطيرون هنا وهناك دون أن يربط على قلوبهم إيمان راسخ ، ودون أن يوجه مسلكهم عقل راشد ، ولذلك وصف الله هؤلاء بأنهم طيَّاشون(١) : **﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ﴾** [النساء : ٨٣] .

للقتال قضاياه وللسلم قضاياه ، وينبغى أن يستفتى فى كل قضية من هو قدير على النظر فيها وإبداء الرأى . قال تعالى ــ فى وصف هؤلاء الذين لا يحسنون الاستفتاء والرجوع إلى أهل الذكر فى حل المشكلات : **﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً ﴾** [النساء ٨٣] .

وأولو الأمر ــ هنا ــ ليسوا الحكام وإنما هم أهل الذكر الذين قال الله فيهم : **﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾** [الأنبياء ٧] .

الأسرة فى المجتمع الإسلامى الآن ــ وإن كانت أشرف وأنظف من أسر الغرب بيقين فهى ــ لم تبلغ الذُّروة أو المستوى الذى رسمه الإسلام لها .

لاشك أننا الآن خير من أوربا فى نظامنا الاجتماعى ، وإن كان هناك ما يُتعبنا فهو الرَّشح النَّجس الذى يجيئنا من الفوضى الجنسية التى تبناها بعض الإذاعيين والصحافيين .

---

(١) الطيّاش : الأرعن المتسرِّع . ويقال : قوم طيَّاشة

هذا هو الذى يهدد الأسرة عندنا وهو تهديد خطير لأن الرجل قد يكون مقصور النظر على أسرته سعيداً بزوجته ، ولكن فى مجتمع متهتك متبرج تُعرض فيه النساء على النحو الذى قال فيه الرافعى : « يا لحوم البحر سَلَخَتْكِ من ثيابك جَزَّار .. »[1] !! عندما تُعرض صورة النساء على هذا النحو فإن الرجل قد يزهد فى امرأته لأن امرأته فى البيت — خادمته — تُطَبِّخ له ، تكنس له ، تصنع الكثير له فهى ليست باستمرار متبرجة له ، لكن الشارع ملىء بالمتسكعات المتبرجات لغير سبب إلا الإثارة ، وهذا نَضَحٌ من أوربا وسَّخ مجتمعنا وهدَّد الأسرة فيه ، وأصحاب الغيرة الحقيقية على الأسرة يكرهون هذا التهتك الوارد من أوربا .

النظام الإسلامى نظام فطرى مُشَرِّف احترم الغريزة وربَّاها فى بيت سُمِّى بيت الطاعة !! .

الإسلام احترم الغريزة واحتفى بها فى مجالها الصحيح ، وفى هذا يقول نبينا ﷺ : « .. وفى بُضْع أحدكم صدقة »[2]ويقول : « **إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين فليتق الله فى النصف الباقى** »[3] .

ويقول : « **خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى** »[4] أى لامرأته .

أهذا الإسلام يعاب على موقفه من المرأة ؟! .

إذا محاسنى اللاتى أُدِلُّ بها * كانت عيوباً فقل لى كيف أعتذر ؟!

---

(1) مصطفى صادق الرافعى : وحى القلم : ٢٥٦/١ ط دار المعارف .

(2) جزء من حديث طويل رواه مسلم فى الزكاة — باب بيان أن إسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ٨٢/٣ وقوله . « **وفى بضع أحدكم صدقة** » يعنى فى جماعه ، ويحصل هذا الثواب إذا نوى فيه إعفاف نفسه أو زوجته أو حصول ولد صالح

(3) رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن أنس وقال فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٤٣٠ — ١٧٧) : حسن .

(4) رواه الترمذى فى المناقب — باب فضل أزواج النبى ﷺ ٦٦٧/٥ وقال : حسن صحيح غريب ، والدارمى فى النكاح — باب حسن معاشرة النساء ٢١٢/٢ وابن ماجه فى النكاح — باب حسن معاشرة النساء ٦٣٦/١ وابن حبان « موارد » (١٣١٢) فى النكاح — باب عشرة النساء وقال فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٣٣١٤) : صحيح

سورة النساء تحدثت عن الأسرة لأنه يجب أن يُبنى المجتمع ــ أولًا ــ على البيت ، وفى البيت يُربَّى الأولاد على العفة والشرف والصدق .

يقول عبد الرحمن بن عامر رضى الله تعالى عنه . « دعتنى أمى يوماً ورسول الله ﷺ قاعدٌ فى بيتنا فقالت : ها(١) تعال أُعْطِيك ، فقال لها رسول الله ﷺ :« **وما أردت أن تعطيه** » ؟ قالت : أعطيه تمراً ، فقال لها رسول الله ﷺ : « **أمَا إنك لو لم تُعْطِهِ شيئاً كُتِبت عليك كَذْبة** (٢)»(٣) .

بعد تنظيم البيت فى سورة النساء كشفت السورة سوءات المنافقين وبيَّنت مواقفهم لأن النفاق سرطان للأمم ولأن الدولة تقوم على مبدأ لا يمكن صفوها ولا يعرقل سيرها إلا الذين يريدون المداهنة فى هذا المبدأ ، وقد عُلِّم رسول الله ﷺ أن يكون صريحاً فى عرض الإسلام ومحاكمة أتباعه إليه ومحاكمة الآخرين إليه فقال الله له : ﴿ **ودوا لو تدهن فيدهنون** ﴾ [القلم . ٩] .

المداهنة أو الإدهان (٤)لا يمكن قبوله فى الإسلام ، ولذلك فإننا نرى سورة النساء حاربت النفاق بقوة والذى كشف المنافقين الحكم بما أنزل الله وقتال أعداء الله وهذان أيضاً هما اللذان كشفا ضعفاء المؤمنين .

أما صلة السورة بأهل الكتاب من يهود ونصارى فلنا فيها موقف آخر إن شاء الله .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

---

(١) ها : للتنبيه أو اسم فعل بمعنى خذ

(٢) كذبة : بفتح الكاف وسكون الذال أى مرة من الكذب ، أو بكسر الكاف وسكون الذال أى نوع من الكذب

(٣) رواه أحمد ٤٤٧/٣ وأبو داود فى الأدب ــ باب التشديد فى الكذب (عون المعبود ٣٣٥/١٣) ورجاله ثقات خلا مولى عبد الله فإنه مجهول . وفى الحديث أن ما يتفوه به الناس للأطفال عند البكاء مثلًا بكلمات هزلًا أو كذباً بإعطاء شىء أو بتخويف من شىء حرام داخل فى الكذب

(٤) داهن مداهنة ودهانا : أظهر خلاف ما أضمر

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون * ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعـــد :

فقد استثار انتباهى صياح بعض الطلاب بكلمة احتاجت إلى تعقيب من رئيس الدولة ،وتحتاج إلى تعقيب ما ..

قال بعض الطلاب : لا حرية لأعداء الشعب ! .

وقال رئيس الدولة ــ مشكوراً ــ نعم لا حرية ولكن فى حدود القانون . ونحن نستقبل هذه الكلمة بشىء من التأمل فيها وفى بواعثها ، فإن كلمة « الشعب » وباسم « الشعب » وأعداء « الشعب » ومن أجل « الشعب » كلمة تكررت كثيراً فى حياه الأمم شرقاً وغرباً فى القارات كلها قديماً وحديثاً ، ثم بدا لى وأنا أستعرض هذه الكلمة أنها ــ أحياناً كثيرة ــ تكون غطاء حسيساً بالغ الخسة لأهواء بعض الناس ونزواتهم ، كأنه إذا رأى شاب فتاة أراد أن يفسق فيها قال:باسم الشعب يجب أن تكون هذه الفتاة لى !! باسم الشعب ؟! ما علاقة الشعب بهذا ؟! لو أراد إنسان مصاب بجنون العظمة أن ينفس عن هذه الغريزة فى دمه الملىء بالأحقاد والطمع على غير مؤهلات وعلى غير خصائص نفسية وَثَب إلى الحكم ثم قال : باسم الشعب أنا أحكم !! .

أى شعب ؟! هذا أمر غريب ، قديماً كانت هناك خلافة اسمية قال الشاعر فى الخليفة العلبان :

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذلك شيء في يديه ؟!

فباسم الشعب يؤكل الشعب ، وباسم الشعب يُظلم الشعب ، وباسم الشعب تُجتاح حقوق الشعب ، وباسم الشعب نجد عصابة من الناس حرمهم الله المواهب الأدبية التي تؤهل للقياده ، وحرمهم المواهب الخلقية التي تجعل صاحبها جديراً بالتقدير تتسلط على المجتمع وتقول : باسم الشعب ! وهي تسحق الشعب ! .

إن الشيوعيين - في بلدنا هذا وخلال مدة طويلة - أحدثوا جَلَبة غريبة في بعض المؤتمرات وأخذوا يتحدثون عن الشعب وكأنهم أوصياء عليه ، والله تعالى يعلم والعالم كله يدرى أن جميع هؤلاء الشيوعيين لو حوكموا إلى انتخابات حرَّة في بلدهم لنفض الشعب يديه كلتيهما منهم ومن أخلاقهم ومن أنظمتهم التي ما وجد في ظلها إلا الجوع والخوف !! .

قال أحد الأدباء : دخل لص بيتاً فلما أطمأن له المُقام جلس ، فإذا رب البيت يطرق الباب ليدخل ، فقال اللص بجرأة غريبة : من هناك ؟ عجباً !! لص يسأل صاحب البيت من الداخل ؟! .

هؤلاء الذين يتحدثون عن الشعب لصوص ، نحن أمة تؤمن بربها ، نحن أمة تؤمن بقرآنها ، نحن أمة ترفض رفضاً حاسماً كل ذرَّة إلحاد تحاول التسلل إلى مجتمعها ، فبأى حق يجيء بعض العيال ليقول : باسم الشعب نريد نشر الكفر ؟! أى شعب ؟! من الذى جعلكم تتحدثون باسم شعبنا المؤمن ؟ .

إننى أهيب بالمؤمنين أن يكونوا أيقاظاً فإن هناك إلحاداً يحاول تزوير إرادة الشعب .

شعبنا المؤمن الطيب يوم تمكن من أن يقاتل باسم الله انتصر ، ويوم حُرم من أن يقول : باسم الله ، يوم حرم من أن يكون مؤمناً يُترجم عن إيمانه في طمأنينة كانت النتيجة أن الصيَّاحين باسم الشعب خدموا إسرائيل أكثر مما خدمها « موسى ديان » .

إن رئيس الدولة رفض أن يقبل هذا وقال : الحرية للكل في حدود القانون .

والله ما داس القانون إلا هؤلاء الذين يريدون باسم الشعب أن يكفروا بالله ورسله واليوم الآخر وكل مسلك نبيل فى هذه الدنيا ؟! .

يجب أن يستيقظ المؤمنون وأن يعرفوا أن المتاجرة باسم الشعب قد انكشفت عصابتها ، والآن مراكز القوى فى السجن ، ليكن ، لكن هناك كثيرون تربوا على أيديهم واستمعوا منهم ولا يزالون يعيثون فى مجتمعنا فساداً .

قيل لى فى أحد البلاد : أسمح للشيوعيين أن يقولوا ما عندهم ؟ قلت : نحن المؤمنين أصحاب حق ، وصاحب الحق لديه ألف دليل ، لكن يحزننى أن يكون هناك كتاب شيوعى منشور ، وكتابى فى الرد عليه غير موجود .

عندما يلتقى الحق والباطل فى هذا المجتمع فإن الحق ـــ بما وضع الله فى معدنه من صلابة وبأس ـــ سوف يسحق شبهات الباطل : ﴿ **قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب * قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد** ﴾ [سبأ ٤٨ ، ٤٩] لكن انفراد هذه الكتب بالسوق ما يجوز ، إنما ما تخاف الشيوعية إنما تخاف سرقة إرادة الأمة ، تخاف اغتصاب مشيئة هذا الجمهور الطيب والزعم بأنه يريد الكفر ، وهو مؤمن .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر »[1] .

﴿ **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلًا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾ [الحشر ١٠] .

عباد الله :

﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ [النحل ٩٠] .

أقم الصـــلاة ...

---

(١) رواه مسلم فى الذكر ـــ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨

نظرات في سورة النساء (٣)

بناء المجتمع الإسلامى

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

فى ١٩٧٤/٣/٢٩ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد :

فقد جاء عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال [١] : « إن فى سورة النساء لخمس آياته ما يَسرنى أن لى بها الدنيا وما فيها :

﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما [٢] ﴾ و ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما [٣] ﴾ و ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾[٤] و ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ﴾[٥] و ﴿ ومن يعمل

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك ـــ كتاب التفسير (٣٠٥/٢) وقال : هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن سمع من أبيه ، فقد اختلف فى ذلك

(٢) النساء ـــ ٤٠

(٣) النساء ـــ ٣١

(٤) النساء ـــ ٤٨

(٥) النساء ـــ ٦٤

سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾ (١) .

وفى رواية أخرى (٢) أن هذه الآيات الخمس قد انضمت إليها ثلاث آيات أخرى متتابعات تضمنتها سورة النساء وهى قوله جل شأنه : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ [النساء : ٢٦ — ٢٨]

والآيات التى ذكرها عبد الله بن مسعود رضى الله عنه وترجم عن مشاعره نحوها بقوله : « ما يسرنى أن لى بها الدنيا وما فيها » يجمع بينها كلها عامل مشترك ، وهذا العامل هو أن رحمة الله واسعة ، وأنها سبقت غضبه ، وأنه جل شأنه يغفر لعباده ، ويفتح لهم أبواب العودة إليه إذا ما باعد الشيطان بينهم وبينه ، ولما كان الإنسان قد خُلق من عنصرين متضادين : طينة من الأرض ، وروح من السماء فإن الإنسان لابد أن يقع فى الخطأ ، لابد أن تزل قدمه ، وقد صوَّر هذا ابن الرومى فى بيت له يقول (٣) :

ولابد من أن ينزع المرء مرة * إلى الحمأ المسنون ضربة لازب(٤)

لكن هذه الآيات عندما نقرؤها نحتاج إلى إلقاء ضوء خفيف على كل آية لنرى هل هى فعلا مدخل حقيقى لبناء المجتمع الإسلامى من الأسرة المتماسكة ، ومن الكيان الموحَّد القوى أم أن هذه الآيات بعيدة عنه ؟

الآية الأولى (٥) هى قوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلًا كريماً ﴾ [النساء : ٣١]

تعنى هذه الآية أن المسلم ينبغى أن يجتنب الكبائر وأن يبتعد عنها ابتعادا تاما ، وأن يجعل بينه وبينها مسافات شاسعة ، وبيَّن جلَّ شأنه أن من

---

(١) النساء : ١١٠

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنه ، انظر القرطبى : ١٦١/٥ وابن كثير : ١٧٨/٢ .

(٣) ديوانه : ٢١٩/١ بلفظ : ولابد من أن يلوم المرء نازعا * إلى الحمأ .. إلخ .

(٤) ضربة لازب . أى شىء لازم ، وأصل اللازب اللازم أبدلت الميم باء لتقارب المخارج صوتيا

(٥) أى الأولى فى ترتيب الآيات

يجتنب الكبائر تغفر له الصغائر التى قد تقع منه .

والكبائر أنواع : منها ما هو متصل بالسلوك العملى كالسرقة أو الزنا أو ترك الصلاة أو ترك الصيام ، ومنها ما هو متصل بالمشاعر النفسية كالكبر والحقد والبطر وما إلى ذلك

أنواع الكبائر نفسية كانت أو بدنية ينبغى أن يطهر المرء منها ، فإذا أخطأ بعد ذلك فى نظرة لا تليق أو فى كلمة بدرت منه ما تنبغى فإن الحديث الشريف يقول : « فِتنةُ الرجل فى أهله وماله وولده وجاره تُكفرها الصلاة والصوم والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » (١) .

ويقول جل شأنه فى آية أخرى تؤكد المعنى هنا : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون** ﴾ [العنكبوت : ٧]

ابتعد عن المعاصى ، ابتعد عن الكبائر النفسية والسلوكية ما يُرى منها وما لا يُرى : ﴿ **وذروا ظاهر الإثم وباطنه** ﴾ [الأنعام : ١٢٠]

فما يُرى هو المعاصى السلوكية ، ومالا يُرى هو المعاصى النفسية ، فإذا اجتنب الإنسان ذلك كان قريبا إلى الله وغفرت له خطاياه وأخطاؤه الأخرى .

الآية الثانية : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيماً** ﴾ [النساء : ٤٠]

وهى آية تفيد أن حساب السيئات عند الله محدود فهو قد يجزى السيئة بالسيئة إذا بقى عليها صاحبها ولكن حساب الله أوسع من ذلك فهو كما جاء فى الحديث : « إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيَّن ذلك فمن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هَمَّ بها فعملها كتبه الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هَمَّ

---

(١) رواه البخارى فى مواقيت الصلاة ـــ باب الصلاة كفارة ١/١٤٠ ومسلم فى الفتن ـــ باب فى الفتنة التى تموج كموج البحر ١٧٢/٨

بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة » (١) .

المضاعف عند الله لا حدود له ، وهنا أوجه النظر إلى أن قول الله تعالى : ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ [آل عمران ١٢٩]

ليس معنى المشيئة الفوضى ، فإن الله عز وجل أعرف بعباده وملابسات أخطائهم ، فربما تصدق شخصان بصدقة واحدة فكُتب هذا جزاء محدد ، وكُتب لذلك أضعاف مضاعفة ، وربما فعل شخصان ذنبا واحدا فكُتب لهذا عقاب محدد ، وغُفر لذاك !! لا لأن الله يكتب الأمور فوضى بل لأن الله يعلم ما يحيط بكل إنسان من ملابسات ، فزنا الشيخ غير زنا الشاب ، وصدقة من فقير مُقِلّ غير صدقة من غنى مُكثِر ، وذنب أعقبه ندم غير ذنب أعقبته فترة أو برودة أو قلة اكتراث .

فرب العالمين عليم بعباده ، وكتابته للحسنات والسيئات تتفاوت

الآية الثالثة : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : ٤٨] .

والناس يخطئون فى فهم هذه الآية ، فإن الله غفر ما دون الشرك ، ولكنه لم يغفر ما يساوى الشرك ، وهناك ذنوب أعظم من الشرك !! قد يقول أحد : وما هو الأعظم من الشرك ؟!

أولا : ماهو الشرك ؟

الشرك : أن يُسَوَّى المخلوق بالخالق ، هكذا فعل المشركون عندما جاءوا بأصنامهم ثم زعموها بنات لله وسووا بينها وبين الله ، وعندما يُقذفون فى جهنم يقولون : ﴿ تالله إن كنا لفى ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين * وما أضلنا إلا المجرمون ﴾ [الشعراء ٩٧ – ٩٩]

لكن هناك من ينكر الألوهية أصلا ، فهم شر من المشركين يقينا ، وهم عندما يحاسبون يحاسبون على ماهو شر من الشرك .

هذه واحدة ، وشيء آخر يساوى الشرك وهو فعل المعصية استباحة لها ، وترك الواجب جحداً لأصله .

---

(١) رواه البخارى فى الرقاق — باب من هم بحسنة أو بسيئة ١٢٨/٨ ومسلم فى الإيمان — باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب ٨٣/١ .

فالناس عندما يرتكبون الذنب أصناف : فهناك من يرتكب المعصية بعد أن استماتت فى مدافعته ثم أزله الشيطان فوقع فيها ، ثم أعقب ذلك من التحسر والألم ما يمسح هذه المعصية !!

وهناك ناس يرتكبون المعصية ثم يهزون أكتافهم ويمطون شفاههم (١) كأنهم لم يفعلوا شيئا ، الواحد منهم يترك الصلاة مثلا فإذا قلت له : لم لا تصلى ؟ نظر إليك ببرود وقال : ما الصلاة ؟! حدنى على جناحك !

هذا يقينا كفر بالله ، هذا يقينا مساو للشرك ، كذلك الذى يشرب الخمر أو يرتكب الزنا ثم إذا قلت له : لم تسكر ؟ أو لم تزنى ؟ نظر إليك ببرود وقال:دعنى مالك ولى !! هذا أيضاً مساوٍ للشرك ..إن كل معصية تقترن بالاستباحة والتبجح ، وكل واجب يُهدر ويقترن إهداره بالاستهزاء والسخرية فهو يقينا انسلاخ عن الإسلام ولا يمكن بتاتا أن يدخل فى هذه الآية ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾

الآية الرابعة ﴿ **ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما** ﴾ [النساء ٦٤]

كان المنافقون قديما إذا قيل لهم : توبوا إلى الله ، وأصلحوا نفوسكم ، وتعالوا إلى النبى يستغفر لكم ويطلب من الله أن يقبلكم رفضوا ذلك رفضا شديدا : ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ [المنافقون ٥ ، ٦]

لأنهم ناس منافقون ينتسبون إلى الإسلام زورا وليست لهم بالله علاقة قائمة ، ولو أن النبى ﷺ استغفر لكافر أو لمنافق ما قُبل استغفار الأنبياء كلهم له لأن الله لا يقبل عنده إلا من آمن به ورجا رحمته وخشى عقابه

الآية الخامسة ﴿ **ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما** ﴾ [النساء ١١٠]

---

(١) كناية عن الكبر ، يقال : تكلم مططاً حاجبيه وخده تكبر

هذه الآية تمثل خصائص الإسلام ، الإسلام يقول لكل امرىء : إنْ غَبَّرتْك الأرض بترابها تستطيع أن تعيد الطهارة إلى جسدك بالتطهر ، إنْ عفَّرتْك الحياة بآثامها تستطيع أن تعيد الإشراق إلى قلبك بالتوبة ، لن يَحول بينك وبين العودة إلى الله بشر ، لن تحتاج إلى بشر يقودك إلى الله أو يشفع لك أو يكون وسيطا بينك وبينه أو تعترف عنده بذنب .. **﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾** ..

هذا من خصائص الإسلام ، من خصائص الإسلام أنه قال لأى عاصىء : تستطيع أن تعتذر إلى الله لا تحتاج إلى أحد ، من خصائص الإسلام أنه قال لأى منحرف : تستطيع أن تستقيم على الطريق وتعود إلى الله ما تحتاج إلى كاهن ، ما تحتاج إلى قَسٍّ تعترف عنده ، ما تحتاج إلى بشر يحمل عنك توبتك : « **إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها** » (١) .

إن الله تعالى باسط يده ليلا ونهارا لكل من يريد العودة إليه ، بهذا منع الإسلام الوساطات والكهانات وجعل العلاقة بين الناس وربهم علاقة ميسرة سهلة .

ما أعظم الإسلام ، ما أشرف حقائقه ، ما أيسر الطريقة التى رسمها للناس ، وما أبعد الناس عن الحق يوم يبتعدون عن هذا الدين .

انضم إلى هذه الآيات الخمس فى سورة النساء قول الله تعالى : **﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ٭ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ٭ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا ﴾**

[النساء : ٢٦ ــ ٢٨] .

الله يريد أن يتوب علينا ، الله يعلم ضعفنا فهو يرحمنا فلم لا نرحم أنفسنا ؟

---

(١) رواه مسلم فى التوبة ــ باب قبول التوبة من الذنوب ٨/١٠٠

هنا نقول : إننا قد ذكرنا فى الخطبة السابقة أن محور سورة النساء الذى تدور عليه هو بناء المجتمع الإسلامى ، وأساس المجتمع الإسلامى أنه مجتمع ذو هدف ، ذو رسالة ، ذو فكرة .

ومعنى هذا بالتمثيل والتوضيح : أن هذا المجتمع يقوم على الإيمان بالله ، فإذا كان هناك من المبادىء ما يناوىء وجود الله جل شأنه منعه لأنه يقوم على الإيمان بالله .

المثل الثانى : هذا المجتمع يرفض الزنا ، ويراه منكرا وفاحشة ، فإذا كان هناك تبرج أو تهتك منعه ومنع كل ما يقرب من الزنا ، وبالتالى يُغْلِقُ المواخير ، ويرفض أن يكون فى بنائه أى شىء من هذا الذى يُيسر المعصية أو يعين عليها

المجتمع الإسلامى يحرم الخمر وبالتالى يُغلق الحانات ومعاصر الخمور وما إلى ذلك مما هو بعيد عن أساسه وهدفه وفكرته .

المجتمع الإسلامى يقوم على الصلاة ، ومعنى أن المجتمع يقوم على الصلاة أنه يبنى المساجد ، وأنه يَسمع فيها إلى الأذان فى الأوقات الخمسة ، وأنه يُغرى المؤمنين بالمجىء إلى المساجد طوال هذه الأوقات .

المجتمع الإسلامى يعلن عن نفسه ، وعن إيمانه بربه ، وعن خضوعه لأمره ونهيه ، وعن التزامه بوصاياه وحدوده .

المجتمع الإسلامى يعلن عن ذلك كله فى الصبغة التى يظهر بها ويُعرف فى أرجاء العالمين بأنها لونه البارز الثابت ، ومعنى ذلك واضح ، قال تعالى : **﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ۝ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾** [الحج : ٤٠ ، ٤١] .

فطبيعة المجتمع الإسلامى أنه يصلى ويزكى ، طبيعة المجتمع الإسلامى أنه يخشى الله ويَحْسِب حساب الآخرة لأن الله تعالى يقول ـــ عندما يصف المجتمعات الجاهلية التى حاربت الدين ، وأعلنت الحرب على المرسلين أجمعين ـــ : **﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو**

لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم ﴾ لكن كيف يُسكنهم الأرض من بعدهم ؟ وبأى شرط يَسكنون الأرض بعد فراعها من الظلمة ؟ قال : ﴿ **ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد** ﴾ [إبراهيم : ١٣ ، ١٤]

هناك فارق بين مجتمع إيمانى ومجتمع كفرانى . المجتمع الكفرانى باهت لا لون له ، أو اللون الذى يسوده لا صلاة فيه ، لا صيام فيه ، لا احترام فيه لصلاة ، لا احترام فيه لصيام

أما المجتمع الإيمانى فهو مجتمع يحترم الصلاة ، ويحترم الصيام ، ويحترم حدود الله .

الإسلام يعلم أن هناك ناسا يدينون بغير دينه ، فماذا يصنع لهم ؟

يقول الإسلام فى هذا : إن من أراد أن يبقى على دينه فليبق على دينه ، لكن لا يجوز منع الإسلام من أن يفرض نفسه على مجتمعه ، لليهودى أن يبقى يهوديا ما نعمه ، للنصرانى أن يبقى نصرانيا ما نعمه ، لكن إذا حاول أن يمنع المجتمع من أن يقوم على الإسلام فإنه عندئذ يعلن الحرب على هذا الدين وعلى أتباعه ، ليس له ما دام قد بقى على دينه أن يمنع الدين الذى يعيش فى مجتمعه أن يفرض نفسه على بيئته .

وسورة النساء عندما تعرضت لليهود وغير اليهود إنما أعلنت الحرب على تصرفات لهم منكرة .

لقد استبقى الإسلام اليهود فى المدينة المنورة وفى غير المدينة المنورة من جزيرة العرب على أساس أن يحيوا على عقيدتهم ، أما أن يحاولوا ضرب الإسلام فى صميمه ومنع تعاليمه أن تقوم وأن تصبغ المجتمع فهذا لا يمكن ، وتأمل قوله جلّ شأنه ــ وهو يَسْتَرِد الأشياء التى جعلته يغضب من اليهود ويلعنهم ــ : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل** ﴾ [النساء : ٤٤]

لماذا تشترون الضلالة وتريدون من المسلمين أن يضلوا السبيل ؟! أنتم يهود ، بقيتم على يهوديتكم ، دعوا المسلمين إذن ، دعوهم يصلون ،

دعوهم يزكون ، لماذا تحاولون ضرب هذا المجتمع ؟

موقف آخر لليهود : يسألهم المشركون — وكان الذين سألوا من قادة قريش ومن زعماء الوثنية الجاهلية العابدة للأصنام — يقولون لليهود : أنتم خبراء بالوحي تدركون طبيعة المنتسبين إلى السماء وإلى الكتب السماوية دلونا أنحن على الحق أم محمد ؟ فيكون جواب اليهود : أنتم على الحق ، أنتم أفضل من محمد (١) !! لم ؟! محمد يدعو إلى التوحيد وهؤلاء عبدة أصنام !! لكنه الحقد على المجتمع الإسلامي ، قال تعالى ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا** ﴾ [النساء : ٥١ ، ٥٢]

الخلاف إذن لم يكن بين المسلمين وبين وجود اليهود فى جزيرة العرب ، فإن الإسلام استبقاهم حتى إن الرسول ﷺ « توفى ودرعه مرهونه عند يهودى » (٢) وثبت أن عمر رضى الله عنه عندما وجد يهودياً يتسول ذهب به إلى منزله وأعطاه شيئا من المال ووضع عنه وعن أمثاله الجزية (٣) !!

إذن الإسلام ما غضب لأن يهوديا بقى على يهوديته ، إنما الذى أغضبه أن هؤلاء يريدون أن يمحى الإسلام من المجتمع !! ولكى تعرفوا خطورة هذا اعلموا ما يأتى :

عندما يتكاسل امرؤ عن الصلاة فكسله جريمة فردية قد يختفى بها ، قد يبتعد عن المجتمع وهو يرتكبها شاعرا بخسته عندما تقع منه . لكن المعصية التى تُولد ميتة معصية لا يُخاف منها . الشاب عندما يخطىء فخطؤه فى المجتمع الإسلامي — ومع روح الإيمان — يُولد ميتا ، لم ؟ لأنه مؤمن ، إيمانه قاوم الخطأ طويلا ، فإذا انهزم فإن إيمانه يصحو مرة أخرى ليندم أو ليدمع على ما ارتكب !!

---

(١) انظر السيوطى : لباب النقول فى أسباب النزول : ٨٣ .

(٢) رواه البخارى فى الجهاد عن عائشة — باب ما قيل فى درع النبى ﷺ ٤٩/٤

(٣) أبو يوسف : كتاب الخراج ، ١٢٦ بتصرف

فالجريمة هنا ميتة لا تتسلل للمجتمع لتفرض نفسها ، لكن الخطورة كلها في أن تتحول المعصية إلى تقليد قائم أو إلى تشريع قائم ، معنى هذا أن الإيمان سُحِقَ ، وأن أثره الفردى والاجتماعى تلاشى !!

المجتمع المسلم ــ بطبيعته ــ يؤذن فيه للصلاة ، لكن عندما يقال للمسلم : إذا أردت أن تصلى الفجر فهات مُنبهاً يوقظك ، فمعنى هذا أن المجتمع قد تنكَّر للصلاة وأن صوت المؤذن أصبح نابيا ترفضه طبيعة هذا المجتمع ، وأن الصلاة هنا هواية لفرد يريد أن يستيقظ مبكرا فلا يجوز له أن يوقظ الآخرين !!

القضية هنا ليست قضية إنسان تكاسل عن الصلاة فى مجتمع يقوم على العبادة ، لا ، القضية هنا قضية مجتمع يريد الانسلاخ من الصلاة نفسها ، وهنا ينبغى أن يُعرف أنه يوم تُحول جريمة ترك الصلاة من معصية فردية إلى معصية اجتماعية فهذا ارتداد .

المعركة بين الإسلام وأمته من ناحية وبين الاستعمار شرقيه وغربيه من ناحية أخرى تقوم من خمسين سنة على هذا الأساس ، الاستعمار بألوانه يريد ألا يكون لون المجتمع إسلاميا ، فإذا نجح فى هذا زال الإسلام بيقين ، والأمة الإسلامية مستميتة أن تبقى على دينها ، وأن يبقى الإسلام شعارا لها ، والمعركة بين الفريقين قائمة ، الذين يريدون بقاء المجتمع على الإسلام يريدون أن يبقى المسجد شارة للمجتمع الإسلامى ، وغيرهم يريد أن تزاحَمَ المدينة ذات الألف مسجد بمعابد أخرى لا حصر لها حتى يزول الشعار الإسلامى لها ، والأذان ، يبغى أن يخرس هذا الصوت حتى تكون الصلاة صوتا منفردا لشخص غريب فى المجتمع يصلى وحده أو يكسل وحده !!

المسألة خطيرة فعلا ، خطورتها تجىء من المعنى الذى شرحته لكم ، لا يقال لمؤمن:إذا أردت أن تصلى الفجر فهات مُنبها يوقظك فإن معنى هذا أن المجتمع لا يريد الصلاة .

إن مجتمعنا مجتمع مؤمن يريد أن يصلى وأن يسمع الأذان ، لكن الغزو

الإلحادي بنوعيه الشيوعي والصليبي يريد ألا نصلي وأن تقلَّ المساجد في عاصمة الأمة الإسلامية ــ أي القاهرة

الأصوات النابية التي تصدر مع الأذان أو مع مكبرات الصوت عند الأذان للفجر بالذات إنما هي امتداد لما تريده موسكو وواشنطن وبكين وباريس بالقاهرة ، تريد هذه العواصم أن يَخْرس مُوَحِّد الله في القاهرة !!

هذا الصوت الذي يبعث خمس مرات له في قلوب المؤمنين متعة ، والواقع أنه عندما يخترق حجاب الصمت وسكون الليل وهدأة الناس فإنه يُنعش مشاعر الإيمان في قلوب المؤمنين وهو متعة روحية يبادون لها لأنهم يستمعون إلى صوت نبيهم ﷺ وهو يقول لهم . « بَشِّرِ المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة » (١) وهم عندما يسمعون إلى هذا الصوت يفتتحون به نهارهم يحسون بأن جو القاهرة يتطهر ، وأن الموجات التي تغطي جو هذه المدينة يسير فيها نداء الحق ليتجاوب مع المؤمنين الذين يريدون طاعة الله ويريدون مرضاته ، ومعروف أن أذان الفجر يتميز بكلمة تُضم إليه وهي : « الصلاة خير من النوم » (٢) يسمعها المؤمن فيلبي ويردد ويقول للمؤذن : « صدقت » إن الذي يتكاسل إنما يفقد الكثير من بركات الصباح ومن خيرات الله ومن ضمانات التوفيق ، ففي الحديث : « من صلى الصبح فهو في ذمة الله فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء فيدركه فيكبه في نار جهنم » (٣) .

---

(١) رواه أبو داود في الصلاة ــ باب ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظلم (عون المعبود ٢٦٨/٢) والترمذي في الصلاة ــ باب ما جاء في فضل العشاء والفجر في جماعة (تحفة الأحوذي ١٤/٢) وابن ماجه في المساجد ــ باب المشي إلى الصلاة ٢٥٦/١ ، ٢٥٧ وقال في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢٨٢٣) : صحيح .

(٢) قال في نيل الأوطار (٣٨/٢) روى ابن خزيمة والدارقطني والبيهقي عن أنس أنه قال من السنة إذا قال المؤذن في الفجر : حي على الفلاح قال . الصلاة خير من النوم قال ابن سيد الناس اليعمري : وهو إسناد صحيح

(٣) رواه مسلم في الصلاة ــ باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة ١٢٥/٢ وقوله « في ذمة الله » أي في أمانه وضمانه في الدنيا والآخرة ، وخص ذكر صلاة الصبح لأن فيها كلفة لا يواظب إلا خالص الإيمان فيستحق أن يدخل تحت الأمان ، وقوله « فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء » ظاهره نهي عن مطالبة الله لكن المراد به النهي عما يوجب مطالبة الله وهو التعرض بمكروه لمن صلى الصبح أو هو ترك صلاة الصبح ، وقوله « فيدركه فيكبه في نار جهنم » يعني من يطلبه الله للمؤاخذة بما فرط في حقه والقيام بعهده يدركه الله إذ لا يفوت منه هارب .

وكان عبدالله بن رواحة رضي الله عنه يفخر بقيام الليل وبصلاة الفجر ويصف عبادة رسول الله ﷺ فيقول (١) :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلتْ بالمشركين المضاجع

إذا كان أصحاب البلادة وأشباه الدواب من الخلق ينامون في شخير وغمغمة فإن أصحاب الإيمان يرتقبون ساعة النداء لينهضوا ، والشيطان نفسه يجتهد في أن يجيء لكل إنسان يحاول أن يصرفه عن صلاة الفجر ، وفي الحديث : « **يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب كل عقدة مكانها : عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطا النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان** » (٢) .

والعقد هنا عقد معنوية ، والإشارة إلى قافية الرأس إشارة إلى المخ والمخيخ والجهاز العصبي .

وقد وصف النبي عليه الصلاة والسلام رجل ظل نائما حتى فاتته صلاة الصبح أداء فقال : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال في أذنه » (٣) أنا لا أدري بدقة هل الذين يقاومون صلاة الفجر ونداءها هل هؤلاء ممن بال الشيطان في آذانهم وهم كسالى عن الصلاة ؟

ربما إذا حسَّنا الظن بهم ، ربما كانوا مسلمين عصاة بال الشيطان في آذانهم واحتقر همهم وجعلهم صرعى رقودهم حتى فاتهم فضل الصلاة قبل مطلع الشمس ، ربما كان بعضهم من هذا النوع ، لكن الذي أستيقنته أن

---

(١) رواه البخاري في التهجد ــ باب فضل من تعار من الليل فصلى ٢/٦٨ ، ٦٩

(٢) رواه البخاري في بدء الخلق ــ باب صفة ابليس وجنوده ٤/١٤٨ ومسلم في صلاة المسافرين ــ باب ما روى فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح ٢/١٨٧

(٣) رواه البخاري في بدء الخلق ــ باب صفة إبليس وجنوده ٤/١٤٨ ومسلم في صلاة المسافرين باب ما روى فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح ٢/١٨٧ .

بعض الذين يهاجمون مكبرت الصوت عند الفجر ما رُئى فى مسجد منذ وُلد وما شرفته نفسه بركعة لله يحتج بها يوم الحساب !!

هناك نوع من الناس يشتغل بالسمسرة للمبادىء الأوربية من شرق أو غرب ، همته أن يحارب الصبغة العامة للإسلام فى هذا البلد !! لماذا ؟ حتى إذا اضاعت الصبغة العامة وتحول الإسلام إلى نزعات فردية فإن القضاء على النزعات الفردية سهل ، إن الشيوعيين أنفسهم فى بلادهم قالوا : اتركوا كبار السن بتدينهم ، سيقرضون حتما ، تلقفوا الأجيال الجديدة وعلموها الإلحاد فى المدارس ، وعلموها الإلحاد فى المجامع والأندية ، وعلموها الإلحاد فى الصحف والمجلات والكتب ، وعلموها الإلحاد فى النوادى والساحات ، علموها فى كل شىء ، فستنشب — ما دامت الصبغة العامة ممحلة — كما قال الله : ﴿ **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا** ﴾ [الأعراف : ٥٨]

هؤلاء يريدون أن يفقد المجتمع الإسلامى صبغته الإسلامية ، يريدون أن تختفى شارات العبادة منه لحساب جهات معينة أنا لا أعتبر هزيمة الإسلام أو هزيمة المصريين أمام الإنكليز فى « التل الكبير » (١) ، بل أعتبر هزيمتنا يوم استطاع القس « دنلوب » (٢) أن يضع برامج للتربية والتعليم فى وزارة المعارف فخرج جيلا من الناس يتكلم باسم موسكو وواشنطن أوقح

---

(١) بلدة بمحافظة الاسماعيلية المصرية ، اشتهرت فى تاريخ مصر الحديث بالمعركة الفاصلة التى جرت عندها فى ليلة الأربعاء ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ م ١٢٩٩هـ بين جيش الغزو البريطانى بقيادة الجنرال ولسلى وبين جيش الوطنيين بزعامة أحمد عرابى وقيادة على باشا الروبى وقد تم للبريطانيين مهاجمة معسكر الوطنيين ليلا على غرة وأوقعوا بهم ، فارتد عرابى وبعض فلول جيشه إلى القاهرة بنية تحصينها ولكن هزيمة التل الكبير كانت حاسمة فتحت أبواب العاصمة لدخول البريطانيين بدون مقاومة فى اليوم التالى ، فكان ذلك بداية الاحتلال البريطانى لمصر وهو الذى دام نحوا من ٧٢ سنة

(٢) كان اسم دنلوب من الأسماء الاستعمارية الصخمة فقد وكل إليه كرومر شئون التعليم فكان مستشار نظارة المعارف منذ وقت طويل وامتد نفوذه إلى قبيل الحرب العالمية الأولى . وقد اختاره كرومر ليحقق به سيطرة النفوذ الغربى على مناهج التعلم والتربية فكان عمله أشد قسوة مما حققت مدارس الإرساليات الأجنبية فقد استطاع إسقاط كل الجوانب التى من شأنها أن تبنى العقل العربى الإسلامى من مناهج التعليم وخاصة فيما يتعلق بالقرآن والتاريخ واللغة والأدب ، وكانت سياسة دنلوب تهدف إلى إنهاء دور الأزهر الشريف حصن اللغة والشريعة .

وأصرح مما يتكلم به خواجه قادم من موسكو أو واشنطن ، لأنه باسم أنه مسلم يتجرأ على الإسلام ويقول لك : إلى اللقاء فى الجنة !! كأن الجنة حديقة حيوانات تدخلها أنواع الجاموس الذى يشتغل فى دور التحرير فى القاهرة !!

هذا كلام غريب واعتذار أغرب عن خطأ صفيق ، إننا نريد أن يعلم الناس هذه الحقائق ، باسم من يتكلم هؤلاء ؟ إننا نريد أن نعلم .

لقد اتصلت بى امرأة من الإذاعة ــ وأنا فى مكانى فى وزارة الأوقاف (١) ــ وقالت لى : إنها ضائقة جدا بأذان الفجر !!

ولَّما كان الذى يكلمنى امرأة قلت : أتلطف مع هذه المرأة حتى أعرف ما تريد ، قلت : لعلك تضيقين بالتواشيح أو بالابتهالات ولقد أصدرنا أمرا بمنع التواشيح ومنع الابتهالات وقلنا : لا يذاع إلا الأذان فقط ، فهذه سنة رسول الله ﷺ ونحن نتبع السنة لا نزيد عليها ولا ننقص .

قالت : أنا أضيق بالأذان نفسه !! قلت لها فى هدوء : لكننا لا نقيم تقاليدنا وقوانيننا على ضيق رجل أو امرأة ، إن القاهرة بلد مسلم ، يوم يؤخذ فى انتخاب حر رأى المسلمين أيسمعون الأذان فى المكبرات أم لا يسمعونه ؟ فإن تسعة وتسعين ونصف فى المائة من المسلمين سيقولون : أسمعونا بألفاظ الأذان تقال فى أطراف الليل والنهار !! فإذا كنت تضيقين بالجو فى بلد إسلامى فاذهبى إن شئت لتعيشى فى موسكو أو باريس حيث لا دين وحيث لا إسلام !! أما المجتمع هنا فمجتمع مسلم .

أنا أريد أن أقول : إن الإسلام ليس جدارا واطيا يثب عليه كل كلب فى هذا البلد !! إن الإسلام دين محترم ولن نسمح للكلاب أن تنبحه أو تنال منه ، من أراد أن يبقى فى القاهرة مسلما مصليا فليسلم وليصل ، ومن

---

(١) شغل فضيلته عدة مناصب فى وزارة الأوقاف المصرية مثل إدارة المساجد ، الإدارة العامة للدعوة الإسلامية ، وكيل وزارة الأوقاف لشئون الدعوة .

عصى ربه فيلحتف بمعصيته ولا يتبجح بهذه المعصية وإلا اعتبر بتبجحه مرتدا !!

إننا لا نسمح أن يقول لنا أحد : صلوا فى بيوتكم بمنبهات ، إنما نقول لكل كلب لا يريد أن يسمع الأذان . ضع فى أذنيك قطنا حتى لا تسمع ذكر الله !! أما أن نلزم مجتمعا مسلما بأن لا يسمع ذكر الله فهذه صفاقة لا مثيل لها ، هذه سفالة غريبة أن يفرض رجل ملحد إلحاده على مجتمع مسلم !! .

إن الإسلام يعتز بعاصمته ، ويعتز بأن الشباب مؤمن ، المثقفون فى بلادنا مؤمنون ، تسعة أعشار أساتذة الجامعات مؤمنون وأنا خبير بالجامعات .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمدا رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد :

فإن ديننا انفرد بأنه دعوة إلى وحدة دينية شاملة ، أساس هذه الوحدة : أن نؤمن بالله ، وأن نؤمن بكل الأنبياء الذين جاءوا ، ومحاولة التفريق بين نبى ونبى أو بين الأنبياء وربهم هى كفر ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما ﴾ [النساء : ١٥٠ — ١٥٢] .

ومع أن الإسلام قام على هذا الأساس — أساس أنه وحد رب العالمين توحيدا عاليا فإنه أعطى من لا يدين هذا الدين حق أن يحيا فى كنفه بدينه المضاد للإسلام شريطة أن لا يحاول محو الصبغة الاجتماعية لديننا .

نحن ناس يقول لنا ديننا : الصلاة حق ، فليصطبغ المجتمع بها ، الزكاة حق ، فليصطبغ المجتمع بها ، الخمر حرام ، فلا بقاء لها فى مجتمعنا ، الزنا حرام ، فكل ما يؤدى إليه يجب محوه ، وهكذا ، فعلى أتباع الأديان الأخرى ألا يحاولوا ضرب الإسلام فى نظامه الاجتماعى لأنه دين يقوم على الشقين معا : هو عقيدة وشريعة ، هو دين ودولة ، فمن حاول غير ذلك فإنه يخون مجتمعنا ويغضب أبناء هذا المجتمع ، ويغضب الله علينا إن قبلنا ذلك كله .

أيها المسلمون : إن هدف الاستعمار العالمي أن يقرض الجيل المؤمن ليستطيع هو بإعلامه ، بقوانيه ، بتقاليده ، بلهوه ولعبه أن يخلق مجتمعا جديدا يكفر بالقرآن والسنة !!

وأنا أعلم أن هناك كتاباً وإداعيين أكل الغل قلوبهم حقداً على توحيد الله وعلى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ألا فليموتوا بغيظهم ، ألا فليذهبوا إلى الجحيم . لكننا لا نذهب معهم ، لكننا لن نصدقهم في كذبهم . لكننا لن نستمع إليهم في توجيهاتهم : ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾ [المائدة ٥٥ ، ٥٦]

فلنحرص على ديننا ، ولنبق على صلاتنا وأدائنا ، ولنبق على أن نحارب المنكر وعلى أن نقر المعروف وعلى أن نولى لله الواحد ولنبيه الخاتم عليه الصلاة والسلام .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾ [الحشر : ١٠]

عباد الله :

﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة



---

(١) رواه مسلم فى الذكر ــ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨ .

نظرات في سورة النساء (٤)

الدولة فى الإسلام

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن دولة الإسلام التى قامت فى أعقاب الهجرة الشريفة لها شارات تتميز بها ومعالم تؤثر عنها .

ليست هذه الشارات أو المعالم مراسم جوفاء بل هى حقيقة قائمة .

فالدولة فى الإسلام تقوم على التوحيد لا على الشرك ، تقوم على الإيمان لا على الإلحاد ، وتبنى مجتمعا متقيدا بتوجيهات الله مستمداً من شرائعه .

الدولة في الإسلام ليست تسليم السلطة لبشر مصاب بجنون العظمة أو مدع للألوهية .

الدولة في الإسلام دولة تشرف بقواها الخاصة والعمة على قيام المجتمع بأمر الله .

توجد الآن دول تقوم على فكرة أو على مذهب اجتماعى ، فإذا كانت الدولة مثلا تقوم على الشيوعية فإن سيطرتها على التعليم تجعلها تبنى مناهجه

على الإلحاد ، وسيطرتها على الإذاعة والإعلام تجعلها تبنى برامجها على التحلل والإباحة والبعد عن أمر الله .

أما الدولة فى الإسلام فمعنى قيامها على الإيمان والتوحيد أنها تختص برامج التعليم والتربية والإعلام ، وتجعل من ذلك كله محاضن ومؤشرات وموجهات لجعل الأمة كلها تستقيم على سواء السبيل

لقد جرَّبنا أن ينبت الشباب فى بيئات لا دين لها فماذا كانت النتيجة ؟

إن الأولاد الذين يبتون في محاضن لا ترتبط بالإيمان ولا ترتبط بتقاليده ينشأون نشأة لا شرف لها ولا خلق فيها .

إن الاضطراب الاجتماعى الذى يسود العالم الإسلامى الآن سببه أن الأجيال الشابة أو الأخلاف الناشئين لا يجدون التغذية الروحية ولا التقويم المعنوى الذى يربطهم بالإسلام ربطا محكما .

للدولة فى الإسلام وظائف :

منها أنها تقوم على الشورى ، ومعنى قيامها على الشورى أنها ترفض الاستبداد ، الشورى ليست اختراعا إسلاميا ، فالشورى فضيلة يعرفها كل إنسان بفطرته ، وكما تعرف البشرية كلها أن العلم خير من الجهل وأن العدل خير من الظلم تعرف البشرية أن الشورى أفضل من الاستبداد ، وهذا ما أوحى إلى رجل مثل ابن تيمية أن يقول :

« الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة » (١) .

إن الطبيعة البشرية تعرف الحسن والقبيح والخير والشر ، ثم يجىء الدين فيصحح أخطاء الفطرة وشرود المجتمع ويمنع التلفيق الذى قد يقع لخداع الطبيعة البشرية أو الفطرة الإنسانية عن الصواب .

---

(١) ابن تيمية : الحسبة فى الإسلام : ٥ .

ولذلك ما جاء الإسلام بجديد عندما قال : إن العدل حق ، وإن العلم حق ، وإن الشورى حق ، إنما جاء بجديد عندما جعل من هذه المعانى عادات يُتَقَرَّبُ بها إلى الله !!

جاء الإسلام بجديد عندما جاء إلى هذه المعانى فخلطها بالكيان الإسلامى وجعل المجتمع يقوم على العلم لا على الجهل وعلى الشورى لا على الاستبداد وعلى العدالة لا على الجور والمظالم .

يقوم المجتمع في الإسلام على سيادة الحق ، وتكون للأمة كرامتها ومكانتها بقدر ما تؤمن فيها الحقوق ، فإذا ضاعت الحقوق ضاعت كرامة الأمة وحرمت من عناية الله وضمانات السماء ، وهذا معنى الحديث الشريف : « إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع » (١) !!

الدولة فى الإسلام تقوم على تحكيم القانون الإلهى فيما يقع بين الناس من أخطاء ، ومعنى ذلك أن القاتل يقتل ، ولا معنى لما استحدثه الجاهليون من أن القاتل لا يقتل إلا إذا كان هناك تربص وسبق إصرار !!

ضمانات السماء فى تشريع الله أن العقوبات تقع سواء كانت حقا للبشر أو حقا لله ، تقع ردعا للمجرم وتأمينا للأمة .

لقد رأيت لمحة من هذا المعنى عندما رفضت رئيسة حكومة انجلترا أن تعطى المضربين عن الطعام الحق فى معيشة حسنة ، قالت : لا ، إن هذا يهدد حياة آمنين كثيرين فى الخارج !!

هذا الكلام فيه رائحة من تفسير قوله تعالى : ﴿ ولكم فى القصاص حياة ﴾ [البقرة : ١٧٩] .

المجرم عندما يقتص منه يدفع ثمن ذنبه الذى ارتكبه ، وفى الوقت نفسه تحصن المجتمع بضمانات كثيرة عندما يشعر كل من تحدثه نفسه بالجريمة أنه

---

(١) رواه ابن ماجة فى الصدقات ـــ باب لصاحب الحق سلطان ٢/٨١٠ وقال فى صحيح الجامع الصغير (٢٤٢١ ـــ ١١٠٣) صحيح ومعنى متعتع : أى من غير أن يصيبه أذى يقلقه أو يزعجه

سيرد المورد وينتهي إلى هذا المصير ويقتل كما قتل أو يعاقب كما أساء .

الشرائع الإسلامية التي تختصها الدولة كثيرة فيما يتصل بالأفراد ، فيما يتصل بالولاء العام — ولاء المسلمين لدولتهم لأنها تقوم على الإيمان — وولاء المسلمين لإخوانهم على ظهر الأرض لأن أخوة الإسلام تناصر : « **المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه** » (١) وإذا وجده في مكان ما محتاجا إلى العون متطلعا إلى الغوث عرض عليه عونه وقدم له غوثه وبين له أن الدين تناصر بين المؤمنين .

على هذا الأساس قامت دولة الإسلام في المدينة المنورة ، قامت على الإسلام لا على الكفر ، قامت على التوحيد لا على الشرك ، قامت على مبدأ السمع والطاعة لله فيما أمر ونهى ، فإذا أقمت مجتمعا فهذا المجتمع يتلاقى أفراده بالصلوات الجامعة ، وتصطبغ أرجاء المجتمع بالربانية التي تهتف باسم الله خمس مرات كل يوم ، فالمجتمع كله كبيره وصغيره متعاون على أن يتصل بالله ، يتلاق في الصلوات ، ويتراحم بالزكوات ، ويحسن الحسن ، ويقبح القبيح ، ويعلى راية المعروف ، وينكس راية المنكر تحقيقا لقوله جل شأنه : ﴿ **الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر** ﴾ [الحج : ٤١] .

الدولة في الإسلام تقوم على تناصر الإيمان ، ولقد رأينا هذا التناصر في خلال الدولة الأولى واضحا ، لأن أعداء الإسلام اعتبروا هذا الدين خروجا على التقاليد والعرف والسلطة فقاوموه بكل ما لديهم من قوة . فليس بغريب أن تقوم الدولة في الإسلام على أن أخوة الدين تناصر وتلاحم وتماسك وأن المسلم أخو المسلم حيث كان .

رأينا بعد قرنين من الزمن تقريبا امرأة تؤسر في دولة الروم ، فلما أسرت وأهينت صرخت : وامعتصماه !! تقصد الخليفة العباسي القائم في بغداد ، فلما رويت القصة للمعتصم جمع المسلمين وهو يقول : يا لبيكاه !!

---

(١) رواه البخاري في المظالم — باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه ١٦٨/٣ ومسلم في البر — باب تحريم ظلم المسلم وخذله ١٠/٨ ، ١١ .

لبى النداء واقتحم بجيش كثيف أرض الروم وطوى أبعادا شاسعة ودخل فى حرب مدمرة حتى استنقذ المرأة الأسيرة بإخوة الإسلام [1] .

إن الوضع الآن تغير كما قال قائل :

رُبَّ « وامعتصماه » انطلقت * لم تصادف نخوة المعتصم

الوضع تغير لأن أكثر حكام المسلمين إما عميل للشرق وإما عميل للغرب . ولقد رأينا عملاء لإحدى الجهتين لا يرون حرجا أبداً من أن يلعبوا فى موسكو بينما الجيش الشيوعى يقتل إخوانهم فى أفغانستان !! .

وذلك لأن أخوة الإسلام تبددت أو تلاشت أو اختفت مع نزعات القومية العربية والبعث العربى والوطنيات الضيقة والأنساب المزورة التى اخترعت للأمة الإسلامية كى تذهب بها وتبدد قواها وتهد كيانها .

الدولة فى الإسلام ليست طبلا أجوف ، إنما هى ممثلة لتعاليم هذا الدين عبادة ومعاملة ، أخلاقا وقوانين .

الدولة فى الإسلام هى الحزام الذى يشد شعب الإيمان السبعين والإطار الذى يحكم تجمع هذه التعاليم ويشرف على مصالح الأمة ويسوقها إلى الغاية التى يرتضيها رب العالمين .

هذه هى الدولة كما رسمها ديننا ، عندما بدأت فى المدينة كان بديهيا أن تقوم أمامها العوائق وأن يوجد لها أعداء ومعارضون .

لقد نظرت فى القرآن الكريم الذى نزل فى المدينة المنورة فوجدت فيه نماذج كثيرة لوظيفة الدولة تجاه الأعداء والمعارضين الذين يشغبون عليها ويعملون ضدها .

واليوم نقدم نموذجا واحدا من سورة النساء ، ولعلنا فى خطب أخرى إن شاء الله نقدم نماذج من القرآن المدنى يزيد ما قلناه وضوحا ويبين له حدوده التى لابد منها .

---

(1) انظر الكامل فى التاريخ ١٧٦/٦ .

عندما قامت دولة الإسلام على التوحيد لا على الشرك ، على الإيمان لا على الكفر ، على إحياء شرائع الله الخاصة بالدولة والأسرة والمجتمع التي تتصل بالسياسة والاقتصاد والأسرة والأخلاق الفردية ، عندما قامت الدولة على هذا كله كان طبيعيا أن ينبرى لها أعداء ، وأن يقوم ضدها معارضون .

ولذلك وجدت سورة النساء تحدثت عن مواقف للمعارضين في خمسة مواضع ، كان التعريض بأولئك المعارضين يبدأ بهذا الاستفهام « ألم تر » ؟

خمسة استفهامات نقولها إجمالا ثم نشرحها بشيء من التفصيل .

قال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا** ﴾ [النساء : ٤٤ ، ٤٥] .

استفهام آخر : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا** ﴾ [النساء : ٤٩ ، ٥٠] .

استفهام ثالث : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا** ﴾ [النساء : ٥١ ، ٥٢] .

استفهام رابع : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا** ﴾ [النساء : ٦٠] .

استفهام خامس : ﴿ **ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا** ﴾ [النساء : ٧٧] .

هذه الاستفهامات الخمسة نستعرضها واحدا واحدا كي نقف وقفة تأمل أمامها .

الاستفهام الأول : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ﴾ من هم ؟ هم اليهود ﴿ أوتوا نصيبا من الكتاب ﴾ لأن ما بين أيديهم من صحائف الوحى ليس الوحى كله ، وليس الوحى الحق ، هو أولا : ناقص ، وثانيا : مغشوش ، فيه أخطاء وجهالات كثيرة ، وأهم من ذلك كله أن مسالكهم ضد الموحدين مريبة ومرفوضة !! لماذا ؟ لأن أحقادهم طفحت من أفئدتهم ، فهم يودون للمسلمين أن يرجعوا كفارا بعد أن هداهم الله إلى الإيمان ، وقد تكرر هذا المعنى واتضح فى سور أخرى : ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾ [النساء : ٨٩] ، وقال : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

هذه الودادة فى نفوسهم جعلتهم ـــ بتعبير القرآن ـــ : ﴿ يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ﴾ !!

هذا الحقد توارثته الدول الاستعمارية كلها ومن ينتسبون ـــ للأسف ـــ إلى السماء زورا ، ولقد سئل أحد المبشرين أمام رؤسائه : كم مسلما نصرته ؟ فقال الرجل . لا تسألونى كم مسلما نصرته ، ولكن سلونى : كم مسلما أفسدته على دينه ؟ أو أفسدت عليه دينه ؟!!

هذا هو الذى يتجه إليه أعداء الإسلام : كيف يفسدون علاقتنا بكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ .

الاستفهام الثانى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ﴾ أى يعتبرون أنفسهم قمة الخليقة ، ويرون أنهم شعب الله المختار ، ويقولون فى سلالاتهم إنهم أبناء الأنبياء وإنهم أجدر الناس بالسيادة على كلتا الجبهتين فى الشرق أو فى الغرب لعبقريتهم ولعلمهم ولغناهم ولقدرتهم السياسية والاقتصادية !!

وهذا كلام يحتاج إلى تأمل ، فالقول بأن اليهود أو بنى إسرائيل هم أبناء يعقوب كلام غير صحيح ، فإن هؤلاء اليهود من عشرات الأجناس

والدماء والألوان ، ولو فرضنا كذبا أنهم أولاد إبراهيم ما يجديهم هذا شيئا وإن الله جل جلاله يقول عن إبراهيم ونوح : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون** ﴾ [الحديد : ٢٦] .

فالانتساب وحده للأنبياء لا يعطى وجاهة ولا يكون شرفا ولو كانوا أبناء محمد ﷺ نفسه ، فإن نبينا عليه الصلاة والسلام قال : « **يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغنى عنك من الله شيئا** » (١) ، وقال : « **ومن بطَّأ به عمله لم يُسرع به نسبه** » (٢) .

فتزكيه النفس والقول بأن لله شعباً مختاراً كلام لا أصل له ، إنما يُزكَّى الإنسان بعمله وخلقه وشرف نفسه وما يقدمه للآخرين من فضل ونُبل ، أما ما عدا ذلك فلا قيمة له .

الاستفهام الثالث : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا** ﴾ [النساء : ٥١] .

سئل زعماء يهود — يوم ضربت الحرب بين الوثنية تقودها قريش وبين التوحيد يقوده خاتم الأنبياء ﷺ — قال لهم رجال قريش : أنتم خبراء بالوحى ، أنتم أهل الذكر وأهل الكتاب احكموا بيننا وبين محمد أنحن على الحق أم هو ؟ فكان جواب أحبار اليهود وسدنة العهد القديم : أنتم على الحق ومحمد على الباطل (٣) !!

الشرك عند هؤلاء حق والتوحيد باطل !! هذا هو الهوى الجامح والحكم القبيح ، وسبب هذا الحكم الحقد والحسد والبغى فى الأرض والاستطالة على الناس ورب الناس .

---

(١) رواه البخارى فى الوصايا — باب هل يدخل النساء والولد فى الأقارب ٧/٤ ، ٨ ومسلم فى الإيمان — باب فى قوله تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ ١٣٣/١ .

(٢) رواه مسلم فى الذكر — باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٧١/٨ .

(٣) أخرجه ابن إسحاق انظر لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى : ٨٢ .

الاستفهامات الثلاثة فى أهل الكتاب وفى طليعتهم اليهود .

أما الاستفهام الرابع فهو فى المنافقين الذين وجدوا فى المجتمع المدنى ولهم باطن سيئ ومظهر خادع ، هؤلاء تكشفهم دائما أمور :

أول ما يكشفهم أنهم يكرهون الدولة الإسلامية ، ويكرهون التشريع السماوى ، ويكرهون الأحكام التى أنزلها الله لتطهر المجتمع من أوساخه ، وفى الحديث الشريف : « **حد يعمل فى الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحا** » (1) .

هذا الحديث معناه أن البركة ليست فى أن تمطر السماء الأرض ، هناك بلاد تكاد تموت جوعا من الجفاف ، والغريب أن هؤلاء طمس الله على أفئدتهم فلا يعرفون استسقاء ، هم بهائم ليس لهم رب يدعونه ، إنهم ينتظرون نجدات من الشرق أو من الغرب !!

هناك الآن خوف من أزمات الجوع ومن أزمات الضيق ، والسبب ليس فى أن الأرض لم تمطر ، إنها أمطرت ، ولكن السلوك البشرى فوق ظهر الأرض سلوك طائش معوج محروم من عناية السماء ومن مباركة الله ، ولو أن مجتمعا أقام حدود الله بحقها لتوفرت البركات هنا وهناك وكما قال جل شأنه : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** ﴾ [الأعراف : 96] .

الاستفهام الرابع : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ .

زعم : مطية الكذب ، أى أن كلامهم غير صحيح ، هم كذبة فى زعمهم للإيمان ، ليس تدينهم حقيقيا ، إنما هو تدين صورى ، ولو كان تدينهم حقيقيا لصدعوا بأمر الله ولنفذوا أحكام الله ولما اخترعوا عقوبات لا

---

(1) رواه ابن ماجة فى الحدود ـ باب إقامة الحدود 2/848 والنسائى فى قطع السارق ـ باب الترغيب فى إقامة الحد ـ بلفظ ثلاثين ـ 8/75 ، 76 وأحمد ـ بلفظ ثلاثين ـ 2/402 وقال فى صحيح الجامع الصغير (3130) : حسن .

صلة لها بدين الله ، هي عقوبات يريدون بها محاربة الجريمة في المجتمع ، ولكن هذه العقوبات ما حمت المجتمع من عدوان المعتدين وسرقات السارقين وغش الغاشين وضلال الضالين ، وهيهات !! وقد يحلفون أنهم يريدون بهذه العقوبات الإحسان إلى الأمة أو التوفيق بين ما يحب الله وبين ما يسعى إيقاعه بين الناس من مصلحة ، ويكذبهم القرآن في هذا كله . ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا** ﴾ [النساء : ٦٠ — ٦٢] .

هؤلاء بيَّن القرآن الرأي فيهم والحكم الفذ في شؤونهم عندما قال : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾ [النساء : ٦٥] .

أما الاستفهام الخامس فهو في ضعفاء الإيمان الذين لا يعرفون حقيقة القدر ولا يحيطون علما بالأسماء الحسنى والصفات العلى فيظنون أن الحروب يقصر الأجل وأن النكوص يكثر الأرزاق وأن الإنسان يستطيع أن يعيش آمنا في سربه مطمئنا بين أهله إذا لم يقل كلمة حق وإذا لم يجاهد في سبيل ربه وإذا لم يُلَبِّ نداء الشرف عندما يطلب لمعركة الشرف ، هؤلاء يظنون أن نكوصهم وجبنهم يطيلان الآجال ويكثران الأرزاق ، وهذا كله خطأ ، فإن الأرزاق والآجال لا يمكن أن تطول بالجبن ولا أن تضعف أو تقل بالتضحية ، هيهات !

لقد سبق لرب العالمين أن حدد للناس أرزاقهم وآجالهم ، فضعف الإيمان هو الذي يجعل بعض الناس يتمزق ويجبن وتخور قواه في موقف شرف وتضطرب أقدامه إذا دعي إلى الدفاع عن دينه وعن أمته وعن يومه وغده !!

كل هذا سببه ضعف الإيمان ولو كان قوي الإيمان لعلم أن الطائرة تسقط وهي محلقة في الجو — ما يدفع أحد عن نفسه وهي ساقطة — ثم

بين القدر عم كتب فإذا طفل أو شيخ ضعيف يبقى حيا وإذا شاب عارم القوة مضرج بدمه !! هذه آحال ما للبشر فيها دخل .

قال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا . أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة** ﴾ [النساء : ٧٧ ، ٧٨] .

إن الإيمان الحق يفرض على المسلمين أن يستسلموا لله في هذه النواحي كلها .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله موفق العاملين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى المؤمنين .
وأشهد أن محمدا رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن الأمة الإسلامية فى مفترق طرق ، وأعداؤها يتناولونها من كل جانب ، وأسباب الضعف التى تلاقت فى مجتمعها كثيرة ، ولكنها تستطيع على مر الأيام أن تمحو هذه الأسباب سببا سببا وأن تأخذ طريقها إلى الله خطوة خطوة ، وأن تبدأ فترسخ الإيمان فى القلوب وتقوى التقاليد النافعة وتذهب التقاليد الضارة وتقيم البناء الخلقى متينا فى أمتنا .

إن بناء الأخلاق شىء من صميم عمل الفرد ومن صميم نشاط المجتمع ، وللدولة دخل فيه ، ولكنه دخل جانبى أو محدود أو على الأقل عامل مساعد ، ولكن العامل الأساسى هو فى نشاط الفرد ونشاط الأسرة ويقظة الجميع فى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والترفع عن الشهوات وبناء فضائل الإيمان والوفاء والتراحم واحترام الحق واحتقار الباطل ، وما إلى ذلك من معان مجتمعنا إليها فقير .

إننى أشعر بأن الأمريكيين كانوا علماء كبارا عندما وضعوا أقدامهم على القمر وأن تفوقهم الحضارى بلغ حدا يثير الإعجاب ولكننى أقول وبصراحة : إن هناك مجالا آخر ربما كان عندى أعظم من هذا التفوق وأدل على الحضارة من هذا الغزو للفضاء !! أعنى أن رئيس دولتهم يدخل مع رجل الشارع فى انتخابات فينهزم !!

يستعرضان معا فى الإذاعة فيعطى هذا خمس دقائق وهذا خمس دقائق ، ليس لأحد تفوق على الآخر !!

هذا نوع من الخلق أو نوع من الكرامة الإنسانية يحتاج المسلمون إليه ولايحتاجون إلى قنبلة ذرية ولا إلى تفوق صناعي .

وليس بعامر بنيان قوم * إذا أخلاقهم كانت خرابا (١)

فلبن الأخلاق والتقاليد الحسنة في أمتنا حتى يمكن أن نكون أهلا للانتساب إلى الإسلام وإلى نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (٢) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠]

أقم الصلاة

* * *

(١) هذا البيت لأمير الشعراء أحمد شوقى (الشوقيات ١/٦٠) .

(٢) رواه مسلم فى الذكر ـــ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر مالم يعمل ٨/٨١

القرآن يتحدث عن الهجرة

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه

١٩٧٣/٢/٢٩ م

الحمد لله رب العلمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين . أما بعـد :

فمما يروى أن أبا بكر رضى الله عنه قال يوصى عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة لاتباعهم الحق ، والحق ثقيل على النفوس ، وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة لاتباعهم الهوى .. والهوى خفيف على النفوس » !! .

والواقع أن خدمة الحق قد تكون معنتة متعبة لأن أتباع الهوى يقفون ضده ، ويكرهون مسيرته ، ويعترضون انطلاقه إلى غايته ، ثم إن الحق عندما يشق طريقه لابد أن يشعر أصحابه بمرارة الكفاح ، والآلام الهريمة التى لابد أن تصيبهم فى مراحل الجهاد الطويل قبل أن يدركوا هدفهم، ويحققوا مرادهم !!

وعندما نتأمل فى ذكرى الهجرة نجد شواهد لذلك ، وعندما نتأمل فى سيرة أولاد النبى ﷺ بعده ، ومصابهم فى أنفسهم وأموالهم بسبب دينهم واستمساكهم بالحق نشعر بهذه المعانى حية فى ضمائرنا .

كان الحسين بن على رضى الله عنه يستطيع أن يعيش قرير العين ، وقد التقت فى ساحته حسنة الدنيا وحسنة الآخرة !!.

كان الرجل من ناحية الدنيا ممدود المال ، عريض الجاه ، جميل الوجه ، شريف النسب ، وكان من ناحية الدين عابداً ، محبتاً ، مخلصاً ، يقوم الليل ، ويصوم النهار ، وما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا .

ولكن خدمة الحق كلفت الرجل أن يخرج يؤدى واجبه ، ولينهض بأعباء الرسالة التى شعر بضرورة القيام بها ، وكلفه ذلك وكلف إخوانه أن يفقدوا حياتهم واستقرارهم ، حتى قال شاعر من شعراء الإسلام يومئذ

يقارن بين حياة الحسين رضى الله عنه وأهله ، وبين حياة ملوك أمية وترفهم ، يقول فى البيوت التى حربت لأنها خدمت الحق ، يقول[1] :

مدارس آيات خلت من تلاوة — ومنزل وحى مقفر العرصات
وآل زياد فى القصور مصونة — وآل رسول الله فى الفلوات

يقصد زينب بنت على رضى الله عنها ، لكن الحسين وأخته وأهل البيت رضى الله عنهم ، إنما سلكوا فى هذا مسلك جدهم ﷺ عندما هاجر !! .

كان يستطيع أن يعيش فى بيته ، له زوج صالحة ، ومن أسرة نبيلة ، وحوله من رغد العيش ما يطمئنه إلى حاضره ومستقبله ، ولكنه لما بدأ يحمل أعباء الرسالة ، بدأ يحمل المتاعب الثقال ، وكان ورقة بن نوفل رجلا خبيراً بطبائع المجتمعات ، وقضية الصراع بين الحق والباطل ، فلما بدرت بوادر الوحى ، وذهب يقص ما وجد على ورقة ، قال له ورقة : « ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك فاستغرب النبى ﷺ وقال : « أوَمُخْرِجِيَّ هم ؟ » قال نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى »[2] .

إن الذين ورثوا الخرافة تعصبوا لها ، والذين اطمأنوا لأوضاع باطلة تدر عليهم السمن والعسل يحبون أن تبقى هذه الأوضاع ، وأن يعيشوا فى ظلها ، وهم يقاتلون دونها ، ولذلك عندما وجدوا ديناً يعكر صفوهم ، ويحارب إفكهم ، ويمزق خرافاتهم تنمروا له : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا

---

(١) من قصيدة دعبل الخزاعى وهى طويلة وأولها

مدارس آيات خلت من تلاوة — ومنزل وحى مُقفر العرصات
منازل وحى الله ينزل بينها — على أحمد المذكور فى السُّورات
منازل قوم يُهتدى بهداهم — فتؤمَن منهم زلة العثرات
منازل كانت للصلاة وللتقى — وللصوم والتطهير والحسنات

إلى أن قال

ألم ترنى مُذ ثلاثين حجةً — أروح وأغدوا دائم الحسرات
أرى فيئهم فى غيرهم متقسَّماً — وأيديهمُ من فيئهم صفرات
وآل زياد فى القصور مصونة — وآل رسول الله فى الفلوات

ديوان دعبل الخزاعى . ١٣١ والقصيدة بتمامها فى معجم الأدباء ١٠٣/١١ وكتاب أعيان الشيعة للإمام السيد الأمين ٤١٨/٦ ط دار المعارف بيروت وبعضها فى تجريد الأغانى ٢٠٨٦/٢ .

(٢) رواه البخارى فى بدء الوحى — باب كيف بدء الوحى ٣/١ ، ٤ ومسلم فى الإيمان — باب بدء الوحى ٩٧/١ ، ٩٨ .

بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ... ﴾ يكادون يبطشون بهم ﴿ ... **قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير** ﴾ [الحج . ٧٢]

لكن أهل الحق الذين يستميتون فى الذود عنه يرزقهم الله أموراً تهون عليهم الصعب !!.

من أول تلك الأمور : نفس رفيعة تمج الباطل ، وتشمئز منه ، وتشعر بالشقاء لو أنها قارفته أو اقتربت منه ، نفس تأنس للحق ، وتهش له ، وتستحلى مرارة الدفاع عنه ، وترى فى ذلك كرامتها ومجادتها وعظمتها فى الدنيا والآخرة :

إن الذى خلق الحقيقة علقماً * لم يخل من أهل الحقيقة جيلاً

فى كل زمن يوجد من يحتضن الحق ، ويستريح إليه ، ومن هذا المعنى قول أحد العلماء وقد سئل : ما لذتك ؟ قال : فى حجة تتبختر اتضاحاً وشبهة تتضاءل افتضاحاً !! .

ربما كانت لذة الحيوان فى أبناء آدم أكلة شهية ، أو نومة هنية !! ولكن هناك ناس يشعرون بلذة تغمر أقطار أنفسهم بالسعادة لأن للحق دليلاً قوياً ظهر ، ولأن الباطل أخذ يتبدد كما تتبدد الغيوم عندما تشرق أشعة الشمس !! .

هذا أول ما يرود الله به دعاة الحق وحملته ، وفى طليعتهم وقمتهم صاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام !! إلى جانب هذا هناك أمر يضعه الله فى قلوب خدام الحق ، هذا الأمر هو أنه مهما طال المدى فإلى الحق المصير ، وأن الكفاح مهما كلف من خسائر ، وحمل من عنت فإن القاعدة القرآنية لابد أن ترسو قواعدها وهى قوله جل شأنه . ﴾ ... **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض...** ﴿ [الرعد ١٧]

وقد حدث فعلاً أن اصطدم حق وباطل من قديم ، ولكن ما الذى انتهى الأمر إليه ؟ من قاتل الحسين رضى الله عنه ؟ .

نكرة فى التاريخ لا يعرف !! باء باللعنة فى يومه وغده !! وذهب فى جحر كان ينتظر غضب الله عندما يؤوب إليه .

أما الحسين فإن الله رفع له ذكره ، كما رفع ذكر جده عليه الصلاة والسلام !! وبقى الحق وبقى أهله ، وتبحر الباطل وتبخر خدمه !! .

هذه حقائق نذكرها بين يدى حديثنا عن الهجرة النبوية الشريفة ، لقد تناولت الهجرة النبوية فى الخطبة الماضية من زاوية ، وأريد فى خطبة اليوم أن أتناولها من زاوية أخرى .

ألف الناس فى القرآن الكريم أنه ينزل تعليقاً على ما يكون من أحداث ، فيوجه التوجيه الذى تفتقر الأمة إليه ، إن كان الذى حدث نصراً ذكر أسبابه بحق ، وكسر الغرور الذى قد يصاحب المنتصرين ، وإن كان هزيمة ذكر الأسباب بصدق ، ومسح التراب الذى عفر جباه المهزومين !! .

على هذا النحو نجد أن سورة الأنفال نزلت فى أعقاب غزوة بدر ، وأن سورة الأحزاب نزلت فى أعقاب الخندق ، وأن سورة الفتح نزلت فى أعقاب الحديبية ، وأن سورة آل عمران نزل نصفها الأخير فى أعقاب هزيمة أحد ، قد يسأل أحد الناس:فهل نزلت فى حادثة الهجرة سورةٌ مّا كما حدث ذلك فى أعقاب الغزوات التى وقعت ؟ .

والجواب : لا ، لم يقع هذا ، ولكن وقع ما هو أخطر وأهم . كأن الله سبحانه وتعالى حكم بأن قصة الهجرة أكبر من أن يعلق عليها فى سورة واحدة ، وأن تمر مناسبتها بهذا التعقيب وينتهى الأمر ، فحكم جل شأنه بأن تكون ذكرى الهجرة قصة تؤخذ العبر منها على امتداد الأيام ، وتذكر فى أمور كثيرة ، وفى مناسبات مختلفة !! .

ولذلك فإنى أعرض من سورة البقرة،وآل عمران ، والنساء ، والتوبة ، والأنفال آيات تناولت الهجرة،وتناول الهجرة فى هذه السور المختلفة إنما تم فى إطار الدواعى،والملابسات التى قضت بالعودة إلى ذكرى الهجرة حديثاً عنها واعتباراً بها ، ففى سورة البقرة نقرأ قوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم** ﴾ [البقرة : ٢١٨] .

﴿ **أولئك يرجون رحمة الله** ﴾ يعني أن الرجاء في الله ليس حق الكسالى والعجزة ، إنما هو حق المهاجرين والمجاهدين .

ولِمَ ذكر هنا أمر الهجرة والجهاد ؟ .

تنظر إلى الآية التي سبقت هذه الآية لتعرف السبب ، فإن الله تعالى يقول للمسلمين . إن أعداءكم كثيرون ، يتربصون بكم ويحاولون فتنتكم عن دينكم ويتهزون الفرص لإلحاق الأذى قل أو كثر بكم !! قال تعالى : ﴿ ... **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ [البقرة : ٢١٧] ثم قال : إن النجاة من هذا الارتداد ، ومن هذا الكفر الذى يراد إلحاقه بالمسلمين يتطلب واحداً من أمرين :

إما الجهاد حتى تنكسر صولة العدو ، وإما الهجرة إذا كان المؤمن أعجز من أن يقاتل .

هذا المعنى يستحق أن نذكر معه قول النبى عليه الصلاة والسلام : «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا»[١] ومعنى الحديث : أنه بعد أن تم فتح مكة فلا مكان للهجرة ، انتهت الهجرة ، وإنما فى أعماق المؤمنين جهاد العدوان وكسر الطغيان إلى يوم القيامة ، وإذا استنفرتم فانفروا أى إذا أعلنت الدعوة إلى القتال وظهر النفير العام فانفروا ، ومع ذلك فقد وردت أحاديث أخرى تفيد أن الهجرة باقية إلى يوم القيامة ، وتفسير ذلك : أن بعض الناس قد يكونون فى بيئات يعتزلون فيها ويستوحشون ، هؤلاء يسعى كى يبقى الإيمان فى أعقابهم أن يلحقوا بكتلة الأمة الإسلامية ، والحقيقة أنى شعرت بهذا المعنى ، وأنا أرقب حياة بعض الذين هاجروا من مصر إلى كندا ، أو استراليا أو غيرهما من بلاد الله ، فإن بعض المسلمين هناك ضاع دينهم ، أو فقدوا فى البيئة الجديدة ما يربطهم بتراثهم وتاريخهم

---

(١) رواه البخارى فى الجهاد ـــ باب فضل الجهاد ٤/١٧ ، ١٨ ومسلم فى الإمارة ـــ باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد ٦/٢٨

ألحق الآباء أبناءهم بمدارس لا لغة فيها ولا صلاة ولا قرآن ، فشب الأبناء على النحو الذى أتيح لهم وضاع بذلك دينهم .

الأمر يحتاج إلى علاج سريع ، إما أن يعودوا إلى إسلامهم هنا ، وإما أن نرسل إليهم فى بيئاتهم من يستبقي علاقتهم بالله ورسوله والقرآن وهداياته وإلا ضاعوا .

هذه آية من الآيات التى علقت على الهجرة بعد الهجرة بسنين ، فى سورة آل عمران نرى آية أخرى تحدثت عن الهجرة بعد هزيمة « أحد » والهزيمة كانت مرة ووقعها كان شديداً على النفوس ، ولكن الله ينبه الرجال إلى أن المبادئ لا ينصرها المهازيل والضعاف ، من طلب عظيماً خاطر بعظيمته ، والأمم الضائعة ، والشباب الطرى لا يمكن أن يكون سناداً لهدف ضخم ولا حمّالا لواجبات عظيمة !! .

إذن لابد أن يلقى المسلمون بعد « أحد » درساً يذكرهم **بالهجرة .**
قال تعالى : ﴿ **فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهـار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب** ﴾ [آل عمران : ١٩٥]

فى سورة النساء ذكرت الهجرة ، ذكرت على أساس يستحق أن ندرسه فى عصرنا ، فإن الهجرة من مكة إلى المدينة كانت انطلاقاً بدعوة محبوسة مضطهدة إلى مكان جديد أو وطن جديد تستقر فيه وتحاول الانطلاق منه . ولذلك كان فرضاً على كل مسلم أن يترك مكة إذا كان يعيش فى مكة ، أن يترك جنوب الجزيرة العربية إن كان يعيش فى جنوبها ، أن يترك شمالها إن كان يعيش فى شماله ، وأن يلحق بالإسلام الذى أسس مجتمعاً له فى المدينة كى يدعم هذا المجتمع الجديد ويعلى فيه راية التوحيد ، ويرد عنه عدوان الشرك ، ويجعل قوى المؤمنين فى هذا الوطن الجديد

تماسك وتلاق ، ومن هنا فإن عدم الهجرة كان جريمة ، واعتُبر الذين يؤثرون الضعف فى أرضهم اعتبروا حطب جهنم !! وقال فيهم رب العالمين ﴿ **إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً** ﴾ [النساء . ٩٧] ثم استثنى القرآن أصحاب الأعذار الحقيقية فقال ﴿ **إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً** ﴾ [النساء ٩٨ ، ٩٩]

الرجال : أى الشيوخ الفانين الذين لا يستطيعون الضرب فى الأرض ولا التنقل من مكان إلى مكان ، ماذا تكون عقبى هؤلاء ؟ ﴿ **فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم** ﴾ والتعبير بكلمة عسى قطع لدابر اختلاق الأعذار ، لأن صاحب العذر الحقيقى لا يدرى أيغفر الله له أم لا ؟ وإن كان الرجاء فى الله محققاً ، إلا أن التعبير جاء هكذا حتى لا يفتعل أحدٌ عذراً !! .

وفى سورة الأنفال نجد حديثاً عن الهجره بعد النصر فى معركة بدر والحديث سببه أن المسلمين بدا منهم شيء من الرفق بالأسرى حتى تركوهم ، ولكن تطهير الأرض من المجرمين لمصلحة الحياة نفسها ، إن المجرمين جراثيم تنقل الخزى والذل والسرقة والأثرة والتشبع من الحرام ، ومن مصلحة الحياة نفسها أن يختفى هذا الصنف من الناس !! .

ولذلك فإن القرآن الكريم ذكر المسلمين بعد النصر بأيام الكرب والضرب التى كانت تلاحقهم فى مكة وهم مضطهدون معذبون : ﴿ **واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون** ﴾ [الأنفال : ٢٦]

ثم يقول الله لنبيه ﷺ : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ [الأنفال . ٣٠] .

وهذه الآية تشرح المؤامرة التى حيكت خيوطها فى مكة وهم يتحدثون كيف نخلص من محمد ؟ فيرى بعضهم أن يسجن ، ويرى بعضهم أن يقتل ، ويرى بعضهم أن يطرد ، إلى آخر ما اختلف القوم فيه .

ثم تأتى المناسبة الأخيرة التى ذُكرت آياتها فى سورة التوبة ، وربما ظن بعض الناس أن هذه الآيات نزلت فى أعقاب الهجرة ، لأن الله يقول فيها : **﴿ إلّا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾** [التوبة : ٤٠]
ناس كثيرون ربما ظنوا أن الآية بعد قصة الغار وما وقع فيها ، وهذا خطأ ، فإن هذه الآية نزلت بعد قصة الغار بتسع سنين !! نزلت فى سورة براءة ، ونزلت كما أحكى لكم الآن لسبب ، فإن الله يُرجع الناس إلى قصة الهجرة ليعتبروا بها ولينتفعوا من أحداثها . وقد حدث بعد تسع سنين من الهجرة أن استدعى ما يقتضى عرض قصة الهجرة والغار والحوار الذى دار بين النبى ﷺ وصاحبه ، عندما فُرض على المسلمين علناً أن يتجمعوا لمقابلة الروم ، والروم أو الرومان كما يدرس اسمهم فى التاريخ ، كانوا يومئذ الدولة الأولى فى العالم ، كانوا أشبه بأمريكا الآن ، كانت دولة مرهوبة الجانب ، عظيمة السلطان ، باطشة بالشمال الأفريقى كله ، وبآسيا الصغرى كلها وعندما اشتبك الإسلام معها كانت خارجة من نصر تُجرر أذياله فخراً على الدولة الأخرى ، دولة فارس ، أى أن الأمجاد كلها كانت تكلل هامة الرومان ، دولة عظمى ومنتصرة ، وفى هذه اللحظات قيل للمسلمين تحركوا إلى دولة الروم لتقاتلوها !! وقع الرعب فى قلوب الناس ، وقع التخاذل والقلق ، وقال المنافقون : انتهى محمد ، انتهى دينه ، سيشتبك مع الدولة الأولى فى العالم وسيتلاشى !!.

وشاء الله أن تنزل الآيات بعد أن تمت المعركة وبعد أن ذهب المسلمون فى ثلاثين ألفاً !! ما عرفت جزيرة العرب تعبئة بهذه الضخامة فى أيام مرهقة بحرها وجدبها حتى سميت العروة عروة العسرة ، ونزل القرآن يبكت المنهزمين الضعاف ، يبكت الذين خافوا القوة المادية ونسوا قوة الله : **﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم**

إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل * إلاّ تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير * إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا .. ﴾ [التوبة : ٣٨ — ٤٠] .

وعاد إلى قصة الهجرة يُذكر بوقائعها ، إن الرجل الفرد الذي تألبت عليه مكة كلها وهي يومئذ أم القرى وعاصمة الجزيرة العربية ، إن الرجل الوحيد الذي خرج معه صاحبه يؤنسه ويخدمه، هذا الرجل ماذا حدث به ؟ .

ما استطاع الناس أن يصنعوا له شيئاً ، بل لقد تحول على امتداد الزمن إلى حضارة عمرت المشارق والمغارب بمنطق العقل ، وأدب النفس ، وسناء الخلق ، فقامت مجتمعاً لا تعرف الدنيا مثله تراحماً وتناصراً وعدلاً .

﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ صيحة العزاء في ضيق الغار وهجمة العدو واضطراب الدنيا ، صيحة العزاء ﴿ إن الله معنا ﴾ !! .

لكن متى يكون الله مع أمة مّا ؟ يوم تكون هذه الأمة مع الله ، وقد نقلت لكم : إن أحد الصالحين قال لتلميذه : إذا أردت أن تعرف مكانتك عند الله فاعرف مكانة الله في قلبك !! .

هكذا ذكر الإسلام قصة الهجرة ، وهكذا عرضها القرآن الكريم في مواطن شتى من السور، نزلت تُعلم، وتعلم إلى جانب ذلك أن صاحب الرسالة الخيرة عليه الصلاة والسلام ما فقد بالله ثقته، ولا وهن فيه أمله، عندما لاحقه سراقة بن مالك يريد أن يبطش به ، وأن ينال الجائزة المرصدة لمن يجيء بمحمد ﷺ حياً أو ميتاً ، وعندما هزمته الأقدار كبا ، وكبا فرسه ، قال له المهاجر الوحيد المطارد في صحراء الجزيرة : « كيف بك إذا لبست سواري كسرى » ؟[1]

وعاد الرجل كالمجنون من الذي حدث ومن الذي سمعه ؟

---

(١) أخرجه البيهقي كما في الخصائص الكبرى للسيوطي ٢ / ١١٣ طبعة دار الكتب العلمية — بيروت وابن عبة كما في أسد الغابة ٢ / ٣٣٢

وفتحت فارس ، وجيء بسوارى كسرى ، ودعا عمر بن الخطاب رضى الله عنه سراقة وألبسه السوارين[1] تحقيقاً لوعد رسول الله ﷺ !! .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

★ ★ ★

(١) المرجع السابق

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

فإن الإسلام لذى جاهد من أجله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام هو دين الله من الأزل إلى الأبد ، هو الدين الحق من الأزل إلى الأبد،به بشر جميع الأنبياء من قبل ، وبحقائقه أرسلوا ، وبأركانه نهضوا بين الأمم ، منذ نوح عليه السلام أبى البشر الثانى ، يقول الله : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون.فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلاّ على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾[يونس ٧١ ، ٧٢]

ويقول الله لعيسى ابن مريم عليه السلام : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ [المائدة : ١١١] .

وبين عيسى ونوح رسل كثيرون ، ذكر القرآن عناصر الوحدة الدينية التى تجمعهم كلهم والعنوان الفذ الذى عملوا تحت رايته، أى الإسلام .

لكن الإسلام عندما شرح القرآن الكريم حقيقته على هذا النحو كمّل المعانى فبين أن موسى ما كذبه عيسى ولا عيسى كذب موسى ولا محمد ﷺ كذب واحداً من الاثنين .

، الأول كان يمهد للثانى ، والثانى كان يصدق الأول ، هذه حقائق ، لكن الأتباع الجهلة شردوا عن رسالة موسى وعن رسالة عيسى ، ولذلك لما انحرفوا عن طريق موسى وعيسى وابراهيم ، أصبحوا لا يستحقون وصف الإسلام ، لأن الإسلام إيمان بالله الواحد وتصديق لما جاء به موسى ، فأين ما جاء به موسى ؟ وهل صدق اليهود بما جاء به موسى ؟ .

إن الإسلام إيمان بالله الواحد وتصديق للنبيين جميعاً ، فإذا قال يهودى فى إسرائيل. إن عيسى لقيط وأمه زانية !! وإن محمداً دجال ورسالته كاذبة !! .

فهل يمكن أن يقال إن هذا اليهودى يتبع موسى ويسمى مسلماً ؟ لا ، لا ، هذا غير صحيح ، إن الإسلام الحق عبادة لله الواحد ، ولو أن عيسى حى لرفض ممن يزعمون اتباعه أن يجعلوه إلهاً مع الله ولقال لهم : إنى عبد فقط !! ولا يمكن أن يسمى من يشرك بالله أو يكذب واحداً من أنبيائه مسلماً يعبد الله على طريقة موسى أو على طريقة عيسى .

إن محمداً عليه الصلاة والسلام جاء بالحقيقة الكاملة والوحدة الدينية الشاملة وهو مع ذلك وضع قاعدة إنسانية كلها رقة ، وكلها عدالة ، فبين أن الذى يرفضه أى يرفض محمداً ﷺ ولا يريد أن يتبعه فليرفضه وليبق على ما يريد ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم** ﴾ [البقرة : ٢٥٦]

فنحن نشرح الحق ونؤيده ونسانده ونستميت فى الدفاع عنه ، ونرد كل فتنة تحاول أن تمسخ الدين أو أن تشوهه ، ولكننا مع هذا الاستمساك والتشبث نعامل غيرنا كإنسان له ما لنا وعليه ما علينا !! هذا هو الفهم الواعى والشرح الدقيق للإسلام ، أما الزعم بأن الأديان كلها سواء لا خلاف بين يهودية أو نصرانية أو إسلام فى عصرنا الحاضر ، فهذا لغو من القول لا يلتفت إليه .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر »[1] .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠]

عبـــاد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾[النحل : ٩٠]

أقم الصـــــلاة

* * *

---

(١) رواه مسلم فى الذكر ــ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر مالم يعمل ٨١/٨

شبهات حول بعض الأحاديث النبوية

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه
فى يوم ١٩٧٣/٦/١٥م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فأرجو أن أوفق إلى أداء خطبة اليوم برغم ما أعانى من بعض الأمراض المفاجئة

موضوعنا – إن شاء الله – رد شبهات عن بعض الأحاديث النبوية التى شاعت بين الناس وفهموها على غير وجهها .

والمسلمون يحسبهم أن أعداءهم يتربصون بهم وينالون منهم ، فلا ينبغى أن يعينوهم على أنفسهم بسوء الفهم للدين والافتراء على وحى الله بما لم يُرِدْهُ الله ورسوله .

١ – من ذلك أن عددا كبيرا من الناس يجرى على لسانه قوله عليه الصلاة والسلام « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » (١)

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وفيه [illegible] مشرح أو مشرس لم أقف له على ترجمة كذا فى مجمع الزوائد ١ / ٨

فيفهم من هذه الكلمة أن الإيمان يمكن أن يكون لفظا عابرا وقولا فارغا ، وأنه ما دام قد تحصّن وراء كلمة التوحيد التى أمتث من بين شفتيه فلا عيه أن يقصّر فى حب الله ولا عليه أن يفرط فى حقوق الله !!

وهذا تفكير لا أصل له فى ديننا ، فإن علماء الحديث قالوا : هذا الحديث له معنيان :

المعنى الأول : أن هذا الحديث إنما قيل فى صدر الإسلام يوم كانت مهمة النبى عليه الصلاة والسلام أن يحارب الوثنية السائدة ، وأن يحقر عبادة الأصنام ، وأن يفطم الناس عن الخرافات التى ألفوها ، ويرفعهم عن مستواها إلى مستوى الإيمان بالله الواحد .

فكانت الدعوة إلى التوحيد هي المهاد الأول والأساس الأوحد الذى بدأ الإسلام به ، ولكن الإسلام بعد ذلك نما وأخذت تعاليمه تتنزل من لدن العلى الكبير ليعلم الناس حقيقة دينهم ، وتمام شرعهم .

ومعروف أن القرآن ظل ينزل خلال ثلاث وعشرين سنة ، وأن أركان الإسلام لم تكتمل لأول يوم جاء فيه هذا الدين الحنيف ، وإنما ظلت أوامره ونواهيه تتنزل حلقة بعد أخرى حتى اكتملت سلسلتها قبل أن يذهب النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى .

معروف أن صوم رمضان لم يشرع إلا بعد خمسة عشر عاما من بدء الإسلام ، ولم يكن صوم رمضان معروفا فى العهد المكى كله ولا كان فريضة من فرائض الدين .

ومعروف أن الصلوات الخمس ما شرعت إلا ليلة الإسراء ، وقبل ذلك كانت الصلاة ثنتين ثنتين .

ومعروف أن فريضة الحج لم تشرع إلا بعد أن استطاع المسلمون أن يفتحوا مكة ، وأن يؤمنوا طريق الحرم ، وأن يشيعوا الأمان فى أرجاء الجزيرة .

عندئذ — بعد أن كانت كلمة التوحيد هى الإسلام — قيل : « بنى

الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان » (١) .

ثم جاء حديث آخر وسّع الدائرة وبيّن أن تعاليم الإسلام أكثر ، وهو :
« **الإسلام ثمانية أسهم : الإسلام سهم ، والصلاة سهم ، والزكاة سهم ، وحج البيت سهم ، والصيام سهم ، والأمر بالمعروف سهم ، والنهى عن المنكر سهم ، والجهاد فى سبيل الله سهم ، وقد خاب من لا سهم له** » (٢) .

إذن الرأى الأول أن هذا الحديث قيل فى صدر الإسلام ، وأن تعاليم الإسلام ظلت تتنزل خلال ربع قرن تقريبا ، فكان هذا الحديث تصويراً لأول ما بدىء تعليمه ، ثم جاءت بعد ذلك أشياء كثيرة لابد منها ولا يتم الإسلام إلا بها ولا تعتبر أركانه مستكملة إلا إذا أداها الإنسان جميعا .

هذا رأى تبناه أو فصّله وأشار إليه العلامة « المنذرى » المحدث المشهور .

هناك رأى آخر يقول : ليس من الضرورى أن تقول : هذا الحديث قيل أول الإسلام ثم جاءت بعد ذلك متممات له ، إنما المقصود بـ « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » من قالها مؤمنا بها ، موفيا بحقوقها ، وقافا عند حدودها ، نازلاً على ما يرتبط بها من آثار فى النفس والمجتمع ..

والآثار المرتبطة بالإيمان كثيرة ، وقد بين النبى عليه الصلاة والسلام هذه الآثار فى أحاديث شتى ، بيّن أن الإيمان لابد أن يكون مجموعة من الأخلاق الأساسية من صدق ووفاء وأمانة وضبط للمواعيد وشرف فى الخصومة ..

---

(١) رواه البخارى فى الإيمان ـــ باب دعاؤكم إيمانكم ١/٩ ومسلم فى الإيمان ـــ باب قول النبى ﷺ بنى الإسلام على خمس ١/٣٤ .

(٢) رواه البزار ، وفيه يزيد بن عطاء وثقه أحمد وغيره وضعفه جماعة وبقية رجاله ثقات . كذا فى مجمع الزوائد ١/٣٨ .

فإذا كان الإنسان يدعي الإيمان ثم لوحظ عليه أنه يفترى الكذب ، وأنه يتلاعب بالوعود ، وأنه يغدر بالعهود ، وأنه يخون الأمانات ، وأنه يفجر فى الخصومة ، فمعنى ذلك أن إيمانه مكذوب على نحو ما قال الله جلّ شأنه : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين** ﴾ [البقرة : ٨] .

وعلى هذا النحو جاء الحديث الشريف : « **أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدَّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر** » (١) .

فهذا الحديث يعنى أن الأخلاق من أركان الإيمان ، ويجب أن يكون الإنسان صاحب خلق حتى يعتبر إيمانه مقبولا ويقينه ناصجا .

ولابد أيضا للمؤمن من أن يؤدى الحقوق التى كتب الله عليه وهو منشرح الصدر ، مطمئن النفس ، فإذا طلبت منه زكاة رحب بما يدفع ، وإذا فرضت عليه نفقة نهض ولم يبخل ..

إن المنافقين يعتبرون الزكوات التى يدفعونها غرامة كلفوا بها ، ويعتبرون النفقات المطلوبة منهم مغارم لزمتهم وهم يودون لو فرُّوا عنها ، وهؤلاء يقول الله فيهم : ﴿ **ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم** ﴾ ثم قال جلّ شأنه : ﴿ **ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم** ﴾ [التوبة : ٩٩] .

يعنى أن المؤمن عندما تطلب منه النفقة يذهب بها إلى النبى عليه الصلاة والسلام ويقول له : يا رسول الله خذ ما فرض الله علينا وادع الله لنا .

---

(١) رواه البخارى فى الإيمان ـــ باب علامة المنافق ١/١٥ ومسلم فى الإيمان باب بيان خصال المنافق ١/٥٦ .

وكان النبى عليه الصلاة والسلام يأخذ الصدقات المكتوبة ، ويدعو لمن أداها (١) كما أمره الله بذلك : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم** ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

والنفقة إذا كانت مع إيمان ضخم فإنها تعتبر لذة للإنسان ، وقد كان سعد بن معاذ رضى الله عنه ـــ فى معركة بدر ـــ يقول للنبى عليه الصلاة والسلام : « **خذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت** » (٢) . هذا هو الإيمان .

أما المنافقون فإذا كانوا قد ضاقوا بالنفقات فهم أيضا يضيقون بذكر الله ، ويضيقون بالصلوات ، ويضيقون بالأذان ، وأبغض الصلوات إليهم الفجر والعشاء (٣) ، لأنهم يحبون أن يناموا وأن يستريحوا وأن لا يحتشدوا مع المؤمنين فى هذه الصلوات الجامعة ، ووصفهم الله فقال : ﴿ **وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا** ﴾ [النساء : ١٤٢] .

ولعل من المنافقين فى عصرنا من يعلنون كرههم للأذان ومن يتحدثون عن الأذان بغضب ، ولقد رأيت ناسا يجيئون إلينا فى الوزارة (٤) يطلبون أن لا يسمعوا أذان الفجر !!

---

(١) نص عبد الله بن أبى أوفى قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : اللهم صلِّ عليهم ، فأتاه أبى أبو أوفى بصدقته فقال : اللهم صلِّ على آل أبى أوفى » رواه مسلم فى الزكاة ـــ باب الدعاء لمن أتى بصدقته ١٢١/٣ .

(٢) رواه ابن مردويه من طريق محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثى عن أبيه عن جده . وذكره الأموى فى مغازيه . كما ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٢٦٤/٣) قال الألبانى (فقه السيرة للغزالى ص ٢٤١) . وهذا مرسل ، وكذا رواه ابن أبى شيبة كما فى « الفتح » (٢٣٠/٧)

(٣) نص الحديث : « ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء .. » رواه البخارى فى الأذان ـــ باب فضل العشاء فى الجماعة ١٦٧/١ ومسلم فى المساجد ـــ باب فضل صلاة الجماعة ١٢٣/٢

(٤) يقصد وزارة الأوقاف المصرية التى كان يعمل بها بوصفه مديرا للدعوة .

قلت لهم . وماذا ؟!

قالوا : لأننا نحب أن ننام .

قلت : لكن أذان الفجر شرع حتى لا تناموا ، وقد أودع الله فيه كلمة لم تودع فى الأذان بقية الصلوات الخمس ، وهى قوله : « الصلاة خير من النوم » .

فإذا كنتم تؤثرون النوم فإن هذه طبيعة الإنسان ، وقد جاء فى الحديث الصحيح : « **يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدة ، فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان** » (١) .

والمعنى أن الشيطان يجيء للإنسان من عند جهازه العصبى عندما يهدأ فى فراشه ويستقبل النوم ، وهذا سر التعبير النبوى « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم » فإن القفا ملتقى المخ والمخيخ وما يتصل بالجهاز العصبى ، وليست — بداهة — العقد هنا عقد حبل حسى ، لا ، هذه عقد معنوية ، إذ كل عقدة توعز للإنسان — وهو نائم — أن يستأنف النوم ، لأن الشيطان يهجس فى نفسه يقول له : أمامك ليل طويل ، أمامك متسع للرقاد ، أمامك ما تستريح به أكثر ، وهذا كله لينيمه عن صلاة الفجر وليؤخره عن أداء حق الله .

والله لقد نظرت إلى هؤلاء الذين يعتبرون الأذان مزعجاً لهم ثم تذكرت قوله تعالى فى المشركين : ﴿ **وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون** ﴾ [الزمر : ٤٥] .

لم هذا ؟!

---

(١) رواه البخارى فى التهجد — باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل ٢/٦٥ ومسلم فى صلاة المسافرين — باب ما روى فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح ٢/١٨٧ .

كان ينبغى أن يهش هؤلاء لذكر الله ، وأن يستجيبوا للنداء وهم يرحبون بتلبية من ينيمهم ومن يوقظهم ، من يميتهم ومن يحييهم، من يطعمهم من جوع ومن يسترهم من عرى ..

ولكن هكذا الناس فى عصرنا ، يرون أن صوت المؤذن مرعج ، وأن صوت الشيطان — عندما يقول لكل منهم : عليك ليل طويل فارقد — أحب إليهم من صوت منادى الرحمن !!

كلمة « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » كلمة زوّر الشيطان مفهومها عند كثير من المسلمين ، والغريب أنهم يدسّون أصابعهم فى كتب السنة ويستخرجون هذا الحديث دون أن يستخرجوا معه أحاديث أخرى تنبههم إلى ما يجب عليهم من سلوك وما يعرض عليهم من خطوات الكمال والترقى ..

فقد روى : « **لا يدخل الجنة قتات** » (١) أى نمام .

وروى أيضا : « **لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر** » (٢) .

وروى أيضا : « **لا يدخل الجنة قاطع رحم** » (٣) .

وروى أيضا : « .. **من غشنا فليس منا** » (٤) .

وروى أيضا : « **ليس منا من لم يجلّ كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه** » (٥) .

وروى أيضا : « **ليس منا من خبب امرأة على زوجها** » (٦) . أى أفسدها عليه .

---

(١) رواه البخارى فى الأدب — باب ما يكره من النميمة ٢١/٨ ومسلم فى الإيمان — باب بيان غلظ تحريم النميمة ٧١/١ .

(٢) رواه مسلم فى الإيمان — باب تحريم الكبر وبيانه ٦٥/١

(٣) رواه مسلم فى البر — باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها ٨/٨

(٤) رواه مسلم فى الإيمان — باب قول النبى ﷺ من غشنا فليس منا ٦٩/١

(٥) رواه أحمد ٣٢٣/٥ والطبرانى وإسناده حسن . كذا فى مجمع الزوائد ١٤/٨ ورواه أيضا الحاكم كما فى الجامع الصغير .

(٦) رواه أبو داود فى الطلاق — باب فيمن خبب امرأة على زوجها ٢٢٤/٦ والحاكم فى الطلاق .. وقال فى صحيح الجامع (٥٤٣٧) : صحيح

وروى أيضا « **لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن** » (١) .

فَلِمَ تُنسَى هذه الأحاديث كلها ؟

الواقع أن هناك أحاديث لابد من ذكر ملابساتها معها حتى تفهم على وجهها الصحيح ، وحتى لا يصل المسلمون فى فهم دينهم .

٢ ـــ من ذلك ما يسميه بعض العلماء حديث البطاقة ، وفى هذا الحديث يقول عليه الصلاة والسلام : « **إن الله سيخلِّص رجلًا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًا ، كل سجل مثل مدّ البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ يقول : لا يارب ، فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فيقول : احضر وزنك ، فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فقال : فإنك لا تظلم ، قال : فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله شىء** » (٢)

هذا ما روته كتب السنة ، وتعليقنا على هذا أن الأمر يحتاج إلى فهم ، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أقاتل وأسلم ؟ فقال : أسلم ثم قاتل ، فأسلم ثم قاتل فقتل ، فقال رسول الله ﷺ : « **عمل قليلا وَأُجِرَ كثيراً** » (٣) .

---

(١) رواه مسلم فى الإيمان ـــ باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ١/٥٤ .

(٢) رواه أحمد ٢/٢١٣ وابن ماجه فى الزهد ـــ باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ٢/١٤٣٧ والترمذى فى الإيمان ـــ باب فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله وقال هذا حديث حسن غريب ٧/٣٩٥ والبيهقى والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم . كذا فى الترغيب

(٣) رواه البخارى فى الجهاد ـــ باب عمل صالح قبل القتال ٤/٢٤ ومسلم فى الإمرة ـــ باب ثبوت الجنة للشهيد ٦/٤٤

هذا رجل – فعلا – كان مشركا ، وأعلن إيمانه بالله ، وقاتل مع النبي عليه الصلاة والسلام ، ومات قبل أن يصلى ، قبل أن يزكى ، لأنه ماطالت به حياة حتى يفعل شيئا من ذلك ، هنا يمكن – فعلا – أن يقال : إن كلمة التوحيد التى ختم بها حياته طهرت العمر كله ، وجعلت الرجل ينقلب إلى ربه وقد ابيضت صفحته وأصبح من أهل الجنة !!

هذا هو معنى حديث البطاقة ، أما أن يتصور المسلمون أن يفسدوا وأن يعثوا وأن يخونوا وأن يغدروا فى ظل كلمة لم يحسنوا خدمتها ولا الوفاء بها يدخلون الجنة،فهذا كلام ما قاله أحد من العلماء الراسخين أو الأئمة المحترمين ، إنما قاله الكسالى من المسلمين يوم أصبح الكسل شيمتنا ، وكانت نتيجة هذا التكاسل أو التلاعب أن سقطت ألويتنا وأن ضحك الناس منا وحدث للأمة الإسلامية ما حدث .

قال العلماء : إن كلمة التوحيد لكى تكون صادقة يجب أن يكون معها إيمان بأمرين وتنفيذ لأمرين :

* الرضا بأحكام الله ، وعدم الشغب عليها ، وعدم الطعن فيها ، وعدم الاعتراض على إنفادها .

* والجهاد فى سبيل الله .

وكلا الأمرين لابد منه للإيمان ، والله جلّ شأنه يقول : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾ [النساء : ٦٥] .

وأما القاعدون عن الجهاد فإن القعود عن الجهاد كشف نفاقهم .

فهل يقبل – فى عصرنا هذا – أن يجىء من يتندر أو من يسخر بأحكام الله ومن ينكص ويجبن عن الجهاد فى سبيل الله ومن ينضم إلى حزب الشيطان معترضا على الأذان ومن ومن .. ثم يدعى بعد ذلك أنه مسلم ؟!

لا ، كفى عبثا بالإسلام ، والله يقول فى مثل هؤلاء : ﴿ **وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا** ﴾ [الأنعام : ٧٠] .

٣ ـــ يتصل بهذا الحديث حديث آخر فى معناه ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « **لن يُدْخل أحدكا عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : لا ، ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة** .. » (١) .

هذا الحديث طار به أهل الغفلة والسماجة والشغب على دين الله ، طاروا به فى كل ناحية يقولون : الجنة شيء يساق إلى الناس هكذا دون عمل ! العمل ليس سببا فى دخول الجنة !

وهذا من أكذب الكذب على الله ورسوله ، والعيب أن الإسلام يتعرض لشرحه ــ أحيانا ــ من لا عقل لهم ولا فقه لديهم .

أما أن العمل سبب لدخول الجنة ولابد منه فى دخول الجنة فهذا نص القرآن الكريم فى مواضع كثيرة منه ، منها قوله جل شأنه فى سورة الأنعام ﴿ **لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون** ﴾ [الأنعام ١٢٧]

وقوله فى سورة الأعراف : ﴿ **ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ [الأعراف : ٤٣] .

وقوله فى سورة النحل : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ [النحل : ٣٢] .

وقوله فى سورة الزخرف : ﴿ **وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون** ﴾ [الزخرف : ٧٢ ، ٧٣] .

وقوله فى سورة الأحقاف : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ [الأحقاف : ١٣ ، ١٤]

---

(١) رواه البخارى فى كتاب المرضى ــ باب تمنى المريض الموت ١٥٧/٧ ومسلم فى صفات المنافقين ــ باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ١٣٩/٨

ولو أردنا أن نسوق عشرات الآيات من مواضعها في سور القرآن تنص على أن العمل سبب دخول الجنة لاستعرضنا القرآن كله.

قد يسأل أحدكم : فما معنى قول الرسول عليه الصلاة والسلام إذن « **لن يدخل أحدا عمله الجنة** » ؟ .

والجواب أن الرسول المؤدب الكريم الرقيق المهذب يريد أن يقول للناس : حذروا الاستكبار بالعمل ، احذروا أن تغتروا بالعمل ، احذر أن تعمل شيئا ثم تقف بين يدى الله لتقول له : لقد أديت لك حقك ، وما بقي لك عندى شيء ، فعندك لى الجنة بعدئذ !! كأنها دين عليه !!

المقصود من الحديث كسر دابر الغرور وإشعار الناس بأنهم لو قطعت رقابهم فى سبيل الله مما وفوا حق الله ، العمل سبب لابد منه لدخول الجنة ، ولكنه ليس الثمن الحقيقي للجنة .

هذا معنى الحديث ، لأن الله يستطيع أن يقول لأى إنسان عمل صالحا : تعال مالك عندى ؟

عبدتنى مائة سنة ؟

رزقتك مائة سنة ، فليس لك عندى شيء ، أو يقول له : يكن رزق لك تفضلا منى ، عبدتنى مائة سنة ؟ خذ فى الجنة مائة سنة تنعيما وتكريما ثم أفنيك وتتلاشى ولا يبقى لك وجود ، بل قد يقول الله للإنسان : لو حاسبتك على ما تقدم من عمل لاستخرجت لك من الشوائب والعلل فى عملك ما يجعل عملك يرفض ، ما أرجى عمل لك بين يدى ؟ صلاتك ؟ إنك تقف مصليا بين يدى فتملأ الوساوس صدرك ، وتسرقك الشواغل من بين يدى فتسرح يمينا وشمالا ، فلو حاسبتك لعاقبتك على سوء أدبك !!

إذن الحديث لا يقصد منه منع العمل كما يفهم المغفلون ، إنما الحديث يقول للإنسان : اكْدَحْ ، اعْرَقْ فى سبيل الله ثم قف منتفضا بين يدى الله لأنك ما أديت حقه وهذا معنى قوله تعالى ﴿ **فذرهم فى غمرتهم حتى حين . أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون . إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات**

ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾ [المؤمنون : ٥٤ ــ ٦١] .

إن الأحاديث النبوية تحتاج إلى أيد خبيرة ، إلى أصحاب بصر ، يعرفونها ثم يضيفون إليها ما يلحق بها من أحاديث أخرى وآيات قرآنية ، ثم تعرض على الناس لِيُنْتَفَعَ بها لا ليشغب بها على دين الله .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .



الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ **الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ [الشورى . ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، إمام النبيين وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد ..

فإنى أوصيكم ونفسى بتقوى الله عز وجل ، واعلموا أيها الناس أنه لا يصح — فى منطق عاقل أن يباع الشيء الواحد بألف جنيه وبمليم ، كيف يتصور أن يباع بأعلى الأسعار وبأزهدها وأتفهها ؟

إن الله عز وجل قال : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ [التوبة : ١١١] .

فإذا كان قد باع الجنة بالنفس والمال فأى ثمن هذا ؟

إنه ثمن كبير ، وإن كان المؤمنون قديما قالوا : نحن الرابحون ، فإن النفس هو خالقها ، والمال هو رازقه ، هو أولى بنا منا ، فإذا أخذ ما يملك ومنح الجنة نظيره فنحن الرابحون .

على أى الأحوال النفس والمال ثمن الجنة فى الآية ، فهل يتصور أن تباع الجنة بالنفس وبالمال ثم يأخذها أحد الكسالى بكلمة ما فكر فيها ولا أدى حقها ولا عرف معناها ولا طهر نفسه بسناها ؟

هذا مستحيل ، ينبغى أن نعقل فإن الإسلام تأنب عليه أعداء لا ينامون من كثرة النشاط ، لا يستبقون لأنفسهم شيئا من كثرة التضحيات ..

اجتمع يهود العالم الأغنياء وأعطوا ألوف الملايين فى ساعة من الساعات ، فإذا كان أعداء الإسلام يتنازلون — من ثرواتهم — عن ألوف مؤلفة من الملايين وأبناء الإسلام لهم أرصدة هائلة رهيبة تُشْغِلُ العالم الرأسمالى وهم يضنون بالعطاء منها فى سبيل الله فكيف يعتبر أولئك مؤمنين يسندون الإسلام ويعتبر هؤلاء كفارا يساندون الشيطان ، ثم ينتظر أن ينتصر البخيل بنفسه البخيل بماله على المتطوع بماله المخاطر بنفسه ؟

هذا مستحيل ، ينبغى أن يعرف المسلمون من أصحاب المال الطائل أن الذى عرض عليهم الإسلام يطلب منهم أن ينفقوا أكثر مما ينفق الكفار فى سبيل الشيطان ، أما أن نبخل ونجبن ونعبث ، أما أن تخرج الأمور من بين أيدينا مضطربة ثم يزعم المسلمون أن الجنة حكر عليهم فهذا كذب على الله الذى يقول للمسلمين : ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجزبه ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا** ﴾ [النساء : ١٢٣ ، ١٢٤] .

« **اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر** » (١) .

﴿ **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم** ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

---

(١) رواه مسلم فى الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨

الإسلام والمتغيرات الدولية

خطبة عيد الفطر المبارك

بساحة مسجد مصطفى محمود

فى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

الحمد لله ذى الجلال والإكرام والعزة التى لا ترام .

﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ [غافر : ٣] .

﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً ﴾ [الإسراء : ١١١] .

الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ولله الحمد ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلًا .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير .

كلّ شىء هو خالقه ، كل حى هو رازقه ، كل نور هو مُشرقه .. سبحانه تبارك اسمه ، سبح كل شىء بحمده ، وخضع كل شىء لمجده ، واحتاج كل شىء لعطائه ورِفده ، سبحانه فى الأرض والسماء .. **﴿ فلله**

الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الجاثية : ٣٦ : ٣٧] .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، خيرة الله من خلقه ، وصفوته من عباده ، أمير الأنبياء ، أول خلق الله ديناً .

صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد ....

فنحن الآن نلقى نظرة إسلامية على أحوال أمتنا والمتغيرات العالمية حولنا ، وهى نظرة نستلهم الله فيها الرشد ، ونسأله أن يعيننا على الصدق ، وأن ينفعنا بالعبرة التى ينبغى أن نستخلصها من هذا كله .

وقبل أن أخوض فى بعض العناوين التاريخية أحب أن أقول للناس كلهم : إن الإسلام دين يقوم على الإقناع الحر والدعوة المجردة ، لا يعرف ضغطاً ولا إكراهاً لا مادياً ولا معنوياً ، إنه يعرض ما عنده ، ويترك لذوى الألباب أن يتخيروا ما شاءوا . وفى حماس العرض قد يكون الإنسان شديد اللهجة قوى النبرة ، ولكنّ الله يقول لنبيه ﷺ وهو يعرض ما عنده :

﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ [يونس : ٩٩] .

وليس هذا حكراً على دين محمد ﷺ بل الأديان كلها منذ بعث نوح عليه السلام ترفض الإكراه وتقوم على الدعوة المجردة ، ولذلك يقول نوح لقومه : ﴿ يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾ [هود ٢٨] .

منذ بدأ محمد ﷺ دعوته ما أكره أحداً على الدخول فى دينه ولا عامل خصومه إلا بالبر والقسط . ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة

الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ [البقرة ٢٥٦] .

على هذا الأساس بدأت دائرة الدعوة الإسلامية تتداح فى جزيرة العرب ، ودخل عرب الجزيرة فى الإسلام بعد عشرين سنة وهم داخرون يعلمون أن الحرية الدينية وحدها هى الباب الذى دخلوا منه فى هذا الدين العظيم ، ولكن العالم من حول الجزيرة لم يعامل العرب بالإنصاف ولا بالقسطاس ، بل وجدنا شيئاً آخر ،فإن الدولة الرومانية ــ وكانت الدولة الأولى فى العالم يومئذ بعد أن انتصرت على الفرس فى معركة هائلة استردت فيها الصليب الأعظم وفرضت سلطانها على الدنيا ــ أبت أن يأخذ الإسلام مدَّه ، فحاصرت جزيرة العرب من الشمال .. ويقرأ المسلمون التاريخ ــ ولا أدرى أيقرءونه بعقل أم يرددون كالسعاوات ما سطر التاريخ لهم من وقائع ــ وفيه أن الرومان رفضوا أن تنطلق الدعوة الإسلامية من جزيرة العرب ، وأنهم أرسلوا جيشاً لهم من نحو مائتى ألف مقاتل لقتال المسلمين فى « مؤتة » وأرغمهم على الانسحاب جنوباً ــ ومؤتة فى جزيرة العرب تساوى « بنها » مثلًا أو « طنطا » فى مصر .

نقول للرومان : من جاء بكم من قارتكم إلى داخل جزيرة العرب تقاتلون الإسلام وتقتلون القادة الثلاثة لهذا الجيش ؟ جاء بهم الطغيان والتعصب ، ثم انطلق المسلمون يثأرون لأنفسهم ويمدون دعوتهم وذهبوا إلى « تبوك » وتراجع الرومان قليلًا كى يلتقطوا أنفاسهم ويجمعوا قواهم ، وفوجىء المسلمون بأن النبى ﷺ قد مات ، ولكن خلفاءه رضى الله تعالى عنهم مضوا فى نفس الخطة وقاتلوا الرومان لماذا قاتلنا الرومان ؟.

إن الله سبحانه وتعالى يقول ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ [آل عمران : ١٩] فهل نفرض الإسلام على الناس ؟ .

لا ، لا ، لا ، قال تعالى : ﴿ **فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد** ﴾ [آل عمران : ٢٠] .

أنا أعرض الدين ــ كما يعرض الناس الأرباء ــ وأقول للناس :

هل يعجبكم هذا الدين ؟ فإن أعجبهم ودخلوا فيه فأنا أخ لهم وهم إخوة لى ، وإن قالوا : لا نريد دينك ، اشبع أنت به ، أقول لهم : أطلب منكم أمرين :

الأمر الأول : هل تتركونى بدينى دون فتنة ؟ .

الأمر الثانى : هل تسمحون لى أن أعرض الدين على غيركم ؟ .

فإن قالوا : نعم . قلت لهم كما أمرنى الله : ﴿ **فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا** ﴾ [النساء : ٩٠] .

أما إذ قالوا : إن نطقت بكلمة تدعو بها إلى الإسلام أغلقنا فمك بالسلاح ، وإذا دخل أحد فى الإسلام عذبناه حتى نرده ، ضَرِيت الحرب بينى وبينهم ولست معتدياً ، إن قتال الاعتداء لا يعرفه ديننا أبداً : ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

فماذا نصنع إذا كان غيرنا يريد فتننا ، ويريد إغلاق أفواهنا ، ويأبى أن يترك الإسلام بالقلم واللسان يتحرك ؟! .

أوجه النظر إلى أمرين :

* إن محمداً ﷺ رحمة للعالمين .

* لقد كان الاستعمار الرومانى يضغط بصدره الثقيل على جزيرة العرب وعلى وادى النيل وعلى الشمال الإفريقى وعلى آسيا الصغرى ، فإذا كان الإسلام قد قاتل الاستعمار الرومانى وأطلق الشعوب السجينة من سجنها الكبير وأعطاها الحرية فهل يلام لأنه حرر الشعوب ؟ .

الحقيقة أن الإسلام ـ بالفتوح التى قام بها ـ حرر شعوباً كانت سجينة ، ورفع رؤوساً كانت ذليلة ، بل إن الأقباط فى مصر استقبلوا الفاتح المسلم ببشاشة وحفاوة لأن الاستعمار الرومانى كان قد عزل البطريرك وقتل أخاه حرقاً ثم رمى جثته فى الإسكندرية على شاطىء البحر ، ففرح الأقباط

بدخول الإسلام لأنه دخل محرراً مقرراً حرية التدين ؟!

إننى أقول بملء فمى وأقول بفخر واعتزاز : نحن المسلمين ابتدعنا الحرية الدينية فى الأرض ، وما كانت أوربا تعرفها ،بل يعرف العالم كله أن الكاثوليك فى فرنسا ـ منذ قرنين اثنين ـ أوقعوا مذبحة بالبروتستانت قُتل فيها ثلاثون ألف بروتستانتى فى مذبحة « سان بارثلميو » (١) وهى مذبحة هائلة عندما وقعت فرح الفاتيكان بها وصك نقوداً تخليداً لذكراها .

هذا عمل لا يعرفه الإسلام فى تاريخه أبداً ، نحن ابتدعنا حرية الرأى وحرية الدين ولا نزال حراس التدين الحر ..

لكن أوربا بعد خمسة قرون عادت مرة أخرى فأعلنت علينا حرباً صليبية ظلت ثلاثة قرون بعد أن جَرَّت إليها التتر ، والتاريخ الأوربى يقول : إن إسقاط بغداد كان فى معركة تترية صليبية ، وسقوط بغداد كان سقوطاً رهيباً .

والثلاثة قرون التى هوجمت فيها الأمة الإسلامية شهدت ثمانى حملات صليبية ، وأكتفى فى تلخيص هذه الحملات بكلمات لـ : « فيليب حتى » .. وهو مستشرق مارونى أمريكانى ـ قال : فى القرن الثانى عشر من الميلاد كان كل شيء يؤذن بزوال دين محمد ، فقد نجح الصليبيون فى اكتساح فلسطين ، وتسللوا ودخلوا مصر ، وتسللوا يبتغون طريقهم إلى الحجاز ، ونجح التتار فى إسقاط بغداد ، ويوشك أن تنتقى دراعا الكماشة على العالم الإسلامى فيموت !! .

لكن المسلمين إبان الأزمات العصوص وأيام الضوائق المهلكة يتجمعون على دينهم ويتساندون على صفوفهم ، ويكونون جبهة تستميت فى الدفاع عن موروثاتهم وعقائدهم ..

---

(١) مذبحة سان برثلميو . مذبحة دامية حدثت فى يوم عيد القديس برثلميو بباريس عام ١٥٧٢ دبرتها الملكة الأم كاترين دى ميديشى ضد البروتستانت واشترك فى تدبيرها دوق أنجو ودوق جيز وراح ضحيتها أعداد كبيرة من الفرنسيين البروتستانت بلغ عددهم نحو ٣٠ ألفاً نصفهم فى باريس ومن بينهم الأميرال كوليني .

ولذلك يقول « فيليب حتى » : فلما جاء القرن الثالث عشر للميلاد كان هناك سؤال آخر : هل سيقف شيء أمام دين محمد !! .

استعاد المسلمون بيت المقدس ، ودخل التتر فى الإسلام ، وجاء القرن الثامن الهجرى والأمة الإسلامية قد غسلت أرضها غسلًا من بقايا الصليبية الزاحفة ، ونجا المسلمون من البلاء الذى أريد بهم .

أكنا نحن فى هذا معتدين ؟ .

غُربيا فى عقر دارنا ، قتل التتر مليونى شخص فى بغداد ، اسودَّ النهر مرة بالكتب التى ألقيت فيه ، واحمرَّ مرة أخرى بالدماء التى سالت إليه !! .

حدث للأمة الإسلامية ما حدث ، ثم شاء الله أن يقود الأتراك العالم الإسلامى فثأروا لما حدث وأسقطوا عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، واتجهوا فى غرب أوربا حتى وصلوا إلى « فيينا » وظلوا نحو أربعة قرون يقاتلون على هذا الأساس .

لكن الذى حدث بعد ذلك ـ وتلك الأيام نداولها بين الناس ـ أن الأوربيين استردوا أنفاسهم وهجموا مرة أخرى ، وسقط العالم الإسلامى بقضه وقضيضه .

لكن هذا العالم الإسلامى ـ كما قلت ـ مرن على أن تُجتاح أرضه ثم يلتقط أنفاسه ويصطلح مع ربه ويعود إلى قواه ، وبدأنا فعلًا حروب تحرير انتهت بأن مصر ـ ولله المنة ـ تحررت وأن العلم الإسلامى انتشر فى بلاد كثيرة واستقلت أرضُون كثيرة منه ، فماذا حدث ؟ .

حدث زحف آخر ، فإن الصليبية العالمية اصطلحت مع الصهيونية العالمية وأسست دولة إسرائيل على أكبادنا وأنقاضنا ، ورضى المظلوم ولم يرض الظالم ، ورضى المقتول ولم يرض القاتل ، ورضى المغتَصَب المسروق ولم يرض السارق المغتصِب ،وأبى أن يترك للعرب مكاناً يعيشون فيه ثم قال نريد إسرائيل الكبرى ، وقبل أن أحدد ما هى إسرائيل الكبرى أقول لكم :

إن هناك قساوسة انجيليين فى الولايات المتحدة الأمريكية ـ والولايات المتحدة الأمريكية فيها نحو أربعين مليون كاثوليكى ـ يقولون : إنه لابد من أن يدخل اليهود الأرض المقدسة أرض الميعاد وأن يقيموا دولة لهم ويجب أن تنتظر مسيحهم ، بل إن قسيساً اسمه . « إيفانر » ومعه نفر من القساوسة أقنعوا مجلس الشيوخ والنواب فى أمريكا بأنه لابد من أن تكون القدس عاصمة لإسرائيل !! .

ولذلك تحول تسعة أعشار أعضاء مجلس الشيوخ والنواب إلى دراويش للصهيونية العالمية ، بل قرروا الإيمان بالمسيح اليهودى . أتعرفون من المسيح اليهودى ؟ إنه المسيخ الدجال الذى حُذرنا منه ومن فتنته ، لقد آمن به دراويش مجلس الشيوخ ومجلس النواب الأمريكى قبل أن يظهر المسيح الملعون الإله الأعور الذى سيجيىء إلى فلسطين ويحاول العبث بالمقدسات !! .

على كل حال إن الحركة الآن تتجه إلى أن إسرائيل الكبرى ـ كما فى العهد القديم (١) ـ من الفرات إلى النيل ..

ومعنى هذا أن إقامة إسرائيل الكبرى يجب أن تجتاح فى فضائها الحيوى وامتدادها الدينى مصر والعراق والسعودية والأردن وسوريا ولبنان وفلسطين !! .

ومعنى هذا أيضاً أن المعركة التى يريد اليهود فرضها معركة دينية ، إذا نجحوا فيها هلكنا جميعاً ، وإذا هلك العرب هلك المسلمون من بعدهم !! .

أنا أعلم أن رؤساء العرب كلهم لا يريدون المعركة لأسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية ، ولكنى أقول : إن المعركة ستفرضها إسرائيل علينا شئنا أم أبينا !! .

فماذا نصنع ؟ .

---

(١) فى سفر التكوين ـ الإصحاح الخامس عشر : « فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات .

يجب أن تسد الفجوات بين الحكومات العربية كلها ، يجب أن يصطلح العرب وأن يكونوا أسرة كأسرة أوربا العربية ، لابد أن تردم الفجوات بين الدول العربية ، يجب أن ينسى السوريون ما صنع العراقيون وأن ينسى العراقيون ما صنع السوريون وأن ينسى المصريون ما صنع غيرهم ، يجب أن نتلاحم وأن نكون أمة واحدة .

هذه واحدة ، ويجب أن يتحرك الإسلاميون حركة تقريب ، وأنا أول من يتنازل عن حقوقه لدى من أساءوا إليه ، أنا أريد أن يتصافح الإسلاميون وأن يتعاونوا ، وأريد أن لا تكون بين الشعب وبين حكومته فجوة أو جفوة أو خصومة .

إن هذه الفجوات والجفوات هي التي سيتسلل منها الزحف اليهودى لإقامة إسرائيل الكبرى ليطحن الجيل الحاضر والجيل القادم على سواء .

إننا يجب أن نطرح الخصومات والعداوات تحت أقدامنا ، يجب أن نعلم أن الأمة الإسلامية فى خطر داهم .

إن الرئيس الأمريكى « بوش » يقول : أنا فرح لأن القدر اختارنا لنشهد الخروج الكبير من روسيا إلى فلسطين !! .

إننا أيها الإخوة غافلون ، إن بواعث دينية رهيبة وراء العداوات التى تبيت الشر لمستقبلنا والظلام لحاضرنا ويومنا وغدنا .

إننا يجب أن نصطلح وأن نتعاون وأن ننسى الخصومات وأن نتآخى وأن نتدارس كيف تنتهى هذه المحنة وكيف تتلاشى هذه المآسى ، يجب أن يتحرك المسلمون حركة تقارب وتعاون وتآخ ، لابد من هذا وإلا ضعنا .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، موفق العاملين ، وناصر المتقين ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، ما دار في فضائه فلك ، الله أكبر ما سبح بحمد الله بشر أو ملك ، الله أكبر ما بسق في حقله نبات ، الله أكبر ما اهتز في مهده طفل ينشد الحياة ، الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر ولله الحمد .

وأشهد أن لا إله إلا الله . وأشهد أن محمداً رسول الله .

اللهم صل وسلم وبارك على محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أما بعد :

أيها الإخوة . انتهى رمضان ، وأنا غير راض على الطريقة التي انتهى بها رمضان ، والله لقد أكلنا كثيراً ، وما كان ينبغي أن نأكل كثيراً فإن رمضان شرع للصيام لا للطعام ، ووالله لقد سهرنا مع ليال سخيفة فيها هزل ولهو ولعب وما كانت ليالي رمضان إلا للقيام .

وإذا كنت أودع رمضان فإني أقول للمسلمين بيتين قيل إنهما للإمام الشافعي وقبل أن أذكرهما أذكر هذا التمهيد لهما :

الأعمال قسمان : أعمال قلوب وأعمال جوارح ، وقد اتفق علماء الإسلام على أن أعمال القلوب أخطر من أعمال الجوارح ، أعمال القلوب هي الأساس ، وأعمال الجوارح هي شيء ثانوي ، معاصي القلوب هي الهلاك ، ومعاصي الجوارح هي شيء ثانوي ، معاصي القلوب مثل الكبر والرياء والحسد والحقد ، ومعاصي الجوارح مثل السرقة والنظرة الدنيئة .

يقول الإمام الشافعي :

وذَرّة من القلب التّقيّ من الرضا والصدق والتوكل
أثقل عند الله من جبال شمخن من ظواهر الأعمال

* * *

ذرة من عمل القلب النقى الطيف البرىء الذى يستهدف وجه الله أفضل من جبال من الأعمال التى يقوم بها البدن فى غيبة القلب . وأنا فى الحقيقة - لو يُسمع لقصير أمر ، وأنا قصير ، لألغيت الأعياد فى العالم الإسلامى كله وقلت منها الشعائر الدينية فقط ، أى أعياد والقدس ليست بأيدينا ؟ .

كان صلاح الدين مكتئباً دائم الحزن قيل له : ما أحزنك ؟ قال : كيف أفرح وبيت المقدس فى يد الصليبيين ؟ .

أطفال الانتفاضة يتضورون من الجوع ، مسلمو أفغانستان يقاتلون وهم يتعرضون للتضور والعرى ، فما الذى يُفرح المسلمين حتى يعيِّدوا ويطبِّلوا ويزمروا ؟ والله هذا خراب قلوب ؟! .

خذوا من الأعياد الناحية الدينية فقط ثم قولوا : لا عيد لنا حتى نطهر الأرض ممن وسخ أرضنا وأهان ديننا وأسقط رايتنا وجعلنا نعيش غرباء فى هذا العالم ؟! .

إنى أطلب من المسلمين أولًا أن يصلحوا ذات بينهم ، وثانياً أن يجتمعوا حكومات وشعوباً حتى يدرسوا كيف يغيرون عاداتهم ، وكيف يغيرون تقاليدهم ، وكيف يغيرون أحوالهم ، وكيف يستعدون لعدو قرر ذبحهم وهو ينتظر الوقت المناسب لتنفيذ ما قرره ، كأنه حكم علينا بالإعدام وهو ينتظر اليوم الذى ينفذ فيه هذا الحكم ، أننام ؟ أنلهو ؟ أنضحك ؟ أنتخاصم ؟ أنتفرق ؟ أنجرى وراء القضايا الصغيرة ؟ أنهتاج للأمور التافهة ؟ .

يا إخوانى يجب أن نغير أحوالنا وأعمالنا ، وأنا كإنسان مسئول عن الناحية الدينية سأنصح إخوانى الإسلاميين أن يلغوا ما بينهم من فروق وأن يتعاونوا على البر والتقوى وأن يقولوا كما قال المجتهد الأول : رأيى صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب !! .

وأقول للحكومات العربية كلها : تآخوا ، تعاونوا ، التصقوا بشعوبكم ، هذا هو المستودع الذى تأخذون منه الرجال ، إن المتدين

المتحمس هو الذى سيقتل الصهيونى الذى يريد قتلى فانتفعوا به ولا تحرقوه !! .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

* * *

نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ "الأَنعَامِ"

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضي الله عنه
٨ / ١٢ / ١٩٧٢ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

فقد قرأت سورة الأنعام قراءة عامة ، وفسّرتُ جُملها تفسيراً فيه شيء من الأناة ، ثم رأيتُ — في هذه الخطبة — أن أعرض بعض الملاحظات العام التي استشعرتُها وأنا أقرأ السورة وأفسرها . وسورة الأنعام يمكن أن تسمى سورة « العقائد » لأنها تحدثت عن أصول الإيمان وأوضحت معاقد الحس والقوة في شُعبه المختلفة ، وأسلوب السورة في ذلك كأسلوب القرآن كله

في الحديث عن الله جلَّ شأنه ، والحديث عن الله في الكتاب العزيز بعيد عن نقعر الفلاسفة وعن تعقيداتهم في قضاياهم المختلفة .

حديث القرآن عن الله تعريفٌ للبشر يقوم على السهولة في العرض وعلى توجيه الأنظار إلى ما في صحائف الكون من آثار تدل على الخالق تبارك اسمه .

ولذلك بدأت سورة الأنعام بشرح سهل ﴿ **الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾ [الأنعام : ١] .

الله جلَّ شأنه هو الذي أوجد المكان والزمان ، خلق الأرض وخلق حولها الظُّلمة والضوء والليل والنهار !!

ومضت السورة ــ في حديثها عن الله ــ تشرح روائع آياته في ملكوته ﴿ **إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون * فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ [الأنعام ٩٥ ، ٩٦] .

والسورة ــ أحياناً ــ تتحدث عن المولى جلَّ وعزَّ بضمير الغائب وهو حاضر دائماً ﴿ **وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون * وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الايات لقوم يفقهون * وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ [الأنعام : ٩٧ ــ ٩٩] الحديث عن الله حديث يُعرِّف الناس ربهم تعريفاً سهلاً سمحاً بعيداً عن صناعة المنطق المتكلف وعن غموض الفكر الفلسفي الذي يضيق جمهور الناس به .

ومع أن أسلوب القرآن سهل سمح فإن حقائقه العقدية فوق الريبة ، وقد تحدثت السورة عن الله ، ثم نفت الفكرة الوضيعة ـ التي شاعت قديماً ولا تزال تشيع إلى الآن ـ عن أن لله ولداً أو ابناً ﴿ **بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم * ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾ [الأنعام : ١٠١ ـ ١٠٣] وسورة الأنعام عرضت العقائد من خلال النظرة التي أجملتها الآن ، بينت أن أصحاب الحق عندما جاءوا للناس به يبسطون حقيقته ويقررون أدلته اعترضتهم جماهير من الناس أُتيت الضلال وانبعثت إلى الباطل يقودها طواغيت ممن يستمدون جاههم أو سطوتهم أو سلطتهم من هذا الباطل المستقر ، ولذلك يجادلون عنه ويقاتلون دونه !! .

ومن ثَمَّ وقع صراع بين الحق ـ يمثله الأنبياء ومَنْ على أقدامهم من الدعاة ـ وبين الباطل ـ تمثله شرادم من الجهلة ومَنْ على رأسهم من الطواغيت والفراعنة والفُجَّار !!

وقد أشارت السورة إلى ملامح هذا الصراع ، ونحن عندما نتتبع هذه الملامح نستفيد أدباً ويقيناً نحن بحاجة إليهما !! قال تعالى : ﴿ **ولقد استهزيء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءُون * قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ [الأنعام : ١٠ ، ١١] .

وفي الوقت الذي يهدد فيه الضالين ويقول لهم : التفتوا إلى مصاير مَنْ سبقكم ، يقول لأهل الحق : لا بد أن تصبروا على تكاليف الدعوة وأن تؤدوا ضريبة اليقين وما تستتبعه هذه الضريبة من تضحيات وآلام ، ويوجه الكلام لسيد الرسل وحامل لواء الحق من بدء الخلق إلى نهايته ﴿ **ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين** ﴾ [الأنعام : ٣٤]

لكن كيف ستدور المعركة بين الحق والباطل ؟ .

أهل الحق — أحياناً — يداخلهم شيء من الغرور أو لعلهم يتصورون أنهم ما داموا يساندون الحق فإن مرسل الحق ومنزله لا بد أن ينزل نصره على أهل الحق ولو فرطوا ، أو لابد أن تكون هناك خوارق عادات وأن تكون هناك أمداد غيبية غير متوقعة تنصر الحق !! وربما كان هذا التفكير سبباً في أن يتهاون أهل الحق في نصرته منتظرين من ظروف عارضة أو من قوىً معيبة أن تقوم عنهم بتسطيم فرَّطوا فيه أو بإعداد نكلوا عنه أو بقوى لم يحسنوا استجماعها أو استكمالها !! .

وهنا يؤدب القرآن المؤمنين على لسان خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام ﴿ **قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إليَّ** ﴾ [الأنعام : ٥٠] .

والمقصود من هذه الكلمات أن يجتهد المؤمنون ، وأن يبذلوا قواهم كلها وألا يتوقعوا نصراً يجيئهم مع تفريط ..

والذي يرقب المعارك بين المحقين والمبطلين — إلى يومنا هذا — يرى أن أتباع الإيمان إلى الآن ما يحسنون خدمته بالأساليب التي تُخدم بها في الدنيا المبادىء والعقائد !! مايزال المبطلون يتجمعون على باطلهم ، وما يزال المحقون يتفرقون حول حقهم !! .

نحن بشر ، وينبغي أن نحشد في معركتنا كل ما يطيقه البشر دون انتظار لشيء ، فإذا أدينا ما علينا وكان ما أديناه — بطبيعته — قاصراً دون بلوغ النصر فإن نصر الله يجيء حتماً ما دمنا قد أدينا كل ما طُلب منا !! وكيف يجيء النصر ؟ إن الله عز وجل يبين أنه أحياناً يُنضج الناس على لهب الأحداث كما يَنضج الطعام أو كما ينضج الزرع تحت لهب الشمس أو لهب النار ، قال تعالى : ﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون** ﴾ [الأعراف : ١٣٠] .

وفي سورة الأنعام — هنا — يقول لنا كلاماً يحتاج إلى بيان ، وبيانه

ـــ أولاً وقبل أن نقرأه ـــ أن الناس يستكبرون إذا أَلِفوا حالة معينة بقيت لهم يستمتعون في ظلها ويتعودون النعيم في بحبوحتها ، ولقد شعر النبي عليه الصلاة والسلام بأن ضلال قريش وصدودها عنه يرجعان إلى أن قريشاً عاشت في شبع وفي أمان وأن الشبع أغراها بالكبر وأن الأمان أغراها بالعدوان ، إذن لو تغيرت حالها فإن طغيانها وعدوانها ينحسران ، ولذلك دعا عليه الصلاة والسلام عليهم بهذا الدعاء : « اللهم أعني عليهم بسَبْعٍ كسَبْعِ يُوسُفَ »(١) أي سبع سنوات عجاف تجعل كبرهم ينكسر ، وغرورهم ينحسر ، ويتواضعون لله ، ويفتحون قلوبهم للحق الذي رفضوا أن يستمعوا إليه وقالوا لصاحبه ما قالوا

لا بد أن يفاوت القدر في أحوال الناس بين الخير والشر ، والحلو والمر ، والنصر والهزيمة لأن الأمر كما قال رب العالمين : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ﴾ [الشورى : ٢٧] وتصريف أحوال الناس من سلم إلى حرب ومن شدة إلى رخاء ومن نصر إلى هزيمة إنما هو تقليب لهم وغَمْز لأدمغتهم ونواصيهم حتى تتحرك إذا جمدت ، قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ۝ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ۝ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ۝ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ [الأنعام : ٤٢ ـــ ٤٥] .

إن الله تبارك وتعالى يقسم الأمم بين الأزمات والرخاء حتى تتذكر ، وربما مكر بالظَّلَمة ووسَّع عليهم كما يُسَمَّن الخروف حتى يُذبح ، وعندما يَسْمَنُون وينتفخون ويَخْتَرُّون يقطع دابرهم ويعلن أن الحمد لله رب العالمين !! لكن قد يطول المدى ، ومع طول المدى نجد أنواعاً من النفوس

---

(١) رواه البخاري في التفسير ـــ سورة الدخان ٦ / ١٦٤ ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ـــ باب الدخان ٨ / ١٣٠ ، ١٣١

لها منطق متغاير ، لكل نفس اعتراضها وسؤالها وموقفها : هناك نفوس تستعجل ، وأولئك المستعجلون ذهبوا إلى النبي ﷺ — من باب الهزء أو من باب الكفر — وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يُمِدَّ فيهم وعيد الله ، وكان الجواب الإلهي على لسان النبي ﷺ حاسماً : ﴿ **قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين * قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين * قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين** ﴾ [الأنعام : ٥٦ — ٥٨] .

وهناك نفوس أخرى قد تستعجل أو قد ترتد أو قد تستطيل مراحل الطريق فتفر في أوائله ، وفي هؤلاء تسمع قوله تعالى ﴿ **قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا** ﴾ [الأنعام : ٧١] لكنه لا يجيء ، ضلّ وراغ ، فليَضل من يضل ، وليؤمن من يؤمن فإن كل إنسان سوف يجني ثمرة كدحه المادي والأدبي على سواء

ملاحظة أخرى في العلاقة بين الحق والباطل يمكن أن تنضم إلى هذه الملاحظة وهي أن الله عزّ وجلّ — في سورة الأنعام — حرّك الفكر البشري النائم لأن بعضاً من خُدِّرت عقولهم بتقاليد بالية جاءوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام يطلبون منه بعض خوارق العادات كي يؤمنوا : ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون** ﴾ [الأنعام : ٨ ، ٩] مرة أخرى : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ [الأنعام : ١٠٩ ، ١١٠] إن الخاصة الأولى للإسلام أنه دين أقام تعاليمه على عظمة الفكر البشري وعلى عظمة العقل الإنساني ، ولذلك

من جميع خوارق العادات التي وقعت للنبي عليه الصلاة والسلام أعطيت مرتبة ثانوية لأن المعجزة الكبرى للنبي عليه الصلاة والسلام هي القرآن الكريم ، ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام : « **ما مِن الأنبياء مِن نبي إلا قد أُعطِيَ مِنْ الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيتُ وحياً أوحى الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة** »(1) .

لقد قرأتُ سورة الأنعام وتأملتُ في معانيها ومراميها وشعرتُ بأن هذا القرآن العظيم مشحون بالهدايات العميقة ، مليء بالعبر المذكِّرة ، مليء بالقوى المفجرة لطاقات الأمم لو أن الأمم استمعت ووعت !!

وتُختم السورة بهذه الكلمات تتمة للأقوال(2) الأربعة والأربعين : ﴿ **قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ [الأنعام: ١٦١ ـــ ١٦٣] .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن ـــ باب كيف كان نزول الوحي ٦ / ٢٢٤ ومسلم في الإيمان ـــ باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته ١ / ٩٢
(٢) تكررت كلمة « قل » في السورة أربعاً وأربعين مرة .

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ .. **الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لم عذاب شديد** ﴾ [الشورى . ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام النبيين وسيد المصلحين .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

فإن خمسين شاباً من كلية الشريعة ــ آتاهم الله رشدهم ، وسدَّد خطوهم ، وبارك عملهم ــ جاءوا إلى المسجد اليوم وأقاموا فيه معسكراً لتنظيفه . وأخذوا فعلاً يجمعون القُمامات ويزيلون الأتربة ، ويحاولون أن يوفِّروا لبيت من بيوت الله بعض ما يجب له من توقير وكرامة ، ولكن جهودهم قاصرة حتماً !! لماذا ؟ لأنهم يعملون داخل إطار ضيق فرض عليهم !! هذا الإطار الضيق هو التعليمات التي وضعتها مصلحة الآثار !! وأنا في الحقيقة لا ينقضي عجبي من مصلحة الآثار في مصر ، فإن المجاري طافحة في صحن المسجد ، فهل المحافظة على طفح المجاري بعض ما تعمل له مصلحة الآثار في مصر ؟! لو كان هذا الأثر أثراً فرعونياً لجمعت له الأموال من كل مكان للمحافظة عليه !! ولكنه أثر إسلامي فلا حرج أن تطفح المجاري فيه ! .

ما فكرت مصلحة الآثار يوماً في أن تأمر بإعلاء أرض المسجد حتى ينقطع هذا الطفح المؤذي ! .

والمشكلة في بلدنا يجب أن تُعرف بصراحة، إني لا أحس الغموض ، إن إضاعة هذا المسجد وتحقير عمل ما تقرُّ به إلا عيون الاستعمار العالمي ، والذين يستقون هذا المسجد على هذا النحو قد يكونون مصريي الجنسية

ولكن قلوبهم إما أن تكون شيوعية أو صليبية استعمارية ، لأنه ما يمكن أن تكون المحافظة على بقاء المجاري في المسجد عملاً تحافظ عليه أو تتشبث به مصلحة الآثار في مصر .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر »(1) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصـلاة

---

(١) رواه مسلم في الذكر ـ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨ / ٨١

أُولُوا الأَلبَابُ فى القرآن الكريم

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

فإن العقل أنفس مواهب الرحمن عند الإنسان ، به يقدر الإنسان أن يعرف النافع من الضار والحسن من القبيح والخطأ من الصواب والسفه من الرشد .

وقد وردت فى القرآن الكريم نحو ثلاثمائة آية تتحدث عن العقل ووظائفه وطرقه فى الفهم والاستنتاج والحكم .

لكن إذا كان العقل مناط التكليف بالإيمان والإحسان والعدل والمرحمة فإن هذا هو العقل الذى يمتاز به الإنسان على الحيوان وهو العقل الكلى الكامل

هناك ما نسميه نقصاً فى العقل أو ما نسميه جنوناً جزئياً وهو خلل فى التفكير ينتشر بين كثير من خلق الله .

عندما آمر الناس بالتقوى وأنا فاجر أو عندما آمر الناس بالرحمة وأنا قاس أو عندما آمر الناس بالسماحة وأنا متعصب فإن هذا شيء يدل على ضرب من الخبل يجب أن يعالج بالتذكير والهداية ، وهذا سر قوله تعالى :

﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ [البقرة : ٤٤] .

كأن هذا التصرف جنون جرئ يقال للإنسان معه : ألا تعقل ؟ تأمر الناس بالبر وأنت بعيد عنه شارد عن طريقه ؟ من عجائب لغتنا أنها سمت العقل بأسماء عجيبة :

سمته « النُّهى » (١) والنهى جمع نُهية كأن وظيفة العقل أن ينهى الإنسان عن الإسفاف .

وسمته « الحجْر » (٢) كأن وظيفة العقل أن يحجر على الإنسان إذا ضل وتصرف تصرفاً عابثاً حتى يكف عن عبثه

وسمته « العقل » لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك ، لأن العقل هو الذى يقيد الإبل والدواب حتى لا تشرد وتنطلق على غير هدى فالعقل فى ديننا كما هو أصالة فى فهم الحقائق فهماً سيماً فهو كذلك أساس فى زجر الإنسان عن الاضطراب والفوضى إذا رغب فى الاضطراب والفوضى .

وقد رأيت وأنا أتلو القرآن الكريم أن هناك كلمة تستوقف الأنظار وينبغى أن نتريث طويلاً أمامها وهى كلمة « أولى الألباب » ومعناها أصحاب العقول ، كأن اللب هو العقل أو العقل هو اللب وما عداه قشر يطير مع الريح لا وزن له .

تكررت كلمة « أولى الألباب » ست عشرة مرة ،ونحن الآن نستعين ربنا لنقف وقفة عجلى أمام كل مرة وردت فيها لنتدبرها ونستوعب معناها وندخره فى نفوسنا .

وردت كلمة « أولى الألباب » ثلاث مرات فى سورة البقرة :

---

(١) وفى التنزيل العزيز : ﴿ إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ (طه : ١٢٨)

(٢) وفى التنزيل العزيز ﴿ هل فى ذلك قسم لذى حجر ﴾ (الفجر : ٥) .

المرة الأولى :

﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون ﴾ [البقرة : ١٧٩] .

المرة الثانية :

﴿ الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

ومعنى الكلمة هنا أن في مناسك الحج حكماً يعرفها من يعرفها ويجهلها من يجهلها ، وأن الذين تصوروا أعمال الحج مناسك غامضة بعيدة عن التصور العقلى مخطئون .

المرة الثالثة :

﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

وعندى أن الحكمة في هذا الموضع تعنى النفقة الراشدة العاقلة التى تجعل الإنسان يحسن توزيع ماله على مطالبه الخاصة وعلى مطالب دينه وواجبات مجتمعه بحيث يكون فيما يملك مُدَّخَرٌ للفقراء والمساكين ومجال للإنفاق في سبيل الله .

والحكمة أوسع من هذا المعنى إذ أنها تعنى أحياناً أن يكون التعليم مناسباً للطلاب فقد جاء : « ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » (١) ، « حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يُكَذَّبَ الله ورسوله ؟ (٢) .

---

(١) رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود في مقدمة صحيحه ٩/١ .

(٢) رواه البخارى عن على بن أبى طالب في كتاب العلم . باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا ٤٤/١ .

وقد تكون الحكمة فى غير المال ونفقته وفى غير العلم وعرضه ، قد تكون فى الدعوة كيف تُعرض على الناس وكيف يخاطَب كل مجتمع بما يلائمه ويناسب حاجته ويوائم مستواه العقلى ، ولكنها على أية حال خير كثير يعرف قدره أولوا الألباب .

ووردت كلمة « أولى الألباب » مرتين فى سورة آل عمران :

المرة الأولى :

﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ [آل عمران : ٧] .

وقد بين للمسلمين أن المحكم من كتابهم هو الذى حوى أصول العقيدة والأخلاق والسلوك وأن المتشابه لا معنى للخوض فيه لأنه فوق طاقة العقل أولًا وبعيد عن أن يصل الإنسان إلى حقيقته بأدواته المحدودة ثانياً ، ثم هو مثار فرقة وخلاف وينبغى أن يبقى المجتمع المؤمن موحد الرأى مسدد الهدف .

المرة الثانية :

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلًا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ [آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١] .

يستطيع المسلم أن يعرف ربه وأن يبسط خشيته وأن تتفتح آفاق عقله على جوانب من عظمته عندما يتأمل فى الزمان والمكان وخمسة آلاف مليون من الخلق يعيشون فى القارات الخمس يلهمون نفساً بعد نفس ويتدفق الدم فى عروقهم شبراً شبراً أو إصبعاً إصبعاً بقدرة الخلاق الكبير الخبير بعباده أجمعين .

الموضع السادس : في سورة المائدة : ﴿ **قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون** ﴾ [المائدة : ١٠٠] .

الكيف أعظم من الكم ، كايس طريق مؤمنٌ أعظم من ملك كافر على رأسه التاج ، رجل صالح عامض في الناس أرجح في موازين الخير عند الله وعند المؤمنين من كثرة لا خير فيها ولا تقوى لها : ﴿ **قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث** ﴾ .

أثبت تاريخ الحياة – إلى يوم الناس هذا – أن القلة المنظمة تغلب الكثرة الفوضوية وأن القلة العاملة تغلب الكثرة العاطلة وأن الناس ليسوا بالأعداد .. قال رجل لخالد بن الوليد رضي الله عنه : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! فقال خالد : بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان (١) .

الموضع السابع : في سورة يوسف . ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ [يوسف : ١١١] .

بيَّن رب العالمين أن القصص الذى يسوقه في الوحي المبارك ليس روايات مؤلفة ولكنه أحداث تاريخ وقع ، ويعني ذلك أن المسلم قارىء القرآن يسعى أن يدرس التاريخ لأنه لا جديد تحت الشمس ، ممكن أن نقيس به الحاضر على الماضي ، ممكن أن نستنتج مما كان حقيقة ما سيكون ، ولذلك أوتينا العقل لكى نعيش ونوازن ونختبر ونتدبر .

الموضع الثامن : في سورة الرعد ﴿ **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ [الرعد : ١٩] .

---

(١) دار هذا الحوار قبيل نشوب القتال بين المسلمين والروم في معركة (اليرموك) الحاسمة سنة ثلاث عشرة من الهجرية (٦٣٤ م) وكان المسلمون ستة وثلاثين ألف مقاتل سوى عكرمة فإنه كان ردءا لهم وكان الروم في مائتى ألف وأربعين ألف مقاتل (ابن الأثير : ٢٨٢/٢) .

الناس كثيرون فى هذه الدنيا ، لكن بعض الناس فى أبصارهم قصور فلا يرون من بعيد ، أو فى أبصارهم عمى فلا يرون شيئاً قط ، هذا الذى يكون من آفات فى العيون قد يكون آفات على البصائر التى ينبغى أن تعرف الحق وأن تتبعه وأن تدرك حسنه وأن تعرف الباطل وتشمئز منه وتنفر من قبحه ، وقد بين القرآن الكريم أن الإنسان تُعرض عليه الآيات وينبغى أن يستعمل عقله وأن ينتفع بأنفس ما وهب الله له . ﴿ **قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ [الأنعام : ١٠٤] .

الموضع التاسع فى سورة إبراهيم . ﴿ **هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب** ﴾[إبراهيم : ٥٢] .

إن هذا القرآن تلاه النبى ﷺ على الناس ثم ذهب إلى الرفيق الأعلى وترك الكتاب الخالد يتلى على الناس كى يفطمهم عن الشهوات ويصدهم عن الأهواء القبيحة ، كى يتذكر من له عقل أن الله واحد وأن المرجع إليه وأن المهاد الحَسن ما نعده نحن لأنفسنا عنده ، فالذين يعملون الصالحات لأنفسهم يمهدون والذين يعملون السيئات لأنفسهم يمهدون ولكن شر مهاد .

الموضع العاشر والحادى عشر : تضمنتهما سورة ص

الموضع الأول : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب** ﴾ [ص : ٢٩] .

هذا القرآن لا تفنى عجائبه ، وكلما وقفت أمام بابه تقرع الباب لمعنى جديد وجدت خزائن الرحمة فيه سيالة، ومن عيوب الذين ابتعدوا عن الرحمن أن حُجُباً صدتهم عن الكتاب فهم ما يحسنون السماع إذا تُلى ، ولا القراءة إذا اطلعوا ، أما عباد الرحمن فقد وصفهم الله بقوله : ﴿ **والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً** ﴾ [الفرقان : ٧٣] .

الأصم : من استمع إلى الآيات فلم ينتفع بها ، ما انتفع بحاسة السمع .

الأعمى : من قرأ لقرآن فلم يستمد به ، ما انتفع بحاسة البصر .

من عجائب التاريخ ومن غرائب العالم أن المحطات الأجنبية عموماً تذيع القرآن الكريم على الناس !! كأنما اطمأنت إلى أن المسلمين لن يفهموا منه شيئاً ، إنما يتتبعون النغم الحلو والصوت العذب وانتهى الأمر !! .

الموضع الثانى : ﴿ **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب * اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب * ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب** ﴾ [ص : ٤١ ـ ٤٣] .

يجيء هذا الكلام فى سورة « ص » تذكيراً للبشر بعجزهم وضعفهم وحاجتهم إلى ربهم ، وفى الحديث القدسى : « **يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم** » (١) .

نحن هدف للنوائب والمتاعب ، نحن دائماً نصاب بما يُطلق ألسنتنا بالدعاء ، المؤمن المخلص يدرك أن ما نزل به من ضر لن يكشفه إلا الله ، المؤمن العاقل يدرك أن البشر كلهم أعجز من أن يقربوا له خيراً أو أن يباعدوا عنه أذى أو ألماً إلا إذا أذن الله ، ومن قوانين العطاء الإلهى : ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم** ﴾ [فاطر : ٢] .

هنا فى هذا الموضع من سورة (ص) نجد أن رب العالمين يذكر عبداً من عباده فقد أهله وماله ولكنه لم ييأس من روح الله فبقى يقرع أبواب الرحمة حتى جاءه العطاء مضاعفاً وانساب إليه الخير غزيراً يروى ظمأه ويرد لهفته ، حتى إذا أصاب أولى الألباب ضرر لم يلجأوا إلا لباب واحد هو باب الله ، ولم يذلوا ويكشفوا ضراعتهم إلا عند رب العالمين وفى ساحته .

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم فى البر والصلة والآداب ـ باب تحريم الظلم ٨/١٦ ، ١٧

المواضع الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر تضمنتها سورة الزمر :

الموضع الأول : ﴿ **أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ [الزمر : ٩] .

الحديث بدأ بمقارنة بين ليل لرسول ﷺ وليل غيره ، غيره نائم ، جثة ملقاة على الفراش كأنها دابة لحقها الإعياء فهى تستريح . أما هذا النبى الكريم عليه الصلاة والسلام فإن جسده ينام وقلبه يقظان ، فإذا تحرك فى فراشه تحرك بذكر الله ثم على عجل ينهض منتصباً على قدميه يقرأ الكتاب العزيز .

فى ظلام الليل منفرداً قام يدعو الوحد الصمدا
عابد لم تُبقِ طاعته منه لا روحاً ولا جسداً

الموضع الثانى : ﴿ **فبشر عباد ۝ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب** ﴾ [الزمر : ١٧ ، ١٨] .

المؤمن ليس متعصباً لشىء سبق إلى عقله ، إنه إنسان يحسن الموازنة والمقارنة بين ما يعرض عليه من مبادىء وأفكار ، ويختار ما يرى أن الشرع إليه أقرب وأن العقل إليه أميل .

الموضع الثالث : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن فى ذلك لذكرى لأولى الالباب** ﴾ [الزمر : ٢١] .

يذكر الله العباد بجلال قدره وعظمة قدرته وافتتانه فيما أبدع من خلقه لأنه أحسن كل شىء خلقه ، انظر كيف يتحول الطين إلى ورود ورياحين ! انظر كيف يتحول القذى إلى سكر ونشا وحلو وأشياء أخرى معجبة وألوان أخرى تسبى العيون !! .

* * *

الموضع الخامس عشر : فى سورة غافر ﴿ **ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب ، هدى وذكرى لأولى الألباب** ﴾ [غافر : ٥٣ ، ٥٤] .

يبدو من السياق أنه يتناول الأقدمين من بنى إسرائيل ، ولا ريب أن أتباع موسى الأوائل كانوا أولى بالحق والنصرة والتكريم من فرعون وآله وجنده ، ومن هنا أعطاهم الله الكثير .

الموضع السادس عشر : فى سورة الطلاق : ﴿ **وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً ، فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً ، أعد الله لهم عذاباً شديداً فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً** ﴾ [الطلاق : ٨ – ١٠] .

هذه الآية تشير إلى سنة كونية وهى أن الله لا يعاجل الناس بالعقوبة إذا عاجلوه بالمعصية بل هو يتأنى بهم ويعطيهم فرصة للمتاب فإذا أبوا إلا الجماح وإذا آثروا الضلال على الهدى فإنه يضربهم الضربة التى تشيب لها النواصى .

هذه ستة عشر موضعاً تكررت فيها كلمة ﴿ **أولى الألباب** ﴾ فى كتاب الله عز وجل لتبين أن القرآن الكريم يطلب من المسلمين أن يكونوا أصحاب عقول مستنيرة وأصحاب معرفة مستوعبة وأصحاب علم واسع .

إن الأفق الضيق شر على صاحبه وشر على المبدأ الذى يحمله وشر على العقيدة التى يقدمها إلى الناس ، ونحن نريد أن نكون على مستوى الدين .

لا أعرف كتاباً فى الأولين والآخرين أعلى قدر العقل وجعل أمته أمة الحضارة العاقلة الواعية المتقدمة الهادية إلا هذا القرآن الكريم ! فاعرفوا قدر كتابكم وأحسنوا اتباعه .

هدانى الله وإياكم سبيل الرشاد .

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ **الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ [الشورى : ٢٥ . ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام النبيين وسيد المصلحين .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

أيها الناس : كلمة السياسة لها معنيان متناقضان متباعدان كلاهما عن الآخر .

قد يكون معنى السياسة أن يملك الإنسان السلطة فيسخرها فى إذلال العباد ، قد يكون معنى السياسة أن يملك الإنسان السلطة فيتملكه جنون العظمة فهو لا يعرف إلا نفسه وأهله وأتباعه ، قد يكون معنى السياسة أن أتعصب لتراث أو لدم أو لأمر مما تواضع الخلق على العصبية له

هذا اللون من السياسة مرفوض ، نحن نكرهه ونوصى بكراهيته ونصرف الشباب عنه ونوصيهم بتطليقه لأن الله تعالى يقول : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين** ﴾ [القصص : ٨٣] .

كل من اشتغل بالسياسة يطلب بها العلو فى الأرض والكبرياء على الناس أو كل من اشتغل بالسياسة ليثير الفوضى والفساد فى أنحاء البلاد فهو إنسان فاجر فاسد ، وإن طلب الدنيا فقد يصيب منها شيئاً لكنه فقد الآخرة يقيناً : ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ [هود : ١٥ ، ١٦] .

المعنى الثانى للسياسة : أن أملك السلطة فآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأقيم الصلاة وأوتى الزكاة (١) وأحسّن الحسن وأقبّح القبيح وأسعى فى نشر المرحمة والمودة بين الخلق وآمر من أملك أمره أن يتواصى بالحق والصبر وأن يتواصى بالمرحمة .

هذه السياسة مطلوبة لأنها تجعلنى أصبُّ المجتمع فى قالب يرضى الله وأسوق الناس إلى وظيفتهم التى خلقوا من أجلها وهى عبادة الله .

* * *

كان صاحب الرسالة العظمى عليه الصلاة والسلام يربى الناس فى المسجد على هذا المعنى ، كان يقرأ فى صلاته : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾ [النساء : ٥٨] .

كان يقرأ فى صلاته ﴿ **وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً** ﴾ [النساء : ٧٥] .

أليست هذه سياسة ؟ أليست الدعوة إلى مجاهدة الظلمة ومقاتلة المعتدين سياسة ؟ .

هذا اللون من السياسة هو صلب الإسلام بيقين ، نحن نكره سياسة الفوضى والشغب ، ولكننا نحب كتابنا ونبينا ونتمسك بالحضارة التى أقامها هذا القرآن نظرياً وطبقها وشادها نبيه ﷺ عملياً ثم انطلق بها السلف الأول فأناروا ظلمات القرون الوسطى وأهدوا للإنسانية خير ما تشرف به .

---

(١) وفى التنزيل العزيز ﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾ [الحج : ٤١]

إننا نحن المسلمين لنا ماض في سياسة العالم يبيض الوجوه ، أما غيرنا فله ماض تسود به الوجوه .

نحن لا نخجل من ماضينا ولا نستحي من كتاب ربنا ولا من سنة نبينا عليه الصلاة والسلام .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠]

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠]

أقم الصــلاة

* * *

نظراتٌ في سورة "الأنفال"

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

فسنلقي نظرة على أبعاد التغير الإنساني الذي يصحب المجتمعات البشرية وهي تَصْعَدُ إلى لقمة مستحقةً النصر والتمكين ، أو وهي تُسِفُّ إلى الأرض مستحقةً الذل والهوان ، وذلك من خلال تأمل محدود في سورة الأنفال .

إن سورة الأنفال نزلت في أعقاب غزوة بدر ، ولكننا لن نتعرض

لنعروة إلا بالقدر القليل الذي يحتاج إليه توضيح المعنى .

أما المحور الذي تدور عليه السورة — فيما رأيت — فهو أن الأمم عندما تُسِفُّ وتُخْلِدُ إلى الأرض تستجمع الخصائص التي تستحق بها الهزيمة ، وأنها عندما تَصْعَدُ إلى أعلى وتطير بأجنحة من الشوق إلى مستوى من الكمال الرفيع فإنها تستحق التمكين والفوز المبين !! .

وبين يدي التأمل في سورة الأنفال — من خلال هذا المعنى — أذكر مثلاً استمعت إليه من سائح عربي ذهب إلى « أسبانيا » في أحد المؤتمرات التي انعقدت هناك ، قال لي : دخلت في المسجد بقصر الحمراء وقال لي الترجمان الذي يشرح لي الآثار : كانت هنا أمة مسلمة مكّنها الله في الأرض يوم كانت لله خلائف ، ثم طردها من هذه الأرض يوم أصبحت في هذه الدنيا طوائف !! نعم كان للإسلام في الأندلس دولة أشرقت بها العصور الوسطى ، وقدّمت للإنسانية عقيدة التوحيد في هالة من العلم الواسع والحضارة الزاهية فارتقت الإنسانية طويلاً بهذه الدولة الموحدة !! ثم لما عصفت الشهوات برؤوس الحاكمين وأُتْرِفوا في هذه الدنيا ، وقضَوا الأعمار بحثاً عن الشهوات ، ونسوا المُثل الرفيعة التي طُولبوا بخدمتها طُرِدوا من هذه الأرض !! .

ماذا كان يأخذ الناس منهم بعد أن أصبحوا طوائف ؟ .

يأخذون منهم الزخارف في جدران البيوت أو المساجد ؟ .

يأخذون منهم المُوشَّحات التي تبكي الحبيب الهاجر أو المهجور ؟ .

ماذا يأخذ الناس من الأمة الإسلامية إذا فقدت رسالتها ؟ .

شاع الكذب في هذه المجتمعات ، ووجدنا أصحاب الأقلام المتملقين وأصحاب قرض الشعر ابتغاء الجوائز والمكافآت يسبقون إلى الحمام أنه يمدح الخلفاء على هذا النحو :

إن الحمام بأيكها تشدو
هلْ قَدْ عُيِمْ أو قَدْ عُهِدْ أو كانْ ؟
كالمعتصم والمعتضد مكانْ ؟

والمعتصم والمعتضد اللذان ورد ذكرهما في هذا المدح قال فيهما شاعر آخر(١) من حكماء الشعر البُصَرَاء بأقدار الرجال.

مما يُزَهِّدُني في أرض أندلس ألقابُ مُعْتصم فيها ومُعْتضِدِ
ألقابُ مملكة في غير موضعها كالْهِرِّ يحكي انتفاخاً صَوْرة الأسدِ

ليس على الله بعزيز أن يطرد أمثال هؤلاء من العز وأن يحرمهم السلطة وأن يجعلهم رعاعاً في الأرض لأنهم أبوْا إلا منزلة الرعاع في أحوالهم وأعمالهم !!

سورة الأنفال أشارت إلى هذا المعنى وهي تتحدث عن هزيمة قريش وانكسار دولتها التي كانت قائمة في مكة ، وتحدثت في الوقت نفسه عن النصر الذي ساقه الله للمؤمنين .

ونجيء للسورة من وسطها لكي نبين المحور الذي دارت عليه ، يقول الله في وسط السورة : ﴿ **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ [الأنفال : ٥٠ ، ٥١] .

هل الذي حدث لقادة الكفر في مكة وزعماء الوثنية في الجزيرة كان بدعاً في سنن الله الكونية ؟ لا ، بل هذا الذي حدث يتفق مع سنن الله في المجتمعات المنحلة ولذلك قال الله عقب هذه الآيات ﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب ، ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ، كدأب آل فرعون والذين من**

---

(١) هو ابن أبي شرف كما في المقدمة لابن خلدون ــ الفصل الثاني والثلاثون في اللقب بأمير المؤمنين .

قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴾ [الأنفال : ٥٢ ــ ٥٤] .

لكن ما يقضي الله به من تدمير لمظلمة ومن إنشاء لأمم أخرى أعدل وأعقل يحتاج إلى زمن طويل ، ومعنى طول الزمن أن سنن الله الكونية لا تتم بين عشية وضحاها ، فقد يموت أنبياء ، وقد يموت قادة ، وقد يُستشهَد مجاهدون قبل أن يبتسم النصر آخر الأمر ، ولذلك يقول الله لنبيه ﷺ : ﴿ **وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون** ﴾ [يونس : ٤٦] ويقول : ﴿ **فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون . أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون** ﴾ [الزخرف : ٤١ ، ٤٢] .

لا بد أن تتطاول وتتراخى أيام الصراع بين التوحيد والتثليث ، بين العقل والحماقة ، بين الحقيقة والخرافة ، بين الجهل والعلم .

لماذا هذا الطول ؟ .

لأن الله يُنْضِجُ الكمال في نفوس المجاهدين مع طول الزمن وفي الوقت نفسه يُنْضِجُ العناد والفسق في نفوس المعاندين والفاسقين مع طول الزمن ، فإذا كوفيء المؤمنون بالنصر فبعد أن يبلغوا قمة الخير والكمال ، وإذا كوفيء المجرمون بالعقاب فبعد أن يبلغوا قمة الشر والفساد !!

هذا المعنى وضحته سورة الأنفال في موضعين :

الموضع الأول قوله تعالى : ﴿ **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون** ﴾ [الأنفال : ٧ ، ٨] .

كانوا يريدون الأوبة إلى المدينة بغنيمة باردة دون أن يُسفك دم ودون أن يؤدب مجرم ولكن الله قرر إنزال ضربة مهينة بالكافرين !!

الموضع الثاني قوله تعالى : ﴿ **إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة**

القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم ﴾ « الأنفال : ٤٢ » .

رب العالمين يهلك هؤلاء بجدارة ، ويعطي هؤلاء بجدارة .

والأقدار التي تنزل بصعود هذا أو هبوط ذاك ليست حركات عابثة ، إنها أقدار تزن بدقة هائلة مسالك الأفراد والجماعات !!

وينتقل هذا المعنى من ميدان القتال إلى ميدان السجن ، فيقول الله للأسرى وهم في قيود الهوان والمسكنة : إنكم وحدكم الذين تصنعون مستقبلكم ، إن انتويتم خيراً للناس انفتحت أمامكم مجالات رحبة للحركة والعطاء وإلا فلكم الويل . ﴿ **يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم * وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم** ﴾ [الأنفال : ٧٠ ، ٧١] .

إن الخونة قد يستطيعون الإساءة إلى غيرهم ردحاً من الزمان ، وقد يتطاولون في المجتمعات ويحسبون أن الجو قد خلا لهم غير أن القضاء الحكيم يتربص بهم إلى حين ، ثم يستمكن الوثاق من أعناقهم !! .

هذا وصفٌ للفساد وهو يهبط بذويه ، وهذا الفساد يشمل الأمم ، يقول الله في سورة النحل : ﴿ **وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾ [النحل : ١١٢] .

لم هذا العذاب ؟

لأنها أُطعِمَتْ من جوع فما شكرت ، وأُمِنَتْ من خوف فما شكرت ، فإذاً تُسلَّط عليها المخاوف والأزمات حتى تعرف قدر النعم التي فقدتها !! .

وإنما أهلك الله السلطة التي كانت تحكم في مكة لأن العناد والجهالة

بلغت بالقوم مبلغاً عجيباً فقد قالوامكابرين رب الكون : ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ [الأنفال : ٣٢] .

كان الأولى لهم أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا ووفقنا لاتباعه ، أما أن يبلغ الكره بقلب إنسان أن يكره الحق ، وأن يكره حملته ، وأن يكره الحياة به والسير على ضوئه فإن مثل هذا الإنسان ينبغي أن يُوارى بجاهليته وعناده في مطاوي القبور ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ [الأنفال : ٥٠ ، ٥١] .

ننظر بعد ذلك إلى الجانب الآخر وهو المجتمع المؤمن ، لقد عاش قبل الهجرة وبعدها يحترم دينه ويقدم مطالبه على رغائبه ويحمل في الحياة شارته ويرفع رايته ، وكان خصومه يستكثرون عليه حق الحياة كما يريد ، بل كانوا يروعونه في الحرم الآمن ويرغمونه على النزوح هنا وهناك !! لقد أنالته الأقدار النصر والتمكين والسيادة ، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة : ﴿ **واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون** ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

إذاً هؤلاء استحقوا فعلاً أن يُنصروا لأنهم تحملوا في ذات الله الكثير ، ووقفوا إلى جانب نبيهم ﷺ وهو يُطارد ويُخوَّف ، ولم ينهزموا بل صمدوا وطنوا على ثباتهم إلى أن انتصروا . وهنا نلحظ أن النصر الذي ساقه الله كان فضلاً أعلى ، وكان عطيةً للقدر فيها أكبرُ الدخل ، وليس لعمل الناس فيها إلا الدخل المحدود ، هم قاتلوا وثبتوا وبذلوا وجاهدوا وضحوا وتحملوا وهاجروا وتركوا بلادهم وملذاتهم وثرواتهم لله ، لكن الله سبحانه وتعالى عندما أراد النصر أدار المعركة وحده : ﴿ **إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان**

وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام • إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ [الأنفال : ١١ ، ١٢] .

رب العالمين بالجو الذي صنعه وبالرمال التي ثبتها وباليقين الذي أرساه في القلوب هو الذي جعل المؤمنين يكسبون المعركة على هذا النحو العريب حتى قال قائل(١) في مكة : والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقودوننا كيف شاءوا ويأسروننا كيف شاءوا !!

وهذا مصداق قوله جلّ جلاله : **﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً إن الله سميع عليم ﴾** [الأنفال : ١٧] .

لكن ما هي الخصائص التي يرقى بها مجتمع حتى يستحق النصر ويتبوأ القمة ويضمن عناية السماء به ؟ .

أشارت السورة في مطلعها إلى هذه الخصائص ، قال تعالى : **﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون • الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون • أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾** [الأنفال : ٢ ـــ ٤] .

تلاوة الآيات قد تكون مبعث تخويف إذا هجست هواجس الشر في قلب الإنسان وإذا وَزَّ الشيطان على المعصية ، هنا يجيء ذكر الله فيبدد الغيوم ويكشف الطريق ويجعل المؤمن ينجو من الحفرة التي حفرها الشيطان له .

يجيء ذكر الله للأفراد وللأمم وهي على طريق الكفاح والجهاد ، يجيء للفرد عندما يقال له : عش لنفسك ، ابق لأولادك ، وفر الدنيا لأسرتك ، ماذا تصنع في مقاومة الطغاة والبغاة ؟ التفت لنفسك قبل أن يبطشوا بك ،

---

(١) هو أبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب وقصته عند ابن إسحاق « راجع ابن هشام ٢ / ٢٨٩ والطبري ٢ / ٤٦٢ » .

هنا يجيء ذكر الله يقول له : هيهات ! ما من أمر يتم إلا إذا سبق القدر الأعلى القرار فيه ﴿ **قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون إلا قليلا * قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليًّا ولا نصيراً** ﴾ [الأحزاب : ١٦ ، ١٧] . ذكر الله هنا يُعلِّم الإنسان الثبات : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** ﴾ [الأنفال ٤٥] قال تعالى : ﴿ **وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ [الأنفال : ٢] .

القرآن الآن انتشرت له إذاعات في العالم الإسلامي ، ولكن ما قيمة القراءات والإذاعات إذا لم تحرك الإيمان الهاجع المخدَّر الذي يضحك منه أعداء الإسلام ؟ لذلك كان من خصائص الكمال البشري أن تتحول الآيات إلى مسالك وأخلاق وإلى جهاد وأعمال ، وهذا أمر لا بد أن نعرفه لأن النهضات الإنسانية ليست كتباً تقرأ أو تحفظ ولكنها أحوال وأخلاق ، والأمم الهابطة تهتم بالشكل وقلما اهتمت بالموضوع وكما قال الشاعر :

أرى حُلَلاً تصان على أناس وأخلاقاً تُهـانُ ولا تُصانُ
يقولون : الزمانُ به فساد وهم فسدوا وما فسد الزمانُ

وبعد أن رسمت السورة صورة المجتمع المؤمن حقًّا تُبُتْ خلال القصص الواعي وعبره البالغة نداءات شتى للمؤمنين تحدوهم إلى الكمال ، ومن أجل ذلك تضمنت السورة ستة نداءات لا يستغني عنها سلف ولا خلف ، بل لعلنا اليوم أحوج الناس إلى فقهها !! .

النداء الأول : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار** ﴾ [الأنفال : ١٥]

النداء الثاني : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون** ﴾ [الأنفال : ٢٠] .

النداء الثالث : ﴿ **يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

النداء الرابع : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون** ﴾ [الأنفال : ٢٧] .

النداء الخامس : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم** ﴾ [الأنفال : ٢٩] .

النداء السادس : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** ﴾ [الأنفال : ٤٥] .

الحقيقة أن شرح هذه النداءات يحتاج إلى خطبة خاصة ، لكنني أوجه النظر إلى آخر ما جاء في هذه السورة ، وآخر ما جاء في هذه السورة يبين أن للمسلمين ولاءً واحداً : ﴿ **إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير** ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

ثم جاءت هذه الآية : ﴿ **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير** ﴾ [الأنفال : ٧٣] .

الكافرون أنواع . هناك من ينكر الله ، هناك من يرى الألوهية أسرة فيها أب وابن وأم ، هناك من يرى أن الله يتجسد في صور شتى !!

أنواع الكفر كثيرة ، والكفر كله ملة واحدة ، وقد سألت نفسي : إن اليهود يقولون عن عيسى : إنه ابن زنا وهم متهمون أيضاً ـ كما يزعم النصارى ـ بقتله ، ومع ذلك فقد رأيت الفاتيكان برَّأ اليهود من مقتل عيسى واصطلح الفريقان !! على من اصطلحوا ؟ على الإسلام وأمته !! والفتنة والفساد يملآن الأرض الآن لأن المسلمين لا يعرفون من يوالون ولا من يخاصمون !! .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ . . الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام النبيين وسيد المصلحين .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

أيها الإخوة : وأنا أقرأ قصيدة الرثاء في ذهاب الأندلس كانت أبيات منها تحرك مشاعري وتجعلني أقارن بين عصر وعصر وعهد وعهد . . قلت : ما هذه السرطانات التي شاعت في الأمة الإسلامية الآن تريد تمزيق الوحدة ، تريد تقطيع الكيان المشترك ، تريد جعل المسلمين مشغولين بالتوافه ؟! .

تذكرت قول الشاعر(١) وهو يتحدث للأندلسيين ويقول لهم :

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمانُ

على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران

حيث المساجد قد صارت كنائس ... ما فيهن إلا نواقيس وصلبان

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان

أعندكم نبأ عن أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... أسرى وقتلى فما يهتز إنسان

ماذا التقاطُع في الإسلام بينكُمُ ... وأنتمُ يا عباد الله إخوان

ألا نفوسٌ أبيّاتٌ لها هِمـم ... أما على الخير أنصار وأعوان

---

(١) هو أبو الطيب الرندي .

ألا يخجل لذين يثيرون العداوة والبغضاء الآن في نفوس المسلمين ؟ .

ألا يخجل هؤلاء الذين يريدون أن يجعلوا مصير الأمة الإسلامية على هذا النحو ؟ .

ماذا التقاطع في الإسلام بينكم ؟ .

أما على الخير أنصار وأعوان ؟ .

ينبغي أن نتعاون فيما اتفقنا عليه ـــ وهو كثير ـــ وأن يعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه ـــ وهو قليل !! .

جاءني ناس قالوا : العمل في البنوك حرام ، والعمل فى المحاكم حرام ، والعمل في الشركات حرام ، والعمل في الجهاز الحكومي كله حرام !! .

ونتيجة هذا التفكير أن يملأ الصهاينة والصليبيون هذه الأجهزة وأن يبيع المسلمون الفول والتبن !! .

هل هذه طريقة في إصلاح الأمة ؟! .

كان ابن تيمية ـــ أيام احتلال بغداد ـــ يمشي مع تلميذ له ، فوجد التلميذ جماعة من التتر الذين احتلوا بغداد يشربون الخمر فأراد أن يتوقف ليشتبك معهم ويمنعهم من شرب الخمر فجرّه ابن تيمية وقال له : مالك وهؤلاء ؟ دعهم في سكرهم إنهم لو صحوا لقتلونا !! .

أي تحريم هذا الذي يشغل دماغك الآن ؟ .

إذا كنت تريد إقامة الإسلام فليست إقامة الإسلام أن تمنع جنود العدو من شرب الخمر ، إقامة الإسلام أن تقيم جهازاً إسلامياً يغلب هذا الجهاز ، إقامة الإسلام أن تُكَوِّن جيشاً للموحدين يأكل هذا الجيش ، إقامة الإسلام أن تدخل في كل عمل وتعطي يدك مع كل مصلح حتى إذا جاء الإصلاح للجهاز الذي أنت فيه تكون خبيراً بمتاعبه ومفاسده ، أمّا تَعَلُّمُ الإصلاح بعيداً عن هذا الجو فكتعلّم السباحة على الأرض !! وما يتعلم العوم على الأرض أحد إلا إذا كان خيالياً مغفلاً .

ادخلوا فى كل ميدان ، واخدموا الإسلام بقدرة ، وهناك قواعد فى الشريعة الإسلامية كقاعدة · مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وقاعدة ارتكاب أخف الضررين .

أيها الإخوة : إنه ليسعدنا في هذا اليوم أن يكون بيننا إخوة لنا جاءوا من السودان شرح الله بالإسلام صدورهم ، وأقام بالحق أخلاقهم وألسنتهم ، وجعلهم دعاة للخير بعد أن كانوا قد خُدعوا بالمسيحية زمناً ، وعرفوا ــ بعد جدال حسن مع إخواننا الذين ذهبوا إليهم ــ أن الله واحد ، وأن محمداً نبيه ، وأن المرسلين إخوة ، وأن كل إنسان مسئول برأسه عن نفسه ، وأن أحداً لم يُقتل في سبيل خطايا الخلق ، عرفوا هذا كله وجاءوا يستكملون أواصر الأخوة والإيمان مع إخوانهم فى القاهرة ، وإننا ليسعدنا أن نلقاهم وأن نحتفي بهم وأن تُسَرَّ لمرآهم .

إننا نتمنى للإسلام مستقبلاً حسناً في جنوب السودان وفي المراتع التي انتشر فيها وباء التبشير الأجنبي مستعيناً بخيانات الحكام العملاء الذين فتحوا له الأبواب ومهدوا أمامه السبل !!

وإن شاء الله للإسلام عودة وله جولة ودولة ، والأيام بيننا ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون** ﴾ [الشعراء : ٢٢٧]

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم** ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصــلاة

مِنْ نُبُوءَاتِ القُرآن الكَرِيم

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

فإن هناك نبوءات في القرآن الكريم صدقتها الأيام ، وهي نبوءات تخبر عن غيب لا يعلمه إلا الله ، ثم جاء المستقبل فكشف عن صدق ما قيل .

* من ذلك أن المسلمين عندما عادوا أدراجهم منسحبين من مكة دون أن يؤدوا عمرة الحديبية كانت نفوسهم كسيرة وكانت الوساوس قد تسللت إلى أفكار بعضهم : كيف قيل لنا : إنكم ستدخلون مكة ثم نعود دون أن ندخلها ؟! .

ونزل قوله تعالى : ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً** ﴾ [الفتح . ٢٧] .

هذه الآية نزلت في السنة السادسة ولم تمض سنتان حتى كان المسلمون الذين منعوا من دخول مكة ومن أداء مناسك العمرة قد عادوا وهم سبعة أضعاف ما كانوا ، ويبدى المسلمون من مظاهر القوة والبأس ما يوقع الرعب والرهبة في أفئدة المشركين .

• هناك نبوءة أخرى أول سورة الروم ، وقصتها غريبة وتستحق التسجيل والتعليق ، فإن النزاع بين المملكتين الكبيرتين الروم التي تعتنق النصرانية ، والفرس التي تعتنق المجوسية كان نزاعاً حاداً دموياً طويل المدى ، وشاء الله – في دور من أدوار هذا النزاع – أن يهزم الروم هزيمة ما عُرف مثلها ، وكانت أبعاد هذه الهزيمة تمتد إلى المعروف من القارات المعمورة يومئذ ، انسحب الروم أمام زحف الفرس وتركوا مصر واليمن وفلسطين والشام وكادت عاصمتهم تسقط ، وخسروا خسائر سودت وجوههم ، ثم اضطروا إلى أن يوقعوا على صك الهزيمة وهو صك يجعل الروم ملزمين بتقديم أفواج من النساء للجيش المنتصر غير قناطير مقنطرة من الذهب والفضة !! .

فكانت نكبة الروم قد سودت وجوه النصارى وأحنت رءوسهم ، ويئس الناس من أن تكون للروم دولة أو عودة ، لكن صوتاً وحيداً غريباً كان ينبعث من مكة وحدها يقول : ﴿ **غلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم * وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ [الروم : ٢ : ٦] .

لم يكن هناك ما يؤيد هذا الصوت من بقية قوة في دولة الروم أو بقية تماسك في شعوب النصرانية ، والغريب أن الآية التي قالت : إن الروم سينتصرون حددت أن الانتصار لن يتجاوز بضع سنين ، وفعلاً وقع مالم يكن في الحسبان ومالم يعرف في قوانين التاريخ ولا في أحواله ، وانتصر الروم على الفرس واستردوا جميع ما خسروا ، وكان انتصارهم غريباً معجباً معجزاً !! .

كان يجب أن يقابل الصوت الوحيد الذي تنبأ بهذا النصر مقابلة حسنة وأن يعرف لصاحبه أن الله تبارك وتعالى مزّق الغيوب عن المستقبل أمام بصيرته وأنزل عليه من الوحي ما جعله ينطق بمالم يُعرف في القارات كلها ومالم ينتظره أحد .

لكن الضمير الصليبي جعل مؤرخي النصرانية يذكرون القصة على نحو معوج كذوب ، قالوا : نعم لقد تنبأ محمد بأن الروم سينتصرون ولكن سبب النبوءة حقده على الفرس لأنهم مزقوا رسالة بعث بها إلى ملكهم يدعوه إلى دينه !! .

وهذا التعليل تزوير وكذب من ألمه إلى يائه لأن سورة الروم التي ذُكر فيها أن الروم سينتصرون نزلت في مكة قبل أن يبعث الرسول ﷺ برسالته إلى ملك فارس بنحو اثنى عشر عاماً ، فمن الخلط وتحريف الكلم عن موضعه وتشويه الحقيقة لغير سبب واضح أن يقال إن السر في النبوءة حقد على الفرس لأنهم مزقوا رسالة بعث بها النبي ﷺ إلى ملكهم !! .

* وهناك نبوءة ثالثة جاء بها القرآن الكريم وهي قوله تعالى :

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ، ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ [الصف : ٩] .

وإذا كانت النبوءة الأولى قد استغرقت لتحققها نحو سنتين ، وإذا كانت النبوءة الثانية قد استغرقت لتحققها بضع سنين ، فإن النبوءة الثالثة استغرقت لتحققها قروناً ، ولا تزال هذه القرون تمتد لتبين أن الإسلام باق وأن لواء التوحيد معقود على أصحابه لن ينزل إن شاء الله !! .

قيلت هذه النبوءة والإسلام غريب في جزيرة العرب تحيط به قبائل مشاكسة مشركة كما تحيط به قوى اليهود والنصارى الذين تعاونت أحزابهم جميعاً على ضرب الإسلام والكيد له .

ولكن الأسوار الحديدية التي كانت تمنع الإسلام من الانطلاق عبر الجزيرة تلاشت ، ومضى المسلمون فوصلوا أقصى الشرق وأقصى الغرب وأقصى الشمال وأقصى الجنوب ، ومضت السنون والإسلام يزيد ولا ينقص !! .

* في سورة الروم آية تبين أن الإسلام باق إلى قيام الساعة وهي قوله تعالى : **﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك**

كانوا يؤفكون ✽ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ [الروم : ٥٥ ، ٥٦] .

✽ وفى سورة آل عمران آية تبين أن الإسلام باق إلى يوم القيامة وهى قوله تعالى لعيسى ابن مريم : **﴿ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾** [آل عمران : ٥٥] .

والذين اتبعوا عيسى عليه السلام هم الذين يرونه عبداً لله ويصفونه بأنه رسول لبنى إسرائيل يمهد للرسالة العامة التى تجىء من بعده ، وأنه هو وغيره من الأنبياء إنما جاءوا مبشرين بأن من عدا الله عبد له ، وأنه ليس له ابن ولا صاحبة ولا أم ولا والد ولا ولد ، أما الذين يقولون بأن لله أماً أو صاحبة ، أو ابناً أو ما إلى ذلك فهؤلاء ليسوا أتباع عيسى وإنما أعداؤه !! فآية سورة الروم وآية سورة آل عمران كلتاهما تصدق إحداهما الأخرى وتؤيد معناها وهو أن الإسلام باق حتى يأتى أمر الله وحتى يتقوض العمران على ظهر الأرض وينفض سرادق الحياة والأحياء وترجع الدنيا إلى ربها ليحتكم عنده إيمانها وكفرانها وصالحها ومفسدها وملائكتها وشياطينها .

✽ وقد ورد فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده : « **ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزا يعز الله به الإسلام وذلّا يذل الله به الكفر** » (١) .

✽ وورد فى حديث آخر : « **مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره** » (٢) .

---

(١) رواه أحمد ٤/١٠٣ والحاكم فى الفتن والملاحم وقال صحيح ووافقه الذهبى ، والطبرانى فى الكبير ٢/٥٨ ، وقال فى المجمع (٦/١٤١) رواه أحمد والطبرانى ورجال أحمد رجال الصحيح

(٢) رواه الترمذى فى الأمثال – باب ٦ وقال هذا حديث حسن غريب ٨/١٧٠ – ١٧٢ وأحمد ٣/١٣٠ ، ١٤٣ ، ٤/٣١٩ وقال فى صحيح الجامع : (٥٨٥٤) صحيح .

ولكن من باب الإنصاف العلمي أقول : إن اية سورة الروم يفسرها البعض على أساس أن كلمة﴿ في كتاب الله ﴾المقصود بها كتاب الأمر : الخلق والرزق والموت والحياة والعز والذل والسلم والحرب .

لله كتابان : كتاب تَضمَّن وحيه وهو القرآن الكريم ، وكتاب تضمن أمره في ملكوته الطويل العريض . والمقصود بالأمر هنا تدبير شئون العباد ، وهو تدبير لايُحصى مايقتضيه من لفظ لأنه إذا كان على ظهر الأرض خمسة آلاف مليون من البشر فإن كلا منهم يحتاج في تنفسه وهضمه ودق قلبه ويقظة عينه أو فكره إلى أوامر متلاحقة من الله ؟!! .

قال تعالى : ﴿ **وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين** ﴾ [يونس : ٦١] .

الكتاب المبين هنا هو كتاب الوجود أو كتاب الملكوت وهو غير القرآن الكريم . وقال تعالى : ﴿ **ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير** ﴾ [الحديد : ٢٢] .

الكتاب هنا كتاب آخر غير القرآن الكريم .

أقول هذا لأن مبشراً غبياً قرأ قوله تعالى : ﴿ **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً** ﴾ [الكهف : ١٠٩] .

فقال : هذا كلام غلط لأن القرآن يكتب بدواة حبر !!

ظن المغفل أن المقصود بـ﴿ **كلمات ربي** ﴾ هنا كلمات الوحي ، مع أن الآية تشير إلى كلمات الإيجاد والإمداد والإحياء والإماتة المتصلة بكتاب الوجود ، لكن الجهل معرة وفضيحة لأصحابه خصوصاً عندما يتعرض هؤلاء الجهلة لكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كي ينالوا منه وهيهات هيهات !! .

ومن باب الإنصاف العلمى أيضاً أقول: إن بعض المسلمين القاصرين ربما جاءوا إلى أحاديث صحيحة فحكَّموا فيها أحاديث أخرى قد تكون مرحلية أو فى مناسبات معينة وينتهون إلى أن عمر الإسلام قصير وأن الإسلام كما بدأ غريباً فسيموت أو ينتهى غريباً ؟!! .

وهؤلاء الناس جهلة بقوانين التربية ونواميس الله فى كونه وبحقائق الوحى فى جملته وتفصيله ، وبذلك فإن أوجه النظر إلى هذا فإن الإسلام باق إلى قيام الساعة ، وقد قال صاحب تفسير « المنار » (١) يعترض هؤلاء القاصرين : يا قوم إن سورة النور لم تتحقق بعد !! ويقصد بهذا قوله تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون * لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير** ﴾ [النور : ٥٥ : ٥٧] .

قد تُبهرك قواهم ، قد تُفْحمك الجيوش المعبأة والمخترعات المخزونة من أدوات الدمار لكن رب العالمين يقول ﴿ **لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض** ﴾ لن يعجزونى ﴿ **والله غالب على أمره** ﴾ لكن مع من يكون أمر الله ولمن يكون الاستخلاف ؟! .

قال تعالى : ﴿ **يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون** ﴾ .

وكلمة ﴿ **وأطيعوا الرسول** ﴾ تعنى حراسة سنته والقيام عليها والعمل بها ، وأحب أن يعرف المسلمون أن أحداً فى الأولين والآخرين لم يحص تراثه ويراقب كلمه ويضبط كل ما صدر عنه فى بيته أو مع أهله أو

---

(١) الشيخ محمد رشيد رضا طيب الله ثراه

مع أصدقائه فى صحته ومرضه وسلمه وحربه كما وقع هذا لمحمد ﷺ !!
أحصيت سنته وعُرفت بدقة وقام علم السنة وقام علم الرجال وقام علم الجرح والتعديل وقام علم الإحصاء والتسجيل لكل شيء .. لكن كل ما نصبه أن يكون المسلمون على مستوى السنة ، فإن السنة كان لها رجالها الذين يحسنون فهمها ودرسها وتبويبها وتوزيعها على الأمر والنهى والواجب والمندوب والحرام والمكروه .

« وكلمة « السُّنَّة » كلمة تحتاج إلى شيء من التفصيل :

قد تكون فى مقابلة الفرض ويُقصد بها عندئذ النوافل .

قد تكون فى مقابلة القرآن ويُقصد بها عندئذ الحديث النبوى .

قد تكون فى مقابلة البدعة ويقصد بها عندئذ الأصل .

قد تكون بمعنى الدين كله أى سيرة الرسول ﷺ وقوله وعمله وقرآنه .

وجحد السنة ضلال ، والحرب الآن على الإسلام تتناول الكتاب والسنة ، واليوم نشرت « الأهرام » رداً على كلام كنت قد كتبته من يومين دفاعاً عن الكتاب والسنة ، ووجدت فيما نُشر شيئاً من الجراءة على فهم التراث الإسلامى ، فالرجل يدعى أن ابن تيمية حرَّض أو أمر بمقاتلة من يتركون سنة الفجر !! .

وأنا قرأت كتاب « السياسة الشرعية » لابن تيمية من عشرين سنة تقريباً ، وليس فيه ما يُنسب إلى الرجل ، والرجل حكى قولين مترددين فى الفقه : من ترك سنة الفجر يقاتل أولا يقاتل ؟ .

ومع ذلك فأنا قرأت رسالة منشورة لابن تيمية يؤكد فيها أن الدعوة الإسلامية تقوم على الإقناع وأن الإسلام انتشر بالحق لا بالسيف وانتصر على السيف الذى اعترض طريقه ولم يكن السيف فى يده أداة إرغام أو قسر على الدخول فى الإسلام .

ثم إن ابن تيمية يعلم الحديث الصحيح الذى يفيد بأن من واظب على الفرائض والتزمها نجا ، ففى الحديث . « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يُسمع دوى صوته ولا يُفْقَهُ ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام . فقال رسول الله ﷺ . « **خمس صلوات فى اليوم والليلة** » فقال هل علىَّ غيرها ؟ قال . « **لا إلا أن تطوَّع** » . قال رسول الله ﷺ : « **وصيام رمضان** » قال . هل علىَّ غيره ؟ قال : « **لا إلا أن تطوَّع** » ، وذكر له رسول الله ﷺ « **الزكاة** » قال : هل علىَّ غيرها ؟ قال : « **لا إلا أن تطوَّع** » فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص . فقال رسول الله ﷺ « **أفلح إن صدق** » [1] .

ما أعرف فى حياتى العلمية إماماً قال بالمقاتلة على النوافل ، وإنما سأعود إلى قراءة كتاب « السياسة الشرعية » لكى أعرف بعده تصحيح النقل الذى ذكر فإن الكاتب يغلب أن يكون كاذباً ، ودليل كذبه أنه نسب إلى الشيخ الألبانى ـ وهو رجل أعرفه عفّ اليد واللسان وأعرفه يأكل حلالاً وهو ممن خدموا السنة فعلاً ـ أنه فسر الحديث : « **جُعل رزقى تحت ظل رمحى** » [2] بأن للمسلمين أن يغتصبوا أرزاقهم بالرماح وأن يحصلوا أقواتهم بالسيوف !! أيقول عالم من علماء المسلمين هذا الكلام ؟ .

القضية كلها أن الكاتب يقول : إنه يحارب العنف . قلت ـ وأنا أحدث نفسى بمرارة ـ ويحك !! تحارب العنف بين الناس وما تنطق بكلمة تحارب بها العنف بين الحكومات ، إن آلاف القتلى الآن سال دمها على أرض الشام ، وقتل البعث النصيرى ألوف المسلمين ، أليس هذا عنفاً ؟ .

هل العنف أن يقول مسلم : نريد أن نحكم بكتاب الله ؟ .

إن الأمر يحتاج إلى أن يفهم المسلمون ثقافتهم على حقيقتها وأن يدركوا أن دينهم ـ فى هذا العصر ـ يناوش بطرق شتى .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

---

(١) رواه البخارى فى الإيمان ـ باب الزكاة من الإسلام ١/١٨ ومسلم فى الإيمان ـ باب بيان الصلوات التى هى أحد أركان الإسلام ١/٣١

(٢) رواه البخارى معلقاً فى الجهاد باب ما قيل فى الرماح : ٤/٤٩

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

عباد الله أوصيكم ونفسى بتقوى الله عز وجل ، واعلموا أيها الإخوة أن الإسلام لا تهزمه القوى الأجنبية ، إن هذه القوى مهما اشتد ساعدها فإن نارها إلى خمود وثورانها إلى همود ، إنما يصاب الإسلام من داخل أرضه ، إنما يصاب الإسلام إذا اشتغل الرعاع القاصرون بالفقه واشتغل العلماء المذاكرون المدرسون بطلب الدنيا وتملق الحكام واشتغل الحكام فى طول العالم الإسلامى وعرضه بالدوران حول أنفسهم والسعى لعجالة لا خير فيها ولا قيمة لها من هذه الدنيا .

جاءنى شاب تخرج فى كلية الشريعة والقانون وعُرض عليه أن يكون وكيلاً للنيابة فرفض بحجة أنه لا يريد أن يحكم بغير ما أنزل الله !! .

قلت له : إنك فى ميدان النيابة وميدان القضاء ستحكم بما أنزل الله فى تسعين فى المائة من القضايا التى تعرض عليك . وإذا كان قانون الجنايات قد اختلف مع الحدود فى بعض الأمور فأقوى الناس على إصلاح هذا القانون وعلى تخفيف شره وتقليل خطره مسلم صالح ، وإذا تركنا هذا الميدان تجىء بجهاز صهيونى يحكم النيابة والقضاء ؟! .

أى غفلة تجعل شاباً يصبح مستقبل الإسلام فى عالم القضاء بهذا الفكر ويقاوم به آراء الأئمة الذين يرشدون الأمة ويريدون للأمة أن تأخذ تمامها وكمالها ؟!! .

هل يجيء محامون شيوعيون للدفاع عن هؤلاء الذين ألقى القبض عليهم لأنهم ينتسبون إلى جماعات تنتسب إلى الإسلام لماذا لا تترك هذه الأمة أمر الفقه لمن يحسنون الفقه ؟ .

لماذا يتحدث الرعاع فيما لا يحسنون ويصوبون للأمة الخطأ ويخطئون الصواب ؟ .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

* * *

نَظَـرَاتٌ فى سُورَة "يُونُس"

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـد :

فأول ما فكرت فيه وأنا ألقي نظرات محملة على سورة يونس أن آخذ ظواهرها التي لا تحتاج إلى جهد وقلت : لقد تكلمت السورة عن الألوهية ، وعن الطبيعة البشرية ، وعن نبوة محمد عليه الصلاة والسلام .

فلألق مع إخواني المصلين معي نظرات في هذه السورة تُبينُ لنا كيف كان الحديث عن الألوهية ، ثم كيف كان الحديث عن نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم كيف كان الحديث عن الطبيعة البشرية .

فأما الحديث عن الألوهية فإن أول ما بدأ بدأ بوصف الله جلّ جلاله بأنه الخالق لما نرى وما لا نرى من هذا الكون الكبير : ﴿ **إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون** ﴾ [يونس : ٣] .

كلمة « العرش » كلمة لا يستطيع البشر أن يدركوا حقيقتها ، ولذلك فإن التوقف عندها من التكلف الذي نُهينا عنه ، لكن الانطباعات التي تستقر في النفس عندما نسمع الكلمة : أن الله جل شأنه نافذ الكلمة في مملكته الرحبة ، وأن سلطانه مُوَطَّد في الأرض والسماء ، ما يجرؤ بشر ولا ملك أن يعترضه ولا أن يقف في طريقه ، وأن علمه شامل مستوعب تستوي فيه الأزمنة ، فأول يوم من بدء الخلق إلى آخر يوم من انتهائه مبسوط في كتاب يستوي العلم به وضوحاً وإشراقاً ، فليس هناك قُرب ولا بُعد فيما يتصل بالعلم الإلهي حتى لقد قال أحد المصريين : إن يونس في بطن الحوت كمحمد عند سدرة المنتهى ، كلاهما في علم الله واضح ، ليس أحد أقرب من الآخر في ذلك العلم وإن كان أحدهما أعظم من الآخر مكانة وأعلى درجة وهو محمد عليه الصلاة والسلام !! .

فإذا قيل : « استوى على العرش » فالانطباع العام أنه الملك الذي استقر ملكه ، وتوطَّد سلطانه ، واستبحرت معرفته ، واستفاضت نعماؤه ، وأن أزِمَّة الأمور في هذا الملك من أعلاه إلى أدناه لا يُفلت أمر منها من الله عز وجل .

قال تعالى : ﴿ **ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾ [الشورى : ٥٣]

وقال تعالى : ﴿ **وإليه يرجع الأمر كله** ﴾ [هود : ١٢٣] .

ثم بينت السورة أن المُلك يكون للأشياء وللأشخاص ..

يكون للأشياء في قوله تعالى : ﴿ **ألا إن لله ما في السموات والأرض ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ [يونس : ٥٥] .

ويكون للأشخاص في قوله تعالى . ﴿ **ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض** ﴾[يونس : ٦٦] .

ثم قارنت السورة بين الإله الحق وبين الأصفار والأوهام التي تعلق بها الأفّاكون . قال تعالى : ﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ۝ فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلاالضلال فأنى تصرفون ۝ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ۝ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون ۝ قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمّن لا يَهِدّي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون ۝ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون** ﴾[يونس: ٣١ ــ ٣٦] .

هذه الأسئلة أحدثتُ أمضي في أهدافها وحقائقها ، قلت : لنعش في أرض الواقع ، كم بشراً من أبناء آدم يسكنون الأرض ؟ .

يقول آخر إحصاء إنهم يبلغون أربعة آلاف مليون .. قلت : أربعة آلاف مليون فيها ثمانية آلاف مليون أذن ، وثمانية آلاف مليون عَيْن !! .

العين جهاز مُعَقَّد التركيب ، كيف يلتقط الصور ؟ كيف يقع على المشاهد ثم يوصل بطريقةٍ ما هذه المشاهد إلى المخ فيكون طريقاً من طرق الإدراك للعقل البشري ؟!

السمع جهاز مركب فوق صُدْغ الإنسان يسمع الأصوات على موجات محددة ويوصلها أيضاً إلى المخ فيكون طريقاً من طرق الإدراك للعقل البشري !! .

هل الذي خلق السمع والبصر خلق هذه الأجهزة وتركها تعمل وحدها ؟ .

لا إنها لحظة بعد أخرى تستمد قدرتها على العمل وطاقتها في الوظيفة من خالقها جلَّ جلاله ، والأمر أشبه بالتيار الكهربائي الذي يوصل إليكم الآن الصوت ، فلو انقطع التيار انقطع الصوت ، والتيار الذي يصل يولد لحظة بعد أخرى !! إشعار البشر بأنهم يبصرون بفضل الله ويسمعون بنعمة الله أشارت إليه آية أخرى هي قول الله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون** ﴾ [الأنعام : ٤٦]

في الواقع تَحَسُّسُ وسائل العظمة الإلهية ومعرفة مداها ممكنة بالعقل العادي لأن العقل العادي لن يعجزه أن يعرف كم آكلاً على ظهر الأرض انفتح فمه على رأس جهاز هضمي من نحو ثلاثين متراً يشتمل هذا الجهاز بالقضم والهضم وتحويل الجماد الذي يأكله من النباتات إلى عظم ولحم وشحم وعصب وبصر وسمع وطاقة وحياة !! .

ويمضي السؤال في حوار يغرس الإيمان ، ويمحق الإلحاد ، ويقصم ظهر الشرك ، ويقيم دعائم الاعتقاد الصحيح : ﴿ **قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده** ﴾ .

عندما بدأ الله الخلق بدأه بكلمة « كن » فإذا كل شيء وفق مراده ، وفق تخطيطه ، وفق تدبيره ، وإذا كل شيء يعنو له ، يستمد منه ، يعبده ويتجه إليه طوعاً أو كرهاً ، إن عظام الكافر تسجد لربها لأنه ما تماسك في كيانه إلا باسمه جلَّ جلاله .

ثم إن الله جلَّ جلاله لا يتعبه شيء ﴿ **أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير** ﴾ [الأحقاف : ٣٣] .

﴿ **ولم يَعْيَ بخلقهن** ﴾ لم يشعر بإعياء ﴿ **ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب** ﴾ [ق : ٣٨] . أي ما مسنا من تعب ، ومع ذلك فإن بعض أصحاب العقائد الأخرى

يقولون : إن الله تعب بعد الخلق واستراح في اليوم السابع[1] ، وكان من تقديس الراحة في اليوم السابع أن التوراة حكمت برجم من يعمل يوم السبت إلى أن يموت[2] !! .

ويمضي السؤال : ﴿ **قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمَّن لا يَهِدِّى إلا أن يُهدى فما لكم كيف تحكمون** ﴾ .

من الذى كشف الغطاء عن أعيننا ؟ .

من الذي رسم لنا الصراط المستقيم ؟ .

من الذي بعث لنا أنبياءه يعرفوننا ما ينبغي أن نعرف ؟ .

﴿ **فما لكم كيف تحكمون** ﴾ ؟ .

انظروا إلى القرآن وهو يهز العقل البشري ويطلب منه أن يحكم ويقول له : أما لديك من إحساس بأن التسوية بين الذكي والبليد لا تجوز ، بين العادل والجائر لا تجوز ، بين العالم والجاهل لا تجوز ؟ فكيف تسوى الله بخلقه ؟ كيف تحكمون ؟ .

ثم يجيء الكلام عن النبوة في سورة يونس :

بدأ الكلام عن النبوة من الآية الأولى :

﴿ **أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إنَّ هذا لساحر**

---

(١) في سفر التكوين ــ الإصحاح الثاني « وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل . وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً » .

(٢) في سفر الخروج ــ الإصحاح الحادي والثلاثون « وأما اليوم السابع ففيه سَبْتُ عُطْلَة مقدَّس للرب كل من صنع عملاً في يوم السبت يُقتل قتلاً » .

مبين ﴾ [يونس : ٢] .

هل العجب أن يكون بشر من البشر مبلغاً عن الله ؟ .

عبيد الأصنام استنكروا أن يكون محمد نبياً ؟ .

وأهل الكتاب الذين قالوا عن أنبيائهم ما قالوا استنكروا أيضاً أن يكون محمد نبياً ؟ .

فمن النبي إذا لم يكن محمد نبياً ؟! .

إنه المثل الأعلى للنبوة التي تعتبر همزة وصل بين الأرض والسماء !! .

وكانت سورة يونس رقيقة سهلة عندما قالت للناس : ما العجب في أن يكون محمد نبياً وهو يتلو على الناس كلاماً لا ريب فيه ولا يتسلل إليه باطل ولا ترقى إليه ريبة ؟! .

إنكم تناقشونه وتريدون منه كلاماً آخر ، ما دخله هو في أن يأتي لكم بما تريدون من كلام ؟ .

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ [يونس : ١٥] .

أنا أتلقى ولا أؤلف ، أنا أستمع ما يوحى إليَّ وأُبَلِّغ ، ولست شاعراً أصوغ قصائد أو أديباً يكتب من دماغه ، ولكن الله هو الذي أقرأني فقرأت ، كنت أمياً وعشت بينكم زمناً **﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون ﴾** [يونس : ١٦ ، ١٧] .

ثم تقول له الآيات : تحمل إذا قاوموك ، وامض في طريقك ولو اعترضوك ، ولك فيمن مضى من الأنبياء أسوة فقد أُتعبوا وانتصب المردة

من حملة الباطل كي يعوقوا سيرهم ويطفئوا نورهم وهيهات ! .

يقول الله له في هذه السورة . ﴿ **واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولاتنظرون ، فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾ [يونس : ٧١ ، ٧٢] .

كان نوح يدعو إلى الإسلام وهي دعوة محمد عليه الصلاة والسلام ولذلك يجيء في آخر السورة ليقول للناس : ﴿ **قل ياأيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين** ﴾ [يونس : ١٠٤] .

هكذا تعرض الرسالة الخاتمة نفسها على الناس ، ويستحيل أن يوجد في الدنيا ذو عقل وإنصاف يُمَكَّن من الاطلاع على رسالة محمد عليه الصلاة والسلام كما هي ثم لا يقتنع اقتناعاً يغوص في أعماق قلبه بأن محمداً حق !! .

ثم يجيء الكلام عن الطبيعة البشرية في سورة يونس : الناس لهم في حياتهم أطوار ، ولهم في دنياهم أحوال ، إن الصحة القوية والثروة الكبيرة والسلطة المطلقة قد تجعل الإنسان يطغى ويستبد ويعيش وفق الساعة التي تيسرت له وجعلته يأمر وينهى ويملك الإنفاق والإعطاء وإجابة الملذات وقضاء المآرب واللُّبانات . ولكن الإنسان ينكشف له ضعفه ويشعر بذُله وعبوديته يوم يتجرد من أسباب قوته !! إنه لو كان ملكاً ذا جلالة أو لو كان رئيساً ذا سلطات مطلقة فإنه يذله المرض ويقفه أمام ربه شاعراً بالفقر إليه ﴿ **وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون** ﴾ [يونس : ١٢] .

ثم يسمي القرآن الكريم هذا الأسلوب مكراً ، فيقول في وصف البشر أفراداً أو جماعات : ﴿ **وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا**

هم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكراً إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾ [يونس : ٢١] .

إن الحفظة الكرام الكاتبين يحصون عليكم التناقضات التي تقع في حياتكم ، يحصون عليكم أنكم عند الشدة عرفتم ربكم ، وعند ارجاء نسيتم فضله ولم تشكروا نعمته ، ثم يوضح جل جلاله هذا المعنى فيقول :

﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾[يونس : ٢٢ ، ٢٣] .

أنتم بهذا المسلك لا تضرون ربكم فهو غني عن شكركم ، إنه لا يزيد بطاعتكم ولا ينقص بمعصيتكم ، إنكم تضرون أنفسكم **﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾** !! .

ثم يضرب الله المثل . هذه الدنيا كل شيء ازدان فيها ، لقد بدأتْ غرساً محدوداً ، ثم أخذ العقل البشري يكدح ويصل وبتوفيق الله أمكن لناس كثيرين أن يعمروا الخراب وأن يجندوا قوى الكون الهائلة لمصلحتهم ، وهذا نوع من ألوان التكريم الإلهي ، لكن لهذا التكريم مقتضيات .. إن من التبجح أن تأكل وتشبع ثم لا تقول لمن أطعمك : شكراً لك ! .

إن من التبجح أن تفكر وتقدر ثم لا تقول لمن وهبك السمع والبصر والفؤاد : لك الحمد والمجد ! .

إن الحياة بدأت من الله وتنتهي إلى الله :

قال تعالى : **﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها**

حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ [يونس : ٢٤] .

إن هذه الدنيا سيُخرَّبُ عمرانها : ويُقوَّضُ بناؤها ، ويَحْتكم إلى الله كفرها وإيمانها ويومئذ ينقسم الناس قسمين : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون** ﴾ [الجاثية : ٢٧] .

هذه السورة فيها حديث متشابك يمكن أن يجمع هذه النظرات في إطار التفسير الموضوعي الذي ألفناه ، ونستعين الله يوماً ثم نعرض لهذه السورة في صورة تجمع شتاتها وتبين أولها وآخرها . لكن لمناسبة أن هذه السورة قالت : ﴿ **أمَّن يملك السمع والأبصار** ﴾ هناك حديث قدسي عجز الكثرة من الناس عن إدراك حقيقته ، يقول الحديث : « **من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ..** »(١) .

معنى هذه الكلمات أن الإنسان عندما يؤمن إيماناً يستغرق حواسه ، ويملأ أقطار نفسه فإن فكره سيكون لله ، وإن نظره سيكون لله ، وإن حركته في الأرض ستكون لله ، وإن كدحه سيكون لله وكما قال الله على لسان نبيه ﷺ : ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣] .

وليس معنى الحديث أن الله سبحانه وتعالى يتحول إلى يد أو رجل كما يفهم الأغبياء ، لا ، إن الحديث يريد أن يُفهِّمنا أن بعض الناس منذ أن يستيقظ في الصباح إلى أن يأوي إلى فراشه ربما كانت خطرات نفسه في منامه شيئاً يتصل بالدين وبالله وبالإيمان !! .

---

(١) رواه البخاري في الرقائق ــ باب التواضع ٨ / ١٣١

وهذا النوع من الناس هو الذي يستحق الولاية ، وهو الذي يكون لله وليًّا !! .

هذا المعنى نأخذه من سورة يونس من آيتين أعقبت إحداهما الأخرى ، قال تعالى : ﴿ **وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين** ﴾ [يونس : ٦١] .

وبعد هذه الآية التي تجعل الإنسان صاحي الذهن نيِّر القلب ، إذا شهد شيئاً على ظهر الأرض أحس أن الله يشهده أيضاً ويشهد ما يراه وهو معه في كل شيء !! من استصحب هذا المعنى وعاش به ارتقى إلى الدرجة التي وصفتها الآية التي بعد ذلك : ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ۝ الذين آمنوا وكانوا يتقون ۝ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ [يونس : ٦٢ ـــ ٦٤] .

فولاية الله ليست كما فهم المسلمون في عصور الانحطاط هذه الجهالات أو الشعوذات في بعض الأجساد القذرة التي لا يمكن أن ينظر إليها مؤمن نظرة احترام . إنما ولاية الله عقل لمَّاح بصير بآفاق السماء وفجاج الأرض يرى عظمة الله في مشاهد الملكوت فينعكس هذه المشاهد في نفسه استغراقاً وهداية وخضوعاً وتفانياً يجعل سمعه وبصره ويده ورجله وتفكيره وحركاته الظاهرة والباطنة لله !! .

سورة يونس سورة فيها خير كثير نرجو الله أن يعيننا على تفسيرها يوماً ما .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ ... **الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام النبيين وسيد المصلحين .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

أيها الإخوة : بوصفي إنساناً ممن يخدمون الدعوة الإسلامية أرى لزاماً عليَّ أن أعرف ما يقوله الناس عن الإسلام ودعوته ، ثم أرى لزاماً عليَّ أن أعرف ما يقوله المواطنون سواء كانوا على رأيي أو ضدي في الأحوال العصيبة التي نمر بها ، فلا شك أن الأمة الإسلامية تمر بفترة من أخطر الفترات في تاريخها لأن عدوها قرر — كما قلت في وضوح — أن ترتد عن دينها وأن تتنازل عن بلادها !! .

تابعت ما يقال بشأن بناء الإنسان العربي كما يقال في هذه الأيام ، ولمناسبة « ورقة العمل » التي تدرس هنا وهناك فقرأت في إحدى صحف اليوم كلاماً عن أن برامج التعليم يراد تغييرها ويُنظر فيتطويرها ، ولابد ونحن نعيد النظر في هذه البرامج أن نعرف ما الزاد الذي نقدمه لأبنائنا لِيُنَمِّي كيانهم الأدبي ، وليُرشِّد وجهتهم في الحياة ..

وكان الكاتب مصيباً إذ قال : إن كل بيئة تمسكت بنوع معين من الزاد ، وقال : إن الروس قالوا : نحن نبني ثقافتنا على المادية الماركسية اللينينية ، وإن الغرب الأوربي له ثقافة ربى بها أجياله ، وإن الأمريكيين

صنعوا لأنفسهم ثقافة معينة ، ثم انتهى الكلام إلى : ما هو الزاد العلمي للأمة العربية ؟ ما هو المنهج التربوي للأمة العربية ؟ ما هو التوجيه الثقافي للأمه العربية ؟ وكان الجواب : لا شيء !! .

وهذا صحيح !! هناك فراغ مخيف في عقول الطلاب في مراحل التعليم المختلفة الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعية !! .

ليست هناك عقيدة موجهة ، ليست هناك قيم ضابطة للأخلاق ، ليست هناك هذه المثل الرفيعة التي تعلم الناس أن يقفوا عند حدود معينة ، وقد شعرنا بوضوح أن الرجل قد يحرز أعلى الإجازات العلمية وأنه يكون حاد الذكاء إلى درجة العبقرية ولكنه فارغ الفؤاد من الإيمان مقطوع العلاقات برب العالمين !! وهنا يستغل ذكاءه العبقري في تكوين نفسه على حساب أمته ودينه .

اقترح الكاتب بعد ذلك اقتراحاً قال فيه نريد تعليماً يعتمد على روح الإسلام !! .

كلام جميل لكنه أيضاً مريب ، لأنه ما حدود كلمة : روح الإسلام ؟ .

هل من روح الإسلام أن نُميت الأركان مثلاً فلا نكلف الشباب بالصلاة ؟ .

هل من روح الإسلام أن نبيح الخنا ؟ .

هل إذا قلنا : لابد من تغيير القانون الذي يبيح الخنا جاء إنسان وقال: ادعوا إلى روح الإسلام ؟ .

هل إذا قلنا لا بد من وضع الصلاة كركن أساسي في منهج المدرسة والجامعة جاء إنسان وقال : ادعوا إلى روح الإسلام ؟ .

أنا أريد أن لا نلعب بالكلمات ، إن دين الله لا يؤخذ عن أفواه الجاهلين والقاصرين .

إن اليهود أبعد من تشبثهم بالشكل في دينهم أنهم وضعوا على رأس سكرتير الأمم المتحدة الطاقية اليهودية واضطر الرجل أن يخلعها بعد أن مكثت على رأسه حيناً حتى لا يقال : إنه أصبح يهودياً لكي يظهر بمظهر الحياد ولو تمثيلاً !! .

فإذا كان اليهود قد اعتبروا طاقية الصلاة شيئاً يتمسكون به فما معنى أن يجيء إنسان ليقول لنا : خذوا روح الإسلام ودعوا نصوص الإسلام ؟! .

إسلام بلا نصوص تضيع روحه ، إسلام بلا كتاب وسنة لا روح له بل لا عنوان له إنه أكذوبة ، ولذلك نريد أن نعود إلى ديننا موضوعاً وشكلاً ، حقيقة ومظهراً ، روحاً وجسماً ، فإن هذا التقسيم غير معروف في دين الله .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

الدِّين الإسلامى وحاجة الإنسانية إليه

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن جميع النبوات قبل الرسالة الخاتمة كانت نبوات محلية محدودة الزمان والمكان ، تستغرق جزءاً من الزمن لا تتجاوزه وجزءاً من الوقت لا تتعداه ، يستوى فى ذلك المرسلون كلهم بدءًا من نوح عليه السلام إلى عيسى عليه السلام .

يقول الله تعالى فى رسالة نوح : ﴿ **إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ٥ قال يا قوم إنى لكم نذير مبين** ﴾ [نوح : ١ ، ٢] .

ويقول فى رسالة عيسى : ﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدىَّ من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين** ﴾ [الصف : ٦] .

وفى إنجيل مَتَّى : « لم أُرسَل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » (١) .

---

(١) إنجيل مَتَّى الإصحاح الخامس عشر

أما الرسالة الخاتمة فجاءت على غير ذلك ، خالفت جميع الرسالات السابقة من ناحية الأبعاد الثلاثة : طولًا وعرضاً وعمقاً ..

طولًا : استغرقت الزمن كله إلى قيام الساعة .

عرضاً : استغرقت البشر جميعاً فى المعمور من أرض الله .

عمقاً : تناولت ما يحتاج إليه البشر من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق ، ووضعت القواعد العامة والمبادىء المنيرة التى توجه الناس إلى ما يضمن لهم الصالح فى معاشهم ومعادهم على سواء .

وبذلك أصبحت هذه الرسالة لا معقب عليها ، وأصبح نبيها عليه الصلاة والسلام مسك الختام ، فلا وحى بعد ذلك ، ولن يجيء من عند الله هدى جديد يحمله بشر آخر .. كان الناس قبل محمد عليه الصلاة والسلام يشبهون الغلام الذى يعيش مع أبيه فهو يأخذ بيده ويمضى به فى الطرق حتى إذا بدأ الغلام يَكْبَر قال له أبوه : لست باستمرار معك ادرس هذه الخريطة فإن لك عقلاً تستطيع أن تعيش به وأن تتعرف به الطرق وأن تدرى به المزالق التى تُتلفك والمصالح التى تُجديك ، خذ هذه الخريطة وامض بها !! كذلك صنع الله للعالم مع النبى الخاتم ﷺ ، كان جل جلاله يستطيع أن يبعث فى كل قرية مرسلاً ، وماذا يكلفه هذا ؟ لا يكلفه شيئاً . ﴿ ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً ﴾ [الفرقان : ٥١] لكنه جلَّ جلاله لم يشأ واكتفى بأن أرسل النبى الذى رسم الخريطة للعالم بعد ما كبر وقال له : هذا الوحى بيدك مصباح يلقى بضوئه على الطريق فتنتفع به وتعرف كيف تضع قدمك فى حاضرك ومستقبلك .

وهكذا من أربعة عشر قرناً إلى الآن لم يجيء كتاب ولن يجيء كتاب ، ولم يبعث نبى ، ولن يبعث نبى ، اكتفت الحكمة العليا بهذا القرآن الكريم مع النبى الخاتم ﷺ .

ولما كان الإسلام دين الإنسانية منذ بدأت ـ بمعنى أن العقائد الركينة فيه هى ما بعث به المرسلون السابقون ـ فإن الإسلام بوصفه الجديد يعتبر دين السموات والأرض ، دين الأزل والأبد ، وليس وراء ذلك شيء له

قيمة : فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ [يونس : ٣٢] .

ولأن هذا الدين ساوى الإنسانية كلها فهو كون آخر يضارع ويساوى الملكوت الكبير الذى تعيش الدنيا تحت سمائه وفوق أرضه ، ولذلك جاءت ثلاثة أقسام فى القرآن الكريم ، كل قسم يوجه النظر إلى عظمة هذا القرآن تنبيهاً إلى عظمة النبى الذى بلّغه وإلى ضخامة الرسالة التى ورّثنا إياها .

قال تعالى : ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم * فى كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين** ﴾ [الواقعة : ٧٥ - ٨٠] .

مواقع النجوم : محطاتها فى مدارات الفلك الواسع .

والوحدة التى يقيس بها علماء الفلك سير الكواكب فى هذا الكون الضخم وحدة مدهشة ، فإن السنة الضوئية تعنى المسافة التى يسيرها الضوء فى سنة ، والضوء يقطع فى الثانية (١٨٦ ألف ميل) أو (٣٠٠ ألف كيلو متر) (١) .

ولذلك كان الكلام للعرب الأميين : ﴿ **وإنه لقسم لو تعلمون عظيم** ﴾ وكيف يعلمون وهم يومئذ لا يعرفون المراصد ولا يعرفون الأبعاد الشاسعة التى تنتقل فيها الكواكب ولكن وُجّهَ نظرهم إلى أن هذه الكواكب ومن فيها من أملاك وهذه الأرض وما عليها من جن وإنس يجب أن يَعْنُو لله وجهه وأن يحنى له صلبه وأن يخضع لأمر ربه وأن يستكين لحكمه وأن ينفذ تعليماته . ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون** ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

---

(١) أى أنه يقطع فى الدقيقة (١١ مليون و ١٦٠ ألف ميل) وفى السنة الواحدة من سنينا يقطع (ستة ملايين مليون ميل أو ستة آلاف مليار ميل تقريباً) وهذه المسافة هى التى اصطلحوا على تسميتها (السنة الضوئية) ليعبروا بها عن أبعاد السماء الهائلة ، فمتى قيل لنا إن نجماً يبعد عنا سنة ضوئية فمعنى أنه يبعد عنا ستة ملايين مليون ميل !! .

القَسَمُ الثانى : قسم بالمرئى وغير المرئى ، بالمبصرات وما يعجز البصر العادى عن إدراكه : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون * ومالا تبصرون * إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلًا ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلًا ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين ﴾ [القلم : ٣٨ ـ ٤٣] .

والقسم الثالث : قسم بالكواكب وهى تذهب وتجىء فى الفلك الرحب : ﴿ فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس * والليل إذا عسعس * والصبح إذا تنفس * إنه لقول رسول كريم * ذى قوة عند ذى العرش مكين * مطاع ثم أمين * وما صاحبكم بمجنون ﴾ [التكوير : ١٥ ـ ٢٢] .

سمى الله ذهابها وعودتها انخناساً وكنساً .. تنخنس : تعود . تكنس : تدخل فى فلكها الذى تدور فيه .

عسعس : رقّ ظلامه وبدأ يختفى .

هذه الأقسام فى القرآن الكريم تعطى لمحة عن عظمة هذا الكتاب ، لكن لكى تنكشف الحقائق فى هذه اللمحة ينبغى أن نقول : إنه ما دامت الرسالة الخاتمة أُيِّدت بهذا الكتاب المعجز فلا بد أن يكون هذا الكتاب ممتداً ـ كما قلت ـ مع الأعصار المختلفة . ومعنى هذا : أن المعجزات القديمة الحسية كان ينتفع بها من رأوها ، فالذين رأوا عصا موسى تتحول إلى ثعبان واضح وتلتقط ألاعيب السحرة يمكنهم أن يؤمنوا بل يجب أن يؤمنوا لأنهم رأوا بأعينهم كيف تلتقط العصا ألاعيب السحرة ، أو كيف تضرب الحجر فينبجس منه الماء ، أو كيف تضرب البحر فيتحول إلى شاطئين بينهما طريق يبس ، إلى آخر ما زود الله به موسى أو ما زود به الأنبياء الآخرين .

طبيعة هذه المعجزات أنها تبعث الإيمان فى قلب من شاهدها ، لكن المعجزة الجديدة مكلفة بأن تبعث الإيمان فى قلوب الناس إلى قيام الساعة ، ومن هنا كان القرآن الكريم قديراً على محق الباطل ودمغه وعلى إعلاء الحق وإبرازه ، كان القرآن الكريم قديراً على حث العقل البشرى كى يؤدى

وضيفته ويُعمل فكره فى استبانة هذه الحقائق التى تُعرض : ﴿ **قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار** ﴾ [الرعد : ١٦] .

هذه آية نزلت من أربعة عشر قرناً ، لكنها تخاطب العقل الإنسانى فى هذا القرن : أين الآلهة التى خلقت مع الله ؟ أين الآلهة التى رزقت مع الله ؟ أين هى ؟ لا وجود لها : ﴿ **الله خالق كل شيء** ﴾ .

عندما اقترح الكفار قديماً معجزات لكى يؤمنوا قيل لهم : لن تجابوا : ﴿ **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً** ﴾ [الإسراء : ٩٠ ــ ٩٣] .

لماذا ينتظر البشر على ظهر الأرض أن تنزل ملائكة من السماء لتشق لهم قناة أو تُجرى لهم نهراً ؟ وما عملهم إذن على ظهر الأرض ؟ وهل زودهم الله بالعقل والمواهب وكرمهم على سائر الخلق إلا ليفجروا طاقتهم البشرية فى صنع هذه القنوات وفى غرس هذه الحدائق وفى استنبات التربة حتى تُخرج البساتين وتُخرج الزروع والثمار ؟ .

هذا الدين جاء ــ كما قلت ــ ليقول للبشر : لستم فى وصاية أحد ، ما تحتاجون ــ كما يحتاج الصبى ــ إلى ولى أمر يأخذ بيده وهو يمشى به فى الشوارع والميادين ، كَبِرتُم ، سيروا وحدكم ، استعلموا عقلكم ، قدروا فكركم .

هذا هو الذى صنعه الإسلام فى معجزته الأخيرة ، ولذلك يقول النبى ﷺ ــ واضعاً الفرق بين معجزته ومعجزات من قبله ــ : « **ما من الأنبياء من نبى إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما**

كان الذى أوتيت وحياً أوحى الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » (١) .

يقول الفيلسوف المسلم ابن رشد : إن الفارق بين المعجزة الجديدة والمعجزات القديمة أن هذه من جنس القضية التى جاءت للاستدلال عليها ، أما غيرها فلا صلة له بالقضية وموضوعها .

وضرب ابن رشد لذلك مثلًا : أرأيت إذا جاءك طبيب يقول لك : أنا طبيب . تقول له : ما الدليل على طبك ؟ يقول لك : الدليل أنى أمشى على الماء . فلو مشى على الماء فأنت مضطر لأن تصدقه ، ولكن ما صلة المشى بالطب ؟ لاصلة .. لكن عندما يقول لك الطبيب أنا طبيب تقول له : ما الدليل على طبك ؟ يقول لك : المرض العضال أشفيه ، هات ما عندك من مرضى أعجزوا الأطباء فتجىء له بالمرضى الذين حيروا الأطباء فيداويهم ويشفيهم ويردهم معافين سالمين يمشون على الأرض آمنين مطمئنين !! .

هذا دليل من جنس الدعوى ، هذا دليل من نفس القضية ، ولذلك كان القرآن دليلًا على صدق صاحبه ، دليلًا من نفس الدعوى . ما هو الدين ؟ أليس إحياء للقلوب ، أليس إنارة للفكر ؟ أليس هداية للسلوك ؟ أليس شفاء من العلل النفسية ؟ فقد فعل محمد ﷺ ذلك كله بكتابه ، ولذلك كان هذا الدين ديناً باقياً إلى قيام الساعة ، لو أن إنساناً آخر بُعث من السماء – فرضاً – فإنه لن يقول إلا ما قاله القرآن من أن الله واحد ، وأن الطريق إليه هو القلب السليم والعمل الصالح ، وأن هداية الناس ما تكون إلا بيقظة ضمائرهم وصلاح عقولهم .

ربما تساءل البعض : إن هذا الدين – فعلًا – أدى دوراً عظيماً فى

---

(١) رواه البخارى فى فضائل القرآن – باب كيف كان نزول الوحى ٢٢٤/٦ ومسلم فى الإيمان – باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته ٩٢/١ .

خدمة الإنسانية وارتقى بها ارتقاء لا يمكن إنكاره ، ولكن هل ظل العالم يحتاج إلى الإسلام ؟ .

نقول : ما يزال العالم محتاجاً إلى القلم الأحمر الذى أمسك به الإسلام ليشطب هذه الخرافات التى استولت على عقول شتى وليقول : ﴿ **قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ [الإخلاص : ١ - ٤] .

ليكن المسلمون فى أيام عجاف ، ولكن العالم فى شرقه وفى غربه لا يزال أفقر ما يكون إلى الإسلام رسالة تصلح له أوضاعه السياسية والاقتصادية وأوضاعه الخلقية والاجتماعية

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ **الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون * ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ [الشورى : ٢٥ : ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام النبيين وسيد المصلحين .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

عباد الله : أوصيكم ونفسى بتقوى الله، ثم قدروا الدين الذى شرفكم الله به ، قدروا النبوة التى حملتم رسالتها وآلت إليكم مواريثها .

إن المسلمين فقراء فى ميادين شتى ، لعل أولها ميدان المعرفة ، ميدان التطبيق العلمى ، ميدان الحضارة الصناعية ، أو لعلهم قبل ذلك قد خانوا دينهم فى مجالات شتى .

أنا لا أستطيع لو أن ملكاً مصاباً بجرب أو مصاباً بحمى خبيثة لا أستطيع أن أحمد له ملكه وهو مصاب بالحمى أو مصاب بالجرب ، لابد أن يصح أولًا قبل أن أحترم جلده وأعترف له بعافيته . ربما كان ناس كثيرون فى هذه الدنيا على درجات ملحوظة من الحضارة أو القدرة العلمية والصناعية ، ولكنهم ما داموا يجهلون الله أو يجحدونه فهم كالحيوان أو أضل سبيلًا ، لكن إذا حقرنا ما وصلوا إليه من مستويات علمية فما أستطيع أن أحترم ما وصلنا إليه من منحدرات فكرية وصناعية ، لأننا خُناديننا لأننا لم نحسن العمل به .

إن القرن الخامس عشر الهجرى يجيىء وبين المسلمين خلافات كثيرة تدل على أن ضمائرهم نائمة وشهواتهم يقظى تدل على أن الخرافات تغدو

وتروح فى بلادهم وأن الحقائق مستغربة أو مستنكرة فى أوهامهم .

إن الأمة الإسلامية فى مجالات سياسية واجتماعية واقتصادية تحترف التسول أو الصعلكة ولا تحسن الأخذ من ينابيعها ولا تحس إدراك ما لديها من نفائس !! .

لذلك يجيء هذا القرن وأنا حذر أشفق على مستقبل أمتنا ، لا أزال أهيب بكل ذى ضمير أن يفكر فإن العداوات العلنية والعداوات الخفية فى كثير من الأقطار الإسلامية مخوفة ، فإن كنا سنمضى على أحوالنا هذه فإن المصير مخوف والعاقبة قلقة ، أما إذا استيقظنا وتشتنا بمواريثنا وعرفنا عظمة الكتاب الذى آل إلينا وشرف النسب لنبى العربى المحمد الذى كرمنا الله به فإننا نبدأ طريقنا صاعدين ونضع أقدامنا على أول السُّلم لكى نرتفع مرة أخرى .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر »(١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

* * *

---

(١) رواه مسلم فى الذكر باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر مالم يعمل ٨١/٨ .

نظرات في سورة "الحج"

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

١٩٨١ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداه ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـد :

فستعين الله تعالى ونُلقي نظرة باحثة متدبرة على سورة الحج .

وقبل أن نتحدث عن سورة الحج نذكر أن سوراً كثيرة في القرآن الكريم يكون عنوانها مرتبطاً بشيء محدود فيها ، فمثلاً سورة المائدة سورة تستغرق بضع عشرة صفحة من القرآن الكريم ، ومع ذلك فإن كلمة

المائدة إنما تشير إلى قضية أحدت بضعة سطور ، أمّا السورة كلها فهي في العقود المبرمة بين العباد وربهم وبين الناس بعضهم ولبعض الآخر ، وضرورة قيام الناس باحترام هذه العقود والوفاء بحقوقها .

وسورة الحج من هذا النحو ، جزء منها في الحج لا نشير إليه الآن لأن للحج مناسبة كبيرة يطول الحديث فيها عن هذه الفريضة ، أما الآن فنظرتنا إلى المعاني والقضايا والأحكام التي تتضمنها هذه السورة المباركة ، بدأت السورةُ فحدّثت الناس عن الحكمة الأولى من وجودهم :

إننا نحن البشر خُلِقْنَا لنعبد ربنا ، خُلِقْنَا لنعيش أتقياء بررة لا أشقياء فجرة ، ويجب أن يعتبر الناس هذه الحياة مهاداً ليوم يجيء بعد ذلك يحاسب الناس فيه على كدحهم الطويل إبّان عيشتهم على ظهر الأرض .

هذا المعنى — معنى التقوى وأن تكون لنا ضمائر ترقب الله وهي تعمل في هذه الحياة — هو ما بدأت به سورة الحج :

﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ◦ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ [الحج : ١ ، ٢]

فتقوى الله تعني وجود قلب خاشع بين حنايا الصدر يرقب رب العالمين فيما يفعل ، ويترك ، فيما يقدم ويؤخر . والناس أمام هذا المعنى فرق كثيرة :

بعضهم آمن بالله وصدّق بلقائه ، والحديث عن لقاء الله يكثر في القرآن الكريم ، والسبب أننا سكْرى بخمرة الحياة ، نحن نعيش لدنيانا ، تغلبنا غرائزنا فما نفكر إلا في يومنا الحاضر ، فنحن محتاجون إلى تذكير مُلِحٍّ باللقاء الأخير وباعتبار هذه الدنيا تمهيداً لما بعدها .

وقد ساق القرآن الكريم — أول ما ساق — ما يمنع الريبة :

ما الذي يجعلك لا تصدق بلقاء الله ؟ .

ما الذي يجعلك ترتاب في البعث ؟

إن كثيراً من الناس يَشُكون في أن هناك حياة آخرة !! ما السبب ؟ السبب أنهم غافلون ، فإن الوعد بالبعث يمكن أن يُستبعد من عاجز كما أنك ترفض أن تصدق شخصاً مُفْلِساً يقول لك : سأعطيك ألف جنيه !! .

من أين له ؟ إنه مفلس ، فكيف تصدقه ؟ .

لكن عندما يقول لك من يشتغل كل لحظة بالإيجاد : سوف أُوجدك مرة أخرى ! فكيف تكذبه ؟ .

نحن الآن ونحن نتكلم تكون أرحام الأمهات قد دفعت بعشرات من الأطفال بنين وبنات في القارات الخمس !! .

من الذي أنشأ هذه الأطفال في بطون الأمهات ؟! .

البشر يأكل لقمة خبز مع قطعة جبن أو مع أي أُدْم من الإدام فمن الذي يحول هذا الطعام إلى حيوانات منوية في الرجل وبويضات في الأنثى ؟! .

من الذي يجعل هذه الأصول تتمثل فيها خصائص الجنس الأدبية والمادية وتكتسب المَوْرُوثات العادية وغير العادية في الآباء والأمهات ؟! .

صانع هذا ــ بداهة ــ واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد !! .

فإذا قال لك : سأعيدك مرة أخرى فلم تستغرب ؟ إنه من الآن يوجد من عدم ، ولذلك يقول للناس : **﴿ أولم يروا كيف يبديء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير * قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ﴾** [العنكبوت : ١٩ ، ٢٠] .

وهذا ما ركزتْ عليه سورة الحج وهي تبني الأمة المؤمنة(١) :

---

(١) بناء الأمة المؤمنة هو المحور الذي دارت عليه السورة كما سيجيء في ثنايا حديث شيخنا بارك الله فيه

﴿ يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ [الحج : ٥] .

الحقيقة أن هناك دورة في هذه الحياة عندما يتأمل فيها أهل العقل وأولوا الألباب لا بد وأن يحسوا بأن مِنْ وراء هذه الدورة حُكم الحكيم ولُطف اللطيف وخبرة الخبير سبحانه وتعالى لأن الناس تأكل الأطعمة والحبوب واللحوم والموالح والفواكه وشتى الأصناف التي تزحم المعدة ثم تَلْفِظ هذا كُلّه على نحو معروف،ثم يتحول هذا كُلُّه مرة أخرى إلى فواكه ناضجة وإلى حبِّ الحصيد ، وإلى ألوان وطعوم حلوة ، وإلى غير ذلك مما يَسْحر العين ويَبْهر القلب !!

من صنع هذا ؟! .

يجب على الإنسان إذا قيل له : إن البعث حق أن يقيس الغائب على الحاضر وأن يعرف أن هذا أمر سهل ، والأدلة مبعثرة في آفاق السموات والأرض :

﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ٭ وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾ [الحج : ٦ ، ٧] .

وسورة الحج ــ بعدما بينت كيف تُبنى الأمة الراشدة على هذه القاعدة ــ بينتْ أن هناك فرقاً أخرى ترفض هذا الكلام وتأباه :

﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ﴾ [الحج : ١٧] .

الذين آمنوا : هم المسلمون ، والملل الأخرى ملل ضالة بعيدة عن الحق ، وقد أعطى هذا لإجمال فكرة عن اليوم الآخر وأن رب العالمين سيفصل بين هؤلاء جميعاً ، حتى يجيء بعيسى ابن مريم ويقول له :

﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ [المائدة : ١١٦] كل إنسان سيحاسب : **﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً ﴾** [الأحزاب : ٨] .

هذا الإجمال **هنا** فصلته السورة أكثر في أماكن متعددة .

﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ [الحج : ٣] .

﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ◦ ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ◦ ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ [الحج : ٨ — ١٠]

ثاني عطفه : أي لاوىَ عنقه لأن الإنسان عندما يرفض الشيء يلتوي ويتركه استكباراً(١) .

قال العلماء : إن أسباب المعرفة في هذه الآية :

هناك عقل واضح تنشأ عنه معلومات صحيحة .

وهناك وحي صادق ينشأ عنه علم صحيح بتوقيف من السماء .

وهناك مَنْ يتبع أهل الفكر الناضج ، ومن يتبع أهل الوحي الصادق .

وهناك مَنْ لا يتبع عقلاً راشداً ولا وحياً صادقاً بل يتبع هواه .

---

(١) وهذا كقوله تعالى ﴿ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون ﴾ « الذاريات ٣٨ ، ٣٩ » وكقوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ﴾ « المنافقون : ٥ » وقال لقمان لابنه . ﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ « لقمان : ١٨ »

﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدىً ولا كتاب منير ﴾ .

هذا النوع من الناس الذي لا يتبع صريح المعقول ولا صحيح المنقول هو أغلب الملحدين !! .

إن نصف العلم يقود إلى الكفر ، أما العلم كله فيقود إلى الإيمان ، هناك أنصاف متعلمين ، أو أنصاف قارئين ، أو أنصاف مثقفين ، هناك شخص قرأ بعض الكتب أو اطّلع على بعض الفلسفات ولكن كما قال الشاعر(١) :

فقل لمن يدّعي في العلم فلسفة   حفظت شيئاً وغابتْ عنك أشياءُ

هناك ناس — فعلاً — رأيتهم يدّعون المادية أو يدّعون العقلانية أو يدّعون الماركسية فإذا حاورتُهم وتتبّعتُ عقلهم وقدّرت مسافة العمق فيه لم أجد إلا غروراً بالجهل وضحالة في البحث وجنوناً في استخلاص النتائج !! .

هذا نوع من الكفار تحدثت عنه سورة الحج .

هناك نوع آخر تحدثت عنه السورة وهو النوع الذي يعيش لبطنه أو يعيش يربط النتائج بالمكاسب فهو ممكن أن يبقى على الإسلام إذا وجد ربحاً عاجلاً أو كسباً سريعاً ، وكان بعض الأعراب يعتنق الإسلام فإذ خلّفت امرأته ذكراً أو أنتجتْ إبله كثيراً وأخصبتْ أرضه قال : هذا دين طيب ، فإذ وجد أن الأمور تعلت عليه فخلفت امرأته بنتاً أو لم تنتج أرضه خيراً كثيراً قال : هذا دين لا خير فيه !!(٢) .

---

(١) الشاعر هو أبو نواس والبيت في ديوانه : ٧

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «ومن الناس من يعبد الله على حرف» قال : كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً ونُتجتْ خيلُهُ قال : هذا دين صالح . وإن لم تلد امرأته ولم تُنتج خيلُهُ قال : هذا دينُ سُوءٍ « البخاري — تفسير سورة الحج ٦ / ١٢٣ »

هؤلاء هم الذين تناولتهم الآية الكريمة في سورة الحج ﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين** ﴾ [الحج : ١١] .

على حرف · أي على طرف ، ليس متمكناً ، أو على وجه واحد في الحياة ، والحياة حلو ومر ويسر وعسر ، والله عز وجل يختبر — حتى — أحب العباد إليه بالشدائد لا لأنه يكرهه بل لأنه يعزه ، أترى سيدنا موسى عليه السلام الذي يقول الله فيه : ﴿ **وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني** ﴾ [طه : ٣٩] هذا الذي ألقى الله عليه محبة منه يُرمى في البحر وهو طفل وتحرم أمه من رؤيته وتُكلف بهذا الاختبار المروع لقلب أم !! لكن هكذا الحياة أساسها الاختبار ، وهذا معنى قوله تعالى · ﴿ **فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن * وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن * كلا بل لا تكرمون اليتيم** ﴾ [الفجر : ١٥ — ١٧] .

كلا : ليس الأمر كذلك ، هذا كله خطأ ، هذا تفكير حائر بائر لا قيمة له ، فلا كثرة المال تدل على التكريم ولا قلة المال تدل على الإهانة ، وإنما التكريم والهوان لهما معان أخرى ، يكرمك الله عندما يتصدق عليك بذكره ، وعندما يمنحك السداد تُقوِّي حبلك به وتُحَسِّنُ علاقتك معه ، وأما الهوان — نسأل الله العافية — فهو أن يصاب الإنسان في دينه ، يصاب بقسوة القلب أو جمود العين أو اقتراف الخطأ دون مبالاة ، هذا هو الهوان ﴿ **ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء** ﴾ [الحج : ١٨] .

هذه نماذج من خلق الله كما رسمتها الصفحتان الأوليان من سورة الحج ، لكي نعود إلى تكوين الأمة المؤمنة ..

هل ستعيش الأمة المؤمنة في مواجهة الفرق الأخرى في سلام ؟

هل سيلقاها الضالون من كل فج بالتحية والابتسام ؟ .

لا ، بل سيكون هناك خصام في فهم الألوهية وفي الطريق الصحيح لنجاة البشرية ، وقد أشارت السورة إلى هذا عند قوله جل شأنه :

﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم * يصهر به ما في بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق * إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير * وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ [الحج : ١٩ ــ ٢٤] .

نحن نخاصم الآخرين ، نخاصمهم في ماذا ؟ .

نقول لهم : إن الله واحد . ويقولون : أكثر من واحد !! .

نقول لهم : إن الله **﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير * له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم ﴾** [الشورى : ١١ ، ١٢] .

ويقولون في الله كلاماً آخر دون ذلك بكثير ، فلا يُثْبِتُون له الكمال الواجب ولا ينزهونه عن المحدثات والنقائص !! .

لقد خاصمنا الناس في الله وخاصمونا في الله . وهنا نجد القرآن الكريم يقول للمسلمين : ستكونون في رعاية الله وكلاءته يوم تتشبثون بدينه وتحافظون على عقائده وتمدون شرائعه . ثقوا أن الله سيؤازركم ويدفع عنكم لأنه ظهير للمؤمنين عندما ينطلقون في هذه الدنيا يعملون له ويدعون إليه ويتحملون في سبيله ، قال تعالى في هذه السورة :

﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ [الحج : ٣٨] .

إنه يحب المؤمنين ويدفع عنهم ، ويكره خونة النعمة الذين يمرحون في فضل الله ويجحدون أياديه على رءوسهم وأبدانهم وأرواحهم .

ثم يقول للمؤمنين : قد تتعبون من أجلي ، تحملوا فالكفاح ضريبة على

الأحياء وهو ضريبة أثقل على أهل الإيمان من قديم ، فإن حملة صحف الوحي في التاريخ الأول دافعوا عن عقائدهم ، والذين يحملون صحف الوحي ليصحبوا بها مسيرة الإنسانية حتى يوم البعث يجب أن يدافعوا عن صحفهم وعن صلواتهم وعباداتهم ، وليدركوا أنهم منصورون حتماً !! .

لكن متى يجيء النصر ؟ .

يوم ينظر الله إليهم فيجد أن إسلامهم ليس أمراً نظرياً ، وأن إيمانهم ليس خيالاً حائراً عابراً ، لكن عندما يتحول الإيمان إلى عمل ويتحول اليقين إلى سيرة تفرض نفسها على المجتمع عندئذ ينصر الله من يعملون له ، وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز * الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ [الحج : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١] .

هؤلاء الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله لا بد أن يستعيدوا الأرض التي فقدوها لأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده !! .

لكن متى يستعيدون الأرض التي فقدوها ؟ .

يوم يعلم الله من أحوالهم أنهم إذا ملكوا انتشرت الصلوات ، وأُديت الزكوات ، وعلا صوت المعروف ، وخفت أو انمحى صوت المنكر . أما إذا علم الله من أحوالهم أنهم إذا عادوا إلى الأرض أو مُكّنوا فيها ما أقاموا صلاة ولا آتوا زكاة ولا رجّحوا معروفاً ولا قبحوا منكراً فإن الله تعالى يَكِلُهُم إلى أنفسهم وليس هنالك إلا البوار !! ولذلك لم أستغرب صنيع القدر عندما طُرد المسلمون من الأندلس فإن آخر ناس منهم أمضوا صلحاً غير شريف .

قلت في نفسي : ليس هؤلاء أولاداً شرعيين للفاتح العظيم طارق بن زياد الذي أحرق السفن وقال لطلاب الآخرة : أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر !! .

أما الذين عاشوا في الترف فإنهم سئموا لأنهم ما يصلحون للقاء في الأرض ، وعندما أسمع بعض الناس يقولون : نقيم دولة فلسطين علمانية أشعر بالأذى والنكد وأقول لن تقوم لفلسطين دولة علمانية أبداً لأن الله لا ينصر بَتَّةً من يقولون : نقيم دولة لا دين لها بل سيهزمهم أمام من يقول : نقيم دولة يهودية لأن هؤلاء لهم دين وإن كان جائراً محرفاً مفسداً .

قد يطول الصراع بين الحق والباطل ، وهنا تقول السورة :

﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون * وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليّ المصير ﴾ [الحج : ٤٧ ، ٤٨] .

وكم من قصور خُرِّبتْ ، وكم من آبار جفَّتْ ، وكم من قرى تلاشت ، وسنةُ الله في كونه هكذا هزيمة ونصر ، ومدوجزر: **﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد * أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور * ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون * وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير ﴾** [الحج : ٤٥ ــ ٤٨] .

بعد هذا الدرس للأمة الإسلامية جاء درس ثان وهو درس يحتاج إلى تأمل فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يبين في هذا الدرس أن أعداءه على درجة كبيرة من الجدل وطول اللسان وكثرة الكلام وسَوْق الحجج المزيفة **﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى**

بعض زخرف القول غروراً ﴾ [الأنعام : ١١٢] .

كلام مزخرف ، وصحف مليئة ، وكتب مطبوعة طبعاً جيداً ، وأناشيد وأغان وأنغام وألحان وأشياء كثيرة تساند الباطل !! فهل يكون الحق الذي يلقاها حقاً عيياً أو قاصراً أو ضعيف الأدوات ؟ لا ، إن جاءوا بدليل جئهم بالدليل الأقوى ، إن جاءوا بحجة جئهم بالحجة الدامغة ، وفي هذه السورة نجد أربع آيات متتابعة يقول الله فيها :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله علم حكيم ۞ ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ۞ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ۞ ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ [الحج : ٥٢ ـــ ٥٥] .

هناك ثلاثة أقوال في هذه الآيات :

القول الأول : أن أهل الباطل هم لَسَنٌ وقدرة على الجدل وهم يساندون باطلهم بأنواع من الفسفات وبراع من التوجيه تملىء بها صحف وإذاعات ـــ وهذا ما نسميه إلقاء الشيطان ـــ كي تُعكر رسالات الأنبياء والمرسلين ، ولكن أهل الحق يواجهون هذا الغزو العقلي ولا يزالون به حتى يكشفوا زيفه ويفضحوا سوأته ويردوا الناسَ عنه وهذا إلى يوم القيامة ، وبعض المستغفلين يُخدع بالحجج الواهية والبراع الكذوب فيتبعها ، والبعض الآخر يتضح له الحق فيؤمن به !! .

القول الثاني : وهو قول رأيته إن كان حقاً وخيراً فهو من عند الله ، وإن كان شراً وخطأ فهو من عندي أنا : أن الوحي السماوي يبدأ صافياً نقياً فإذا شق طريقه في دنيا الناس أخذ يتلوث ، والواقع أن نهر الثقافة الإسلامية بدأ مع العصر الأول نقيًّا قريباً من السماء كماء النيل في مجراه الأعلى قَطْرٌ صاف ليس فيه إلا ما يَرْوى الظمأ ويُنبت الزرع ثم يأخذ النهر طريقه فإذا

على مَرِّ الأيام يدخل في الماء تراب وجراثيم بل أقذار وجيف للموتى وبلاء كثير ، فلو أن الناس تناولت الماء بوضعه عندما يصل إلى القاهرة مثلاً لجرَّ عليهم الأمراض والعلل !

ما بُدٌّ من تنقيته حتى يعود سماوياً كما كان .

ما بدٌّ من عزل العناصر الغريبة التي عَلِقتْ به .

وهو عندما يُعزل يعود إلى أصله الأول .

كذلك الثقافة الإسلامية عَرَضَ لها من أهواء الناس ومن جهالة المتحدثين ومن أغلاط المتفهمين ومن شهوات الحاكمين ما أساء إليها ، وعَمَلُ العلماء والمجددين أن يعيدوا الثقافة الإسلامية نقية ، وهنا يتناولها أهل الخير ، ويهتدي بها أولو الرشد ، وينتفع بها المؤمنون ، أما الذين ارتابت قلوبهم فهم يحتجون بما في هذه الثقافة من غريب أو من دخيل كي يتحللوا عنها ولا حجة لهم في هذا !!

القول الثالث : قول محقور لا قيمة له وإن ذكرته بعض كتب التفسير ، وكان على ابن كثير عفر الله له ورضي عنه أن يحمل على هذا القول حملة مشددة بدل أن يسوقه بشيء من الحياد أو من الغمز الخفيف[1] ـــ : هذا القول هو أن النبي ﷺ قرأ بمكة سورة النجم فلما بلغ هذا الموضع : ﴿ **أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى** ﴾ [النجم : ١٩ ، ٢٠] ألقى الشيطان على لسانه : « تلك الغرانيق[2] العلى وإن شفاعتهن تُرتجى » قالوا : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم . فسجد

---

(١) قال ابن كثير : قد ذكر كثير من المفسرين هٰهنا قصة الغرانيق وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا . ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح . والله أعلم « تفسير القرآن العظيم ـــ تفسير سورة الحج : ٥ / ٤٣٨ »

(٢) الغرانيق : الأصنام . وهي في الأصل : الذكور من طير الماء ، واحدها غُرنوق بضم فسكون فضم النون ، وقد كان العرب يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله وتشفع لهم فشبهت بالطيور التي تعلو في السماء وترتفع

وسجدوا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى** - أي قرأ - **ألقى الشيطان في أمنيته** ﴾ أي في قراءته !! .

هذا شيء عجيب ، ومع هذا فإن بعض المشتغلين بالسنن — وهم ليسوا أهلاً للاشتغال بها — روجوا هذا الحديث وهو حديث مكذوب من ألفه إلى يائه ولا أساس له .

بعد أن بُنيت الأمة الإسلامية على هذه المعاني حُددت لها رسالتها — في آخر السورة — على شكل دوائر ، كل دائرة تلحقها دائرة أوسع منها

﴿ **يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون • وجاهدوا في الله حق جهاده** ﴾ [الحج : ٧٧ ، ٧٨]
اركعوا واسجدوا : هذه دائرة الصلاة .

واعبدوا ربكم : هذه دائرة العبادة وهي أوسع من دائرة الصلاة .

وافعلوا الخير : هذه دائرة الخير وهي أوسع من دائرة العبادة العادية .

وجاهدوا في الله : هذه هي دائرة الجهاد وهي الدائرة الأوسع والأوسع .

وفي ثنايا السورة ما يُلهم الرشد ، وما يبني الحق ، وما يوجه النظر إلى عظمة الله ، وجاء هذا في عدة آيات بدأت باستفهام فيه تعجيب وتفتيق للذهن وتفتيح للعقل الإنساني :

﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء** ﴾ [الحج : ١٨] .

﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير • له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد** ﴾ [الحج : ٦٣ ، ٦٤] .

﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾[الحج : ٦٥] .

﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ [الحج : ٧٠] .

هكذا نلقي نظرة عامة على سورة الحج لنرى المحور الذي تدور عليه وهو : كيف يتقي المؤمنون ربهم ، وكيف يواجهون الفرق الأخرى التي لا تتقي الله ولا تحسن معرفته ، وكيف تكافح مكرها وتُبطل كيدها وتعيش إلى آخر الدهر مخلصة لكتاب ربها وسنة نبيها ﷺ ، وكيف تقدم من سلوكها نماذج في دوائر كالموج ، تقدم للناس الخير وتوضح مناهجه في كل أفق .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

***

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿... **الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام النبيين وسيد المصلحين .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

فإن ديننا هذا دين واضح ، كتابه لا نظير له في إنصاف الناس من أنفسهم وفي قيادتهم إلى ربهم ، وعندما نكون إيجابيين ــ نُشْغَل بالحق كما عرَّفه الله لنا ــ لن يبقى في حياتنا مجال للباطل الذي يشغلنا الآخرون به .

وقد رأيت أن أعداء الإسلام فيهم الآن استطالة على المسلمين ، وفيهم الآن نوع من الرغبة في السخرية منهم أو الضحك عليهم .

سئلت في عدة بلاد عن ورقة يجدها الناس عندما يفتحون بيوتهم أو محالهم التجارية فيها عدد من أسماء الله الحسنى يطالَبون بكتابتها ثلاثين أو أربعين مرة وإلا خُرِّب البيت وأفلست التجارة !! .

وأغلب الذين يكتبون هذه الأوراق ليسوا مسلمين بل من ملل أخرى تريد أن تشغل المسلمين ، إن كانوا طلاباً تشغلهم عن دروسهم ، وإن كانوا تجاراً تشغلهم عن محالهم .

أيها المؤمنون : لا أمر إلا ما أمر الله به ولا نهي إلا ما نهى الله عنه ، ما أستطيع أن أوجب شيئاً لم يوجبه الله ــ وما أستطيع أن أحرم شيئاً لم يحرمه الله .

الإيجاب العام لله وحده يتبعه نبينا عليه الصلاة والسلام .

فإذا جاءتك ورقة من هذا النوع فلا تكترث بها ولا تلتفت إليها ، اكترث بالحق الذي كلفك الله به ، اشغل نفسك بتعاليم الدين التي وضحها الله لك .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصــلاة

❖❖❖

حاضر العالم الإسلامى

خطبة عيد الفطر المبارك سنة ١٤٠٩ هـ
بساحة مسجد مصطفى محمود بالجيزة

الحمد لله كما يحب ربنا ويرضى ، الحمد لله حمداً دائماً طيباً كثيراً مباركاً فيه ، الحمد لله على نعمه الباطنة والظاهرة ، نحمده سبحانه وتعالى كما يليق بآلائه الباهرة ، حمداً فى السر وفى العلن ، وفى الأولى وفى الآخرة ، نحمده سبحانه وتعالى على ما أفاء من نعمه ونسأله أن يحشرنا إليه ووجوهنا ناضرة مستبشرة ، كما نسأله أن يجعل حسابنا عنده وفق وعده المبين فى كتابه الكريم : ﴿ **ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون** ﴾ [الزمر : ٣٥] .

الحمد لله : ﴿ **وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً** ﴾ [الإسراء : ١١١]

الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر ولله الحمد . الله أكبر ما عنت لوجهه كل ذرة فى الأرض وكل مجرة فى السماء ، رب الأمكنة كلها ، ورب الأزمنة كلها مكاناً بعد مكان وزماناً بعد زمان ﴿ **قل لمن ما فى السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ۝ وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم** ﴾ [الأنعام : ١٢ ، ١٣] .

الحمد لله ، والله أكبر ، الله أكبر ما سبح بحمده كل شىء ، وما عنا لوجهه كل حى ، وما تطلع إلى رِفده (١) كل كائن : ﴿ **إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائى قالوا آذناك ما منا من شهيد** ﴾ [فصلت :

---

(١) الرفد : العطاء والصلة

٤٧] . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام النبيين وسيد المصلحين ، إمام الخليقة الذى أسدى لبشرية مالم يسده أحد . ومع ذلك فإن جزاء النبى الخاتم أمير الأنبياء أن يتواصى حلف الأطلسى بجميع دوله على حماية وغد (١) ولع فى عرضه وأساء إليه وإلى أهل بيته ونال من المسلمين كلهم ، وكأن حرية الرأى هى حرية الشتم والبذاءة والإهانة ، ويبقى محمد عليه الصلاة والسلام كما قال فيه مادحه البوصيرى :

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك فى عُلاك وقد حا ل سناً منك دونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك للنا س كما مثّل النجومَ الماء(٢)

صلوات الله وسلامه على صاحب الرسالة الخاتمة ما قامت برها الأشياء وما دامت فى وجودها الأرض والسماء .

أما بعــد :

أيها المسلمون : نحن فى هذه الأيام فى حاجة إلى وقفة تأمل ننظر فيها إلى حاضر العالم الإسلام كى نبصر ما نحتاج إليه وكى نأخذ العبرة مما يوحى بالعبرة ، فقد شعرت بأن القوى المعدية للإسلام تُعَربد قريباً منا وبعيداً عنا ، ونحن يجب أن ندرك ما يراد بنا وما يبيت لنا .

إن فلسطين لا يجف فيها دم ، وكما يَطّلع الناس على النشرة الجوية فى كل صباح يتسمعون إلى أنباء القتلى فى الانتفاضة التى أمدها الله وحده بالقوة إلى يوم الناس هذا !! .

ونرى أن القلة المارونية فى لبنان ـ بعد أربعة عشر عاماً من الدماء المسفوكة والثورات الدائمة ـ تأبى إلا أن تضع يدها على الكثرة المسحوقة

---

(١) هو الكاتب سلمان رشدى صاحب كتاب آيات شيطانية .
(٢) ديوانه : ١ ط الحلبى .

وأن تفرض عليها ما تشاء !! .

ونرى العروبة والإسلام فى السودان يحارَبان حرباً شعواء حتى لكأنما نخشى أن يكون النطق بالإسلام جريمة هناك !! .

إن الأمر يحتاج إلى أن نتعرف حاضر العالم الإسلامى الذى صاق به أحد الشعراء فقال :

قد استردَّ السبايا كل منهزم ... لم تبق فى أسرها إلا سبايانا
وما رأيت سياط الظلم دامية ... إلا رأيت عليها لحم أسرانا
ولا نموت على حدِّ الظُّبا أنفاً[1] ... حتى لقد خجلت منا منايانا

إننا نواجه آلاماً متعبة ، ولكن الخبراء بالتاريخ الإسلامى يعرفون أن هذا التاريخ له خط بيانى متعرج بشكل يستدعى الدراسة ، فهو يَهْوِى إلى القاع حتى لا يكاد يبين ، ثم يصعد إلى الأوج حتى يبلغ عنان السماء !! .

وربما كان المسلمون فى أيامنا هذه فى فترة المحاق من تاريخهم ، لكن الصفحة الكئيبة التى نراها لحاضر العالم الإسلامى سوف تتبعها بإذن الله صفحة مضيئة مشرقة ، ذاك شأن تاريخنا كله ، نرى هذا التاريخ يَهْوِى ثم يَصْعد ، نرى أمتنا تمرض ثم تصحو ، وتقع ثم تثب ، وكما قال ربنا : ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ [آل عمران : ١٤٠]

شاء ربنا أن يذهب بيت المقدس فى فترة من فترات الجَزْر[2] من تاريخنا ، ولكن الجزر لا يبقى بل يعقبه مَدٌّ ، وفى فترة المد ـ بعد قرن من الزمن ـ استنقذنا المسجد الأقصى وأعدنا فلسطين إلى كياننا !! وفى يوم ما سقطت بغداد تحت سنابك التتار ومؤامرات الصليبيين وكانت صفحة سوداء ، ولكن التاريخ لم يقف فقد استعدنا بغداد واستطعنا بعد بغداد أن

(١) الظُّبا : جمع ظُبَة وهى حد السيف والسنان والخنجر وما أشبهها .

(٢) الجَزْرُ : انحسار ماء البحر عن الشاطىء ضد المد .

نستعيد القسطنطينية وأن جعلها عاصمة للأمة الإسلامية بعد أن كانت عاصمة لدول الرومان !! .

إن تاريخنا يحمض ويرتفع ، وقد تكون الأمة الإسلامية الآن فى فترة محرنة كفترة استيلاء الصليبيين على المسجد الأقصى أو كفترة سقوط بغداد فى أيدى التتار، ولكن الهزائم ما بقيت والانتصارات ما تخلفت ، وسوف نعود إلى أمجادنا التى فقدناها وسوف نسترد كل شبر ونغسله من أوضار (١) الذين لوثوه بعدوانهم .

إن نبينا عليه الصلاة والسلام بشرنا بقوله : « **ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزاً يعز الله به الإسلام وذلًا يذل الله به الكفر** » (٢) أى ليمتدن الإسلام مع امتداد الليل والنهار ومع مساقط الظلمة والضوء على أرض الله ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ [الصف : ٩]

لكن الخسائر التى أصابتنا كانت لها أسباب والانتصارات التى أحرزناها كانت لها مقدمات ، وعلى المسلمين إذا جَدَّ جدهم واصطلحوا مع ربهم أن يتعرفوا ما هى أسباب الانكسارات التى أصابتنا وما هى أسباب الانتصارات التى أدركتنا وأنقذتنا ، وعندما نعلم أسباب المد والجزر فى تاريخنا فإننا نعود صُعُداً من حيث جئنا ولا حرج علينا .

أيها الإخوة : لا تظنوا الدهر لوناً واحداً ، إنما الدهر شئون وفتون ، بعد انتصار بدر وقعت هزيمة أحد ، ولم تكن هزيمة أحد قاضية علينا ، وبعد انتصار الفتح وقعت هزيمة فى حنين ثم أعقبها نصر ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

---

(١) الوَضَر : الدَّرن والوسخ . والجمع أوضار

(٢) رواه أحمد ١٠٣/٤ والحاكم فى الفتن والملاحم وقال : صحيح . ووافقه الذهبى ،والطبرانى فى الكبير ٥٨/٢ وقال فى مجمع الزوائد : رواه أحمد والطبرانى ورجال أحمد رجال الصحيح ١٤١/٦ .
والمراد بيت المدر والوبر . أى أهل البوادى والمدن والقرى والأمصار

شاء الله أن يكون قدر أمتنا أن تحارب في جهتين باستمرار ، ففي أيام النبي ﷺ كانت الحرب مع المشركين وكانت مع أهل الكتاب ، وفي دولة الخلافة كانت الحرب مع الفرس وكانت مع الرومان ، وبعد ذلك كانت مع الصليبيين وكانت مع التتار !! .

إن نصرنا مرهون بجهتنا الداخلية التي إن انتصرنا فيها كانت الخاتمة لنا ، هذه الجهة التي ينبغي أن ننتصر فيها جهتنا الداخلية ، صلتنا بربنا ، صلتنا بإخواننا ، صلتنا بأنفسنا ، صلتنا بالأصدقاء والخصوم على سواء

يجب أن ندرك أن المسلمين لن يكسبوا نصراً إلا بالإسلام ، وأنهم بالإسلام وحده تعلو كلمتهم ما بقوا معتصمين بعروته ، فإذا حمت قبضتهم عليه وانحلت عراهم معه هبطوا وانكسرت أجنحتهم فلم يستطيعوا التحليق !! .

الإسلام هو أبونا وأمنا وهو حياتنا وعزنا ، ويجب أن نتشبث به وأن نحيا به وأن نحيا له .

أيها الإخوة : الجبهة الإسلامية تحتاج إلى نُصح ، وقبل أن أسدى النصح لها أتكلم عن واقع مر أحسست بمرارته في فمي !! .

إن التقاليد القديمة أن يُعفى عن المسجونين أيام العيد ، فما الذى قلب الصفحة وجعل هذه الأيام على النقيض ؟ يؤخذ أبرياء ويعتقلون ويسجنون في أيام العيد ؟! إنني ما أجد إلا أن أفزع إلى الله سبحانه وتعالى وأن أدعو وأن تؤمنوا معي : اللهم أحسن خلاص المسجونين ، اللهم أحسن خلاص المسجونين ، اللهم فكَّ إسار المعتقلين ، اللهم فكُّ إسار المعتقلين وأرجعهم إلى أهاليهم سالمين .

أيها الإخـوة : لكن المسلمين يحتاجون إلى أمور حتى يدرك ما فاتنا : لعل الأمر الأول : أن تتوحد كلمتنا في جبهة سواء ، وبغير شك وحدة الصف تعين على إدراك الغاية وتحقيق الأمل .. فإذا عزَّت هذه الوحدة لسبب من الأسباب فلتكن هناك وحدة الهدف ، ومعنى ذلك أن نتشبث نحن المسلمين بصفوفنا المتراصة وراء غاية واحدة .

يا عباد الله : إن حكماء صهيون يرسمون سياسة اليهود ، وإن الفاتيكان ومجلس الكنائس العالمي يرسم السياسة الصليبية العالمية !! .

أريد من الأمة الإسلامية ـ وفى طليعتها الإسلاميون ـ أن تتقارب صفوفهم ، وأن تتراص فى جبهة واحدة ، وأن يواجهوا عدواً قرر أن ينال منهم . إن كارتر جاء من أمريكا ليزور السودان الجنوبي ، وإن مندوب فرنسا زار تشاد ليتعهد المؤامرة هناك ، فهل الإسلاميون سيظلون متفرقين ؟! .

لماذا إن فاتتهم وحدة الصف ألا يتجمعوا فى وحدة هدف حتى تنقذ الإسلام ؟ .

وهناك شيء آخر أريد أن أذكره :

إن كلمة الله العليا لا يخدمها أناس أيديهم هى السفلى ، إذا كنا متخلفين إدارياً وتجارياً وزراعياً وصناعياً فكيف نواجه أعداء الإسلام بهذا الضعف ؟ يجب علينا نحن الإسلاميين أن نستميت فى رفع الأحوال التى نعيش فيها حتى نستغنى عن غيرنا ، فالعربى قديماً كان يقول لزميله :

لاهِ ابنُ عمك لاأفضلتَ فى حسب شيئاً ولا أنت ديّانى فتَخزُونى (1)

فإذا كنا ـ نحن المسلمين ـ مدينين لأناس لا يريدون بنا خيراً ولا يودون لنا إلا العنت فلم لا نضاعف إنتاجنا ؟

إننى أقول لكم بحسرة إننى قرأت فى صحيفة خليجية أن إسرائيل صدرت للشرق الأوسط مواد غذائية بعدة مليارات من الدولارات !! .

ما هذا ؟ ماذا تصنع شعوبنا ؟ ماذا تصنع حكوماتنا ؟ إن الإسلام لا ينتصر بنا ما دمنا بهذا الضعف وما دمنا بهذا التبلد ، الأمة الإسلامية تحتاج إلى أن تكون أمة مثمرة منتجة ، لماذا يكون الأمر عندنا على غير

---

(1) هذا البيت لذى الإصبع العدوانى . ومعناه : أى لست بقادر فى شئون أمرى وأصل : لاهِ ابن عمك : أى لله ابن عمك حذفت منه اللام الخافضة والقصيدة بأكملها فى الأغانى للأصفهانى : 104/3 ـ 106 .

طبيعته فى العالم كله ؟ إن العلاقة بين الحكومات العربية وبين الشعوب العربية لا تسرُّ مؤمناً ، إنها علاقة بين خصوم وليست علاقة بين أصدقاء ، إن الإسلام يريد أن تكون الأمة جسداً حكومتها روحه ، وما يكون هذا — بتَّةً — إلا إذا عدنا إلى ديننا وأحسنا العمل به وأحسنا الانتماء إليه . إننا أيها الإخوة محتاجون إلى أن ندرك ما ينبغى أن ندركه من كتاب ربنا ومن سنة نبينا ﷺ .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين

أما بعـــد :

أريد أن أقول لكم أيها الإخوة : أنحن عرب أم نحن مسلمون ؟ يبدو أننا لا عرب ولا مسلمون !! .

قد أسأل لماذا ؟ .

أقول : كان العربى قديماً إذا أصابته هزيمة حرم على نفسه المباهج والأفراح حتى يدرك ثأره ، وفى هذا يقول تأبط شراً . وكان قد قُتل خاله ولم يستطع أن يدرك ثأره (١) :

إنَّ بالشِّعب الذى دون سَلْع   لقتيلًا دَمُه ما يُطَلُّ (٢)
خلَّف العِبْء علىَّ وَوَلَّى   أنا بالعبء له مُستقِلُّ (٣)
ووراء الثأرِ منّى ابنُ أختٍ   مَصِعٌ عُقْدَتُه ما تُحَلُّ (٤)

فلما أدرك ثأره قال :

---

(١) ديوانه : ٢٤٧ ، ٢٤٨ قيل : قال تأبط شراً هذه الأبيات يرثى بها نفسه قبل موته لما أيقن بالقتل يطلب فيها من ابن أخته أن يثأر له فلا يذهب دمه هدراً . وقيل : إن قائلها هو ابن أخت تأبط شراً يرثى بها خاله .

(٢) الشعب : الطريق فى الجبل . سلع . اسم موضع . طُلَّ دمُه : أى ذهب هدراً أى لن يذهب دمه هدراً ذلك الذى وقع قتيلًا فى الشعب قرب موضع سلع

(٣) أى أنه ذهب وترك الثأر علىَّ عبئاً أنى قادر على حمله غير عاجز عن إدراكه

(٤) المصع : الشديد . عقدته ما تحل : كناية عن قوة العزيمة

حَلَّتِ الخَمْرُ وكانت حراماً وَبِلأْيٍ ما أَلَمَّتْ تَحِلُّ[1]
فاسْقِنِيها يا سَوَادَ بْنَ عمرٍو إنَّ جِسْمِي بَعْدَ خَالِي لَخَلُّ[2]

هذه الطبيعة العربية هي التي جعلت أبا سفيان يقول عند هزيمته في بدر : لا أغتسل من جنابة حتى أدرك ثأري من محمد !! .

هذه الطبيعة العربية هي التي جعلت هند بنت عتبة تقول : لا يمس جسدي طيب حتى أدرك ثأري من محمد !! أنا أرى أن المسلمين مهزومون في السودان وفي لبنان وفي أماكن لا حصر لها وكأن كلمة الإسلام أصبحت سُبّة وكأن الانتماء إلى الإسلام أصبح تستباح معه الدماء والأموال والأعراض حتى إن وغداً من الهند يجيء ليشتم نبينا ويتضافر الأوربيون والأمريكيون على حمايته ، وأقرأ أن حفلاً أقيم له في أكسفورد !! .

سبحان الله !! كنا نقول : هذا تصرف الرعاع . فإذا العامة والخاصة والساسة والقادة يتآمرون على ديننا ؟! فما الذي يجعل المسلمين فرحين عندما يجيئهم عيد ؟ أنا أرى أن العيد إقامة الشعائر الدينية فقط ، أما أن يفرح المسلمون وأن يضحكوا وأن يتهجوا وتلك حالهم العالمية والمحلية فهذا ما لا ينبغي أبداً إذا كنا عرباً . أما إذا كنا مسلمين فإن صلاح الدين الأيوبي رُئِي وهو متجهم الوجه فقيل له : ما أحزنك ؟ قال : وكيف أبتسم والمسجد الأقصى أسير في أيدى الصليبيين ؟! إنه الآن أسير فلم نضحك ؟! .

إن أمتنا الإسلامية إذا لم تُصحّح على ما بها فإن آلامها ستتضاعف ، يجب أن نحاول بشق النفس أن نتخلص من الهوان المادى والأدبى الذى وقعت فيه أمتنا الإسلامية .

---

(1) لقد فاز بأخذ الثأر بعد بطء ومضت مدة ، فصارت الخمر حلالاً له بعد أن حرمها على نفسه وذلك جرياً على عادتهم من تحريم الخمر وغسل الرأس قبل الأخذ بالثأر

(2) الخل : المهزول . يطلب شرب الخمر لأن جسمه قد هزل بعد خاله

إن أمتنا الإسلامية أحوج أم الأرض إلى الإيمان يملأ فراغها ويعمر خرابها .

اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلًا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

اللهم فرِّج كرب المعتقلين . اللهم انصر إخواننا فى أفغانستان وفى فلسطين . اللهم اجمع كلمة المسلمين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أيها الإخوة : انطلقوا إلى بيوتكم لا يستفزنكم أحد ، لا نريد اشتباكاً فى شارع ولا فى ميدان ، ومن أراد استفزازكم فلا تستجيبوا له .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

نَظَرَاتٌ فى سُورَة "الشُّعَرَاء"

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى اله وأصحابه والتابعين .

أما بعـد :

فعى هذا اليوم نستعرض سورة الشعراء أو ما تيسر منها ، نحاول أن نتبين ما أودع الله فيها من خير وحكمة .

وسورة الشعراء من القرآن الذى نزل فى مكة ، والقرآن أول ما خاطب خاطب ناساً لم يقدروا الله حق قدره ، ولم يرجوا له وقاراً ، ولم يستقبلوا استقبالًا حسناً مَنْ بعث بهم إلى الناس كى يأخذوا بنواصيهم إلى الحق كان فى قلوب أولئك العرب الكافرين قدر غير قليل من الكبر والجفوة ، لا بأس عليهم أن يقولوا لمن أرسل إليهم : لم أرسلت أنت ؟ أولِمَ لم يكلمنا الله مباشرة ؟أو لِمَ لَمْ يرسل علينا ملائكته لتتحدث معنا ؟ .

﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾ [الفرقان · ٢١] .

هؤلاء المشركون طلبوا من صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام كى يصدقوه أن يسوق لهم جملة من خوارق العادات التى ربطوا إيمانهم بوقوعها ، ولكن الله عز وجل ساق الأمور على ما قضت به الحكمة ، وأنزل هذا القرآن على أنه المعجزة الفذة التى تشهد لصاحبها بالصدق .

وسورة الشعراء من هذه السور التي توجه النظر إلى آيات الله والتي تبين أن محمداً عليه الصلاة والسلام نبي بهذه الآيات التي تنزل عليه : ﴿ طسم ۝ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ [الشعراء : ١ ، ٢] .

لكن العرب لا يريدون آيات الكتاب المبين ، إنهم يريدون عصا تنقلب إلى ثعبان أو مكفوف البصر يرتد البصر إلى عينيه أو مثل ذلك ، وهذا من الخوارق ، وينزل القرآن قرآناً فقط يجلو الظلام عن العقول ، ويمزق الغشاوات عن الأفئدة ، ويلقي أشعة تكشف الطريق وتبين الاستقامة والغاية ، وتهدي الناس إلى ربهم عن طريق الفكر فماذا يصنع الرسول ﷺ بإزاء مقترحات القوم ؟ .

ليس نبي الله واعظاً يقول خطبة من الخطب ثم يذهب إلى بيته وقد أدى واجبه واستراح ، ليس مدرساً يلقي الدرس فهم الطلاب أم لم يفهموا ، يقول : أديت واجبي ويذهب إلى بيته ويهدأ ويطمئن ، لا ، إنه والد ، وكما يحزن الوالد إذا رسب ابنه أو ضل الطريق فكذلك يحزن النبي ﷺ لأن الناس لم ينتفعوا بهداه ولم يتأثروا خطاه ، حزن حتى نال الحزن من صحته وقال الله له : أتنتحر وراء قوم رفضوا الإيمان بك ؟ .

﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ [الشعراء : ٤] .

نحن قادرون أن ننزل عليهم آية من السماء تقصم ظهورهم أو تحني رؤوسهم .

وقد تسأل : وما المانع أن ترسل إليهم خوارق العادات التي طلبوها ؟

والجواب أن هناك موانع :

أول مانع : أن هؤلاء الناس لو أجيبوا إلى ماسألوا وتنزلت المعجزات التي اقترحوا ما آمنوا بها ، قال تعالى : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ۝ لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ [الحجر : ١٤ ، ١٥] .

فلا معنى إذن لإجابتهم إلى مقترحات سوف يرفضونها يقيناً .

المانع الثانى : أن الأمم إذا كذبت بعد أن تجاب إلى مقترحاتها تهلك حتماً ، تلك سنة الله فى الأولين . والله لا يريد أن يهلك هذه الأمة بل يريد أن يستبقيها حتى نعقل ، ولذلك عندما قالوا ﴿ **فليأتنا بآية كما أرسل الأولون** ﴾ كان الجواب : ﴿ **ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون** ﴾ [الأنبياء : ٥ ، ٦] .

الشىء الثالث : أن معجزة القرآن علاج للنفس الإنسانية ، علاج يستأصل الجرثومة ، ويضع الصحة مكان العلة ، والشفاء مكان الداء ، لأنه يجىء إلى قوم ركبوا رؤوسهم وضلوا الطريق فيصنع النور فى رؤوسهم ويأخذهم رويداً رويداً إلى الحق بعد أن يقنعهم به . وهذا سر ختم الرسالات بمحمد ﷺ فإن الدواء الذى تضمنته معجزته هو الدواء الحقيقى للبشرية على امتداد الزمان والمكان ، وهذا معنى قول الرسول ﷺ : « **ما من الأنبياء من نبى إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحياً أوحى الله إلىَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة** » (1) .

هذا القرآن يقول للناس : ﴿ **تلك آيات الكتاب المبين** ﴾ . [الشعراء : ٢] .

فما هذه الآيات ؟ .

فى سورة الشعراء نماذج للآيات التى تساق إلى الناس :

﴿ **أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ [الشعراء : ٧ – ٩] .

---

(1) رواه البخارى فى فضائل القرآن – باب كيف كان نزول الوحى : ٦/٢٢٤ ومسلم فى الإيمان – باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ١/٩٢

أليس آية تدل على الله أن ترى القناطير المقنطرة من الفواكه الحلوة وحبوب الحصيد تخرج من الأتربة الكدرة المغبرة ؟! .

أليس عجباً للناس يستدعى التساؤل أن ترى الحدائق البهيجة تنبت من الحمأ المسنون ؟ .

أليس شيئاً يلفت النظر أن ترى أصباغاً لا حصر لها من هذا الطين الأسود تتوزع على الورود والأزهار والأثمار ألواناً مختلفة فيها الحمرة القانية والصفرة الفاقعة والبياض الناصع والسواد الداكن ؟

﴿ أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

كلمة **﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾** تكررت ثمانى مرات فى سورة الشعراء :

المرة الأولى : بعد الحديث عن أهل مكة وتساؤلهم عن خوارق العادات ورفضهم لآيات الكتاب المبين .

والمرة الثانية . بعد قصة موسى مع فرعون .

والمرة الثالثة : بعد قصة إبراهيم مع قومه .

والمرة الرابعة : بعد قصة نوح مع قومه .

والمرة الخامسة : بعد قصة هود مع قومه .

والمرة السادسة : بعد قصة صالح مع قومه .

والمرة السابعة : بعد قصة لوط مع قومه .

والمرة الثامنة . بعد قصة شعيب وأصحاب الأيكة .

فقوله جل شأنه : **﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾** جملة شرحت بثمانى آيات منها آية كونية تتصل بتوجيه النظر إلى هذه الأرض المباركة التى نعيش فوقها ، ثم آيات تريخية تتحدث عن الأولين .

ونحن نتتبع بإيجاز حديث لقرآن الكريم وهو يقص مواقف الأنبياء من أقوامهم وكيف أن هؤلاء المرسلين عرضوا حقائق الدعوة وبينوا معالم النبوة وهدوا الناس بأساليب نعرض على العرب ونعرض من بعد العرب على الإنسانية كلها ما بقى من الإنسانية يوم واحد لماذا ؟ لأن الله تعالى لما لخص أحداث التاريخ ومواقف الأمم من الأنبياء كان يعرض ذلك درساً يؤسس اليقين وعبرة تنمى الإيمان .

فى قصة موسى نلمح أموراً نوجه النظر إليها :

لقد جاء قومَ فرعون يدعوهم ، واستغرب فرعون مجىء موسى إليه وقال له : ﴿ **ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين** ﴾ [الشعراء : ١٨ ، ١٩] .

وفعلته التى يشير إليها هى : المصرى الذى قتله فى الصراع الذى كان يدور بين المصريين والإسرائيليين يومئذ .

رد عليه موسى : ﴿ **قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين * ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكماً وجعلنى من المرسلين * وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل** ﴾ [الشعراء : ٢٠ – ٢٢] .

فرعون يدعى أنه الرب ، وموسى يقول : ﴿ **فوهب لى ربى حكماً** ﴾ ولذلك يسأل موسى : ﴿ **قال فرعون وما رب العالمين** ﴾ [الشعراء : ٢٣] .

وجواب موسى : ﴿ **قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين** ﴾ [الشعراء : ٢٤] .

استعجب فرعون و﴿ **قال لمن حوله ألا تستمعون** ﴾ [الشعراء : ٢٥] .

ومضى موسى فى دعوته : ﴿ **قال ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ [الشعراء : ٢٦] .

ومضى فرعون فى كبره وزيغه : ﴿ **قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون** ﴾ [الشعراء : ٢٧] .

فرد موسى : ﴿ **قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون** ﴾ [الشعراء : ٢٨] .

لكن فرعون أبى ورفض .

ورسالة موسى تقوم على أمرين :

الأمر الأول : تعريف فرعون بأن الله رب العالمين .

والأمر الثانى : منع الاستعباد الذى تعرض له بنو إسرائيل .

كان موسى يعلم أن بقاء بنى إسرائيل مع المصريين شىء مستحيل لما بين الجنسين من جفوة أو من فجوة ولذلك كان طلبه :

﴿ **أن أرسل معنا بنى إسرائيل** ﴾ [الشعراء : ١٧] .

لكن فرعون أبى ورفض واستدعى السحرة : ﴿ **قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون * قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحار عليم * فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين** ﴾ [الشعراء : ٣٤ ــ ٤٠]

يقول العلماء : هذا منطق الرعاع والغوغاء لأنه بعيد عن الإنصاف والعقل ، لو كانوا أصحاب إنصاف وعقل لقالوا : لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين أو لعلنا نتبع موسى إن كان هو الغالب ، لكن التفكير فى اتباع موسى لم يخطر ببالهم ، إن القيود التى تشدهم إلى الوثنية شديدة ، وإن ما ورثوه فى دمائهم وأحوالهم لا يمكن أن ينفكوا عنه ، ولذلك كان الحديث الذى يدور بينهم ﴿ **لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين** ﴾ !! .

هذا حديث الناس ، أما حديث السحرة أنفسهم فنوجه النظر إليه لما فيه من دلالة .

الحديث فى شقه الأول يصف قوماً نفعيين طلاب مال وأصحاب جشع ورغبة فى المكافآت والجوائز ، يتملقون ملكهم ويحلفون بعزته :

﴿ **فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ٭ قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين ٭ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ٭ فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون** ﴾ [الشعراء : ٤١ ــ ٤٤] .

هكذا يعبد الناس الدنيا ويعبدون فيها المال والوجاهة ، لكن موقف السحرة تغير فى الشق الثانى : ﴿ **فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يؤفكون ٭ فألقى السحرة ساجدين ٭ قالوا آمنا برب العالمين ٭ رب موسى وهارون** ﴾ [الشعراء : ٤٥ ــ ٤٨] .

عقب فرعون على هذا : ﴿ **قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين** ﴾ [الشعراء : ٤٩] .

هذا شيء عجيب فى الاستبداد السياسى ، يفرض الرجل سلطانه على ضمائر الناس وعقولهم ، فإيمانهم أو كفرهم رهن مشيئته ، لكنهم لم يبالوا بتهديداته : ﴿ **قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون ٭ إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين** ﴾ [الشعراء : ٥٠ ، ٥١] .

قارن أيها المسلم بين هؤلاء الرجال فى موقفهم الأول وبعد أن آمنوا كانوا نفعيين يطلبون الدنيا ، فلما شرح الله بالحق صدورهم ولما تلاقت أشعة الإيمان فى نواصيهم إذا هم شيء آخر وأفق آخر ، وهذا ما يصنعه الإيمان بالناس ، إن الإيمان لو دخل قلب واحد من أولئك الذين نسميهم « خنافس » لتحول إلى رجل عملاق وتحول إلى كيان صلب وتحول إلى فدائى يضع روحه على كفه ويقاتل من أجل ربه !!

إن الإيمان صانع العجائب ، والناس فى عصرنا هذا تذهل عن وظيفة الإيمان وأثره وتتعلق بالظواهر الفارغة والقشور الطائرة وهى لا تصنع شيئاً .

انظروا كيف حول اليقين الراسخ سحرة فرعون من أنانيين لا يفكرون إلا فى أنفسهم إلى ربانيين يغضبون لله ويتحملون فى ذات الله

التقتيل والصلب وضياع الدنيا وفقدان كل شيء !! ثم نجد وقفة أخرى في قصة موسى مع فرعون ، لقد خرج مع قومه ووجدنا أنه يمضي في طريقه فإذا هو ينصر وينظر قومُهُ فيرون فرعون يلاحقهم بجيشه ، وهنا تسري الشكوك في قلوب كثير من الناس وتتزلزل أقدامهم ويظنون أنهم أدركوا وأحيط بهم .. ومعارك الإيمان في الدنيا كثيرة ، ويريد الله أن يوجه النظر إلى أن أهل الإيمان لابد أن تمر بهم فترات كالحة تنقطع فيها أسبابهم مع الدنيا ويُظلم من حولهم كل أمر .

في هذا الوقت الذي تشتد فيه الظلمة ويتضاعف الحرج يُختبر الإيمان الاختبار الحقيقي ، فمن كان راكناً إلى الله بقي ثابتاً ، ومن كان متعلقاً بغيره اضطربت نفسه وسرت الهواجس إليه تُخوفه من اليوم والغد ومن الحاضر والمستقبل ، أما المؤمن فيرى أنه مع اشتداد الظلمة سيطلع الفجر ومع تضاعف الحرج سيجيء اليقين .. ﴿ **فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معي ربي سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين * إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ [الشعراء : ٦١ ــ ٦٨] .

يا طلاب الآيات من العرب ، يا من يريدون خوارق عادات ليؤمنوا ، يا من يريدون أن يروا الله أو تتنزل الملائكة إليهم تدبروا قصص الماضين واعرفوا ما كان بين المصلحين والمجرمين وخذوا من ذلك آية : ﴿ **إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ .

ثم تجيء قصة إبراهيم بعد قصة موسى مباشرة ــ وليس في الآيات ترتيب تاريخي إنما هو مجرد التجميع والحشد للعبرة والعظة ــ وقصة إبراهيم تمثل الإيمان عندما يكون فطرياً لا فسلفة فيه ولا تعقيد معه ، قصة إبراهيم تمثل الإيمان عندما يكون سجية نفس ، عندما يكون حركة قلب سليم .

الرجل يقول ببساطة : هناك آلهة كثيرة تعبدونها ــ يخاطب أباه

وقومه ـ لكن هذه الآلهة الكثيرة أن أخاصمها . ﴿ **واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لى إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين * رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين * واجعل لى لسان صدق فى الآخرين * واجعلنى من ورثة جنة النعيم** ﴾ [الشعراء : ٦٩ ـ ٨٥] .

هذا رسول الفطرة ـ جد نبينا محمد ﷺ ـ يعرض الإيمان عرضاً فطرياً ، وما يصد عن الإيمان إلا عمى أو مريض القلب والعقل .. فإبراهيم يُرسى منطق الفطرة ، ولذلك كان من أدعية النبى ﷺ التى علمها أصحابه : « **أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وسنة نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين** » (١)

فى قصص الأنبياء الذين جاءوا بعد إبراهيم وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب نسمع عدة جمل تتكرر هى هى فى مطلع قصة كل نبى مع قومه وهى : ﴿ **كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين** ﴾ [الشعراء : ١٠٥ ـ ١٠٩] ما قاله نوح هو هو ما قاله هود لعاد وصالح لثمود ولوط لقرى المؤتفكة وشعيب لأصحاب مدين وأصحاب الأيكة .

وهذا يعطى فكرة بينة أن أنبياء الله يبلغون ويعلمون وينذرون

---

(١) رواه أحمد فى المسند ٣/٤٠٦ ، ٥/١٢٣ والدارمى فى الاستئذان ـ باب ما يقول إذا أصبح ٢ ٣٧٨ والنسائى فى عمل اليوم والليلة ـ ذكر ما كان النبى ﷺ يقوله إذا أصبح ص ١٣٣ والطبرانى فى الكبير ـ فى الدعاء . وقال فى صحيح الجامع (٤٦٧٤) : صحيح

ويبشرون لا يبتغون من وراء كدحهم للأمم وتعليمهم للناس وهدايتهم للجماهير أجراً من أحد ولا مكانة عند أحد ، إنهم يرجون ما عند الله ويبتغون ما عند الله ، ولذلك يعلم النبي ﷺ الدعاة إلى الله أن تكون بيتهم وجه الله وأن يكون هدفهم ما عنده وحده فيقول « **ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه** » (١) .

يعني أن كل حريص على المال وعلى الدرجات ما يمكن أن يكون حرصه هذا عنصر سلامة لدينه وإيمانه ، بل سيكون هذا الحرص على المال والوجاهة مهلكاً لدينه ولإيمانه كما تهلك الذئاب الجائعة قطيع غنم أرسلت فيه .

ولذلك كان على لسان النبي ﷺ باستمرار لقومه : ﴿ **قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد** ﴾ [سبأ : ٤٧] .

وبقيت من سورة الشعراء شروح لآيات الله في الأمم السابقة تستصحب مع النذير الخاتم عليه الصلاة والسلام لنا معها موعد

والله ولي التوفيق ..

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

***

---

(١) رواه الترمذي في الزهد ـ باب ٣٠ وقال . هذا حديث حسن صحيح ٤٦/٧ وأحمد ٤٥٦/٣ ، ٤٦ والدارمي في الرقاق ـ باب ما ذئبان جائعان ٣٩٤/٢ وأبو يعلى وابن حبان وقال في صحيح الجامع (٥٦٢٠) صحيح

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ **الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ [الشورى : ٢٥ : ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله خاتم النبيين وإمام المرسلين .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

فإن علينا معشر الدعاة إلى الله أن ننصف الإسلام وأن نعرض حقيقته وضيئة لامعة لا يعيبها عيب ولا يشينها شيء .

الإسلام هو شرعة الله التى توسطت ما يدعو إليه المتطرفون من يمين أو يسار ، وكما يخرج اللبن من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين فكذلك شرعة الإسلام ما بين المغالين أقصى اليمين أو المغالين أقصى اليسار إن صح التعبير .

فإن الإسلام دين يعرض نفسه وحقائقه وفضائله وخيراته للأمم التى تأخذ به عرضاً ينبغى أن يقوم الدعاة إلى الله بتجليته حتى لا يختلط به ادعاء هؤلاء أو ادعاء أولئك .

قرأت أن نحو خمسمائة سجين قتلوا فى سجون (إيران) فى ظل مَلِك مسلم !! .

وقرأت أن هناك إقطاعاً طائشاً أحمق فى (المغرب) !! .

وقرأت أيضاً : أن الذين يقاومون الملك الجائر هنا والملك الجائر هناك يساريون لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر !! .

فقلت فى نفسى : كلا الطرفين لا يستحق منى تأييداً ولا تكريماً :

الذى يدعى الإيمان وبه يملك السحت وبه يقتل الأحرار وبه يؤخر الشعوب كاذب فى دعوى الإيمان ، كاذب فى نسبته إلى النبى ﷺ .

والذى يعرض الحرية أو ما يسميه بالعدالة الاجتماعية وهو متحلل من قيود الإسلام متجهم لهدايات الوحي ولوصايا الأنبياء ممحصة أدق تلخيص وأجمله فى الدرر التى ألقاها علينا صاحب الرسالة العظمى قرآناً كريماً وسنة حاتمة الذى يريد عدالة اجتماعية وهو مخاصم للنبى ﷺ ورسالته فهو كذاب دجال

كلا الفريقين عدوٌّ لى ، والذى أعرفه : دين أتى بعبادة الله وحده وبتحرير الناس على سواء ، الذى أعرفه:دين يقول حاكمه : (أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم) (١)

ومعنى هذا أن الرباط بين الحاكم والمحكوم من جهة وبين الله جل جلاله من جهة هو الدين ، نلتقى عليه حاكماً ومحكوماً .

أما أن يجيىء حاكم ـ باسم الدين ـ ليلتهم الدنيا والآخرة فهو كاذب ولو ادعى أنه ابن النبى ﷺ ، وأما أن تجيىء شعوب تستمع إلى دعاة حُمق يقولون:إن التحرر عن طريق البعد عن الدين فهذا هو الضلال المبين .

علينا أن نعرض الإسلام لا كما يفهمه الملوك وأذنابهم وحواشيهم أو حكام الجور ومن يخبط معهم ومن يحطب فى حبالهم هؤلاء جميعاً ليسوا من الإسلام فى شيء ، والذين يتصايحون برفع المستوى الاقتصادى وما إلى ذلك هؤلاء وأولئك كذبة .

الإسلام خط وسط ، جمع فى كتابه وسنته بين ما لله من حقوق لا يجوز أن تنسى أبداً وبين ما شرع الله للكادحين وأصحاب الأموال من حقوق لو عرفوها والتزموها ماكان هنالك تظالم ولا كان هنالك كفران ولا كان هنالك داع إلى الإلحاد يستجلب من شرق أو غرب .

---

(١) جزء من خطبة لأبى بكر رضى الله عنه ذكرها ابن كثير فى البداية والنهاية وقال : هذا إسناد صحيح ٦/٣٠١

أيها المسلمون : اعرفوا دينكم ، وخذوا الحق من مصادره لا من ألسنة الكاذبين المرتزقة ممن يعملون هنا أو هناك للملوك أو لأعداء الملوك من الشيوعيين .

الحق مع الإسلام وحده ، مع نبيه ﷺ وصحابته رضى الله عنهم والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصـلاة

* *

بناء الأمم

خطبة عيد الأضحى المبارك
بمسجد السيدة زينب رضى الله عنها بالقاهرة سنة ١٤٠٦ هـ

الحمد لله حمداً مضاعف الشكر والثناء والتمجيد : ﴿ **وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً** ﴾ [الإسراء : ١١١] .

الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر ما قامت برها الأشياء وسبّحت بحمده الأرض والسماء الله أكبر ما بقى العالم أجمع محكوماً بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، فما من شىء إلا وهو خالقه ، وما من أمر إلا وهو مدبره ، ولا من خير إلا وهو سائقه ، ولا من فضل إلا وهو رازقه ، ولا من نور إلا وهو مُشرقه ، سبحانك ربنا ولك الحمد كما تحب وترضى .

الله أكبر الله أكبر . الله أكبر . سبحانك ربنا أنت التواب سبقت رحمتك غضبك ، وأنت الودود لا تكْسر خاطراً لامرىء وقف ببابك ولاذ بحماك ، وأنت القدير لا يعجزك شىء فى السموات ولا فى الأرض ، وأنت الغنى لا تنفد خزائنك ، وأنت الواسع الملكوت الرحب جزء من خلقك الفخم الضخم ، سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

الله أكبر . ما بقيت الأدلة تتجدد على مر الزمن شاهدة بأن القرآن حق وأن محمداً ﷺ حق وأن الإسلام العظيم حق ، لقد قلت وأنت المصدوق الصادق ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ [فصلت . ٥٣] .

وتمر القرون بعد القرون والعصور بعد العصور لتُشهد الناس على أنه ليس بعد التوحيد عقيدة ، ولا بعد الإسلام شريعة ، ولا بعد محمد ﷺ

نبوة ، ولا بعد هديه هدى ، ولا بعد البصائر التي أنارت العالمين شيء يستنير به العالمون .

الله أكبر الله أكبر . الله أكبر .وإن ضاق بالتكبير من ضاق من أهل الإلحاد والظلمة ، ولكننا نكبر ربنا ونحمده ولو كره الكافرون ، سوف نعبد الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

إن هناك أناساً أحبوا شركهم واستلذوا ضلالهم ، وكما قال ربنا : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله** ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

هذا الحب الأشد سوف يهزم الحق بالباطل ، وسوف يمضي على طريقه المستقيم فلا ينتهي به نشاط دون الجنة التي عرضها السموات والأرض .

الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير .

ونشهد أن محمداً رسول الله ، خيرته من خلقه ، قمة العباد ، الإنسان الأول في الوجود شرفاً وإقداماً وكرماً وإعزازاً لأمر ربه وتمسكاً به حتى أتاه اليقين ، نعم هو الإنسان الأول الذى أجرى الله على لسانه : ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣] . إنه المسلم الأول الذى سبقي هدايته في أرض الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لا يزهد فيها إلا هالك ،ولا يزيغ عنها إلا زائغ .

صلوات الله وسلامه على نبيه المصطفى ، ونحن على هذه الشهادة لله بالوحدانية ولنبيه بالرسالة باقون أبداً ، عليها نحيا ، وعليها نموت ، وفي سبيلها نجاهد . وعليها نلقى الله : ﴿ **وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا إنا منتظرون ٥ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ [هود : ١٢١ ــ ١٢٣] .

أما بعـــد :

فإن الأعياد فى الإسلام ليست أسواق طعام وشراب ، وليست ميادين لهو ولعب ، إن الأعياد فى حضارتنا ارتبطت بذكريات عزيزة وقيم غالية ، العيد الأول ارتبط بالشهر الذى يصوم الناس فيه ونزل القرآن الكريم فيه ، والعيد الكبير ارتبط باكتمال الوحى فى الأعم الأغلب ، ارتبط باكتمال الدين ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ [المائدة : ٣] ربما يكون اكتمال الدين ـ على ظاهره ـ تمام القرآن الكريم ، وهذا صحيح ، فإن القرآن الكريم ظل ينزل به الوحى المبارك نحو ربع قرن ، وانتهى مع ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ وإن كان أهل الحديث يرون أن سورة النصر نزلت بعد ذلك تنعى النبى ﷺ أجله ، وأن آخر آية نزلت ﴿ **واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ [البقرة : ٢٨١] .

ليكن ، فاكتمال الدين تم مع هذا العيد الكبير ، لكن الأمر الذى ينبغى أن يعرفه المسلمون أن اكتمال الدين نظرياً صحبه اكتمال البيئة التى تُصدِّره لأرجاء العالم . فالنبى ﷺ ما ترك جزيرة العرب إلا بعد أن ربى جيلاً من الخلق هو أزكى ما عرفت أقطار الشرق والغرب ، وأنقى الناس ضمائر ، وأصحهم عقولاً ، هذا النبى الكريم ﷺ ربى الجيل الذى حمل الرسالة بعده للعالمين ، وكان بتضحيته وأخلاقه ونشاطه وشجاعته هو الذى نقل الإسلام من جزيرة العرب لكى يستقر فى القارات الخمس ، ولا يزال الإسلام ينطلق مادة وعدداً إلى الآن ، ومع المحاولات الرهيبة لوقف المد الإسلامى ، فإن الإحصاءات الصحيحة التى نذكرها مراغمين بها مزورى الإحصاءات أن عدد المسلمين الآن ربع سكان الكرة الأرضية ، ففى كل أربعة أشخاص يسكنون هذه الأرض رجل ينتمى إلى الإسلام . لكن هذا الانتماء يحتاج إلى شىء من المراجعة والتصحيح ، وهذا عملنا الذى يجب أن نتعارف عليه وأن نتعاون فيه وأن نتجمع لنبلغ أهدافه ونصل إلى غاياته .

* * *

أيها الإخوة :

يشير العيد الذى نحتفل به الآن إلى خُلُقٍ كوَّنه النبى ﷺ فى الأمة ، وهو خلق لابد منه لتكوين كل جماعة وتصحيح كل نهضة وإنجاح كل حركة ، وهو خلق الصبر .

إن طبيعة الحياة التى نحياها أنها اختبار مرعج موجع ، قد يكون اختباراً بالبأساء ـ الأزمات الاقتصادية ـ وقد يكون اختباراً بضراء ، وقد يكون اختباراً بالناس ، يُختبر الإنسان بأخيه الإنسان ، يُختبر الحاكم بالشعب ، والشعب بالحاكم ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً** ﴾ [الفرقان : ٢٠] .

إن هذا الاختبار لابد منه لدعم الرجولات وإنشاء البطولات ، فإن مواطن الراحة لا تصنع رجولة ، والرخاء الموصول لا يكون معدناً صلباً . يقول أحد رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية : لا تسأل الله أن يخفف حملك ولكن اسأل الله أن يقوى ظهرك . إن خفة الحمل شأن الأطفال ، أما الذى ينهض بالأحمال الثقال ويحمل الأعباء الشداد فهم الرجال ، وعندما تغلب طبائع الناس فى حب الراحة والاستجمام يجىء الوحى الأعلى لينبههم إلى الحقيقة التى يريدون تجاوزها والبعد عنها فيقول الله تعالى للمسلمين . ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب** ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

وهذا الاختبار ليس اختباراً سهلاً ، إنه يطل مراحل من الزمان والمكان حتى تكاد الأرواح ترهق ، يضرب القرآن الكريم المثل لذلك فى أماكن كثيرة .

فى قصة إبراهيم مع ابنه إسماعيل ، ولا نعرج عليها لأنكم تحفظونها . وفى قصة بنى إسرائيل عندما طاردهم فرعون وخرج بقومه وراءهم وهم هاربون من ظلمه ، كان بنو إسرائيل يشعرون أنه إذا أدركهم فرعون هلكوا

وكان بطشه بهم شديداً ونكاله بعيناً ، وبكى فرعون بجيشه طل يتعقب بنى إسرائيل الهاربين حتى كاد يلحق بهم ، وشعر بنو إسرائيل بهذا ﴿ **فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معى ربى سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين** ﴾ [الشعراء : ٦١ ـ ٦٦] .

وانتهت قصة البطش وأسطورة الألوهية الكاذبة ، وكم حكت الأرض من مصارع للطغمة ، وكم سجل التاريخ من مآس لمن عاليوا الله فعلهم وقاوموه فهرمهم ، وانتهى الأمر إلى من قال عن نفسه :

﴿ **ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾ [الشورى : ٥٣] .

لقد كوّن النبى ﷺ جيشاً من المسلمين الأولين كانوا رجالًا ونساءً بين وبنات مؤمنين بربهم إيماناً حسناً واثقين منه ثقة بالغة ، ولذلك انتصروا وفرضوا أنفسهم على العالمين ، كانوا قبل الإسلام العالم الثالث ـ بتعبير عصرنا ـ وبعد الإسلام أصبحت لأمة الإسلامية هى العالم الأول :

﴿ **وأورثنا القوم الذين كانو يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها** ﴾ [الأعراف : ١٣٧] .

هنا نتساءل : كم من الزمن يحتاج إليه هذا التغير أو هذا التحول ؟ يجب أن نعلم أن الزمن جزء من العلاج ، وأن من المستحيل أن تبلغ مالك بين عشية وضحاها إذا كان قدر الله أن هذه الأمانى لا تتحقق إلا خلال السنين الطوال ، وقد اختلف علماء لاجتماع فقال بعضهم : يمكن أن تتكون أمة خلال أربعين سنة ، ولعلهم نظروا فى هذا إلى ما حكاه القرآن الكريم عن بنى إسرائيل عندما رفضوا أن يدخلوا الأرض المقدسة : ﴿ **قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين** ﴾ [المائدة : ٢٦] .

* * *

قال العلماء : خلال أربعين سنة هلكت الأجيال الجبانة وذهب الخانعون الذين يستحبون الذل ويرتضون الدنية ، ذهب هؤلاء ونشطت أجيال أخرى قادها يوشع لكى تدخل الأرض المقدسة .

قال العلماء . أربعون سنة يمكن أن تكون فترة تغيير لتحول المجتمع من الفوضى إلى النظام ،ومن الفرقة إلى الوحدة إلى غير ذلك .

لكن المعروف أن نبينا عليه الصلاة والسلام كوَّن الأمة التى هى خير أمة خرجت للناس – خلال ثلاث وعشرين سنة !! .

قالوا : لكن هذه إمكانات محمد ﷺ الرجل الذى أوتى من طيبة النفس ونقاء القلب وذكاء العقل ونور البصيرة ما سكبه فى نفوس منْ حوله من أصحابه فإذا هم يتحولون إلى فرسان بالنهار ورهبان بالليل وإذا هم يتحولون إلى خلق آخر .

والحقيقة أن الزمن الذى تتكون فيه أمة إنما يرجع طولًا وقصراً إلى مقدار الجهد الذى تبذله هذه الأمة شعباً وحكومة كى تنتقل من الظلمات إلى النور .

إن الشعب هو الحكومة والحكومة هى الشعب ، إننا لانريد أن نَفْرِق بين الجسم والروح ، إننا نريد أن نقول للناس : يوم يعرف كل امرىء ما عليه بأمانة ويؤديه بثقة وقدرة فإنه يصل إلى غايته ، وهو الذى يحدد الوقت بنشاطه أو تكاسله .

إن الأمم لا تُخلق بالأوهام ، إن الأمم لا تُخلق بالخيال ، إن الأمم لا تُخلق بالأكاذيب ، إذا أردت أن تبنى قصراً مشيداً شاهقاً فإنك تأتى بأقوى ما فى الأرض من مواد حتى تبنيه ، كذلك الأمم ، إنما تبنى بالأخلاق ، وفى بيئتنا لا أخلاق دون عقيدة ، فيوم يتوافق الشعب والحكومة معاً على أن العقيدة والأخلاق والقيم الرفيعة والتقاليد الراشدة هى شرايين الحياة فى كيان جسم يريد أن ينطلق فإننا واصلون إلى غاية فى أقرب وقت

لكن الإيمان ـ فيما أرى ـ تحول إلى كلام ، الإيمان أخلاق أساسها بالنسبة إلى الله : الصبر والشكر والتوكل والحب والخوف والرجاء والورع والتوبة ، هذه مراحل تجعل صلات الناس بربهم نابضة بالقوة وليست حركة شبح عديم الحياة ، هذه أخلاق المؤمنين مع الله فهم قانتون مخبتون خاشعون ، هكذا كان سلفنا ـ حكومة وشعباً ـ موصولاً بالله .

يقول علماء الحديث : (كان عمر رضى الله عنه يكبر فى قبته بمنى فيسمعه أهل المسجد فيكبرون ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج منى تكبيراً) (١) فإذا أنت أمام دولة وأمة تتعاون كلها على أن الكبرياء لله ، والعظمة لله ، والركوع والسجود لله ، والإخبات والتوكل على الله ، والاستمداد والاستلهام من الله !! .

إن أمتنا أمة التوحيد ، وهذا التوحيد يجعلها تحس العبادة ، وترفض أن يكون فى الأرض جبروت أو ملكوت لغير الواحد القهار : ﴿ **إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتيهم يوم القيامة فرداً** ﴾ [مريم : ٩٣ ـ ٩٥] .

ثم هناك بعد ذلك الأخلاق بين الناس بعضهم والبعض الآخر ، هذه الأخلاق التى عدَّها صاحب السنة المشرفة أركان الإيمان ، وعدَّ انعدامها أركان النفاق : « **أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر** » (٢) .

بهذه العقائد والأخلاق ، ثم بالأمانة فى كل منصب يتولاه الإنسان تبنى الأمم ، ولنتدبر قول نبينا عليه الصلاة والسلام :

---

(١) رواه البخارى فى العيدين ـ باب التكبير أيام منى ٢٥/٢ .

(٢) رواه البخارى فى الإيمان ـ باب علامة المنافق ١٥/١ ومسلم فى الإيمان ـ باب بيان خصال المنافق ٥٦/١

« ما من أمير عشرة إلا يؤتى به مغلولًا يوم القيامة حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور » (١) .

وجاء فى الحديث أيضاً . **« إنه لا قُدِّست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غيرُ مُتَعْتَع »** (٢) .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

---

(١) رواه البزار والطبرانى فى الأوسط ورجال البزار رجال الصحيح كذا فى الترغيب والترهيب ١٣٩/٣ وقال فى صحيح جامع الصغير (٥٦٩٥) صحيح

(٢) رواه ابن ماجة فى الصدقات ــ باب لصاحب الحق سلطان وإسناده صحيح ٨١٠/٢ ومعنى متعتع : أى من غير أن يصيبه أذى يقلقه أو يزعجه

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

فإن ديننا واضح ، أساسه كتاب كريم وسنة مطهرة ، والحقيقة أنى رأيت أمتنا ـ وأنا أطوف فى العالم قريبه وبعيده ـ محبة لدينها حريصة عليه ، واستيقنت من أن الصحوة الإسلامية حق ، أحسست بذلك وأنا على شواطىء الأطلسى ، وأنا عند شواطىء الهندى فى باكستان وسريلانكا ، وكنت أحس هذا المعنى وأنا أعانق قائد جيش المسلمين فى مورو فى الفلبين الذين يستميتون لعمل دولة إسلامية تحمى بيضتهم وتصون حقوقهم وتمنع طغيان الطاغين الذى نال كثيراً منهم

أيها الإخـــوة :

أخوة الإسلام رحبة لا تعرف قطراً ولا حداً ، كان للسيد محمد رشيد رضا رحمه الله أم ـ لعلها تشبه المصريين فى تلمسهم للنكتة ـ عندما ترى ابنها يستيقظ فى الصبح وهو منقبض أو مكتئب تقول له : مالك حزيناً أمات مسلم فى الصين فأنت حزين من أجل ذلك ؟! .

إن الرجل كان يحمل آلام المسلمين حيث كانوا ، وتلك طبيعة الإسلام ، لكنى وجدت هذه النهضة أو هذه الصحوة تمضى فى طريقها ببطء شديد ، إنها موجودة ولن تختفى أبداً لأن الذى قال : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ [الحجر . ٩] لا يحفظ الذكر حبراً على ورق ، لا يحفظ الذكر أصواتاً مسجلة ، وإنما يحفظ الذكر بأمم تعمل له وتعمل به وتجاهد فى سبيله ، فأنا أعلم أن الأمة الإسلامية قد تعتل ولكن

مهما برَّحت بها العلة فلن تموت وستُرزق الأساة والدعاة والهداة الذين يُمَهِّدُون لها الطريق ويصلون بها إلى الغاية إن شاء الله .

من أسباب بطء الحركة الإسلامية أو الصحوة الإسلامية فى أيامنا الأخيرة أن عدداً كبيراً من المنتمين إليها كانت لهم أصوات أكثر من اللازم ، كان لهم صياح لا يؤيده العقل ، فما الذى حدث ؟ شعر بهم خصومهم فضاعفوا الاستعداد لكبحهم وأعدوا قوىً كثيرة للنيل منهم ، ماذا عليكم يا أصحاب الصحوة الإسلامية لو لذتم بالصمت ، صابروا الأيام ، كافحوا الرغبة فى الكلام .

أنا جئت من الجزائر ، وكان هناك شباب يدخل فى الدعوة فى الصباح وبعد يوم أو يومين يجيئنى وقد وضع خطة لإعلان الحرب على الاتحاد السوفيتى !! أقول له : ويحك ، اجعل الإسلام فى بيتك أولًا ، ثم فى حارتك ، ثم فى الشارع ، ثم فى البلد ، ثم فى الدولة ، ثم فكر فى أن تدعو الناس ودليلك على صدقك حالتك الحسنة وإنتاجك الجيد ، أراد أن يكابرنى ــ قلت له : ويحك ، إنه لما كان المستعمرون هنـــا كان الهكتار من الأرض ــ يشبه فدانين ــ ينتج خمسة وثلاثين قنطاراً ، وهو الآن ينتج سبعة قناطير !! .

إن وجهى يسْوَدُّ عندما أرى العمل يخرج من بين أصابع الكافر كاملًا مجوداً وجيهاً ، فإذا خرج من بين أيديكم خرج ناقصاً أو مشوهاً أو سيىء العرض !! .

علام تستعجل ؟ ابن نفسك بالإيمان والأخلاق ؟ اجعل الشارع مسلماً ، اجعل البيت مسلماً ، انصح الحاكم ، إنك مكلف من ربك بأن تحسن الكلام حتى مع أدعياء الألوهية لكى لا يكون لهم عند الله عذر

أيها الإخـــوة :

إن هناك أقداراً مرسومة تسير بها الأمم والشعوب ، هناك قوانين إلهية لا تتخلف لقوله تعالى :

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ﴾ [آل عمران : ١٦٠] وقوله تعالى : **﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾** [يونس : ٨١ ، ٨٢] وقوله تعالى : **﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴾** [إبراهيم : ١٣ ، ١٤] .

إن أمتنا حاجة وهى تمد يدها إلى ربها لينصرها أن تقيم أحكامه فى البيت وفى الشارع وفى الدولة وفى الديوان وفى كل مكان ، إننا مكلفون أن ننفذ أحكام الله فى بيوتنا ، الحكم بما أنزل الله مطلوب من الشعب ومن الدولة ، مطلوب من التاجر ألا يغش ، ومطلوب من الدولة ألا تفصل حكماً استعمارياً محبوباً مع الاستعمار عن حكم نزل به كتاب الله وجاءت به سنة رسول الله ﷺ ، والحكومة والشعب يتعاونان معاً على أداء حق الله وعلى بلوغ الأمل الذى نصحُّ به من علة ونكثر به من قلة ونعتز به من ذلة

اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلًا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

* * *

نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ "الرُّومِ"

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعــد :

فخطبتنا اليوم حول سورة الروم ، نلقى نظرة عامة عليها داعين الله سبحانه وتعالى أن نستفيد مما أودع فيها من هدايات وما بث فيها من عبر .

سبق أن قلنا:إن هذه السورة نزلت فى مكة المكرمة قبل الهجرة النبوية ببضع سنين وأن صدر السورة تحدث عن الهزيمة التى سحقت الروم أمام الفرس ثم تنبأ أن أولئك الأروام بعد هزيمتهم سوف ينتصرون . وكان جديراً بالتاريخ النصرانى أن يحتفى بهذه النبوءة ، وأن يتحدث عنها ، ولكنه حاول تحريف الكلم عن مواضعه ، وأنْ يغُضّ من شأن النبوءة التى صدقتها الأيام وكشفت أن صاحبها ما تحدث بها إلا ملهماً من رب العالمين عن طريق الروح الأمين .

نتجاوز هذه النبوءة لنتحدث عن السورة نفسها ، وأول السورة أشار

إلى أمر يعنينا نحن الآن ، فإن العرب كانوا أمة ضعيفة يوم كان الروم والفرس يملكون أزمَّة الدنيا . والضعيف أحياناً يلتمس لنفسه وجاهة عندما يتعلق بجهة أو بأخرى ، ويظن أن تبعيته لأحد الأقوياء تعطيه فضلاً من مكانة ، وهذا جهل كبير ، لنفرض أن المجوسية انتصرت فى فارس فهل انتصار المجوسية فى فارس يعطى الوثنية العربية قوة أو يرد باطلها حقاً ؟ كلا . ما قيمة هذا الانتصار ؟ لا قيمة له . ولنفرض أن النصرانية انهزمت فى بلاد الروم — وعلى يد أتباعها — فهل يضير ذلك المسلمين أو يرد حقهم باطل ؟ كلا . لا يضير ذلك دعاة التوحيد ولا ينال من حماسهم لدينهم وإخلاصهم لربهم .

لكن بعض الضعاف له مع الأقوياء المتصرفين فى العالم تصرفات وتعلقات وتعليقات يجب أن نلقى عليها ضوءاً . يجب أن يعلم الضعاف أنهم إن أرادوا لأنفسهم مكانة فذلك عن طريق خصائصهم وتنميتها ، وعن طريق رسالتهم والوفاء لها ، أما أن تكون الأمم الضعيفة ذنباً لإحدى الجهتين فذلك لا يعطيها مكانة أبداً .

عندما تقدم الألمان ناحية الإسكندرية فى الحرب العالمية الثانية استمعنا إلى بعض الأصوات الطائشة تقول : تقدم يا روميل (١) !! فلنفرض أنه تقدم فماذا سيصنع إلا أنه سيحرق الحرث والنسل ؟ والذين كانوا يكرهون الاستعمار البريطانى ويميلون إلى مهادنة ربائبه أكان هذا الميل يشرف أمتهم أو يعطيهم شيئاً من القدرة على المستقبل ؟ كلا .

من أخطاء الضعاف هذا التعلق الغريب بالقوة المتصارعة فى العالم ، ولعل بعضهم يحسب أن صراع الأقوياء ينفع الضعاف ، إن صراع الأقوياء قد يكون عاملاً ثانوياً فى انتفاع الضعاف بما قد يقع ، لكن الحقيقة الأصيلة فى القضية كلها أن صراع الأقوياء لا يهب الضعاف قوة وأن العرب أو

---

(١) عسكرى ألمانى من أشهر قواد الحرب العالمية الثانية ، وهو فيلد مرشال أروين روميل ، ولد بإقليم سوابيا ١٨٩١ وتوفى متأثراً بجراح من أثر انفجار قنبلة فى ١٤ أكتوبر ١٩٤٤ م

المسلمين عموماً ما ينفعهم أن تتفتق أذهانهم فى العلم إذا بقوا هم حرية لرسالتهم أو ضعاف التعلق بها أو قليلى الاستفادة منها ، فلو فنيت القوتان المتصارعتان على امتلاك الأرض وبقى المسلمون لا يفهمون من دينهم إلا صوراً لا حقيقة لها فإن صراع الأقوياء لا يشرف الضعاف ولا يقدمهم خطوة إلى الأمام ، إنك وحدك - أيها الضعيف - الذى تملك أن تقوى يوم تحسن العمل ويوم تخطو إلى الأمام بقوتك الخاصة ، ولعل ذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة وهى تعلق على ما كان بين الروم والفرس :

﴿ الم ۞ غلبت الروم ۞ فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ۞ فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ۞ بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ۞ وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ۞ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ۞ أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ۞ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ۞ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوآى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ [الروم : ١ - ١٠] .

إن حضارات كثيرة حكمت العالم ومدنيات شتى تقلبت على هذه الدنيا ، ولكن تاريخ الحضارات المنقرضة أو المزدهرة وهذه الدنيا التى نعيش فى ظلها ، كل هذا ينطق بأن ما عدا الله باطل وأن ما عدا الحق سحت

﴿ فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾
[يونس : ٣٢] .

ولذلك جاءت سورة الروم بعد أن حقرت علم الأقوياء بهذه الدنيا تنبه إلى أن هؤلاء الضعاف فى جزيرة العرب يستطيعون أن يقودوا حضارة جديدة أساسها أن تعرف ربك وَرِفْدَهُ (١) وبحده ثم تكون هذه المعرفة سبباً فى أن تسبح بحمده وأن تنوه بمجده .

---

(١) الرفد : العطاء والصلة

ولذلك تحدثت سورة الروم عن الله جل جلاله الحديث السهل الذى لا يعرف تعقيدات الفلاسفة ولا غموض المتكلمين :

• ﴿ الله الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون ﴾ [الروم : ١١] .

• ﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ [الروم : ٤٠] .

• ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ [الروم : ٤٨] .

• ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ [الروم : ٥٤] .

وذكرت السورة ست آيات متعاقبة تبدأ كل آية بتوجيه النظر إلى بعض آيات الله :

أول هذه الآيات :

• ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ [الروم : ٢٠] .

كَوْم من التراب الهامد الجامد تلمسه أصابع القدرة فإذا هو يتحول إلى فواكه وإلى حبوب تلمسها أصابع القدرة فإذا هما يتحولان فى جسد الإنسان إلى خلايا حية تبنى اللحم والعظم وتشد الأعصاب وتنشىء الأعاجيب فى هذا الكيان ، ثم يتحول الإنسان بالقدرة العليا إلى كائن يجرى فى القارات الخمس ثم تبلغ به القدرة إلى أن يحاول الوصول إلى الكواكب الأخرى !! .

مـن الذى جعل حفنة من التراب ـ تلوث راحة اليد ـ تتحول إلى إنسان ذكى قوى عبقرى مكتشف يختار لنفسه ويتجبر أحياناً فيكون فرعون

ويتواضع أحياناً فيكون إنساناً كريماً ؟ .

إنه الله : ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾ [الروم : ٢٠] .

آخر هذه الآيات الست : ﴿ **ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون** ﴾ [الروم : ٢٥] .

هذه الآية تعطى معنى لابد من شرحه :

إن السيارة تشحن « بالبنزين » وتظل تدور آلاتها وتنطلق عجلاتها إلى أن ينفد الوقود فتتوقف .

إن المنبه تملؤه ثم فى الوقت المعين يبدأ جرسه يدق ثم ينتهى الدق مع انتهاء الشحنة التى كانت فيه .

لكن هناك إنساناً يدور قلبه باستمرار ، تتحرك الرئتان باستمرار ، ينطلق هذا الإنسان عشرات السنين دون أن توجد أشياء ــ نلمسها ــ تمده ببقاء الروح فى الجسد !! .

ما الروح ؟ ما علاقتها بهذه الأعضاء ؟ كيف تجعل القلب يدق ؟ كيف تجعل الصدر يمتلىء بالشهيق والزفير ؟ كيف تجرى الدم فى العروق بسرعة كذا ميل فى الساعة ؟

من يصنع هذا ؟ الله ! هو الخالق الآمر : ﴿ **ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

وهنا فى سورة الروم يقول : ﴿ **ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون** ﴾ [الروم : ٢٥] .

وبين الآيتين حديث عن المجتمع الصغير وهو الأسرة :

﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ [الروم : ٢١]

ثم حديث عن العالم الكبير :

﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين** ﴾ [الروم : ٢٢] .

﴿ **ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾ [الروم : ٢٣] .

﴿ **ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ [الروم : ٢٤] .

ثم جاءت آية أخرى مفردة وهى :

﴿ **ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾ [الروم : ٤٦] .

هل تحدث كتاب فى الدنيا عن الله بمثل هذا الإشراق ؟ .

هل تحدث كتاب فى الدنيا عن الله بمثل هذا التمجيد ؟ .

هل تحدث كتاب فى الدنيا عن الله بمثل هذا الوضوح ؟ .

الجواب : لا .. فكيف يتهم الإسلام بأنه كيت وكيت ؟ .

ما يوجد الآن فى القارات كلها كتاب تحمس للوحدانية وأحصى آيات الكمال والجمال وشرح ما ينبغى لله من ثناء وما يجيىء منه من عطاء كهذا القرآن !! .

هذا الدين هو دين الفطرة ، ولذلك جاء فى هذه السورة :

﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ [الروم : ٣٠] .

ونبينا ﷺ هو نبى الفطرة ، ولذلك كانت الفطرة السليمة هى

ما يدعو إليه ، وقد ضرب المثل لذلك منتزعاً من طبيعة البيئة التى يعيش العرب فيها .

« كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة تُنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء » (١) .

هناك تغييرات تقع للفطرة بعد الولادة ، يجيء البدوى فى الصحراء فيقطع أذن البهيمة أو يرسم علامة معينة على جسمها ، وقد تكون هناك تغييرات للفطرة أساسها فساد الأبوين . فالمفروض أن الولد يولد سليم العين والأذن ولكن إذا فسد الأب ومرض « بالزهرى » — لأنه استمرأ الزنا فإن مرضه هذا لعنة تمتد منه إلى الجنين فى بطن الأم ، فقد يولد أعمى ضائع البصر لأن الفطرة عدا عليها أب حقير مصاب بالزهرى !! .

ديننا يعود بالبشر إلى فطرتهم ، ولو أن إنساناً ولد فى جزيرة ليس فيها أحد ولم يتعلم من أحد شيئاً ما فكر أبداً إلا فى أن للكون رباً واحداً لا ثان ولا ثالث ولا أكثر ولا أقل !! .

وقد نبه القرآن إلى هذه الفطرة فى آية أخرى :

﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ، وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾ [الأعراف : ١٧٢ — ١٧٤] ..

* * *

للعلماء فى شرح هذه الآية طريقان :

---

(١) رواه البخارى فى الجنائز — باب ما قيل فى أولاد المشركين ١٢٥/٢ ومسلم فى القدر — باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ٥٢/٨ وقوله : هل ترى فيها جدعاء . أى مقطوع الأذن ومقصود الأعضاء .

الأول يقول : إن الله ــ في عالم الذر ــ أخذ النفوس كلها وبسط عليها من أشعة جلاله وأخذ الميثاق أن تبقى موحدة له .

الثاني يقول . إن الآية تمثيل للطبيعة التي خُلق الناس بها ونشئوا في أرحامهم أمهاتهم عليها بل نشئوا في أدوار تفكيرهم من الطفولة إلى اليفاعة عليها لولا ما يجيء من عوج البيئات الفاسدة ، ويقول هؤلاء : إن السؤال والجواب مثل قول العرب : قال الجدار للوتد لم تشقني ؟ قال : سل من يدقني !! .

ما قال الجدار شيئاً للوتد وما أجاب الوتد الجدار بشيء ، ولكن هذا مجرد تمثيل .

وأياً ما كان الأمر فنحن على ثقة من أن ديننا دين الفطرة ، وتطلع الإسلام إلى أن يستولي على الحياة العامة سببه أن أثر الحياة العامة في اعتدال الفطرة أو تشويهها خطير . فإن العالم في أدواره الأولى كان يمكن أن يعيش عدد كبير منه بعيداً عن المجتمعات ، لكن الآن أصبحت للدول ضغوط هائلة على الأفراد ، ففي العالم الشيوعي حيث يقع نحو ألف وأربعمائة مليون من الخلق في ظل نظام يقول : « لا إله والحياة مادة » .. تتحرك جميع الإذاعات ووسائل الإعلام وتدخل مع الصورة في التليفزيون ومع الخبر في الراديو ومع القراءات والدوريات اليومية والأسبوعية والشهرية ومع الدراسات في الفصول والمدرجات ، مع هذا كله يُدرس الإلحاد .

فكون الإسلام عبادات ومعاملات أو عقيدة وشريعة سببه أن ترك الحياة العامة للفوضوية والجاهلية والنظم المنحلة يعتبر عدواناً على الفطرة .

فتطلع الإسلام إلى امتلاك الحياة العامة وإلى أن تكون الدولة بيده هذا أمر لابد منه ، ما بُدٌّ من أن تكون الدولة لله وأن يكون توجيهها لله ، وأن تكون صدى لفطرة الإنسان لا حرباً على هذه الفطرة وانحرافاً بمقادها إلى مزالق الشيطان وأهواء الأبالسة .

وقد جاء حديث ــ بعضه قدسي وبعضه نبوي ــ يشرح هذه الفطرة شرحاً مابُدٌّ من أن نقف عنده قليلاً أو كثيراً لأن بعض المتدينين يظن أن

التدين افتعالى أو تكلف أو تزويق للظاهر ، والحديث هو :

« ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى يومى هذا ، كل مال [١] نحلته عبداً حلال ، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم [٢] عن دينهم ، وحرّمتْ عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطاناً ، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم [٣] إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك ، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان [٤] وإن الله أمرنى أن أحرّق قريشاً ، فقلت : رب إذن يَثْلَغُوا رأسى فيدعوه خُبْزَةً [٥] قال : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزهم نُغْزِك ، وأنفق فسننفق عليك ، وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك ، قال : وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال ، قال وأهل النار خمسة ، الضعيف الذى لا زَبْرَ [٦] له الذين هم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلًا ولا مالًا ، والخائن الذى لا يخفى له طمع [٧] وإن دق إلا خانه ، ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك ، وذكر البخل أو الكذب ، والشِّنْظير الفحّاش » .

---

(١) المال : الملك ، فمعنى المال كل ما يملك الإنسان

(٢) أى استخفتهم فذهبت بهم وأزالتهم عما كانوا عليه وجالوا معهم فى الباطل

(٣) المقت أشد الغضب ، وهذا النظر والمقت قبل بعثة نبينا ﷺ والمراد ببقايا أهل الكتاب الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل

(٤) قال القاضى : كناية عن كونه محفوظاً فى الصدور لا يتطرق إليه الذهاب ويحتمل أنه كناية عن تسهيل حفظه .

(٥) أى يشدخوه ويشجوه كما يشدخ الخبز أى يكسر .

(٦) أى لا عقل له يزبره ويمنعه مما لا ينبغى

(٧) لا يظهر

معنى قوله : « كل مال نحلته عبداً حلال » هو معنى قوله تعالى : ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ﴾ [البقرة : ٢٩] ، وهو أيضاً معنى قوله تعالى :﴿ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ﴾ [البقرة : ١٦٨] .

من فساد الفطرة أن يلجأ بعض الناس إلى التحريم دون دليل .

طبيعة التدين الفاسد السرعة إلى التحريم دون دليل .

ومعنى قوله : « إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك » أى لأمتحنك ، وقد امتحن النبى ﷺ وكان بلاؤه مضاعفاً ، والعصمة ـ كما قال العلماء ـ لا تمنع المحنة

ومعنى قوله : « وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان » أن القرآن وحده تميز بالخلود ، الكتب السابقة كتبت فى ألواح ، ممكن أن يُغسل الحبر ويبقى اللوح لا قيمة له ، لكن فى القرآن الكريم ـ وحده ـ اعتبر الحرف مقدساً ، اعتبر الشكل جزءًا من الموضوع ، واعتبرت الصياغة بعض الاستدلال الفقهى على الحكم المقصود .

ومعنى قوله : « وإن الله أمرنى أن أحرّق قريشاً » أى أن أبلغهم الدعوة التى يكرهونها ، كانوا يكرهون التوحيد كراهية شديدة ويضيقون بصاحبه أشد الضيق قال تعالى : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ [الزمر : ٤٥] ، وقال تعالى : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ﴾ [القلم : ٥١] وقال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ [الحج : ٧٢] .

واستجاب النبى ﷺ لأمر الله وأخذ يحدث قريشاً بما تكره ، فكان ناس كثيرون يرونه من بعيد فيقولون : سيحدثنا فى الإسلام تعالوا نختفى من

وجهه ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ [هود : ٥] .

هذا الحديث شرح الفطرة شرحاً حسناً ، والفطرة السليمة هى العاصم وحده ، ولذلك تحدثت سورة الروم ، عن حال من يكون على الفطرة فقالت : ﴿ منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ [الروم : ٣١ ، ٣٢]

إن الناس إذا لم يجمعهم الحق فرقهم الباطل ، إن الناس إذا لم تجمعهم العفة فرقتهم الشهوات . إن الناس إذا لم تجمعهم الدار الآخرة هلكوا فى أودية الدنيا لكثرة متاهاتها ، والفطرة السليمة هى العصم وحده .

بعد ذلك تحدثت سورة الروم عن أن الناس ـ بطبيعتهم ـ يعودون إلى الفطرة وتطيب قلوبهم وترق سرائرهم ويعتدل مزاجهم ، ويستقيم سلوكهم عندما يصدمون بالمرض أو بالفقر أو بضياع السلطة أو بذهاب القوة ﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون * أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون * وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ [الروم : ٣٣ ـ ٣٦] .

هؤلاء جميعاً يظنون أن الغنى تدليل من الخالق لبعض الخلق وأن الفقر إذلال من الخالق لبعض الخلق ، وهذا غلط : ﴿ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ [الروم : ٣٧] .

بسط الرزق وقبضه اختبار إلهى محض ، ولذلك قال لمن عنده المال انجح فى الاختبار بأن تؤدى حق الله وحده ﴿ فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون ﴾ [الروم : ٣٨] .

افعل هذا لله لا لطمع عاجل ﴿ **وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون** ﴾ [الروم : ٣٩] .

ثم بين أن الناس تحل بهم الكوارث وتذهب عنهم القوة وتشيع بينهم الفوضى والاضطرابات بسبب أنهم لم يقوموا بأمر الله . ﴿ **ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون** ﴾ [الروم : ٤١] .

وبينت السورة على عجل أن **الصراع** بين حزب الحق وحزب الباطل قديم وباق إلى قيام الساعة

﴿ **ولقد أرسلنا من قبلك رسلًا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** ﴾ [الروم : ٤٧] .

لكن متى ينتصر المؤمنون ؟ .

يوم تنضج الفطرة ويستقيم العقل ويسلم القلب من الغش والأحقاد ، يوم يكون المؤمنون حقاً على مستوى الكلمة وإن المشكلة الكبرى التى يواجهها العالم كله الآن هى متى يدخل العرب فى الإسلام ؟ متى يكون المسلمون مسلمين ؟ .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون * ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى : ٢٥ : ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً خاتم الأنبياء وإمام المرسلين .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

عباد الله أوصيكم ونفسى بتقوى الله عز وجل .

أيها الإخوة

إن كتابنا هذا مجمع الحقائق التى يفتقر العالم كله إليها ، وأود أن تتاح الفرص مستقبلاً إن شاء الله لنلقى نظرة عامة على سورة من سور القرآن نحاول أن نعرف المحور الذى تدور عليه والهدايات التى نفعنا الله بأن أودعها فى طيات كتابه .

والتفسير الموضوعى شىء شغلت نفسى به لكى يكون نوعاً من الدعوة إلى فهم القرآن فهماً يلائم هذا العصر الذى يريد الناس منه زاداً سريعاً يقدم لهم وفيه وفاء بحاجتهم .

ويمكن أن يزداد الوعى بالتفسير عندما يعود الإنسان إلى مصحفه وإلى أحد التفاسير ومعه ما قلنا من نقط سريعة .

* * *

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصــلاة

* * *

الأُمَمُ بَيْنَ الصُّعُودِ وَالهُبُوط

خطبة الجمعة بمجمع الإيمان بالمصورة
فى ١٩٨٦/٧/٢٥ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فقد بحثت فى علاقة بنى إسرائيل بنبيهم موسى عليه السلام ، وحاولت أن أعرف حقيقتها وأن أشرحها للناس وأشرح ما أعقبها وما صاحبها من نتائج ، فإن قصص القرآن الكريم مصباح تنطلق أشعته منه لكى يعرف الناس الطريق الصحيح فلا يزيغوا ولا يضلوا .

بدا لى أن علاقة بنى إسرائيل بموسى لم تكن علاقة إيمان بالله وتقدير حقوقه وتكريم لنبيه ، وإنما كانت أشبه ما تكون بعلاقة قوم مع من جاء يحررهم ويدفع العذاب عنهم ، أو علاقة قوم برجل من بنى جنسهم يتعصبون له ويحتمون به ، وأخذت أتأمل ما جاء فى القرآن الكريم فى هذا المجال .. رأيت أن موسى عليه السلام بعد أن انتصر على سحر فرعون فاهتزت ألوهية الرجل الأحمق ، وانكشفت صورته أمام الناس فإذا هو

مخذول تافه ، ثم كان إيمان السحرة بموسى عليه السلام وإيثارهم للآخرة على العاجلة كان ذلك خَتْماً لدعوى المفتون بأنه إله .

لكن هذا النصر الذى أحرزه موسى على خصومه لم يدم طويلاً حتى بدأت المحنة تنزل بقومه وبدأ سيل جديد من المحن والفتن ينزل ببنى إسرائيل ﴿ **وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك** ﴾ الحاشية الضالة تُغرى فرعون بنبى الله ، الحاشية الضالة تُملى للرجل المغرور أن يمضى فى طريق الفتك والأذى ﴿ **قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون** ﴾ ماذا يصنع موسى أمام هذا البلاء ؟ لا طاقة له على دفعه ولذلك أخذ يصبرهم على لأواء هذه المتاعب ﴿ **قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** ﴾ ماذا كان جوابهم ؟ كان جواباً رديئاً ، فقد قالوا له . ما استفدنا منك شيئاً ، بَعْثَتُك كانت صفراً ، تعبنا قبلها وتعبنا بعدها ﴿ **قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يُهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون** ﴾ [الأعراف : ١٢٧ ـ ١٢٩] مصاير الشعوب بين يدى الله ، مستقبل الدول فى أصابع القدر ينصر من يشاء ، ويخذل من يشاء ، من يدرى ؟ قد يهلك عدوكم ثم تتولون الأمور من بعده ، تُرى هل ستكونون فراعنة مثلهم تذلون الناس ، وتنصرون الباطل ، وتتبعون الشهوات أم ستكونون قوماً صالحين ؟ هذا هو معنى كلمة موسى لبنى إسرائيل ﴿ **عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون** ﴾ .

مما يذكر هنا أن صلاح الشعوب جملة أو كون الصلاح ينتظم أكثر الناس لا يتم إلا بعد مراحل طويلة ، أما فى المرحلة الأولى فالناس خليط وأغلب الناس يتبع ما شاع من تقليد وما انتشر من بدع وأحكام ولا يعنيه أن يحيا كما ورث الحياة ، وأغلب اليهود عندما ظهر موسى كان الذل قد رسم خطوطاً عريضة عميقة فى أعصابهم ، وكما قال أبو الطيب المتنبى (١) .

---

(١) ديوانه : ٣٢٧/١

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلامُ

فأكثر أتباع موسى أَلِفُوا الذل والهوان ، ألفوا إذلال المراعة وأن تنحنى أصلابهم لغير الله ، وأن يُضربوا فلا يتألموا ، لكن عدداً قليلًا من الناس سلمت فطرته وصحت عقيدته وعرف الدين صلة بالله ترفع الرؤوس وتزكى النفوس وتجعل المؤمن يجتاز دروب الحياة وهو لا يعرف إلا ربه ولا يبغى إلا رضاه ولا ينتظر إلا جداه (1) .

وقد صرح القرآن الكريم فى سورة يونس أن الذين آمنوا إيماناً فيه صلاحية وقبول هم الجيل الناشىء ، أما الجيل الذى ألف الدنايا وتحمل ذل فرعون دون أن يتمرد فقد فسد ، قال تعالى . ﴿ **فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين** ﴾ [يونس : ٨٣] .

الشباب الجديد الناشىء هو الذى مضى مع خيالات المجد والتحرر ومعرفة الله وحده ورفض الألوهية الأرضية واحتقار الأصنام الحية التى يعبدها الناس فى كل عصر ومصر .

وبعد زمن من التعذيب والتقتيل جاء الأمر لموسى بأن يتحرك من هذا البلد ، وأصدر موسى أمره إلى بنى إسرائيل بأنه فى ليلة كذا يتركون بلادهم متجهين نحو الصحراء الشرقية إلى شاطىء البحر ، وعرف بنو إسرائيل أنهم خارجون من مصر ولن يعودوا فاستعاروا الحلى من المصريين على أن تبقى معهم قليلًا ثم تُرد وهربوا بها !! .

انظروا الفارق بين مسلكين ، عندما قرر النبى ﷺ الهجرة من مكة إلى المدينة وكانت فى بيته ودائع كثيرة للمشركين ستبقى بعده علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه كى يرد الودائع إلى أصحابها (2) فلا يكون اختلاف الدين سبباً فى التهام مال أو إضاعة حق !! .

---

(1) الجد : العطاء

(2) السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٢٦ ، ١٢٧ وتاريخ الطبرى ٢ ٣٧٨

وخرج بنو إسرائيل ـ وهم سارقون ـ وراء موسى ، وبداهة ليسوا كلهم لصوصاً ولكن عدداً كبيراً منهم كان يحمل حلى المصريين معه ، وبدأ معدن القوم يتكشف .

عرف فرعون أن بنى إسرائيل خرجوا هاربين ﴿ **فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين * إن هؤلاء لشرذمة قليلون * وإنهم لنا لغائظون * وإنا لجميع حاذرون** ﴾ [الشعراء : ٥٣ ـ ٥٦] وانطلق فرعون وراء بنى إسرائيل ، وبدأ الجيش الفرعونى يقترب من اليهود ، فلما أحس اليهود بأن المراحل تُطوى وراءهم وأن الجيش المصرى يقترب منهم صاحوا لموسى : ﴿ **إنا لمدركون * قال كلا إن معى ربى سيهدين** ﴾ [الشعراء : ٦١ ، ٦٢] .

مهما اشتدت الظلمة ومهما كثر الحرج فإن المؤمن لا يضطرب يقينه ولا يتصدع إيمانه ولا تضعف بالله صلته فهو لآخر لحظة واثق من أن الله لن يضيعه ﴿ **قال كلا إن معى ربى سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين** ﴾ [الشعراء : ٦٢ : ٦٦] .

كيف غَرِق الآخرون ؟ .

أُمِر موسى بأن يترك البحر على النحو الذى حدث له . جبال من الأمواج عن اليمين ، وجبال من الأمواج عن الشمال ، وقاع يبس ﴿ **واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون** ﴾ (١) [الدخان : ٢٤] وانطلق فرعون وجنوده وراء الإسرائيليين حتى اجتمع الجيش كله داخل البحر فانطبقت الأمواج وهلك المفسدون !! .

---

(١) واترك البحر رهوا : اتركه ساكناً على هيئته التى هو عليها بعد ضربه بالعصا ليدخله القبط فإذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم . يقال : رها البحر يرْهو : سكن . وجاءت الخيل رهْواً : أى ساكنة . أو اتركه مفتوحاً على حاله منفرجاً ، من رها الرجل رهوا : فتح بين رجليه وفرج بينهما ، وهو حال من البحر . والمراد به : البحر الأحمر

نتابع القصة لنعرف طبيعة بنى إسرائيل ، فإنهم ما كادوا يخرجون للشاطىء الآخر ويسيرون قليلاً حتى وجدوا قوماً يعبدون الأصنام وينكشف الضلال فى معادنهم ﴿ **وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ⋄ إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ⋄ قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين** ﴾ [الأعراف : ١٣٨ ــ ١٤٠] .

ومشى بهم قليلاً ، وهنا نقف وقفة تأمل فيما يقصه القرآن علينا ، لقد اجتازوا الخليج إلى سيناء ، ومضوا فى سيناء فى طريقهم إلى الشاطىء الآخر ، والشاطىء الآخر كان فلسطين الأرض المقدسة ، من كان يسكنها ؟ .

كان يسكنها جنس عربى ، كان يسكنها الكنعانيون وهم جنس عربى فيه أخلاق العروبة قبل أن يؤدبها الإسلام ، فيه خصال العرب من جبروت وفتك ومفاخرة قبل أن يجىء الإسلام فيرفع خسيستهم ويلزمهم الأدب

كلف الله بنى إسرائيل أن يدخلوا أرض فلسطين ليقاتلوا جبابرتها ﴿ **وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين ⋄ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ⋄ قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ⋄ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ⋄ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ⋄ قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ⋄ قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين** ﴾ [المائدة : ٢٠ ــ ٢٦]

كانت النتيجة أن الله جعل سيناء مصيدة لليهود ، أحكم جدرانها عليهم فلا يخرجون منها أبداً ، وظلوا هكذا أربعين سنة حتى هلكت الأجيال الجبانة المنافقة التى استمرأت الدنايا والمذلة ، وتكونت أجيال أخرى تعرف الله وتحب رضاه وتبذل حياتها فى سبيله ، ثم دخل اليهود بعد ذلك فلسطين يقاتلون الجبابرة .

ونسأل : ماذا كان حال الدنيا خلال أربعين سنة ؟ .

كان الجبابرة يفسدون فى الأرض ، وقبل الله أن تبقى الأرض أربعين سنة يحكمها الجبابرة لأن الحياة اختبار ، وسيبقى الكافرون يحكمون الأرض ما بقيت الأرض ليس فيها العنصر الذى يخلف الظلمة ويستطيع أن يطبق آيات الرحمن بدل تعاليم الشيطان .

لابد أن يبقى زمام العالم بين أيدى عبيد الشيطان لأن عباد الرحمن بالمفاسد التى استقرت بينهم ليسوا أهلًا لأن ينتصروا ولا أهلًا لأن يقودوا ، لابد لكى تكون الأمة سيدة أن تستجمع أسباب السيادة .

قرأت فى التاريخ الإسلامى أن « هولاكو » دخل بغداد وقتل نحو مليون أو مليون ونصف من الناس حتى إن الفرات احمرّت مياهه من كثرة الدماء التى سُفكت !! وكان المسلمون يومئذ أهلًا للهزيمة وكانوا جديرين بها ، ثم مضى القرن السابع الذى انهزم المسلمون فيه ، وجاء القرن الثامن الهجرى وما جاء القرن التاسع الهجرى حتى كان المسلمون يثأرون لأنفسهم مما نزل بهم ، ودخل المسلمون القسطنطينية وجعلوها عاصمة الإسلام !! .

متى انتصروا ؟ لما صلحت أحوالهم واصطلحوا مع الله !! .

هناك فارق كبير بين الخليفة العربى الذى قُتل مع قومه فى بغداد وبين الخليفة الذى انتصر على أعداء الإسلام وافتتح القسطنطينية .

* * *

يقول التاريخ عن « محمد الفاتح » : كان رجلاً صواماً قواماً ، وكان كثير القراءة للقرآن الكريم ، وقبل أن يموت جمع أولاده وأوصاهم بأن يظلوا مجاهدين لنصرة الإسلام وأن لا يشغلهم شيء عن مرضاة الله !!

انظر لصلتك بالله ثم انتظر أن يصنع الله لك . والذى حدث أن أمتنا لم تعرف حقيقة الصلة بالله .

أتظنون العرب لما ملكهم الله الفرس والروم كانو : عنترة بن شداد ، وامرأ القيس ، وبقية الشعراء والدجالين ؟ لا ، لا ، كانوا نوعاً آخر من الناس ، كانت فلسفة الحكم فى العالم يومئذ : الحق الإلهى للملوك (١) وإذا فى المدينة فلسفة جديدة للحكم يقول فيها الخليفة « ... **أيها الناس فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوى عندى حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله . والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله** » (٢) .

ويشرح عمر رضى الله عنه سياسته فى المال فيقول :

« **ما مثلى ومثل هؤلاء إلا كقوم سافروا فدفعوا نفقاتهم إلى رجل معهم ، فقالوا : أنفق علينا ، فهل يحل له أن يستأثر منها بشىء** » ؟ .

قالوا : لا يا أمير المؤمنين ، قال : « **فكذلك مثلى ومثلهم** »(٣) .

---

(١) نظرية سياسية تعرف كذلك باسم نظرية التفويض الإلهى ، والمقصود به أن الملوك أو رؤساء الدول قد اختارهم الله تعيينا لحكم شعوبهم ، ومن ثم فهم لا يستمدون سلطانهم من شعوبهم بل من هذا التفويض الإلهى ، وتمريباً من هذه النظرية تعتبر كل ثورة على الملوك اعتراضاً على حكم الله ، وهذا ما عناه لويس الرابع عشر بقوله : « أنا الدولة والدولة أنا »

(٢) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٣٠١/٦) وقال : هذا إسناد صحيح

(٣) مناقب عمر لابن الجوزى : ١٠٢

وكان يقول :

لا شيء فيما ترى إلا بشاشتُهُ   يبقى الإله ويودى المال والولد (١)

سياسة جديدة فى المال ، سياسة جديدة فى الحكم ، سياسة جديدة فى البحث العلمى تقوم على التجربة والملاحظة ورفض الأخيلة الفلسفية الشاردة ، سياسة فى الخلق والسلوك ، سياسة جديدة فى كل شيء ، غيَّر المسلمون وجه الحياة وطلعوا على أساس ثقافة جديدة وحضارة جديدة .

كيف وقع هذا ؟ .

هنا نقارن بين فترتين ، يقول المؤرخون : احتاج بنو إسرائيل إلى أربعين سنة حتى يتحولوا إلى جيل يصلح لوراثة الحكم أو لقيادة الناس أو لإمامة الحقيقة ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** ﴾ [الأعراف : ١٣٧] .

من الممكن جداً أن تتحول الأمم إلى أضدادها ، لكن الأمر لم يحتج إلى أربعين سنة بالنسبة إلى النبى العربى محمد عليه الصلاة والسلام ، فخلال ثلاث وعشرين سنة غير العرب السارحين فى الصحراء كأنهم إبل هائمة إلى شعب ثقافة وحضارة يحتقرون الملذات ويطلبون الآخرة ، ويمشى أحدهم إلى ميدان الوغى وهو يقول :

ركضاً إلى الله بغير زادِ   إلا التُّقى وعمل المعادِ
والصبر فى الله على الجهاد   وكلُّ زادٍ عُرضة النفاد
غير التقى والبرِّ والرشاد(٢)

هذا التغيير الذى حدث للجيش العربى أصبح أهلًا للسيادة وأهلًا لأن

---

(١) نفس المرجع ١٨٨ وتاريخ الطبرى ٥ ٢٩

(٢) هذه الأبيات قالها عمير بن الحمام وهو يقاتل فى غزوة بدر ، وقد رواها ابن جرير كما ذكر الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية ٣ ٢٧٧

يؤخر الرومان من هنا والفرس من هنا ويتصدر قافلة البشرية ويقودها بجدارة .

الأمة العربية الآن تلقى الويل والاحتقار لأنها تحاول الإنسلاخ من الإسلام ، وقد قلت لبعض إخواننا الفلسطينيين : لماذا تطلبون إقامة دولة علمانية ؟ .

إن إخوانكم فى الجزائر كانوا يحاربون تحت علم التوحيد وتحت هتاف الله أكبر ، وكانوا يسمون من قُتل شهيداً ، وكانوا يسمون أعداءهم كفاراً ، ووقعت المعجزة وانتصر الجزائريون على الاستعمار الفرنسى .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

﴿ **الحمد لله الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن الأمم ليست بالمزاعم أو الهتافات فإن شيئاً من هذا لا ترجح به كفة ولا ينتصر به ضعيف ، لكي تكون الأمة الإسلامية أهلاً لنصره الله يجب أن ينظر الله إليها فيرى أن الأسرة الإسلامية ألطف وأحكم وأفضل من الأسرة غير الإسلامية ، وأن الموظف المسلم أرعى للأمانة وأحفظ للحدود وأطوع للنظام من أى موظف آخر ، وأن الشارع المسلم أنظف من أى شارع [illegible] أو غيرها

أيها الإخوة :

الإسلام دين جاء رحمة للناس وخروجاً بهم من الظلمات إلى النور ﴿ **كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد** ﴾ [إبراهيم : ١] .

ما هى الظلمات التى نخرج منها ؟ ظلمات الليل ؟ كلام فارغ لا يقوله عاقل ، ظلمات الجهل والفوضى والتسيب وضعف اليقين وضعف الأخلاق ، وما أكثر هذا فى الأمة الإسلامية !! .

ـ يجب ـ كما تُدرّس فى كليات الطب الجثث لتُعرف أسباب الوفاة ويتفع بها فى علاج الأحياء ـ أن تُدرّس الأمم المهزومة ويعرف ما فيها من علل ، فإذا كُشفت هذه العلل ، وعرفنا جراثيم الداء أمكن الخلاص منه والبعد عنه ، أما الأمم التى تنافق أمراضها ولا تريد أن تبحثها ولا أن تبتعد عنها فستبقى بعلتها إلى أن تموت بها

اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلًا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقـــم الصـــلاة ..

٭٭٭

نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ "الأَحْزَابِ"

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين

أما بعـد .

فإن الجماعة الإسلامية الأولى ، والدولة الإسلامية الناشئة فى المدينة المنورة عانتا ضغوطاً شديدة من الكفار والمنافقين .

فأما الكفار فإن أحزابهم على اختلاف مللهم جمعتهم غاية واحدة هى تقويض الإسلام ونسف دعائمه والإتيان عليه من القواعد ، يستوى فى ذلك الوثنيون وأهل الكتاب

ذاك عمل الأعداء فى الخارج ، أما عمل المنافقين فى الداخل فكان إثارة الفتن والبلبلة الفكرية والعاطفية .

ولقد رأيت من تجاربى الكثيرة ومن دراساتى الكثيرة أن عمل المنافقين فى الداخل قد يكون أنكى وأقسى من عمل الكفار الصرحاء الذين يهاجمون الدولة من الخارج .. قد يكون عمل المنافقين مستوراً تحت أغشية من الخداع والمرونة والمراوغة ، وقد يكون مخبوءاً تحت استغفال أصحاب النيات الحسنة وإن كانت عقولهم ضيقة وفقههم قليلا ، ذلك لأن الصديق الجاهل قد يكون أشد على صاحبه من العدو العاقل .

وأمس ترامى إلىَّ نقاش غريب فى « جامعة القاهرة » بأن واحداً من هيئة التدريس فى « كلية الطب » وعدداً من التلامذة له أشاع تفسيراً غريباً لقوله تعالى : ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

قال : إن الآية صريحة فى أن لكل إنسان أن يعمل بالدين وأن يتركه !! .

تفسير الآية فى نظره غير تفسيرها عند جمهور الفقهاء والمفسرين على امتداد أربعة عشر قرناً ، هؤلاء جميعاً قالوا : المقصود بالآية أننا لا نكره أحداً على الدخول فى الإسلام ، وأن القوة فى أيدينا ليست أداة ضغط أو فتنة أو هيمنة على العقل والضمير ، فالإسلام غنى بحججه ، ثرى ببراهينه ، فهو يسوق قضيته بين أشعة عامرة من البينات والهدى ، فمن ردَّ ذلك كله فلا علينا منه ، ومن قبل فهو أخونا ، أما أن نحتاج إلى سلاح لتأسيس إيمان فى قلب أو يقين فى فؤاد فلا .

لكن مفسر القرن الخامس عشر فى « كلية الطب » قال لنا : إن المقصود بالآية أن الإنسان حر فى أن يصلى أو لا يصلى أن الإنسان حر فى أن يزكى أو لا يزكى ، أن الإنسان حر فى أن يُحسن أولا يحسن ، أن الإنسان حر فى أن يقارف ما يشاء من مطالب الهوى ومسارع الشهوة دون أن نكلف بإكراهه على شىء من الهدى والخير .

ونحن ــ فى هذه الدائرة ــ لا نُكلَّف بإكراه أحد على شىء من الهدى والخير ، ولكن الكلام بهذا الأسلوب معناه إبطال قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما دام كل إنسان حراً فى أن يصلى أو لا يصلى ، ومعناه أيضاً إبطال أن تتحول الدعوة الإسلامية إلى دولة إسلامية تحارب الشر وتقيم الخير وتأمر بالصلاة وتعلمها فى برامج التدريس وتنشىء عليها الأجيال وتكلف الآباء فى الأسر أن يربوا الأولاد على أدائها وتكلف الإذاعة أن تنادى للصلاة فى كل وقت من الأوقات الخمسة .

ومن هنا فالتفسير بهذه الطريقة تقويض للمجتمع المسلم وبلبلة لقواعده فضلًا على أنه جهل مركب وصفاقة غريبة فى فرض الضلال على الإسلام ، فإن شباناً أغراراً مساكين تبعوا الذى قال لهم هذا ومشوا وراءه ، وما أشك فى

أن الاستعمار العالمي بشقيه الصهيوني والصليبي وراء هذا المكر !! .

فكر آخر : جاءني طالب من « الرقاريق » أمس وقال لي : إن بعض المتسببين إلى السلفية ـ وما هم بسلفيين في الحقيقة ـ رموا بالكتب المعاصرة ورفضوا أن تُعرض في معرض للكتاب الإسلامي !! .

والكتب المعاصرة بعضها أنهما أخوانا الأستاذ سيد قطب .. والأستاذ محمد قطب .. والأستاذ أبو الحسن الندوى .. والأستاذ أبو الأعلى المودودى .. والأستاذ عبد القادر عودة .. وكثيرون !! .

قلت : ما أشك أن وراء هؤلاء البُله مكراً خبيثاً يريد تمزيق الكيان الإسلامي والوسوسة هؤلاء بأن الكتابات المعاصرة رديئة وأن الكتابات القديمة لابن تيمية وابن القيم هي وحدها التي يؤخذ الإسلام منها !! .

وشيخ الإسلام ابن تيمية رجل كبير وتلميذه ابن القيم رجل كبير ، والغريب أن ابن تيمية بُلي في عهده بقوم تناولوا الأئمة العظام بلسان حاد وولغوا في أعراضهم وحاولوا مناوشة القمم الشماء في تراثنا الإسلامي وفقهه الضخم فتصدى لهم شيخ الإسلام ابن تيمية وألَّف كتابه المشهور (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) !! .

والواقع أن الذين يتظاهرون بالحماس لابن تيمية وابن القيم جُهَّال لأن الإسلام لم يكن عقيماً قبل ميلاد ابن تيمية وابن القيم في القرن السابع للهجرة ، سبعة قرون قبل ميلاد ابن تيمية وابن القيم وسبعة قرون بعد ميلاد ابن القيم وشيخه ابن تيمية امتلأت برجالات الإسلام من ذوى الفكر الثاقب والقلب النابض والحرارة التي تصبغ عواطفهم نحو ربهم ونحو نبيهم !! .

وما بد في عصرنا هذا من أن نقرأ كتب المعاصرين لأن الغزو الاستعمارى الذى هجم بجحافله على العالم الإسلامي ـ في عصرنا ـ جديد في أساليبه ، مزود بخطط غريبة لسرقة العقائد واختلاس القيم ، وهو يجر وراءه خلفية عريضة من الحضارة الغربية التي ازدهرت في ميدان العلم والتطبيق واستطاعت أن تستغل تقصيرنا وغفلتنا وتراخينا في خدمة ديننا

خلال القرون الأخيرة وهجمت علينا هجوماً موسعاً يحتاج إلى أفكار جديدة وكما قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى القرن الثانى : تَحْدُثُ للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من فجور !!

فكيف يقال : إن الثقافة الإسلامية انتهت بكتابات ابن تيمية وابن القيم ؟ .

إننى أحد الذين تتلمذوا على ابن تيمية وابن القيم وابن رشد والغزالى وابن الجوزى وابن حزم وطبعاً تلميذ تافه للأئمة الأربعة الكبار الذين شمخت قممهم فى تراثنا العقلى والفقهى ويعتبرون نماذج رائقة لتقوى الله ونفع الناس !! .

ما أشك فى أن الذين يضمرون التعصب لفلان أو لفلان من الأئمة والعلماء ويريدون تمزيق مجتمعنا بمثل هذا التفكير ما أشك فى أن وراء هذا العمل أصابع خبيثة من الصهيونيين أو الصليبيين ممن يعملون لحساب الاستعمار العالمى !! .

الفتنة فى الداخل أقسى على الأمة من الهجوم الصريح من الخارج ، ولذلك فإن المسلمين فى عصرنا هذا ينبغى أن ينظروا بقلق إلى النزعات الجاهلية التى تنتشر الآن فإن من العجيب أن يدخل اليهود كنيستهم متلاقى القلوب على أكلنا والهجوم علينا ويخرج المسلمون من المسجد ممزقى الصفوف بأفكار تافهة وقضايا حقيرة ! .

هذا الكلام استطراد مني أحتيج إليه ، وأنا أريد فى الحقيقة إلقاء نظرة على سورة الأحزاب .

وسورة الأحزاب ــ كما نفهم من عنوانها ــ تناولت الكلام عن غزوة الخندق وعن تجمع أحزاب الكفر وثبة وكتابية لحصار المدينة المنورة والضغط عليها بكل ما أوتيت من قوة حتى تخنق الإسلام وتبرز أمعاءه وتجعله أثراً بعد عين !!

وتناولت السورة شيئاً آخر وهو عمل المنافقين داخل المدينة لجعل المجتمع الإسلامى يتعرى ويتعب ، كان عمل المنافقين فى أثناء الحرب أن

ينشروا الإشاعات والأراجيف وأن يثبطوا جند الله ويلقوا الرعب في أفئدة الجماهير ، وكان عملهم أيضاً السخرية أو التنديد مما كان يؤثر عن رسول الله ﷺ وصحابته الكرام من أن مستقبل للإسلام وأن الدعوة الناشئة سوف يطلع صبحها على الروم والفرس وسوف تدخل الأمم في هذا الدين .

كانوا يستهزءون ويسخرون ويتضاحكون وهم يرون المؤمنين من وراء الخندق يقاتلون ببأس شديد وعمق رهيب كي يستبقوا حياتهم ويستنقذوا دعوتهم ويجعلوا علم الإسلام باقياً في وجه الريح الهوج التي تريد أن تطويه .

هذا عمل المنافقين في الحروب ، أما في أيام السلام فعملهم تتبع الشهوات وإثارة أسبابها والوقوف على أفواه السكك لإلقاء أسطوات التهمة على أعراض المؤمنين وتتبعها .

فكان لابد من علاج هذا كله ، وجاءت سورة الأحزاب فوصفت في صفحتين تقريباً ما وقع في غزوة الخندق ، ووصفت في بقية الآيات – وهي نحو خمس صفحات – تنظيم المجتمع الإسلامي وفي قمته الأسرة النبوية .

هذا هو المحور الذي دارت عليه سورة الأحزاب ، وبدأ الكلام تنبيهاً للمؤمنين أن يوحدوا صفهم وأن يجمعوا همهم وأن يركزوا قواهم في مواجهة التيارات المنبعثة من تلك الجهتين : (الكفر والنفاق) .

بدأت بقوله جل شأنه ﴿ **يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله عليماً حكيماً . واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً . وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً** ﴾ [الأحزاب : ١ – ٣] .

الكلام عن الكافرين والمنافقين تكرر عدة مرات في السورة :

ففي وسط السورة يقول الله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً . ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً** ﴾ [الأحزاب : ٤٥ – ٤٨] .

وفى ختام السورة يقول الله تعالى : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً * ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ [الأحزاب : ٧٢ ، ٧٣]

ومع هذا التوجيه فى الوقوف ضد الكفار والمنافقين والتصدى للجهتين على سواء نلحظ أيضاً خلال السورة أن الصبر على أذى هؤلاء وأولئك مطلوب وأن تحذير المؤذين من المضى فى طريقهم واضح ونجد هذا فى قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً * والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً** ﴾ [الأحزاب : ٥٧ ، ٥٨] .

وقبل ذلك قال : ﴿ **ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً** ﴾ [الأحزاب : ٤٨]

وفى آخر السورة قال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً** ﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

وفى جلوس الناس فى بيت الرسول ﷺ دون سبب واضح بين أن ذلك كان يؤذى النبى ﷺ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق** ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

ذاك كلام هامشى على جانب السورة أما الكلام فى السورة نفسها فنحن نتناوله أيضاً هامشياً لنقول : إن السورة بينت أن صاحب الهدف الواحد لا يشغله عن هدفه شىء آخر لأن ما ارتكز فى القلب من إيمان يربط صاحبه برب الأرض والسماء لا يجعله صاحب قلب آخر يلتفت إلى الناس ويرجوهم أو يخشاهم ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه** ﴾ [الأحزاب : ٤]

وعرض لشيء من القضايا التي تناولتها السورة وهي قضية تزوج النبي ﷺ بامرأة متبناه ـ زيد بن حارثة ـ فقال : ﴿ **وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل * ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم** ﴾ [الأحزاب : ٤ ، ٥] .

تبين الآية هنا أن من لا نعرف أباه فهو أخ لنا فى الدين ، وينبغى أن لا يضيع فى مجتمعنا ، لكن الذى حدث ـ للأسف ـ أنه ضاع ، وقد رأيت ـ وأنا قادم من أسيوط من حوالى أسبوعين ـ مؤسسة على نحو ثلاثة عشر فداناً جمعت اللقطاء من المدينة خلال ثلاثين سنة وتبنت هذه المؤسسة تربيتهم على البروتستنتية وهى الآن تأخذ معوناتها من مجلس الكنائس العالمى !

أين المسلمون :

يتقاتلون على التوافه من قضاياهم بينما يشب الألوف على غير دينهم وهم لا يدرون !! .

هذا استطراد آخر نتركه لنقول : إن الآية تحدثت بعد ذلك عن موقعة الأحزاب وبينت أولاً أن الدولة الإسلامية وقعت فى مأزق خطير وأنها ـ حقيقة ـ امتحنت امتحاناً شديداً وأن النبى ﷺ والصحابة من مهاجرين وأنصار كانوا حوله يتطلعون إلى الأفق فى لهفة واضحة إلى عون الله وأن المستقبل تلبد بالغيوم لأن أعداءهم أحاطوا بهم إحاطة لا منجاة منها إلا بفضل الله ، ونلمح هذا فى التصوير الذى جاءت به هذه الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً * إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً** ﴾ [الأحزاب : ٩ ـ ١١] .

ظل المسلمون قرابة شهر ومواقعهم بين حين وآخر مهددة بأن تُقتحَم ، صحيح أنهم حفروا الخندق وأنهم باتوا ساهرين حوله وأنهم منعوا خيل الكفار من أن تقتحم المدينة ، ولكن هذا كله ما هوّن من شدة

الحصار لأن الحصار جمع قريشاً التي أقبلت من مكة – عاصمة الوثنية يومئذ – ثم بدو الجزيرة ثم أهل الكتاب بما يمثلون من حقد على عقيدة التوحيد ومن بغض على صاحب الرسالة الخاتمة ومن خبث وغدر في دمهم ضد كل من يريد بالإنسانية خيراً ويبغي لها شرفاً، اتفق هؤلاء كلهم على أن يدخلوا مع الإسلام في معركة حياة أو موت، وكان كل شيء يشير إلى أنهم منتصرون حتماً، فالمسلمون داخل مصيدة لا يجدون منفذاً حتى إن النبي ﷺ أراد أن يتحايل على إنقاذ الدعوة فأرسل إلى البدو – وهم قوم تجمعهم الأموال وتفرقهم المنافع – وعرض عليهم أن يرجعوا – لتحدث ثغرة في هذا الحصار – وعرض عليهم نصف ثمار المدينة ليعودوا، وفعلاً كادوا يقبلون لولا أن الفدائية والتضحية والاستماتة ملأت قلوب رؤساء الأنصار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وقال سعد بن معاذ: والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال رسول الله ﷺ:

« **فأنت وذاك** » (١).

وشاء الله أن تزداد الظلمة عندما انضمت بنو قريظة إلى المشركين ولكن النبي ﷺ كان موقناً بأن النصر له لأنه موقن بكلام الله، والله أنزل عليه بمكة – في سورة الصافات: ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾ [الصافات: ١٧١ – ١٧٣]. وأنزل عليه في سورة غافر: ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار** ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

كان واثقاً من صدق الوحي ومن أن الله لن يخذله فصابر حتى تدخل القدر وعصفت الرياح بخيام المشركين وأكفأت قدورهم وألقت الرعب في أنفسهم فانفضوا ما هزمهم إلا الله، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام فيما استقبل بعد ذلك من معارك يقول: « **اللهم منزل الكتاب * ومجرى السحاب * وهازم الأحزاب * اهزمهم وانصرنا عليهم** » (٢).

---

(١) راجع بالتفصيل سيرة ابن هشام ٣ / ١٧٤، ١٧٥.

(٢) رواه البخاري في الجهاد – باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس ٤/٦٣ ومسلم في الجهاد – باب كراهة تمني لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء ٥/١٤٣

وكان يقول : « **لا إله إلا الله وحده ، أعز جنده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده فلا شيء بعده** » (١) .

لكن من الذي يستحق النصر ؟

قلوب أخرى ، في الحقيقة عندما أقارن بين قلبي وقلوب أولئك الناس أشعر بشيء كبير من البعد ، لأنه في يوم من الأيام ضاقت قريش بالحصار وقررت أن تهجم هجوماً تنتهي فيه إلى نتيجة حاسمة ، وفعلاً وجهت قواها في ضربة شديدة لقلب المدينة ، وتحمع المسلمون من الظهيرة إلى صلاة العصر إلى أن غربت الشمس وهم يقاومون حتى ردوا المهاجمين على أعقابهم خاسئين ، تدرون ما ذا كان تعقيب صاحب الرسالة الخاتمة على المعركة ؟ .

يقول : « **ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس** » (٢) .

هذا ما أحزنه ، أحزنه أنه لم يسعد بلقاء الله في صلاة العصر ، أحزنه أنه لم يشعر بحلاوة الوحي وهو يتلوه بين يدي رب العالمين !! .

هذا قلب وحوله قلوب على شاكلته أو تعلمت منه ، ما أساءها أن بذلت جهداً أو فقدت مالاً أو روعها الأعداء ، بل « **شغلونا عن الصلاة الوسطى** » !! .

ليس بعيد أن تنزل الأمطار وأن تعصف الرعود وأن تقصف قواصف الجو على الكافرين فترغمهم على أن يفكوا الحصار ويذهبوا بدداً من حيث جاءوا ﴿ **ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيئاً قديراً** ﴾ [الأحزاب : ٢٥ : ٢٧] .

---

(١) رواه البخاري في المغازي – باب غزوة الخندق ١٤٢/٥ ومسلم في الذكر والدعاء – باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨٣/٨

(٢) رواه البخاري في الجهاد – باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة ٥٢/٤ ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة – باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ١١١/٢

هذا ما تضمنته سورة الأحزاب عن غزوة الأحزاب ، وقد قدمناه بعد إشارات خاطفة . أما المعركة وما وقع فيها وتفاصيلها فلها مجال آخر

بعد ذلك جاء كلام في تنظيم البيت النبوي ، أساس هذا التنظيم يجعلنا نتحدث عن فلسفة الغنى والفقر في الإسلام

أيها الإخوة : الإسلام دين يكره الفقر ويراه نكبة تنزل بالإنسان فتزلزل مروءته وتكسر رجولته ، ولذلك كان النبي ﷺ يسويه بالكفر في الاستعاذة بالله من وطئهما : « **اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر ، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر لا إله إلا أنت** »[1] وكان يقول : « **اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة** »[2] .

وكان يقول : « **نعما بالمال الصالح للرجل الصالح** » [3] .

والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة ، لكن هل كان النبي ﷺ غنياً ؟ لقد أغناه الله فعلاً ــ بنص القرآن الكريم ــ ﴿ **ووجدك عائلاً فأغنى** ﴾ [الضحى : ٨] عائلاً : فقيراً ، فأغناه . أغناه في شبابه ورجولته بكدحه في الأرض وتجارته التي كسب منها الكثير ، وأغناه بعد الرسالة بنصيبه في الفيء والغنائم ، كان غنياً ولكنه كان إماماً يبذل ويعطي ، قال لأبي ذر رضي الله عنه يوماً وكان يمشي معه : « **يا أبا ذر : ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهباً تمضي عليَّ ثالثة وعندي منه دينار إلا شيئاً أرصده لدين إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه** » [4] .

---

(١) رواه أبو داود في الأدب ــ باب ما يقول إذا أصبح ١٣/٤٣٣ والنسائي في عمل اليوم والليلة ١٤٦/١ والحاكم وصححه ١/٢٥٢ والبيهقي ٧/١٢ وأحمد ٥/٤٢ ورمز له السيوطي بالصحة (فيض القدير ٢/١٣٥)

(٢) رواه أبو داود في الدعاء ــ باب في الاستعاذة ٤/٦٤ والنسائي في الاستعاذة ، الاستعاذة من الجوع ٨/٢٦٣ ، وابن ماجة في الأطعمة ٢/١١١٣ وقال في صحيح الجامع : (١٢٨٣) حسن

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد ــ باب المال الصالح للمرء الصالح : ٤٥ والحاكم في البيوع وصححه ٢/٢ وأحمد ٤/١٩٧ ، ٢٠٢

(٤) رواه البخاري في الرقاق ــ باب قول النبي ﷺ ما أحب أن لي مثل أحد ذهباً ٨/١١٧ ، ١١٨ ومسلم في الزكاة ــ باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة ٣/٧٥

هذا عطاؤه ، ومع ذلك بلغ به العطاء أن ينسى حاجات بيته وربما سأل أهله الأُدْمَ فقالوا ما عندنا إلا خل فدعا به فجعل يأكل به ويقول : نِعْم الأدم الخل ، نعم الأُدْمُ الخل » (١) .

ما السبب في هذه المعيشة ؟

السبب أن الأمة الإسلامية كانت تواجه مصاعب هائلة ، ففي مكة حُصر المسلمون في شِعْب بني هاشم نحو ثلاث سنين كانوا يأكلون التراب من الفقر ، فكيف يتوسع ؟ .

ثم بعد الهجرة وجدنا المدينة المنورة تتعرض للهجوم والحصار والضوائق ، أكان البيت النبوي يستمتع بالخير الكثير والزاد الوفير والناس يجيئون من كل ناحية فاقدين لأموالهم ولأملاكهم ؟

كان لابد أن يعيش البيت النبوي عيشة فيها شدة ، كان لابد أن يتحمل ، لكن النسوة اللاتي تزوجهن ـ وقد جئن من بيوتات كان فيها شيء من الخير والثراء ـ تألمن وضقن ، وعلى ما بين الضرائر من خلاف اتفقن جميعاً على إعلان رفضهن لهذه المعيشة القاسية فماذا يفعل الرسول ﷺ ؟ .

جاء الوحي الإلهي يقول له : ليس إلا هذا ، وقل لمن عندك في البيت ! هذه معيشة بيت يصدر للناس النعمة والقناعة ، يصدر للناس السهر في طاعة الله والتهجد وجعل الليل أبيض من طول القراءة والعبادة · ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلًا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار

---

(١) رواه مسلم في الأشربة باب فضيلة الخل والتأدم به ٦/١٢٥ قال ابن القيم هذا ثناء عليه بحسب الوقت لا لتفضيله على غيره ، لأن سببه أن أهله قدموا له خبزاً فقال ما من أدم ؟ قالوا ما عندنا إلا خل ، فقال ذلك جبراً لقلب من قدمه وتطييباً لنفسه لا تفضيلًا له على غيره ، إذ لو حضر نحو لحم أو عسل أو لبن كان أحق بالمدح (فيض القدير ٦/٢٨٦)

الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴾ [الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩] .

وانتهت الآيات بقول الله لنساء النبي ﷺ : ﴿ **واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً** ﴾ [الأحزاب : ٣٤] .

هذا بدء لتنظيم البيت النبوي ثم اتصل التنظيم بعد ذلك بقضايا كثيرة ، ربما طال الوقت قبل أن ننهيها ، لعل لها مجالاً آخر .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

* *

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى ٢٥ : ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين

أما بعـــد :

أيها الإخوة : من علامات المجتمع المسلم ما قاله الله جل جلاله فى وصف أبنائه ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ [المائدة : ٥٤] ، ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ [الفتح : ٢٩] .

نحن بحاجة إلى أن يكون المسلم ذليلًا لأخيه ، ومعنى أن يكون المؤمن ذليلًا لأخيه أن يكون سهلًا معه وأن لا يكون شرساً أو صعب القياد ، ومعنى أن يكون المؤمن رحيماً بأخيه أن يرق له ، إذا عثر أنهضه وأزال عنه القذى الذى قد يصيبه فى سقطته وأن لا يكون عوناً للشيطان عليه .

وأنا أرحب بل أنا مسرور بالنهضة الإسلامية التى انتشرت فى عواصم الإسلام كلها بديهى أن تلحق هذه النهضة شوائب ، ونحن لسنا معصومين ، بديهى أن يكون هناك صلاب فيهم قصور فقهى .

بديهى أن يستغل أعداء الإسلام هذا ، وأن تتحول المخابرات العالمية بأساليبها الدسسة الخبيثة إلى صفوف هؤلاء الصلاب لتمزقهم أو لتجعل قوى بعضهم ضد الآخر .

إن الصحوة الإسلامية موجودة الآن فى كل بلد ، وأنا أخشى على الصحوة الإسلامية لا من الأعداء التقليديين المعروفين وإنما أخشى أن يأكل

بعضنا بعضاً بسبب خلافات تافهة وأفكار ضيقة .. سيحدون كما ذكرت لكم في صدر خطبتي الأولى ـ من يفسر القرآن بخطأ ومن يدخل في السنة وهو لايدرى رأساً من ذنب ولا يعرف صحيحاً من ضعيف ، وإذا عرف الصحيح لم يعرف كيف فهمه فقهاء الإسلام .

لا بأس أبداً أن يجيء واحد من الناس يقول لك : الرسول ﷺ قال : (نِعْمَ الأُدْمُ الخل) فسجعل طعامنا كله خلا !! .

أي تفكير هذا ؟ هذا إنسان كبير يرضي نفسه بواقع عابر

هناك ناس خبراء بالأحوال العلمية في القاهرة وفي دمشق وفي بغداد وفي غيرها يريدون إساءة هذه الأمة ونكبتها في حاضرها ، فلنكن بصراء بديننا وبمن يعملون في هذه الميادين المشبوهة .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠]

أقم الصــلاة

بَيْنَ بَدْءِ الوَحْيِ وَخِتَامُه

خطبة عيد الأضحى المبارك
ميدان عابدين فى ١٩٧٩/١٠/٣١ م

الحمد لله حمداً مضاعف الشكر والثناء والتمجيد ، حمداً يوافى نعمه ويكافىء مزيده ، حمداً يُبتغى به رضاه ويُتقى به سخطه ﴿ **وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً** ﴾ [الإسراء : ١١١] .

الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . ما أُبدعت حياة وأُحيى موات . الله أكبر ما اهتز فى مهده طفل وما بَسَقَ (١) فى حقله نبات . الله أكبر ما دار فى فضائه فلك . الله أكبر ما سبح بحمد ربه لأعلى ملك . الله أكبر ما انطلقت مواكب المجاهدين أنصار الله تنشر دعوته وتعلى كلمته وتُحيى شريعته . الله أكبر . ما انطلقت مواكب الحجيج صوب البيت العتيق الذى جعل الله زيارته حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً . الله أكبر ما انسكبت عبرات التائبين يستغفرون الله لزلتهم ويستقيلونه من عثراتهم ويقولون ما قال أبونا الأول آدم وأمنا الأولى حواء : ﴿ **ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ٢٣] الله أكبر ما قامت بربها الأشياء وخضعت لحكمه الأرض والسماء . الله أكبر ما التقى على ظهر الأرض الكفر والإيمان ، وتصارع أنصار الحق وأنصار الباطل وكافح بعضهم بعضاً ﴿ **هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم * يصهر به ما فى بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد** ﴾ [الحج : ١٩ ـ ٢١] .

هذا جزاء الكفرة الفجرة ، أما الصالحون الأبرار ﴿ **والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم** ﴾ [محمد : ٤ ـ ٦] .

---

(١) بسق النبات : ارتفع وطال

الله أكبر ولا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

أيها الإخوة :

إن أعياد الإسلام تقترن بالقرآن الكريم اقتراناً تاماً ، فمع بدء الوحى الأعلى كان رمضان ، وكان صومه ، وكان عيد الفطر . ومع خواتيم الوحى الأعلى كان الحج ، وكان يوم عرفة ، وكان اكتمال الدين ، وكان بدء حضارة أظلت الدنيا فلم تر الدنيا لها نظيراً ، إذ أغلت قدر الإنسان وشرَّفته على امتداد الزمان والمكان !!

وبين بدء الوحى وختامه ثلاث وعشرون سنة ، ربع قرن طويل امتلأ بالأحداث العجب ، كان هذا المدى من الزمن مشحوناً بالنصر والهزيمة وبالفرح والحزن وبالفرج والضيق ، وكما قال ربنا : ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

فى هذا الربع القرن وجدنا صاحب الرسالة الخاتمة يُطارَد فى الحرم الآمن ويقال له ـ وهو أنضر الناس عقلاً وأرشدهم فكراً ـ : ﴿ **يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون** ﴾ [الحجر : ٦] .

ثم يطارد من بلده إلى مهجره لتلحق به فى أحد هزيمة رهيبة صرعت من أئمة المسلمين سبعين شهيداً ، وبلغ توقح الوثنية بعد أن أحرزت نصرها أن وقف قائدها يقول : (اُعْلُ هُبَل . فقال النبى ﷺ : « **أجيبوه** » قالوا : ما نقول يا رسول الله ؟ قال : « **قولوا : الله أعلى وأجل** » (١)

إذا كانت الوثنية قد ظفرت بمعركة وألحقت بالمسلمين خسائر فإن خمس سنين أعقبت غزوة أحد وإذا المسلمون سادة الموقف فى مكة المكرمة ، وبعد سنة واحدة من فتح مكة كان المسلمون يسودون مواسم

---

(١) رواه البخارى فى المغازى ـ باب غزوة أحد ١٢٠/٥ ، ١٢١

الحج وتحيمات الحجيج ، وتنزلت فى السنة التاسعة من الهجرة سورة التوبة تُنهى الوجود الوثنى فى جزيرة العرب وتختم رواية خرافية دامية بقيت تخدم الباطل أمداً ليس بالقصير ، وأعطى المشركون فرصة محدودة إما عادوا بعدها إلى رشدهم وإما فقدوا حياتهم وأمامهم ﴿ **براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ۞ فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين ۞ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم** ﴾ [التوبة . ١ ــ ٣] .

هذه الصيحة بعد اثنتين وعشرين سنة من بدء الوحى ختمت صراعاً دامياً طويلاً بين دعوة التوحيد وبين الجاهلية التى أبت إلا سفك الدم ومصادرة الحرية ووأد الحق فكان جزاؤها أن طُبِّق عليها القانون الأزلى : ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** ﴾ [الرعد : ١٧] .

لكن هذا الصراع عبرة يجب أن يعيها الناس إلى آخر الدهر فإن الصراع بين الحق والباطل مُرُّ المذاق كثير الجراحات فادح التضحيات ، ولقد تحمل المسلمون الأوائل بجلد هذا كله ، وعلموا أن الصراع كلما اشتدت وطأته وبلغت القمة وبلاؤه كان النصر القريب وكان تحقيق الأمل ، وبيَّن هذا رب العالمين حتى يدرك المسلمون أنهم لن ينالوا فى زمن ما نصراً رخيصاً .

إن الكفاح يمس النفس الإنسانية حتى يبلغ شغاف القلب وحتى يبلغ السكين حزَّ العنق ، وعندما تصل المحنة إلى هذا المدى الرهيب تبدأ حركة التحول ، أما الكفر فإلى أدبر وأما الإيمان فإلى أعلى . قديماً أذل الفراعنة موسى وقومه بلاءً شديداً وعذاباً مهيناً فلما شاء رب العالمين أن يخرج موسى وقومه من هذا الوادى رأى فرعون أن يتبعهم ﴿ **فأتبعوهم مشرقين ۞ فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ۞ قال كلا إن معى ربى**

سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين ﴾ [الشعراء : ٦٠ – ٦٦] .

والشاهد أن موسى لما رأى فرعون يطارده ورأى الجيش يقترب منه لم يفزع وبلغت ثقته فى الله حدها عندما قال : ﴿ كلا إن معى ربى سيهدين ﴾ وقد هداه الله وأنجز وعده وأغرق الجبابرة وملأ بالطين أفواههم !! .

إذا قلنا : إن خواتيم الوحى نزلت فى مواسم الحج فهذا يتناول أموراً كثيرة ويحتاج إلى شىء من التفصيل ، فإن السنة التاسعة قرىء فى حجتها صدر سورة براءة ، وكان أبو هريرة وغيره من الصحابة يتسابقون فى كل فج وينطلقون نحو كل اتجاه ليقولوا بأعلى صوتهم : « **ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان** » (١) . انتهت المهزلة ، انتهت الوثنية .

وفى السنة التى تلت هذه الحجة – حجة أبى بكر بالناس – نزل قوله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ [المائدة : ٣] .

وكثير من الناس يظن هذه الآية آخر ما نزل من القرآن الكريم ، وهذا غير صحيح ، فهى آخر ما نزل متعلقاً بالتشريع وآيات الأحكام ، لكن ثبت أنه بعد ثمانين يوماً من نزولها نزل قوله تعالى : ﴿ **واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ [البقرة : ٢٨١] .

وهذه الآية سمة مميزة لحضارة الإسلام ، إن الحضارة الأوربية الغالبة فى هذا الزمان شرقيها وغربيها تعبد اليوم الحاضر وتجحد الغد القريب ، هذه الحضارة بشقيها ما تعبد إلا جسدها وإلا لذتها العاجلة وإلا زمنها المواتى ، أما أن يَمْهَد

---

(١) رواه البخارى فى الحج – باب لا يطوف بالبيت عريان ١٨٨/٢ ومسلم فى الحج – باب لا يحج البيت مشرك ١٠٦/٤

الإنسان لآخرته ، وأما أن يتزود من دنياه زادا يلقى به ربه فهذا مالا تفكر فيه الحضارة الحديثة !! .

إن هذه الحضارة كافرة حقاً بالله مهما زعمت من إيمان ، ولكنها ما انتصرت وعتت إلا لتفريط المسلمين فى مواريثهم وخلخلة اليقين فى صدورهم وانحراف خطاهم عن الصراط المستقيم الذى ألزمهم الله إياه !! .

وذلك يحتاج إلى شىء من البيان ، فإن الأمة العربية كانت فى تاريخها القديم أمة من الشعوب العادية لا وزن لها فى الحضارات الغالبة ولا فى المدنيات الكاسحة ثم جاء الإسلام ، فماذا صنع للعرب ؟ .

لا أقول : أطعمهم من جوع ــ وقد فعل ــ ولا أقول : آمنهم من خوف ــ وقد فعل ــ ولكن أقول : إن الإسلام جعل العرب الأمة الأولى فى العالم قريباً من ألف سنة !!.

إذا كان العرب معروفين فى القارات بأنهم يصدرون النفط (البترول) فإن العرب قبل أربعة عشر قرناً قد طلعوا على الدنيا طلوع الصبح بعد ظلام طويل ، وكانوا يصدرون الوحى والقيم وحقوق الإنسان وحريات الشعوب !! .

كان العرب أمة أولى بما أفاءت على الدنيا من خير وبما أسدت للإنسانية من صنيع . كان العرب أمة أولى لا بشقشقة اللسان ولا بفم يفتخر كاذباً وأعماله تُزرِى به وتقوده إلى أسفل . كان العرب فى سيرتهم نماذج تحتذى وفى حضارتهم أفقاً عريضاً مليئاً بالنور والروحانية والثقافة والسماحة . كان العرب شيئاً مذكوراً فى دنيا الناس لأنهم قاموا بالقرآن وساروا على هديه والتزموا وحيه !! .

فماذا كسب العرب لما تركوا الإسلام ؟! .

إن العرب من غير إسلام كقصب السكر من غير سكر ، إن العرب من غير إسلام صفر لا وزن لهم فى حضارة ولا قدرة لهم على كسب معركة ، إن العرب من غير إسلام ليسوا شيئاً فى تاريخ الحضارات ولا فى تاريخ الأمم .

لقد زود الله هذه الأمة بمال ممدود وجاه عريض وبسط رقعتها بين المحيطين ، فأحشاء العالم كله بين أصابعها ، ولكن العرب هينون على الله وعلى الناس لأنهم ما يريدون أن يستمسكوا بدينهم وأن يجعلوا حماسهم له .

إن العرب ــ لو رشدوا ــ دماغُ الإسلام وقلبه ، وقد امتن الله عليهم بهذه الحقيقة . قلت يوماً وأنا أقرأ في سورة البقرة . ﴿ **ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون * كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم** ﴾ [البقرة : ١٥٠ ، ١٥١] .

قلت : ما تمام النعمة وما حقيقة الهداية هنا ؟ .

واستبان لي المعنى ، إن الله يقول للعرب : إنه شرف ضخم أن تتجه القارات كلها من مشرقها إلى مغربها إلى هذه الكعبة المشرفة الجاثمة فوق صدر الجزيرة العربية ، أي شرف هذا ؟ لكن هذا الشرف الذى ذكر القرآن به تبعته آية أخرى ذكرت فيها مبيناً ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم** ﴾ قلت لنفسي : ﴿ كما ﴾ هذه ما موقعها هنا ؟ التشبيه هنا ما معناه ؟ ثم تبين لي المعنى ، إن الله يقول للعرب : كما شرفتكم فجعلت القبلة في أرضكم سبق أن شرفتكم بجعل النبوة الأخيرة فيكم ، بجعل الرسالة الخاتمة منكم !! .

ثم دخل العرب التاريخ لا من باب واحد ولكن من أبواب متفرقة ، ثم تبدأ خطاهم تتنكب النهج السوى ، وتبدأ عيونهم تشخص إلى يمين ، وإلى يسار ، إنهم ما أحسنوا الانتفاع بتراثهم ولا الاعتداد بنبوتهم ، وبذلك عرض لهم من الهزائم والآلام ما جعلهم مَضْرِب الأمثال !! .

أيها الشباب : اعلموا أن شرفنا بالإسلام ، وأن انتصارنا بتعاليمه ، وأن استعادة ما افتقدنا إنما هو بالوقوف عند حدوده والانطلاق مع غاياته وأهدافه .

أحب أن أقول للشباب : تشبثوا بالعقائد التى شرفكم الله بها ،

استمسكوا بأصول الإسلام التى آلت إليكم بعد جهاد مُرٍّ مع قوى الشر .. لقد ورَّثنا الأجيال القديمة هذا الدين القيم ويجب أن يبقى فى أيدينا وأن نورثه غيرنا وأن ننشىء عليه أجيالاً أخرى ربما كانت أصدق منا يقيناً وأعمق إيماناً وأجدى إلى تحقيق النصر وأقرب إلى بلوغ الفوز العظيم !!

أحب أن أقول للشباب : عليكم أن تُشعروا أعداءكم بأنكم طلاب آخرة لا طلاب دنيا ، عليكم أن تشعروا أعداءكم بأننا لا نطلب حكماً لنرتع فيه ، ولا نشتغل بسياسة لنكسب منها ، إننا خدم للقيم ولِشُعَبِ الإيمان ، فمن استمسك بهذه القيم وأحيا هذه الشُعب فنحن من ورائه نخدمه ونؤثر أن نكون جنوداً مجهولين لا نبتغى مالًا ولا جاهاً لأن الله علمنا فى كتابه أن الدار الآخرة ليست لطلاب المال والجاه ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين** ﴾ [القصص : ٨٣] .

أيها الشباب : إن القاهرة كانت عاصمة الإسلام ، ولا تزال عاصمة الإسلام ، وستبقى بعون الله إلى آخر الدهر عاصمة الإسلام تصدر الثقافة الصحيحة وتنشىء الأجيال المضحية ، وعلى مناكب الشباب الجَلْدِ النقى الطهور ومن هؤلاء الإخوة الذين حموا الإسلام فى قرون مضت سوف يكسب الإسلام معارك أخرى إن شاء الله فى أيام مقبلة .

إننا لن ننسى أبداً أن قوى الشر تتربص الدوائر بالإسلام وتظن أنها ربما نالت منه لبأساء أو ضراء نزلت بأهله ، ولكن هيهات هيهات مهما طال المدى فإلى الحق المصير .

اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

﴿ **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلًا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾ [الحشر : ١٠]

نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ "يس"

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص
فى سنة ١٩٧٣ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

فسنتدبر الآن سورة من سور القرآن الكريم ، نشرحها على طريقتنا فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم ، هذه الطريقة التى نرسم بها صورة مجملة للسورة تبين ملامحها وتستكشف الخيوط التى تشد أولها إلى آخرها وآخرها إلى أولها ، وتبين لنا المحور الذى تدور عليه السورة كلها .

والذى نبدأ تدبره هذه الساعة ـ مستعينين الله جل جلاله ـ سورة يس ، وهى سورة تستغرق نحو خمس صفحات فى المصحف ، وهى تتكون ـ بعد دراسة عميقة لها ـ من مقدمة تتناول الرسالة وصاحبها ، وثلاثة فصول تستوعب الأدلة على صدق هذه الرسالة .

أما المقدمة فقد بدأت بقسم : ﴿ **يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم** ﴾ [يس : ١ – ٥] .

وهناك علاقة بين المقسم به والمقسم عليه ، فالقسم هنا قسم بقوة الدليل على صدق القضية ، قسم بوضوح الحجة على وجاهة صاحبها الذى جاء بها ، قسم بما فى القرآن على أن الذى تنزل عليه القرآن مرسل حقاً من عند الله جل شأنه .

هذه العلاقة مطردة فى كثير من أقسام القرآن يراها من يراها وتغيب عمن تغيب عنهم .

عندما فسر الشيخ محمد عبده رحمه الله سورة الضحى – وكانت السورة قد نزلت بعد فتور الوحى وانقطاعه أمداً طال أو قصر – قال : اختار الله القسم بهذين الوقتين ﴿ **والضحى والليل إذا سجى** ﴾ إشارة إلى أن وقت الضحى وقت تألق النور فهو يشبه ساعات الوحى ، وأن وقت الظلمة بالليل وقت وحشة وسكون فهو يشبه انقطاع الوحى !! .

وترى ذلك أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ **والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى** ﴾ فإذا كانت السورة تتحدث عن معراج النبى ﷺ إلى ربه فإن هبوطه بعد استغراقه فى التجلى الإلهى يشبه عودة الكوكب المنطلق إلى مكانه فى الأرض مرة أخرى !! .

قال تعالى : ﴿ **يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم** ﴾ .

إن ما فى القرآن من حكمة وما فيه من استقامة دليل على أن صاحبه ليس كاذباً ، إنه مرسل من لدن العلى القدير ليأخذ بنواصى الناس إلى الحق ، وليصفَّ أقدامهم على الطريق القويم ، وليجعل منهم ناساً أهدى طريقاً ، وأقوم قيلًا ، وأشرف غاية ، وأهدى سبيلًا ، وتنزُّل القرآن من الله جل شأنه الموصوف بالعزة والرحمة لتتضح هذه المعانى على الأمة التى تحمل الرسالة على الرسالة نفسها ، كأن الرسالة من لدن العزيز الرحيم تقدم للبشر

ما يحتاجون إليه من كرامة وعزة ، وتقدم أيضاً هم ما يفتقرون إليه من رحمة وسكينة .

وذاك ما يسَّره الله للعرب ، وكانت العرب يومئذ أمة ما ورثت عن آبائها إلا الجاهلية الطامسة ، وما أخذت عن آبائها إلا الحيرة والوثنية **﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون * لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾** [يس : ٦ ، ٧] . والناس أمام دعوات الإصلاح ورسالات الحق فريقان : بعضهم مَرِن يُخْبِس أن يتدبر ما يعرض عليه وأن يستبين وجه الصواب فيه وأن ينخلع من تقاليده التي كبلته ليذهب مع الدين الجديد حيث يذهب به .

وهناك ناس آخرون يعيشون فى عالم من السدود والقيود كأنهم رُمى بهم فى سجن ضيق فأبصارهم مهما تحركت لا تعدو لسدود التى حولهم من يمين ويسار ومن فوق ومن تحت : **﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً فهى إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون * وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾** [يس : ٨ ـ ١١] .

ولقد تضمنت السورة بعد هذه المقدمة ثلاثة فصول تعرض الدلائل التى تشرح الصدور ، والبراهين التى تقيم العوج وترتفع بالنفس الإنسانية إلى مستوى اليقين العاقل والإيمان الواعى :

أما الفصل الأول فدليل تاريخى يعرض موقف الأنبياء وموقف الناس من دعواتهم .

وأما الفصل الثانى فدليل عقلى يحرك الفكر الخامد وينظم له المقدمات التى يعرف بها ربه .

وأما الفصل الثالث فدليل تربوى يعتمد على الآخرة وأنها حق وأن ما يعقبها من ثواب أو عقاب ينبغى أن يلتفت الناس إليه حتى لا تستبد بهم خرافة طائشة أو مقالة ضالة .

الدليل الأول : دليل يتصل بالماضى قريبه وبعيده .

الدليل الثانى : دليل يتصل بالحاضر المعاصر الذى نعيش فيه .

الدليل الثالث : دليل يتصل بمستقبل الإنسانية وما أعده الله للأخيار والأشرار جميعاً .

وبذلك تكون السورة ـــ فى فصولها الثلاثة بعد المقدمة ـــ قد تعرضت للزمن كله : ما مضى وما ينتظر وما نعيش فيه .

بدأ الدليل الأول بقوله تعالى : ﴿ **واضرب لهم مثلًا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ٭ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون ٭ قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون** ﴾ [يس : ١٣ ـــ ١٥] .

أساس القصة يعطى شيئاً من الحقائق التى نحتاج إليها فإن الرسالة التى انفردت بالعموم زماناً ومكاناً هى رسالة محمد ﷺ ، أما الرسالات التى سبقته فهى رسالات محلية موضعية ، يرسل النبى من الأنبياء إلى قرية بل يرسل عدد من الأنبياء إلى قرية واحدة كما فى هذه السورة ، إذ نجد اثنين من الدعاة إلى الله بُعث بهما معاً إلى قرية واحدة ، فلما كُذِّبَا قال الله : ﴿ **فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون** ﴾ فكان جواب أهل القرية : لستم مرسلين ، أنتم ناس لا تزيدون علينا ولا تنقصون ، لا صلة لكم بالسماء ، ما تقولونه دعوى مرفوضة : ﴿ **ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون** ﴾ كان رد المرسلين على هذا التحدى أو هذا التصدى ﴿ **قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ٭ وما علينا إلا البلاغ المبين** ﴾ [١٥ ـــ ١٧] .

وظيفة الرسل . التعليم ـــ تعليم الجاهل . وظيفة الرسل : التبليغ ـــ تبليغ الذاهل . وظيفة الرسل : تغيير النفس الإنسانية تغييراً يجعلها تعرف الحق وكانت تجهله ، تعرف الله معرفة صحيحة وكانت إما عاجزة عن هذه المعرفة وإما تعرفه معرفة فيها خطأ وصواب .

لكن كثيراً من الناس خصوصاً خدم الباطل المنتفعين من الأوضاع

الجائرة المرتزقين من المظالم القائمة ، هؤلاء لا يدعون كلمة الحق تمضي إلى آذان المستمعين لأنهم يخشون أن يصحو النيام وأن يعتدل المنحرفون ، ولو كان أهل الباطل يطمئنون إلى ما عندهم لتركوا أهل الحق يقولون ما لديهم ولكنهم ما يطمئنون إلى ما عندهم ولذلك سرعان ما قالوا لأهل الحق : ﴿ **إنا تطيرنا بكم** ﴾ تشاءمنا منكم : ﴿ **لئن لم تنتهوا** ﴾ عن البلاغ ﴿ **لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم** ﴾ كان جواب المرسلين : ﴿ **طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون** ﴾ [يس : ١٨ ، ١٩]

ويعرض القرآن الكريم هنا مثلاً لجندي مجهول ، لم يذكر القرآن اسمه لأنه يريد أن يستبقي هذا الاسم عند الله حتى يكون نموذجاً للناس الذين يحبون أن يعملوا بعيداً عن الضوء زاهدين في الشهرة راغبين عن الهتاف وعن التفاف الجماهير .

رجل مجهول الاسم ولكنه عند الله معروف المكانة رفيع الدرجة . رجل مجهول الاسم ولكنه في حماسه للحق وفي إيمانه بالدين وفي تأييده للمرسلين تحرك من أقصى المدينة لينصر الرسالة التي شعر بأن الحق فحواها وأن الهدى معناها : ﴿ **وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسئلكم أجراً وهم مهتدون** ﴾ هؤلاء ناس ما يطلبون من أحداً ثمناً على موعظة تلقى أو نصيحة تؤدى أو حق يعلم ثم يتحدث عن نفسه فيقول : ﴿ **ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون * أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون * إني إذاً لفي ضلال مبين * إني آمنت بربكم فاسمعون** ﴾ [يس : ٢٠ – ٢٥] .

هذا حوار أداره الرجل بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس واستحياه القرآن ليسمعه أهل مكة قديماً ولتسمعه البشرية على امتدادها مع تاريخ الحياة فوق هذه الأرض حتى يكون للتوحيد أساسه الحقيقي .

ما الذي يربطني بغير الله – كما يقول الإمام زين العابدين – إنها لمأساة أن يدعو فقير فقيراً وأن يتعلق محتاج بمحتاج .

أنت فقير تعلق بالغنى ، أنت محتاج تعلق بمن لا يحتاج إلى أحد ويحتاج إليه كل أحد ، هذا المعنى هو الذى أودعه النبى ﷺ فى حديثه الصحيح :

« **اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد** » (١) .

إذاً فلتسقط الآلهة كلها وليبق على عرش القلوب المؤمنة الإيمان برب العالمين وحده ، ما تتجه إلا إليه ولا تعبد إلا إياه ، هكذا تعلم الناس من هذا الدليل : ﴿ **إنى آمنت بربكم فاسمعون** ﴾ .

قيل فى روايات التاريخ : إن أهل القرية قتلوا الرجل ورفضوا ما عنده وبداهة كانت المسافة بينه وبين الجنة مسافة الانتقال من الحياة إلى الموت ، فى لحظة واحدة ينتقل إنسان من شارع ما فى شوارع القاهرة ، من حارة ما فى إحدى القرى ، من مساحة ما فى إحدى الميادين ينتقل من دنيا مغبرة إلى جنة عرضها السموات والأرض يمرح فيها ويستريح : ﴿ **قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومى يعلمون ﴿٢٦﴾ بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين** ﴾ [يس : ٢٦ ، ٢٧] .

هل احتاج القتلة إلى جيش يؤلف وتعبأ قواه لينتقم منهم ؟ .

لا ، هم أهون على الله من هذا : ﴿ **وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين ﴿٢٨﴾ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴿٢٩﴾ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴿٣٠﴾ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴿٣١﴾ وإن كل لما جميع لدينا محضرون** ﴾ [يس : ٢٨ ـ ٣٢] .

هذا هو الفصل الأول من السورة وهو مع المقدمة يستغرق نحو صفحتين وتبقى من السورة ثلاث صفحات تضمنت فصلين آخرين :

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم فى الصلاة باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع ٤٧/٢ .

الفصل الأوسط حديث معاصر ترك الماضي هم يتحدث عنه وهم يتحدث أيضاً عن المستقبل ، إنما قال للناس : ألا يفكر أحدكم في الأكل الذي يتناوله ، كيف نبت ؟ ومن الذي صنعه له ؟ إن الرغيف يقع في يديك فتمزقه كي تلتهمه ، أفكرت كيف كان هذا الرغيف حبوباً في سنابل القمح أو حبوباً في كيزان الذرة أو حبوباً في سنابل الأرز ؟ هل فكرت كيف انشق الوحل والطين عن الورود والرياحين ؟ هل فكرت كيف تحولت التربة الهامدة إلى أشجار شامخة ونخيل باسقة وثمار تتدلى ؟ .

قال تعالى : ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ۝ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ۝ ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون** ﴾ [يس : ٣٣ — ٣٥] .

ثم إن ولداً لا يتكون في بطن أمه إلا من ازدواج ، وإن ثمرة لا تتكون إلا من ازدواج بل إن الذَّرَّة تتكون من عناصر مزدوجة ، وليس هناك من تفرد في كيانه وتوحد في ذاته إلا رب العالمين : ﴿ **سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾ [يس : ٣٦] .

هذه آية ، وآية أخرى .

﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ۝ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ۝ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ۝ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون** ﴾ [يس : ٣٧ — ٤٠] إن أي سياحة مع علماء الفلك تجعل الإنسان يتساءل في مكانه ويشعر بحقارته على ظهر هذه الأرض بل يشعر بحقارة الأرض كلها إذا قيست الأكوان بأحجامها .

إن أي دارس لعلم الفلك يعلم أن الأرض والمجموعة الشمسية كلها شيء ضئيل في كون كبير وأن الأرض لو تبددت في الفضاء وتلاشت فلم

يبق عليها كافر ولا مؤمن ما نقص الملكوت الإلهى شيئاً طائلًا :
« يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » (١)

وآية ثالثة :

﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون * وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون * إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين ﴾ [يس : ٤١ ـ ٤٤] .

الذى يقرأ السورة يجد أن الدليل العقلى امتد وتسلل إلى الدليل الثالث والأخير وهو الدليل الذى يسوقه القرآن الكريم ويكثر من عرض مشاهده لأمر واحد هو :

نحن البشر غارقون فى مطالبنا ومآربنا فقلما نتقصى منها ونتخلص من قيودها كى نعيش فى عالم الحق لحظات ترتفع بنا ونعتز بها ، ولذلك يلح القرآن الكريم على البشر بوصف الجنة حتى لا يزهدوا فيها وبوصف النار حتى لا يتجرأوا عليها ، ويلح القرآن الكريم عليهم بمشاهد البعث والجزاء ويبين أن ذلك سوف يقع لهم وهم منغمسون فى تجاراتهم أو فى صناعاتهم أو فى أحوالهم المعاشية . التاجران يبسطان الثوب بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه وتقوم الساعة . **﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون * فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون * ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾** [يس : ٤٨ ـ ٥١] .

* * *

---

(١) رواه مسلم فى البر ـ باب تحريم الظلم ١٦/٨ .

وختمت السورة بهذا الدليل على البعث وصدقه :

﴿ **وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم** ﴾ [يس : ٧٨ ، ٧٩] .

تستطيع إن كنت حافظاً لقرآن أن تغمض عينيك ثم تتأمل علام تدور سورة يس ، تستطيع إذا كنت غير حافظ للقرآن أن تعود إلى مصحفك ثم تقرأ سورة يس وقد عرفت كيف أن أولها تمهيد لآخرها وكيف أن آخرها تصديق لأولها وكيف أن هناك خيوطاً خفية تشد معانى السورة وتبين حقائقها ، وبذلك نحسن فهم القرآن ونحسن تدبره والانتفاع به .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ۝ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً خاتم النبيين وإمام المرسلين .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

فالقرآن كنز مشحون بهدايات مليء بالخيرات ، القرآن أوجد من العدم أمة كبيرة ، وقد ثبت أنه يستحيل أن تقوم نهضة تشق طريقها فى الحياة وترحف نحو مستقبلها البعيد وهى راسخة وقوية ومتماثلة وناجحة إلا إذا كان لها مهاد معنوى يُمدها بالقوة والأمل ، وقد كان القرآن الكريم أساس انطلاق العرب من جزيرتهم التى عاشوا فيها زمناً كما وصف القرآن فى هذه السورة . ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ۝ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ [يس : ٦ ، ٧] .

لكن هذا القرآن حوَّل الغفلة إلى يقظة ، حوَّل الجمود إلى حركة ، حوَّل الموت الأدبى إلى حياة !! .

هذا ما يصنعه القرآن ، لكن كيف يصنع القرآن هذا ؟ بآيات تعلق على الجدران ؟ بقراء يُستجلبون فى سرادقات الموتى ؟ .

لا ، تقول سورة يس : ﴿ لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾ [يس : ٧٠] .

على المسلمين أن يُنشئوا علاقة جديدة بالقرآن .. وأن يؤسسوا صلات

ذكية مهذا الكتاب حتى يستطيعوا أن يحيو وأن يؤدوا واجبهم وأن يعودو سيرتهم الأولى رجالا كباراً وشعوباً محترمة .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠]

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠]

أقم الصــلاة

* * *

نظرات في سورة الزمر (١)

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

في ١٩٧٣/٦/٢٩ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداه ، والنعمة المسداه ، والسراج المنير .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعــد :

فبعون الله نلقى نظرات فى سورة الزمر ، والزمر جمع زمرة وهى الجماعة .. والقارىء العادى لسورة الزمر يرى أن اسمها ربما أخذ من آخر ما ورد فى السورة من تقسيم الناس إلى قسمين

قسم يذهب إلى جهنم : ﴿ **وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً** ﴾ [الزمر : ٧١] وقسم يذهب إلى الجنة : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً** ﴾ [الزمر : ٧٣] إلا أن القارىء المتدبر الذى يمعن النظر فى السورة الكريمة يرى أن اختلاف الناس زمراً وانقسامهم جماعات والمقارنة بين مبدأ كل جماعة وطريقها ونهايتها وبين الجماعات الأخرى المقابلة لها يرى أن هذا التقابل موجود فى السورة كلها .

قال تعالى : ﴿ **فمن أظلم ممن كذب على الله وكذَّب بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين ، والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون** ﴾ [الزمر : ٣٢ ، ٣٣] .

وقال تعالى ﴿ **ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين * وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون** ﴾ [الزمر : ٦٠ ، ٦١] .

فهذه آيات ــ فى السورة ــ ذكرت حال الحزبين أو الفريقين أو الزمرتين وقد تكرر ــ فى السورة ــ أمر المقابلة بين العمى والبصر ، وبين الحق والباطل ، وبين الشرك والإيمان ، وسنقف ــ إن شاء الله ــ أمام هذه المقابلات وقفات متأنية نتدبر ما أودع الله فيها من عبرة وما بث فى ثناياها من حكمة ورحمة .

إلا أننا نريد ــ الآن ــ أن نعرف المحور الذى دارت عليه السورة كلها قبل أن نستعرض بتفصيل هذه المقابلات وما يعقبها من شروح .. هذه السورة تقوم على : تصحيح المعتقد وتنقية الإيمان من الشوائب التى علقت به وإخلاص التوحيد لله ..

قامت السورة كلها على هذا المعنى ، وهى فى وفائها بحقه ودورانها حوله ومجادلتها أصحاب الأوهام والنقائص والخرافات دونه ، هى تشبه جزء من القرآن الكريم الذى أنزله الله بحق الحق ويبطل الباطل فى شئون الناس جميعها .

القرآن الكريم كتاب إذا قورن بغيره ــ فرضاً ــ وجدناه أغمر الكتب بالأدلة التى تنافح عن وجود الله وكماله ، وأحرّ الكتب أسلوباً فى دفع الناس إلى حب الله واليقين فيه والاعتماد عليه

القرآن الكريم كتاب الحقائق مصفاة منقاة لا شائبة فيها ، ولو أن أى إنسان رزق الحياد المطلق ثم قيل له اقرأ هذا الكتاب فإنه يتحدث عن رب العالمين واقرأ غيره إن شئت وقارن . فإنه عندما يقرأ القرآن الكريم سيجد حديثاً عن الله مفصلاً معقولاً . ويجد براهين مستخلصة من مقدمات يقينية ، ويجد أن منهج [illegible] فى إثبات العقائد وفى غرسها وتجميع الناس عليها وفى مناقشة [illegible] بعد ما شرح يجد أن القرآن الكريم فى هذا كله يبلغ مدى مستحيلاً [illegible] غيره

° ° °

وهذا هو السر في أن الآية الأولى من هذه السورة نزلت تقرر هذه الحقيقة :

﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ [الزمر : ١ ، ٢] .

لابد من استعراض لأحوال الناس في علاقاتهم بالله ، وقد استعرضت الآيات هنا هذه الأحوال :

﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين * ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون * إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار * لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ [الزمر : ٢ — ٤] .

* هناك ناس لا يؤمنون بألوهية ، يرون الكون مقطوعاً مبتوراً ليس له صاحب ولا مدبر ولا موجد ، كان الإلحاد بهذا الوصف مرضاً يصيب بعض الأفراد قديماً ، ولكنه الآن أصبح مرضاً شائعاً قامت باسمه دول عظيمة — كما توصف — لها قوى ضخمة في البر والبحر والجو .

* وهناك — في أمريكا وغرب أوربا — ناس لا دين لهم ، يؤمنون بالمادة وحدها ، ويعيشون لأهوائهم فوق هذا التراب ، وأكثرهم ينكر الألوهية ويعملها ويبعدها من طريقه ، فهو يرسم خطته في الحياة وفق دماغه .

* وهناك من يؤمن بألوهية ، لكن هذه الألوهية قد تكون نتاج عمل عقلي ناقص ، وذلك كإيمان بعض الفلاسفة الإلهيين مثل « أرسطو » ، فهو يتصور الإله الذى خلق السموات والأرض مستغرقاً في تفكير ذاتي مشغولاً بنفسه وآفاقه عما عداه ، فهؤلاء لا يدرون شيئاً مما يقع في الأرض ولا يعرفون ما هنالك .

* وهناك نوع من التدين الأرضي والسماوي فمثلاً اليهود يرون أن الله

الذى خلقهم خلق العالم من أجلهم أو خلقهم فى العالم ليحتكروه ويكونوا سادته (١) !! .

ومن تبجحهم أنهم أثبتوا فى العهد القديم أن أباهم يعقوب أخذ لقب إسرائيل بعد أن صارع الله طول الليل وكاد يغلبه ، وإنما أنقذ الإله نفسه بأن أعطاه لقب إسرائيل (٢) !! .

* وهناك من انتزع من ذات الله جزءاً ، وزعم أن هذا الجزء ولد لله ، واعتبر هذا الولد حيناً إلهاً وحيناً آخر ابن إله أو شبه إله أو ما إلى ذلك مما حيَّر الأفهام واستحال أن يوجد له تفسير واضح معروف !! .

* وهناك مشركو العرب الذين كانوا يعلمون أن الله موجود وأنه حق ولكنهم يقولون.إن الاتصال بهذا الإله مباشرة شيء صعب ، وهناك أولاد لله يمكن الاتصال بهم فيقربوننا منه ويكونون شفعاء لنا عنده !! .

أما الإسلام فقد جاء بعد هذه الأوهام الكثيرة ، والمزاعم المختلفة وقال : إن الله واحد لا شريك له ، وقال : إن ما عدا الله من أشخاص أو أشياء عبيد له ليس لهم مع الله شيء وأفضلهم قدراً وأكثرهم أجراً هو أشدهم إخلاصاً لله وتعبداً له واستغراقاً فى طاعته وابتعاداً عن مخالفته .

بيّن الإسلام أن قصة أن لله ولداً قصة سخيفة : ﴿ **لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار** ﴾ [الزمر : ٤] .

ليس لله ولد ، ما عدا الله عبد له ، خلقه من عدم ودبّر أمره وأفقره إلى ذاته أبد الآبدين ، فما يستغنى بذاته عبد أبداً وإن كان نبياً أو ملكاً ،

---

(١) فى سفر التثنية الإصحاح الرابع عشر : « أنتم أولاد للرب إلهكم ، لا تخمشوا أجسامكم ولا تجعلوا قرعة بين عيونكم لأجل ميت . لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكى يكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض »

(٢) راجع سفر التكوين الإصحاح [illegible] ، [illegible]

من العرش إلى الفرش كل شيء عانٍ وجهه لله ، ذليل في ساحته ، مقهور له ، مغلوب على أمره لأنه عبد ، ولو كان الله يريد أن يكرم أحداً لكرم من شاء لكن ولادة وبنوة لا .

على هذا النحو بدأت سورة الزمر :

﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار ، لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ [الزمر : ٢ ــ ٤] .

ولما كان المسلمون الآن قد تجرى بينهم بعض الخلافات في دعاء الله فإني أحببت أن أذكر كلام العلماء في معنى التوسل ، قال العلماء ، تذكر كلمة الوسيلة وتقصد بها معانٍ خمسة :

أما المعنى الأول : فهو التوسل إلى الله بذاته وصفته وأسمائه الحسنى . وهذا النوع من التوسل لاشك في قبوله وصحته ، ومنه هذا الدعاء : **« اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »** [1]

ومنه هذا الدعاء أيضاً **« اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو**

---

(١) عن بريدة الأسلمي عن أبيه قال « سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو وهو يقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد قال فقال : والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى » [illegible] في الدعوات [illegible] ﷺ [illegible] [illegible] ٣٤٧٥ وأبو داود في [illegible] ٥٢ [illegible] في الدعاء ــ باب اسم الله الأعظم ٢ / ١٢٦٧ (٣٨٥٧) وأحمد [illegible] وابن حبان وصححه (٢٣٨٣) والحاكم وصححه ١ / ٥٠٤ ووافقه الذهبي .

استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى » (١) .

أما المعنى الثانى : فهو التوسل إلى الله بالعمل الصالح ، وهذا النوع من التوسل مقبول يقيناً ، وهو مفهوم من قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون** ﴾ [المائدة : ٣٥] فإن الوسيلة هنا تعنى العمل الصالح . وقد جاء فى السنة الصحيحة أن ثلاثة آواهم الغار وانسد عليهم وهم فى داخله فلم يروا إلا أن يتوسل كل منهم إلى الله بأفضل ما قدم من عمل . وفعلاً توسل الأول ببره بوالديه ، وتوسل الثانى بعفافه ، وتوسل الثالث بعدله ، فكشف الله عنهم وخرجوا يمشون (٢) .

---

(١) رواه أحمد ٣٩١/١ ، ٤٥٢ وابن حبان وصححه (٢٣٧٢) وقال فى المجمع (١٨٦/١٠ ، ١٨٧) : رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى والبزار إلا أنه قال : وذهاب غمى مكان همى ، ورجال أحمد وأبى يعلى رجال الصحيح غير أبى سلمة الجهنى وقد وثقه ابن حبان .

(٢) عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : « خرج ثلاثة يمشون ، فأصابهم المطر ، فدخلوا فى غار فى جبل ، فانحطت عليهم صخرة ، قال : فقال بعضهم لبعض : ادعوا الله بأفضل عمل عملتموه ، فقال أحدهم : اللهم إنى كان لى أبوان شيخان كبيران ، فكنت أخرج فأرعى ، ثم أجىء فأحلب فأجىء بالحلاب فآتى به أبوى فيشربان ثم أسقى الصبية وأهلى وامرأتى ، فاحتبست ليلة ، فجئت فإذا هما نائمان ، قال : فكرهت أن أوقظهما ، والصبية يتضاغون عند رجلى ، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهما حتى طلع الفجر ، اللهم إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة نرى منها السماء ، قال : ففرج عنهم . وقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنى كنت أحب امرأة من بنات عمى كأشد ما يحب الرجل النساء ، فقالت : لا تنال ذلك منها حتى تعطيها مائة دينار ، فسعيت فيها حتى جمعتها ، فلما قعدت بين رجليها قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فقمت وتركتها ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة ، قال : ففرج عنهم الثلثين . وقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنى استأجرت أجيراً بفرق من ذرة فأعطيته ، وأبى ذاك أن يأخذه فعمدت إلى ذلك الفرق فزرعته حتى اشتريت منه بقراً وراعيها ، ثم جاء فقال : يا عبد الله أعطنى حقى ، فقلت : انطلق إلى تلك البقر وراعيها فإنها لك ، فقال : أتستهزئ بى ؟ قال فقلت : ما أستهزئ بك ولكنها لك . اللهم [illegible] تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ، فكشف عنهم » [illegible] البخارى فى البيوع [illegible] [illegible] شبيه بغير إذنه فرضى ٣ ٤ [illegible] ومسلم فى الذكر [illegible] قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال ٨ ، ٩ ، ٩

أما المعنى الثالث : فهو التوسل إلى الله بدعاء الصالحين ، وهو أن تقول لمن شئت أو يقول لك من شاء : ادع الله لى ، وهذا النوع من التوسل لا خلاف بين العلماء فى صحته وقبوله ، ونحن جمهور المسلمين ندعو الله لنبينا عليه الصلاة والسلام (١) ولمن سبقنا من المؤمنين (٢) ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : (أنه استأذن النبى ﷺ فى العمرة فقال : أى أخى أشركنا فى دعائك ولا تنسنا (٣) ، وقد كان المسلمون عندما يقع لهم شيء من الضيق يطلبون من النبى ﷺ أن يدعو الله لهم ، وحدث - كما يقول أنس بن مالك أن « أصابت الناس سنة على عهد النبى ﷺ فبينا النبى ﷺ يخطب فى يوم جمعة قام أعرابى فقال : يا رسول الله هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا ، فرفع يديه وما نرى فى السماء قَزَعَةً ، فو الذى نفسى بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ﷺ فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد وبعد الغد والذى يليه حتى الجمعة الأخرى ، فقام ذلك الأعرابى أو قال غيره فقال : يا رسول الله تهدّم البناء ، وغرق المال فادع الله لنا ، فرفع يديه فقال : « **اللهم حوالينا ولا علينا** » فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت وصارت المدينة مثل الجَوْبَة

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبى ﷺ يقول

« إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىّ فإنه من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً ثم سلوا لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لى الوسيلة حلّت له الشفاعة » رواه مسلم فى الصلاة - باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلى على النبى ﷺ ثم يسأل له الوسيلة ٤/٢ .

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال « من قال حين يسمع النداء : اللهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته ، حلّت له شفاعتى يوم القيامة » رواه البخارى فى الأذان - باب الدعاء عند النداء ١٥٩/١

(٢) قال تعالى : ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾ [الحشر ١٠]

(٣) رواه الترمذى فى الدعوات - باب (١) وقال : هذا حديث حسن صحيح ١٠٧ وأبو داود فى الوتر - باب الدعاء ٣٦٥/٤ وابن ماجه فى المناسك - باب فضل دعاء الحاج ٩٦٦/٢ وأحمد ٢٩/١ ، ٥٩/٢ وقال فى ضعيف الجامع ٦٢٩٢ ، ١٥٩ : ضعيف

وسال الوادى قناة شهراً ، ولم يجيء أحد من ناحية إلا حدَّث بالجَوْد [1] .

وعن أنس « أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبدالمطلب فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فسقنا . قال : فيسقون » [2] .

أما النوع الرابع : فهو التوسل إلى الله تعالى بحق أو بجاه محمد ﷺ وهو ممنوع عند جمهور العلماء لأنه لم يقع من الصحابة رضى الله عنهم فى الاستسقاء ونحوه لا فى حال حياة النبى ﷺ ولا بعد موته ولم يثبت فى دعاء من الأدعية الصحيحة . والدعاء عبادة أساسها التوقيف .

وقال الذين قبلوا هذا اللون من التوسل بل وُجد فى السنة « أن رجلاً ضرير البصر أتى النبى ﷺ فقال : ادع الله أن يعافيني ، قال : « إن شئت دعوتُ وإن شئت صبرت فهو خير لك » ، قال . فادعه ، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى لى ، اللهم فشفعه فىّ » [3] وهذا الحديث وإن كان ضعيفاً إلا أنه روى من نحو أربعة عشر طريقاً .

أما النوع الخامس : فهو دعاء غير الله ، وقد اتفق العلماء على رفضه لأن الدعاء عبادة ، والعبادة لا تكون إلا لله

---

(1) رواه البخارى فى الجمعة ـ باب الاستسقاء فى خطبة يوم الجمعة ١٥/٢ ومسلم فى صلاة الاستسقاء ـ باب الدعاء فى الاستسقاء ٢٥/٣ و « قناة » اسم لواد معين من أودية المدينة .

(2) رواه البخارى فى الاستسقاء ـ باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا ٣٤/٢

(3) رواه الترمذى فى الدعوات باب ٦ أحاديث شتى من باب الدعوات وقال هذا حديث حسن صحيح غريب ٢٢/١٠ والنسائى وابن ماجة فى إقامة الصلاة ـ باب ما جاء فى صلاة الحاجة ٤٤١/١ وأحمد ١٣٨/٤ ورواه أيضاً ابن خزيمة فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين

على هذا النحو يمكن أن ندرك الحقائق فى عقيدة التوحيد عندما نقرأ قوله تعالى : ﴿ **ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار** ﴾ [الزمر : ٣ ، ٤]

والكاذب الكفار – هنا – من افترى على الله ما لم يقله ، أو من افترى على الله آلهة ليست معه ، فكل كذب على الله يعتبر صاحبه محروماً من توفيق الله ومن فضله .

بعد أن بينت السورة أن الله هو رب العالمين وأنه الخالق وأن ما عداه مخلوق وأن الأمر كله إليه وأن الحكم كله منه بعد أن بينت هذا حركت فى كل إنسان عقله الذى يفهم به ويخاطب به ويرتفع أو ينخفض به ، وقد لوحظ أن السورة ذكرت « أولى الألباب » ثلاث مرات فى خلال خمسة عشر سطراً منها .

قال تعالى : ﴿ **أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب** ﴾ [الزمر : ٩] .

وقال تعالى : ﴿ **فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب** ﴾ [الزمر : ١٧ ، ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب** ﴾ [الزمر : ٢١] .

هذا الإلحاح لأولى الألباب يعنى أن الدين يوم يكون مناقضاً للعقل يجب على الدين أن يسقط ، هذا الكلام المتكرر عن أولى الألباب يعنى أن الإسلام عقد صلحاً بين العلم والدين ، إن العلم والدين فى نظر الإسلام كل منهما يكمل الآخر ويشرحه عن جانب من الحقيقة الكونية فى الأزل والأبد .

معنى هذا أن السورة التي قامت على إخلاص التوحيد أو على تصحيح العقيدة أرادت أن تقول للإنسان : إنك أيها الإنسان مخلوق لك ناحيتان :

ناحية مع الله ــ سلبية ــ تقف بين يديه خاضعاً تسمع منه ولا تقترح عليه ، تنتظر منه أن يوجهك هو بوحيه ، تطلب منه لأنك فقير وهو غنى ، لأنك ضعيف وهو قادر

هذه ناحية ، وناحية أخرى إيجابية ، فأنت عبد لله سيد للكون ، ملك فى العالم ، العناصر تحت يديك ، البر والبحر والجو من مملكتك ، كرمك الله فى هذا الملك الواسع وجعلك سيد هذا الكون على أن تكون عبداً لرب الكون .

هذا المعنى هو ما قامت عليه سورة الزمر ، صححت العقيدة ، وبينت أن الله الفرد الصمد ليس له ند ولا ضد وعلمتنا إذا عبدناه ودعوناه أن نلجأ إليه وحده ولانلجأ إلى غيره ، وعلمتنا فى مجتمعنا أن نحل ما أحل وأن نحرم ما حرم وأن نحتكم إلى القوانين التى شرعها .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ۞ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى ٢٥ ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين . وأشهد أن محمداً خاتم النبين وإمام المرسلين . اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين . أما بعـــد :

عباد الله : أوصيكم ونفسى بتقوى الله عز وجل ، واعلموا أيها الناس أن الإسلام لا يزال ديناً مجهولاً فى العالم كله حيناً وبين أتباعه حيناً آخر .

أما فى العالم فقد قال لى أحد القادمين من أوربا إنهم عندما كانوا يسمعون منى احتراماً لعيسى يستغربون ويقولون : هل الإسلام يحترم عيسى ؟ .

إنهم لا يعلمون أن الإسلام يصف عيسى بأنه سيد وشريف ووجيه فى الدنيا والآخرة ، والسبب أن الأجهزة الصليبية الاستعمارية ناشطة فى الكذب على الإسلام ، وليتها وجهت نشاطها فى محاربة الانحلال والإلحاد الذى ملأ أوربا وأمريكا ، إنها تنسى هذا كله وتشمر عن ساعديها لضرب الإسلام وحده !! .

لكن المشكلة أن المسلمين أنفسهم لا يعرفون دينهم معرفة صحيحة ، وكثيرٌ ما يجىء بعض إخواننا هنا لكى نجعل بعض الخلافات الفرعية مجالاً للحديث على هذا المنبر ، وهذا مستحيل ، فلله المنة على العبد الذى يتكلم ، يبكم إننى أوتيت رشدى ، إننى لست مجنوناً حتى أتكلم فى خلافات فرعية أو فقهية أو أمور جزئية ممكن أن تحل برفع المستوى العلمى للمسلمين .

إن أعداء الإسلام تميزوا بالعلم الواسع فى الدنيا وبالبراعة الهائلة فى الإنتاج وبالقدرة على رسم الخطط ، ونظروا للمسلمين كما ينظر بعض

الملاسمة إلى جماعات من الصبية في الحارة ، فهو يعبث بهم أو يسخر منهم أو يغري بعضهم بالبعض الآخر أو يشغلهم بشيء من العبث يصرفهم عن مستقبلهم وعن حياتهم وعن عدهم القريب والبعيد !! .

نريد أن نعقل من نحن ؟ وما رسالتنا ؟ وأين نحن في دنيا الناس ؟ ومن أعداؤنا ؟ وما بيتوا لنا ؟ وما يمكن أن نتجاوز عنه من خلافات فرعية بيننا حتى نستطيع أن ننقذ أنفسنا ؟ .

إن الشيوعية العالمية والصليبية العالمية والصهيونية العالمية إن كل هذه القوى شحذت سكينها لتجهز على العرب والمسلمين ، فإذا لم يستيقظ العرب الآن فمتى يستيقظون ؟ بعد الذبح ؟ بعد الذبح لا يقظة إلا في جهنم وبئس القرار ؟! .

يجب أن نكون كما وصف الله المؤمنين القدامى ﴿ **أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾ [الفتح : ٢٩] فإن وصف المسلمين الآن أنهم رحماء بالكفار أشداء بينهم !! .

نريد أن نعرف من نحن ؟ . وما مستقبلنا ؟ .

فإن كل شيء ينحو على عجل لو أدنا والإجهاز علينا فإلى متى نبقى في غفلتنا ؟ .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم** ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ (٢)

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

في ١٩٧٣/٧/٦ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين أما بعد

فقد شرحنا في الجمعة الماضية صدر سورة الزمر ، ومع التفسير الموضوعي للقرآن الكريم نمضي في استكمال هذه السورة المباركة آملين أن يجعلنا الله ممن قال فيهم النبي ﷺ .

« خيركم من تعلم القرآن وعلمه » (١) .

إن سورة الزمر – كما أبنّا – تقوم على محور واضح هو إخلاص التوحيد لله ، ونفي النقص ، وإثبات الكمال لله في جميع الشئون .. والمؤمن يدرك من أعماق قلبه أن الله جل شأنه هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، ما من شيء إلا وهو خالقه ، وما من خير إلا وهو سائقه ، وما من ضوء إلا وهو مُشْرِقه ، وما من رزق إلا وهو رازقه ، وما من أمر إلا وهو مدبره ، والله سبحانه وتعالى يسبح كل شيء بحمده ، ويهتف بحمده ، ويعنو أمام وجهه ، ويشعر بالذل في ساحته ، وأكرم منزلة للإنسان أن يكون بين يدى ربه راكعاً أو ساجداً يقول سبحان ربي العظيم أو سبحان ربي الأعلى !!

---

(١) البخاري في فضائل القرآن – باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ٢٣٦/٦ .

وقد تضمنت سورة الزمر مقارنات بين الفريقين :

* الفريق الذى آمن ووحّد ونزّه وانتقل التوحيد فى حياته من التوحيد فى العقيدة إلى التوحيد فى العمل والسلوك فأصبح مؤمناً ظاهراً وباطناً .

* والفريق الذى اختلطت عليه الأمور وتوزعته الأهواء فى كل ناحية .

فى سورة الزمر سبع مقارنات بين الفريقين ، نريد أن نذكرها ثم نرى التعقيب القرآنى عليها ، وقبل أن نذكرها نريدتوجيه الأنظار إلى إشارة بلاغية فى هذه المقارنات ، فأحيانا يحكى القرآن المقارنة بين الطرفين فيثبت الطرفين معاً ، وأحياناً يذكر طرفاً ويسكت عن الطرف الآخر .

* المقارنة الأولى : ﴿ **أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب** ﴾ [الزمر : ٩] .

أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه كمن هو نائم ملء أجفانه لا تؤرقه فكرة ولا يزعجه عن الكسل والخمول والخنوع إيمان أو تهجد أو رغب فى طاعة الله ؟ أيستوى الكسول والنشيط ؟ .

أيستوى الخامل والناهض ؟ .

أيستوى من طهر فمه بتلاوة القرآن ومن أغلق فمه فلم يتل حرفاً ؟ والواقع أن المجتمع المتدين يفرقه عن المجتمع الملحد فارق ، فإن الإنسان ما قد يكون فى كيانه فضل نشاط وزيادة حركة فلا يكفيه النهار حتى يضم إليه الليل ، فإن كان المجتمع مؤمناً كان نشاطه الليلى أبيض ، يصرفه فى قيم الليل وأداء العبادات ومناجاة الله ، وأما إذا كان المجتمع منحلاً أوملحداً فإن نشاطه بالليل يخمرُ من الأعراض المذبوحة والحرمات المسفوكة والحدود المضيعة !! .

ولا تزال الفوارق قائمة ، فليالى المؤمنين بيضاء لأنهم يقوموها فى طاعة الله ، أما ليالى الفاسقين فحمراء لأنهم يذبحون الشرف فيها !! .

لا تزال الفوارق قائمة ، فليل المؤمن كما قال الله تعالى : ﴿ **أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه** ﴾ أو كما قال الشاعر :

فى ظلام الليل منفرداً قام يدعو الواحد الصمدا
عابد لم تبق طاعته منه لا روحاً ولا جسدا

المقارنة الثانية ﴿ **أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار** ﴾ [الزمر : ١٩] .

وهذه المقارنة كسابقتها حذف فيها طرف وأثبت فيها طرف ، و هنا أثبت الطرف الخسيس الذى حق عليه كلمة العذاب لأنه زاغ وضل ، والله جل شأنه يجعل إضلاله عقوبة لمن استحق فى تفكيره ولمن شرد فى مسلكه : ﴿ **إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار** ﴾ [الزمر : ٣] ، ﴿ **كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾ [غافر : ٣٥] .

فالذى يضل ويستكبر ويتجبر ويطغى يضله الله ويسبغ على بصيرته غشاوة سوداء . وعندئذ لو تجمع أهل الأرض على استنقاذه من ضياع الدنيا وبوار الآخرة لعجزوا عن أن ينجوه من بطش الله !! .

أفمن حق عليه كلمة العذاب لأنه تكبر وطغى فأضله الله وأذله كمن عاش على نحو آخر استحق به أن يلهمه الله رشده وأن يتم له نوره وأن يحفظ عليه نعمته ؟ .

هذه المقارنة يدل عليها ما ذكر بعدها مباشرة : ﴿ **لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد** ﴾ [الزمر : ٢٠] .

المقارنة الثالثة ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين** ﴾ [الزمر]

وهذه المقارنة كسابقتها ذكر فيها طرف وحذف فيها طرف إلا أن الذى ذكر هنا هو النوع الطيب والذى طوى النوع الخبيث ؟!

ما الذى تعنيه كلمة ﴿ **فهو على نور من ربه** ﴾ ؟ .

يمكن أن تعنى هذه الكلمة أمرين :

الأمر الأول : أن الكافر يأكل فلا يدرى من رزقه ، ويشرب فلا يدرى من سقاه ، ويكتسى فلا يدرى من ستره ، ويصح ويرزق العافية فلا يدرى من أسبغ عليه حُلل العافية ومنحه ما يستمتع به من قوة فى حواسه ومشاعره ، وفى هذا النوع من الناس يقول الله تعالى : ﴿ **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا** ويلههم الأمل **فسوف يعلمون** ﴾ [الحجر ٣]

أما المؤمن فإنه يأكل ويشكر ، يعرف أن ما عنده من فضل هو خير الله ساقه إليه ، كان النبي ﷺ إذا فرغ من طعامه قال : « **الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين** » (١) .

وقال : « **من لبس ثوباً فقال : الحمد لله الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر** » (٢) .

المؤمن الذى على نور من ربه يدرك أن ما فيه هو أمر الله وخيره وفضله ، فإن كان يرضيه شكر ، وإن كان يتعبه صبر لأنه على نور من ربه لأنه يعرف أن كل شيء من الله .

المعنى الثانى للنور : أن المؤمن المستنير فى حياته يجعل هواه تبعاً لما جاء به الإسلام فهو إذا أمر الله قال . لبيك أنا أول من يطيع ، وإذا نهى الله قال : أنا أول من يجتنب ، إذا كان هناك لله حد كان أول من يحفظه ، وإذا كانت هناك وصية كان المنفذ المحب لها ، فهو فى الحلال والحرام وفى الخير والشر وفى الأمر والنهى يمشى متبعاً أمر الله مستنيراً بتعاليمه صافاً قدميه على الصراط المستقيم وماضياً إلى الهدف لأنه على نور من ربه ﴿ **أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

هذه الآية ذكرت الطرفين : الذى فى الظلمات ليس بخارج منها ، والذى استنار بأمر الله ، أما آية الزمر فقد ذكرت طرفاً وطوت الطرف الآخر : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾ أى كمن هو فى الظلمات ليس بخارج منها ؟ .

ونلاحظ أن القرآن الكريم يتحدث فيه رب العزة عن قيمة هذا القرآن فى أعقاب كثير من المقارنات ، وهنا يقول الله : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين**

---

(١) رواه أبو داود فى الأطعمة ـ باب ما يقول الرجل إذا طعم ١٠/٣٣٠ والترمذى فى الدعوات ـ باب ما يقول إذا فرغ من الطعام والنسائى فى عمل اليوم والليلة : ٢٦٥ وابن ماجة فى الأطعمة باب ما يقول إذا فرغ من الطعام ١٠٩٢/٢ وأحمد ٣٢/٣ وحسنه الحافظ ابن حجر : فيض القدير ١٥١/٥) وقال فى ضعيف الجامع (٤٤٤٣) : ضعيف .

(٢) رواه أبو داود فى أول كتاب اللباس ٦٤/١١ ، ٦٥ وقال فى صحيح الجامع (٦٠٨٦ ـ ٢٠١٥) حسن .

جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ [الزمر : ٢٣] .

ومعنى هذا أن القرآن خير الكتب لأنه كتاب لا ريب فيه ، وهو أحسن الحديث لأنه لا خداع فيه ولا خلل ولا كذب فيه ولا انحراف .. وكلمة « متشابهاً » تحتاج إلى شرح ، ففى سورة آل عمران يقول الله : **﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾** [آل عمران : ٧] .

المحكم هنا : ما تحدث عن العقائد والأخلاق والأحكام والعبادات والفضائل وما إلى ذلك ، وهو أم الكتاب لأن التكليف به ولا يتحمل آراء شتى

والمتشابه هنا : ما تحدث عن الله وذاته وصفاته ، ولما كان العقل الإنسانى قاصراً بطبيعته عن أن يدرك أبعاد ما وراء المادة فإن الحديث فى المتشابه رُفض ،وقد قيل : إن العقل يدرى الكثير ولكنه لا يدرى نفسه ما هو ، كما أن الأسنان تقضم الطعام ولكنها لا تقضم نفسها ؟! .

هذا هو المحكم والمتشابه فى سورة آل عمران ، لكن قد يصدق على القرآن كله أنه محكم ، وقد يصدق على القرآن كله أنه متشابه ، ومعنى أن القرآن كله محكم أنه محبوك الصياغة دقيق المعانى ، يستحيل أن يتطرق إليه تناقض أو أن يتسلل إليه لغو أو وهم ، ومعنى أن القرآن كله متشابه أنه يهدى الناس إلى حقائق محددة ويجرى إلى غايات معينة ، ففى سورة يونس يقول الله سبحانه : **﴿ إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾** [يونس : ٦]

هذا المعنى الذى نزل فى مكة هو هو الذى نزل فى المدينة بعد عشر سنين فى سورة آل عمران فى قوله تعالى **﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيت لأولى الألباب ﴾** [آل عمران ١٩٠] .

وكلمة « مثانى » تعنى أنه يتضمن الخوف والرجاء والأمر والنهى

والوعد والوعيد والنعيم والجحيم وكثيراً من المقابلات التي يحتاج الناس إليها لضبط سلوكهم وتحديد مواقفهم في دنياهم .

وكلمة « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » تحتاج إلى شرح فإن أثر القرآن ـ الحقيقي ليس في تصايح الحمقى وليس في هذا الخوار الممجوج الذي يصحب تلاوة القرآن كما نرى في بعض الأماكن مما يدل على عدم الوعي وقلة الفقه ، بل التأثر الحقيقي أن ترى إنساناً اخترقت الهدايات السماوية كيانه واستقرت في قلبه فجعلته خلقاً آخر لأن روح القرآن شرحت صدره ، ورفعت مستواه ، وجعلته يحس من جلال الله ما يرتعد به بدنه أو من بشاشة الرحمة الإلهية ما يفتح أقطار نفسه على أمل كبير وخير كثير .

المقارنة الرابعة : ﴿ أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ [الزمر : ٢٤] .

والمعنى : « أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة » فتسود ملامحه ، وتنطمس معالمه ، ويكسو حريق النار أديم وجهه كمن يجيء آمناً يوم القيامة . ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [الحديد : ١٢] .

هذا هو الفارق بين الاثنين ، وهو فارق كبير ، لكن هل يظلم ربك أحداً ؟ لا ، ولذلك يقول بعد هذه المقارنة : « وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ [الزمر : ٢٤] .

المقارنة الخامسة : ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين ، والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾ [الزمر : ٣٢ ، ٣٣]

هذه المقارنة تحكي صنفين من الناس :

صنفا صادقاً يتبع الصدق في حياته ويهتدي بسننه في سيرته وأخلاقه .

وصنفاً كاذباً يتبع الضلال ويمشي في الدنيا معوج المسلك .

ألطف ما في هذه المقارنة أن الله جل شأنه ــ رحمة منه بعباده وبراً منه بالمؤمنين ــ يقول : ﴿ **لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين * ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون** ﴾ [الزمر : ٣٤ ، ٣٥] .

نسأل الله أن يجعلنا ممن قال فيهم : ﴿ **ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون** ﴾

ثم نسمع من رب العالمين جل شأنه عتاباً لعبيده ، هذا العتاب يقول للعبد الفقير المسكين العاجز المحتاج . لم ذهبت إلى باب غير بابي ؟ هل الباب الآخر فيه الغنى وعندى الفقر ؟ هل الباب الآخر فيه قضاء الحاجات وعندى الحرمان ؟ .

هذا العتاب يقول : « أليس الله بكاف عبده » ؟ .

ثم يقول الله : ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ .

من هم الذين من دون الله ؟ وما قيمتهم ؟ وما ذا يصنعون ؟

يقول جل شأنه ــ مبيناً ضعفهم ﴿ **قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون** ﴾ [الزمر ٣٨] .

هذا المعنى الجليل هو الذى وعظ منه النبي ﷺ الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عندما قال له . « **يا غلام إني أعلمك كلمات . احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رُفعت الأقلام وجفت الصحف** » (١)

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة ــ باب ٢٢ وقال حسن صحيح ٧ / ٢٠٩ ، ٢٢ ، وأحمد ٣٠٣ ، ٣٠٧ وقال في صحيح الجامع ٧٩٥٧ ــ ٥ / ٣ صحيح

المقارنة السادسة ﴿ **ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ، وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون** ﴾ [الزمر]

المقارنة واضحة ، الذين كذبوا على الله لهم مصير أسود ، والذين صدقوا معه وصدقوه لهم مصير طيب .

ومن الكذب على الله أن تشرك به ، ومن الكذب على الله أن تختلق حديثاً على نبيه ، ومن الكذب على الله أن تبتدع خرافة من عندك ثم تجعلها ديناً ، وكثير من الذين ألحدوا أو انحلوا إنما ألحدوا أو انحلوا لأنهم نظروا إلى الدين لا من خلال الوحى النقى ولكن من خلال أعمال الناس الخرافية التى جعلوها ديناً وليست من دين الله لا فى قليل ولا فى كثير .

المقارنة السابعة : ﴿ **وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ، قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ، وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ، وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين** ﴾ [الزمر : ٧١ ـ ٧٤] .

وختمت المقارنات بهذه المقارنة الأخيرة إلا أنه بين المقارنات الأخيرة فى السورة اطلع الرحمن على عباده ليقول لهم : من ضل يستطيع أن يهتدى ، ومن كفر يستطيع أن يؤمن ، ومن زاغ يستطيع أن يستقيم ، ومن أساء يستطيع أن يحسن ، لا تستكثر على الله ذنبك إذا نويت أن تصلح ما بينك وبينه .

قال تعالى

﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم**

وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ۝ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾ [الزمر : ٥٣ ـ ٥٥] .

واعلموا أيها الناس أن كل ذنب يصدر وصاحبه متشبث بربه يرجو رحمته ويخشى عذابه ويفر من الإصرار ويطلب من ربه غفران الذنب وتكفير السيئة فإن هذا الذنب مغفور بعفو الله . واعلموا أن كل من تبجح بمعصيته وعالن بها وأراد أن يصبغ المجتمع بشرها وأن يجعلها تقليداً قائماً وعادة متبعة فهيهات هيهات أن ينال ذرة من غفران الله ما بقى على هذا الضلال .

* * *

سورة الزمر سورة جليلة استطعت بعون الله أن أعطى خطوطاً سريعة تدل على مسار الوحى الإلهى فيها ، يستطيع الحافظ بعد ذلك أن يراجع نفسه ، ويستطيع أىٌّ منكم أن يقرأ فى مصحفه ليرى هذه المقارنات بعد العقيدة الأولى ، ونرجو ـ كما قلت أولاً ـ أن نكون ممن قال فيهم رسول الله ﷺ : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »(١) .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

---

(١) تقدم تخريجه صدر الخطبة

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ **الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون * ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ [الشورى . ٢٥ - ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً خاتم النبيين وإمام المرسلين

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

عباد الله أوصيكم ونفسى بتقوى الله عز وجل . واعلموا أيها المسلمون أن المسجد روح المجتمع الإسلامى ، فيه يلتقى المؤمنون ليتصلوا بربهم فى الصلاة الخاشعة والمعرفة المبرأة والصداقة المتحدية بروح الله جل شأنه ، ثم هو مصدر التوجيه الدائم للخير والبر والعدل ، ولذلك كان أول ما عنى به النبى ﷺ عندما ملك القدرة على العمل فى المجتمع أن بنى المسجد فى المدينة وكان أول ماصنعه عمرو بن العاص رضى الله عنه عندما قدم إلى هذا الوادى المبارك كى يحرره من قيود الرومان ومن آثار الخرافة ومن ظلمات الشرك أن بنى هذا المسجد .

وأنا أعلم أن مؤامرات قوية محبوكة بذلت جهداً هائلاً لمنع تجديد هذا المسجد حتى سميته (جُرماً) .

وعندما شرفنى الله وجاء بى إلى هذا المكان كان من قدر الله أن رجلاً ألهمه الله الرشد وبثّ فى عزيمته القوة وجعله يغالب كل أسباب الضعف وكل عناصر التفريط والتكاسل والتهاون ، واختفت بجهود هذا الرجل القناطير المقنطرة من القمامة التى كانت حول هذا المسجد ، ولا يزال السيد الوزير محافظ القاهرة على العهد به يتعهد المسجد ويجيء إليه بين الحين والحين ، ورب العالمين يعطيه من الأمل والقوة ، ما يرد المسجد به إلى أيامه الأولى يوم كان مشرقاً لتعاليم الإسلامية .

ومن خير الله وبره بنا أن جاءنا اليوم سماحة الشيخ الجليل إمام المسجد النبوى وخطيبه وقاضى قضاة المدينة وكبير علمائها ، جاء إلى مسجد عمرو بن العاص وإننى سأصلى معكم وراءه إن شاء الله ، لعل قبساً من الرحمة والخير والذكريات الطيبة يسرى فى مشاعرنا ويجعل جو هذا المسجد مليئاً بالقبول إن شاء الله .

إننا نرحب بخطيب المسجد النبوى المبارك ، والقاهرة تستقبله وهى فرحة بقدومه ، ونسأل الله أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

نظرات في سورة النجم

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـد :

ففي هذه الجمعة نلقى نظرة عامة على سورة النجم ، لعلنا بفضل الله تعالى نعود من ذلك بعبر نافعة ونصائح عالية .

ولعلكم تذكرون أننا في الجمعة الماضية أوضحنا أن الإسلام دين يقوم على العقل وأنه يحتفي بأولى الألباب ويعتبرهم حملة فكرته ومبلغي رسالته ، والواقع أن الإسلام إذ يحترم العقل ويعينه على دقة الفقه وحسن الحكم على الأمور يريد من ذلك شيئاً مُهما هو أن نصل في معرفتنا إلى اليقين ، أي أن تكون معارفنا صحيحة لا جهل فيها ولا زيغ .

وقد رأينا ــ مع دراسة التاريخ الإنساني ومع ملاحظة التجمعات البشرية في القارات الخمس ــ أن الأمم والجماهير تُسيرها الأوهام والظنون

والشائعات وتتحامين أكثر مما تُسيِّرهـ الحقائق التى لا ريب فيها والعقائد التى لا شك فى معناها ..

الأمم كثيراً ما تغذيها جهالات قد تكون مضحكة ومع ذلك فهى تقدسها وتنتشى بها وتندفع بوحيها شرقاً أو غرباً دون وعى وعلى غير هدى .

فى سياحاتى الأخيرة رأيت تمثالاً لبوذا فى آسيا ، وسألنى شاب مسلم : ما بوذا ؟ قلت له . هذا شاب اشتغل بدراسة الفلسفات المادية والنظم الاجتماعية على عهده ، وكان مفكره ترابياً ما نظر إلى السماء يوماً ولا اعترف بأن للكون رباً ، عاش فى قوقعته المادية ينكر الألوهية ، فلما مات اعتبره أتباعه إلهاً وعبدوه ، ثم وجدنا هذه الأصنام فوقها أبنية فوقها قباب ذاهبة فى الفضاء وحولها قوافل تعد بمئات الملايين !! .

هذا المعنى هو الذى تناوله القرآن الكريم من أساسه العقلى عندما قال : ﴿ **وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون** ﴾ [يونس : ٣٦] .

ما يقال فى عبدة الأصنام يقال فى نفر من أهل الكتاب انتشرت بينهم شائعة أن هناك إلهاً ثانياً وثالثاً وأن الإله الثانى قُتل افتداءً لخطايا الخلق ، انطلقت الإشاعة ، واحتفت بها جماهير من الخلق ، وفى التعليق عليها يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً** ﴾ [النساء : ١٥٧] .

إذن اتباع الظن مشكلة سيطرت على البشرية ، وعلاج هذه المشكلة أن نبحث عن اليقين ، ولذلك كانت الآية الثانية فى سورة البقرة : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه** ﴾ [البقرة : ٢] .

إن الإسلام يرفض الظنون وينكرها ويعيب على أتباعها أن يتشبثوا بها .

هذه مقدمة بين يدى نظرتنا العامة فى سورة النجم .

سورة النجم فيها حديث عن الأصنام التي يعبدها العرب : ﴿ **أفرأيتم اللات والعزى ۝ ومناة الثالثة الأخرى ۝ ألكم الذكر وله الأنثى ۝ تلك إذاً قسمة ضيزى ۝ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى** ﴾ [النجم : ١٩ ـ ٢٣] .

شهوات أو أهواء أو ظنون تجمع حولها أولئك الجاهليون وعاشوا بها : ﴿ **ولقد جاءهم من ربهم الهدى** ﴾ ثم يجيء هذا السؤال : ﴿ **أم للإنسان ما تمنى** ﴾ [النجم : ٢٤] .

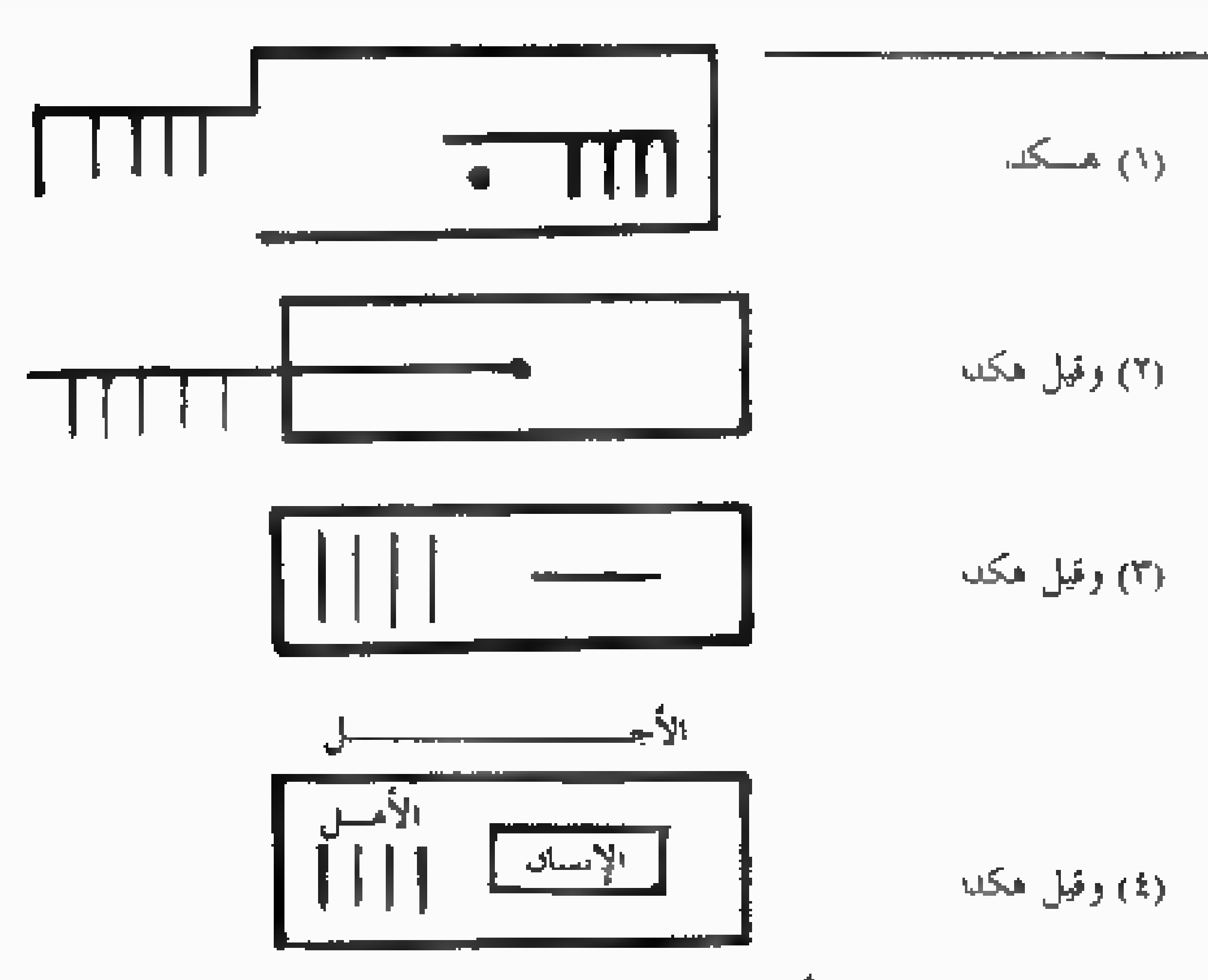
إن الإنسان يتصور أنه يعيش وفق أحلامه وآماله ، ويظن أنه يفرض أمانيه على الحياة ، إنه بهذا مخدوع ، فإن الإنسان في هذه الحياة يحيا داخل إطار صنعه الغالب على أمره القاهر فوق عباده ، ومهما كان الإنسان حراً في قدرته وإرادته فهو محكوم في إطار القدرة العليا والإرادة العليا : ﴿ **فلله الآخرة والأولى** ﴾ [النجم : ٢٥] .

وقد وضح النبي ﷺ هذا المعنى في هذا الحديث الذي رواه البخاري :

عن عبد الله رضي الله عنه قال : خطَّ النبي ﷺ خطاً مربعاً وخطَّ خطاً في الوسط خارجاً منه ، وخطَّ خُططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط ، وقال : « **هذا الإنسان ، وهذا أجله محيط به أو قد أحاط به ، وهذا الذي هو خارجٌ أمَلُه ، وهذه الخطط الصغار الأعراض ، فإن أخطأه هذا نهشه هذا ، وإن أخطأه هذا نهشه هذا** » (١) .

---

(١) رواه البخاري في الرقاق ـ باب في الأمل وطوله ٨/١١٠ ، ١١١ وقد رسمه الحافظ ابن حجر في الفتح : =



قال الحافظ ابن حجر . والأول المعتمد ، وسياق الحديث ينزل عليه .

. بتعبير علماء الهندسة الآن رسم مربعاً أو رسم شكلاً رباعياً ، ثم وضع نقطة داخل الشكل الرباعي ، وأخرج منها خطاً ، امتد هذا الخط حتى قطع المحيط المربع وتجاوزه وخرج بعيداً ، ثم فسَّر النبي ﷺ ما فعل ، هذا الشكل المربع هو أجل الإنسان يحيط به ، هذه النقطة داخل الشكل المربع هي بدء حياته . هذا الخط هو عمره ، امتداد الخط هو أمله ، ويمتد الخط حتى يتجاوز المحيط ، وما أكثر ما يؤمِّل الإنسان وأجله قادم يقطع الأمل وينهي الحياة فتكون آماله متاع الغرور أو تكون آماله شيئاً وهمياً لأن الأجل اخترم حياته وهو ماض في آماله وأمانيه ما يفكر إلا فيها ؟!!.

قال تعالى : ﴿ **أم للإنسان ما تمنى ، فلله الآخرة والأولى ، وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى** ﴾ [النجم : ٢٤ ـ ٢٦] .

كم من عظيم في الأرض وكم من عظيم في السماء ما تغني عنهم عظمتهم شيئاً وما ينفعون غيرهم بشيء إذ ما ينفعون أنفسهم .

فى وسط السورة بيّن الله أن الظنون لا قيمة لها ، وأن الحق هو الذى يجب أن يتبع وأن نرنوا إليه بأبصارنا وأن نتعشقه بأفئدتنا ومن هنا كانت الدعوة اللطيفة : « اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه » فكم من غافل رأى الحق باطلًا أو رأى الباطل حقاً ثم انطلق فى دنياه لا يلوى على شيء ، فإذا هو ينطلق وراء وهمه ، كما تقول لإنسان : « الإسكندرية » فى جنوب القاهرة فهو يجرى حتى يصل إلى « أسوان » ولن يصل إلى « الإسكندرية » أبداً لأن الوجهة من البداية غلط ، ولذلك كانت الظنون والأوهام شيئاً يكرهه الإسلام لأن الإسلام ـ كما قلنا ـ نوّه بأولى الألباب فى ست عشرة آية لأنهم حملة فكرته ومبلغو رسالته وأصحاب القدرة على إدراك قضاياه وفهم أهدافه .

الإيمان الصحيح وليد المعرفة التى لا ظن فيها ، وتوحيد الله أول هذه الحقائق ، ولذلك داس على عبادة الأصنام : ﴿ **إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى** ﴾ [النجم : ٢٣]

إن توحيد الله هو اليقين القاطع ، لكن مع توحيد الله ضميمة أخرى أشارت إليها أوائل السورة وهى الإيمان بأن محمداً رسول الله ﷺ فهو الذى عرفنا بالله الواحد ، وهو الذى نفى الأوهام والشائعات عن ذاته ، وهو الذى نزّهه وبيّن ما ينبغى له من كمال وجمال .

أحببت أن أبين أن محمداً هو الرجل الأول فى التاريخ كله فقلت :

إذا لم يكن محمد نبياً فمن يكون نبياً !! .

بحثت فى التراث الإنسانى كله فلم أجد أحداً ذكر ربه بعبارات أحرّ ولا أرق من العبارات التى ذكره بها محمد عليه الصلاة والسلام ، لم أجد أحداً أفنى ذاته فى مرضاة ربه وجعل حياته وموته وليله ونهاره وراحته وجهاده لله مثل محمد ﷺ !! .

استعرضت التاريخ البشرى من أوله إلى آخره فلم أجد إنساناً وقف فى ساحة العبودية يُسبّح ويُحمّد ويُكبّر ، ويُخوّف فى الله فلا يخاف ، ويشعر بالألم والعنت فلا ينكص ولا يتأخر مثل محمد ﷺ ؟! .

لم أجد أحداً غيَّر المجتمعت بعد أن كانت ضالة حائرة فجعلها مهدية راشدة مثل محمد عليه الصلاة والسلام !! .

ولذلك فإن المؤلف الأمريكى (١) الذى ذكر مائة من قمم التاريخ وجعل محمداً ﷺ القمة الأولى كان فى الحقيقة يذكر ما يشير إليه العلم الصحيح واليقين الحق !! .

إن الكواكب فى السماء قد تهوى ، ونرى نيازك تحترق ـ كما يقال ـ فى اشتباكها مع الطبقة الهوائية ، ونرى كواكب تنحطُّ عن مداراتها وتعود فترتفع مرة أخرى ، لكن الكوكب الذى لا يخبو له سنا ولا ينكسف له شعاع ولا تنحط له منزلة ولا يهوى أبداً من عليائه هو محمد ﷺ وهو ما أقسمت عليه السورة فى السطر الأول منها : ﴿ **والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى * علمه شديد القوى** ﴾ [النجم : ١ ـ ٥] .

إن محمداً ﷺ هو النبى الخاتم والرسول الحق ، وما نزل عليه من قرآن : ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾ ، وسيرته وسنته نماذج لإنسانية هى أزكى وأرق وأنقى ما عرفت الإنسانية فى معادن الرجال من نقاوة وصلابة ورفعة !! .

إن محمداً ﷺ نجم لم يهو له جرم ، ولم ينقطع له سناً ، ولم يطرأ على دارته انحطاط ، بل ظل معصوماً منذ بعث إلى أن ذهب إلى الرفيق الأعلى .

إن هذا الإيمان بأن الله واحد وبأن محمداً ﷺ حق يهدى إلى الإحسان ، أى أن المؤمن يعصمه إيمانه من الزلل ويقيه السيئات ويجعله إنساناً صاحب منهاج فاصل ، وهل خلق الله الحياة إلا ليتميز فيها المحسن من المسيء والمصيب من المخطيء والناجح من الراسب فى ميدان الفضيلة والخير ؟ .

هكذا خلق الله الحياة ﴿ **ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى** ﴾ .
[النجم : ٣١] .

---

(١) هو مايكل هارت ، وكتابه « المائة : تقويم لأعظم الناس أثراً فى التاريخ » وقد نشر هذا الكتاب فى مصر بعنوان « الخالدون مائة »

هل معنى ذلك أن المؤمن لا يخطىء ؟ .

لا ، هذا غير ممكن ، لابد أن يخطىء الإنسان وأن تكون له هفوات أو أن تكون له كبوات ، ولذلك قال الله فى وصف هؤلاء المحسنين : ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى** ﴾ [النجم : ٣٢] .

وهنا نقف لنتأمل كلمة « **إلا اللمم** ».

كلمة « **إلا** » قد تكون بمعنى « لكن » .

وهذا ما يسميه علماء اللغة « استثناء منقطعاً » أى ما بعد « إلا » مخالف لما قبلها ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم** ﴾ [النساء : ٢٩] قال العلماء : الاستثناء هنا منقطع ، أى لكن إذا كانت تجارة عن تراض كلوها .

فمعنى أن الاستثناء منقطع فى قوله تعالى : ﴿ **إلا اللمم** ﴾ أن المؤمن لا يقارف فاحشة من الفواحش ولكن قد يُلم بصغائر الذنوب .

لكن بعض العلماء يقولون : الاستثناء فى قوله تعالى : « **إلا اللمم** » متصل . ومعنى أنه متصل أن كلمة « اللمم » تعنى أنه قد يرتكب الفاحشة لِمَاما يعنى على نُدرة من باب : لكل جواد كبوه ولكل صارم نبوة ، ويستشهد هؤلاء على أن المؤمن قد يقع منه ما هو فاحشة بقوله تعالى : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون** ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

على كل حال الكل متفق على أن التوبة لابد منها من الصغائر و من الكبائر ، وأن الإنسان لا يُستغرب عليه الخطأ لأنه كما هو نفحة من روح الله هو طينة من الأرض وكما قال ابن الرومى :

ولابد من أن ينزع المرء مرة
إلى الحمأ المسنون ضربة لازب [1]

---

(١) أى شىء لازم أبدلت الميم باء لتقارب المخارج صوتياً

بعد أن ذكر أن الظن لا قيمة له ، وأن اليقين هو الأساس ، وأن توحيد الله هو أول اليقينيات ، وأن الشهادة بختم محمد ﷺ للأنبياء وصدقه فيما يقول ضميمة لتوحيد الله ، وأن الإيمان يلد الإحسان والعمل الصالح . وأن الإنسان قد يخطىء فإذا تاب تاب الله عليه ، بعد هذا كله بدأ شيء من التوبيخ للإنسان الذى يمشى وحده بعيداً عن هدايات السماء ، بدأ شيء من التوبيخ لهذا الإنسان مقرون بأن الإنسان ما يصلح إلا إذا زكى نفسه ، وأصلح أحواله ، وهذّب أخلاقه ، واعتقد بأنه صانع مستقبله ولا دخل لأحد معه فى هذا ، قال تعالى : ﴿ **أفرأيت الذى تولى * وأعطى قليلًا وأكدى * أعنده علم الغيب فهو يرى** ﴾ [النجم : ٣٣ ــ ٣٥] .

« **تولى** » رفض السير مع المؤمنين .

« **أعطى قليلًا** » أى امتلك ما يمتلك وبخل به .

« **أكدى** » غلبه الشح والكزازة فإذا هو نافر من العطاء .

« **أعنده علم الغيب فهو يرى** » معناها أن الذى يمتنع عن العطاء سيء الظن بالمستقبل فهو يقول لك : أحفظ ما فى يدى اليوم ينفعنى غداً ، ولا معنى للتطوع بما فى اليد ومنحه للناس وانتظار ما عند الله !!

ولهذا جاء فى الحديث : « **أنفق بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالًا** » (١) .

قال تعالى : ﴿ **أعنده علم الغيب فهو يرى * أم لم ينبأ بما فى صحف موسى * وإبراهيم الذى وفىّ * ألا تزرو وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى * وأنه هو أضحك وأبكى * وأنه هو أمات وأحيا** ﴾ [النجم : ٣٥ ــ ٤٤] .

فى تفسير هذه الآيات نرجع إلى سيرة النبى ﷺ فقد نظر النبى ﷺ يوماً إلى آفاق الدنيا فى ليلة من الليالى ثم كأنه أحد يفكر : ترى ثم يطلع اليوم الجديد على الناس ؟

الناس فيهم من سيموت ، فيهم من سيحيا ، فيهم من سيقتنى ، فيهم من سيفتقر ، فيهم من سيصح ، فيهم من سيمرض ، فقال هذه الكلمة

---

(١) عن أبى هريرة أن النبى ﷺ دخل على بلال وعنده صبر من تمر فقال : ما هذا ؟ قال : أدخره ، قال : أما تخشى أن ترى له بخاراً فى نار جهنم أنفق بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالًا » رواه البزار وأبو يعلى والطبرانى فى الكبير والأوسط وإسناده حسن (مجمع الزوائد ١٠ / ٢٤١) وقال فى صحيح الجامع (١٥١٢) صحيح .

الموقظة : « **سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن ، وماذا فتح من الخزائن ، أيقظوا صواحبات الحُجَر فرُب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة** » رواه البخارى فى العلم ــ باب العلم والعظة بالليل ١/٤٠

تُرى خزائن الرحمة الإلهية التى تتدفق فى عالم الناس تذهب لمن ؟ وَمَنْ مِنْ خلق الله سيضحك ؟ .

ترى خزائن نقمته وهى تبتلى الناس وتعروهم بالآلام والمتاعب تصيب من ومن من خلق الله سيبكى ؟ .

من الذى أضحك وأبكى ؟ ومن الذى أمات وأحيا ؟

إنه الله جل شأنه ، أما تدرى أن زمام الأمور بيد الله وأن الناس معلقون فى الحياة كما ترى الدابة بيد صاحبها يرسلها والحبل فى يده ؟! .

لعمْرُكَ إنَّ الموتَ ما أخطأَ الفتى لكا لطِّوَل المُرْخى وثِنْياهُ فى اليد
متى ما يشأْ يوماً يقُدْهُ لِحتفِهِ ومن يَكُ فى حبْل المنيه يَنْقَدِ

هل يستطيع أحد أن يقطع حبال القدر ويخرج من طوع الله ؟ .

هيهات هيهات ﴿ **والله غالب على أمره** ﴾ [يوسف : ٢١] ، ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ [الأنعام : ١٨] ، ﴿ **والله يحكم لا معقب لحكمه** ﴾ [الرعد : ٤١] .

بعد ذلك قال تعالى ﴿ **وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى * وأن عليه النشأة الأخرى** ﴾ [النجم : ٤٥ ــ ٤٧] .

كثير من الناس يبغض البنات ويتصور أن الأم هى المسئولة عن هذا ، وقد قرأت أخيراً كتاباً طبياً لطبيب مسلم يقول فيه :

تبين أن الرجل وحده هو المسئول عن ذريته ، فهو يحمل حيوانات منوية بعضها له رأس لامع يمثل الذكورة ، وبعضها له رأس خافت يمثل الأنوثة ، فإذا سبق الحيوان المنوى اللامع الرأس جاء المولود ذكراً وإلا جاء المولود أنثى ، ثم قال :

وهذا ما صوره القرآن عندما قال : ﴿ **وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى** ﴾ !! .

أيها الإخوة : هذه نظرة عجلى إلى سورة النجم ، ومن الممكن أن نزداد غوصاً فى المعانى جمعاً لأطراف السورة فنعطى صورة أخرى أدق وأكثر علماً وتحقيقاً للقضايا التى وردت فيها لكن ما أهم الله به هو هذا القدر من المعرفة . والله ولى التوفيق ..

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ **الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً خاتم النبيين وإمام المرسلين . اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين . أما بعـد :

فنحن في العشر الأوائل من ذى الحجة ، وثبت في الأحاديث الصحاح أن هذه الأيام من أفضل أيام السنة أو لعلها أفضل أيام السنة ، ففى الحديث : « **ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر . فقالوا : يا رسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله ولم يرجع من ذلك بشىء** » رواه البخارى فى العيدين باب فضل العمل فى أيام التشريق

العمل الصالح له صور كثيرة : القرآن ، العلم ، العبادة ، الدراسة ، إننى أشعر بحزن عندما أرى أولاداً ينتسبون للشيوعية يأكلون الكتب أكلا ولهم باع طويل فى المعارف الإنسانية فى الوقت الذى أجد فيه شاباً مسلماً معرفته ضحلة أو فكره قريب القاع !! .

ديننا دين العلم ، وكل ما يصقل العقل ويصقل الفكر ويوسع آماد النظر ويجعلك تُصدر حكمك على نحو صحيح هو من دين الله .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم** ﴾ [الحشر]

عباد الله :

﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ [النحل : ٩٠]

أقم الصـلاة

نظرات في سورة الحشر

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعــد :

فنستعين الله تعالى الآن على رسم صورة عجلى لسورة الحشر ..

بدأت سورة الحشر ـ كما ختمت أيضاً ـ بتسبيح الله وتحميده ﴿ **سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ [الحشر ١] .

وخُتمت بتسبيح الله وتحميده ﴿ **هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ [الحشر : ٢٤] .

تسبيح الذات معناه أن الله تبارك وتعالى اسمه منزه عن الضد والند والصاحبة والولد،وأنه يستحيل أن يشبه بشراً،أو أن يشبهه بشر وأنه لا يوصف بأنه والد ولا ولد .

وتسبيح الله بالنسبة إلى أفعاله ـ وهو مدخل السورة، هذا ـ أساسه أن الخسن اللعين الذى تمتع بالشهوات والذى تبجح في الأرض والذى ستباح الربا والزنا والذى عاش وفق هواه واستدبر هدايات الله تُرك ولكنه تُرك إلى حين وأُمهل ولكنه لم يهمل ، وأن العقوبة الإلهية أحدث تنزل به ، فتسبيح الله هنا إشعار بأنه لم يترك أفعال الخلق تسير فوضى،إن الزمام بيده وهو

الغالب على أمره ، ولذلك عندما بدأ ينكل بهؤلاء ذكر اسمه مقرونا بالتسبيح والتحميد ، وهو جل شأنه يوجه أنظار الصالحين إلى هذه الحقيقة كلما اشتدت عليهم الضوائق :

قال تعالى : ﴿ **ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ [الحجر : ٩٧ - ٩٩] إن توجيه نظرة إلى تسبيح الله وتحميده هو إشعار له بأن الأمور لا تُفلت من يد الله ، وأنه إن ضاق اليوم فإن المستقبل له .

وقال تعالى : ﴿ **واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم * ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم** ﴾ [الطور : ٤٨ ، ٤٩]

هذا التسبيح لله رب العالمين هو شعور من الإنسان بأن أحوال الخلق وأن مصاير العباد إلى الله ، لابد أن يُبَتَّ فيها ولابد أن يرسل حكمه العدل في قضاياها إن عاجلًا وإن آجلًا ، وقد سكت على اليهود دهراً ولكنه الآن يضربهم الضربة القاصمة : ﴿ **سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم * هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار** ﴾ [الحشر : ٢]

هذا الوصف يعطي أن اليهود كانوا مركز القوة ، وأن حصونهم كانت تخيف المؤمنين وتدع في قلوبهم يأساً من أن اقتحامها سهل ، كانوا يعتقدون أن حصونهم مانعتهم من الله ، وكان المسلمون يتهيبون هذه الحصون التي أقيمت ، لكن الذي حدث كان مفاجأة فإن الحصون خُرِّبت والسُّور التي أقيمت خلفها هُدِّمت ، وكان المؤمنون واليهود جميعاً يشتغلون بتخريب هذه الحصون

ننظر إلى السورة فنجد أربعة أوصاف نُسبت إلى اليهود :

الوصف الأول أنهم شاقوا الله ورسوله . ﴿ **ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب** ﴾ [الحشر : ٤] .

ومعنى مشاقتهم لله ورسوله أنهم عصوا ربهم واستباحوا حرماته وعطلوا أحكامه وشرائعه وأضاعوا حدوده وحقوقه ، واليهود سادة هذه الخصال وأسباب انتشارها فى العالمين .

الوصف الثانى : أنهم فاسقون ﴿ **ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين** ﴾ [الحشر : ٥] .

الوصف الثالث : أنهم يخشون الناس أكثر مما يخشون الله : ﴿ **لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ [الحشر : ١٣] .

الوصف الرابع : أن مظهرهم يدل على الوحدة والجماعة ولكن سرائرهم متفرقة ممزقة ، يكره بعضهم بعضاً ، وليست بينهم عقيدة جامعة ولا وحدة فكرية أو عاطفية تربط بينهم : ﴿ **لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جُدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾ [الحشر : ١٤] .

هذه هى المواضع الأربعة فى السورة التى تحدثت عن أخلاق اليهود عندما هُزموا ، وأظن هذا الإحصاء ناصحاً بأن القوم قد استجمعوا ما يؤهلهم للضياع وما يرشحهم للغضب الإلهى .

هنا يجب أن نسائل أنفسنا : هل الأمم تتوارث الأخلاق النفسية والتقاليد الاجتماعية والخصائص الفكرية والسياسية من جيل إلى جيل ؟ .

قد يحدث هذا وقد لا يحدث ، وعندما يحدث فإن السابق واللاحق يشتركان فى نتيجة واحدة ، وربما لا يحدث هذا فيكون مَنْ جمع خصال الشر جديراً بأن يجنى الشر ، ومن استجمع خصال الخير كان جديراً بأنه يجنى الخير .

ومعلوم أن اليهود يوم خرجوا من مصر كانوا أدلة لأنهم مرنوا على أن يوطئوا ظهورهم ويحنوا رؤوسهم ولذلك ما أفلحوا فى قتال ولا شرفوا موسى فيما قصد إليه من معارك وقالوا له : ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون** ﴾ [المائدة : ٢٤] .

ولقد قال المؤرخون : إن الله أتاههم فى سيناء أربعين سنة حتى هلكت الأجيال الجبانة ونبتت أجيال شجاعة أمكن أن تحقق رسالة موسى،وأن تكون وفق ما يرضى الله .

إذن الأخلاق تورث ولا تورث ، والخصائص العامة تنتقل ولا تنتقل ، ولو كانت الأخلاق تورث والتقاليد تنقل لكان المسلمون الآن على أخلاق الصحابة والتابعين .

إن السورة التى شرحت لنا لماذا هزم اليهود ولماذا قذف فى قلوبهم الرعب قالت لنا : كان لابد أن يعاقب اليهود ﴿ **ولولا أن كتب الله عليهم الجلاءلعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار** ﴾ [الحشر : ٣] .

ولذلك فإن هذه السورة التى قالت للمسلمين : ﴿ **فاعتبروا يا أولى الأبصار** ﴾ بدأت فى صفحتها الأخيرة تخاطب المسلمين خطاباً تتحقق به العبرة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون** ﴾ [الحشر : ١٨ ، ١٩] هاتان الآيتان ـ فى سياق سورة الحشر ـ تنبىء المسلمين بأنه لا يجوز أن يقعوا فيما وقع اليهود فيه ، واليهود نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، واليهود لم يتقوا الله ولم يحسبوا حساب الغد .

والواقع أن اليهود فيما يتصل بيوم القيامة حذفوا ما يتصل به من نصوص ، لا يوجد فى العهد القديم نص يُحدِّث عن يوم القيامة ، ولذلك فإن أغلب اليهود يرون أن جنتهم فى التجمع فى فلسطين ، وأن إقامة مملكة يهوه على الأرض ـ كما يزعمون ـ هذا النعيم الذى يوعدون به والذى يجىء بهم من المشارق والمغارب إلى أرض فلسطين .

ينبه القرآن المسلمين إلى أن لا يسلكوا مسالك اليهود ويبين لهم أن مصير الناسين النار،وأن مصير الذاكرين الجنة .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا**

الله إن الله خبير بما تعملون ۞ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ۞ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ [الحشر : ١٨ : ٢٠] .

ويبين الله بعد ذلك أنه أنزل القرآن الكريم عقيدة وشريعة، وأن الأمة التى تجمعه رايتها وتمشى تحته لابد أن تسمو وأن تركو وأن تتمع وأن ترتفع ، وأن هذا القرآن حوى من المواعظ ما يزلزل الطغيان ويمع الكفران ويجعل صلة الإنسان بربه جل جلاله صلة قائمة على الخوف والوجل :

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ [الحشر : ٢١] .

بعد هذا العرض السريع بدأ ختام السورة يذكر الله مرة أخرى وتسبيحه وتحميده :

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ۞ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ۞ هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الحشر : ٢٢ : ٢٤] .

سورة الحشر — إلى هذا القدر من الشرح — تبين منها :

* أن الله تحدث عن نفسه أولها وآخرها .

* وأنه أذل أهل الكتاب من اليهود لمسالكهم الشائنة ومواقفهم الرديئة وبقى بعد ذلك أن نعرف الوقائع التى تضمنتها السورة .

* **حاول اليهود قتل رسول الله ﷺ وانتهزوا لذلك فرصة أنه ذهب إليهم** ليطلب منهم — كما تقضى المعاهدة المبرمة بين المسلمين واليهود — المعاونة فى دية قتيلين ، ولقد أجاب اليهود إجابة حسنة ، وأظهروا كأنهم يستعدون لجمع الدية وتسليمها للنبى ﷺ ، واستند النبى ﷺ إلى جدار ينتظر الوفاء ، ولكنه وهو المحفوف برعاية الله عرف أنهم يتآمرون عليه ، وفعلاً لقد قال بعض

اليهود لبعض الآخر لن تجدوا الرجل مستعجلاً كحالته هذه فليذهب أحدكم بصخرة وليلقها عليه من السطح وهو مستند إلى الجدار ليريحنا منه ، وعرف النبي ﷺ المؤامرة ، فترك المكان على عجل ، ولحق به أصحابه وفرض عليهم الحصار !! .

« المجتمع في المدينة كان مجتمعاً خليطاً ، كان فيه مؤمنون خُلّص صدقوا الله وكانوا أتباعاً ناصحين لله ولرسوله ﷺ وهم المهاجرون والأنصار ومن انضم إليهم .

وكان فيه منافقون يعيشون في المدينة قلوبهم مع قريش ضد الإسلام ، قلوبهم مع اليهود ضد الإسلام ، وفي الوقت نفسه يتظاهرون بأنهم على إيمان ، هؤلاء قالوا لليهود : اثبتوا في مواقعكم إن الحصار الذي سيضرب عليكم لن يدوم طويلاً وسنشترك معكم في القتال حتى نفضّ هذا الحصار ، ولكن المسلمين حاصروا بني إسرائيل وشددوا عليهم الخناق وبدا من حماسهم وقوتهم وجرأتهم وإيمانهم واعتمادهم على الله أنه لن يستطيع أحد أن يفك قبضتهم عن عدو الله وعدوهم ، وبعد أن كان المنافقون يلوحون بتدخلهم ويشعرون اليهود بأنهم معهم تخاذلوا ..

قال تعالى ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون * لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون** ﴾ [الحشر : ١١ ، ١٢] .

لو أن قوى الدنيا كلها تجمعت لمساندة اليهود فإن هذه القوى ستتمزق وتتلاشى ولابد من أن ينزل بطش الله باليهود على يدي محمد ﷺ وصحبه

هذا ما كان في بني النضير ، وفعلاً تمت المعركة ، وكان الرعب الذي بثه الله في قلوب اليهود عوناً على أنفسهم وكان سلاحاً إسلامياً ضدهم ، وانتصر المسلمون وأخذوا أموال اليهود ، فماذا فعلوا بها ؟ أعطوها الفقراء

المهاجرين الذين خرجوا من مكة تاركين أموالهم ودورهم ، فكان ذلك تعويضاً حسناً لهم ، وكان ذلك إشارة إسلامية إلى أن المجتمع المؤمن لا يبقى فيه ناس دون مال وناس لهم مال كثير ، ولذلك يقول الله جل شأنه .

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ [الحشر : ٧]

* تعطى هذه السورة الجليلة أن الله تبارك وتعالى لما نصر نصر عقيدة حرة عادلة منصفة لها أتباع كرام مؤثرون مخلصون شجعان مؤمنون على قوم يتصفون بالفسق ومشاقتهم لله ورسوله ، ويتصفون بأنهم فى مظهرهم كيان واحد وفى باطنهم أحزاب متفرقة وفرق متشاكسة ، ويتصفون بأنهم يخشون الناس أكثر مما يخشون الله

النصر هنا لأحوال ولرجال ، والهزيمة هنا لأحوال ولرجال ، ومعنى ذلك أن المسلمين إذا فسقوا وإذا شاقوا الله ورسوله وإذا كانوا فى مظهرهم كياناً واحداً وفى باطنهم أحزاباً متفرقة وإذا كانوا يخشون الناس أكثر مما يخشون الله فإنهم عندئذ ليسوا أهل نصر .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعـــد :

عباد الله أوصيكم ونفسى بتقوى الله عز وجل .

واعلموا أيها الإخوة أننا فى بلدنا هذا ـــ وهو قلب الأمة الإسلامية ـ حاربنا الشيوعية يوم كانت الشيوعية صبغة غالبة لبعض القابعين فى كراسى السلطة وبعض المتربصين على عرش الصحافة وبعض الذين ملكوا ناصية القلم وكثيرين من هؤلاء الذين أغواهم الشيطان فخطوا فى حبله ونصروا طريقته . حاربنا الشيوعية ، ولى فيها كتاب ـ ينشر فى الخارج ـ اسمه « الإسلام فى وجه الزحف الأحمر » ألف فى سنة ١٩٦٧ م فى أيام عجاف وأزمات عصيبة كانت تمسك بخناق المؤمنين وأصحاب الغيرة على الإسلام .

لم حاربنا الشيوعية ؟ .

حاربناها لأننا نحب الله بداهة ومن أنكر الله احتقرناه ، حاربناها لأننا نعرف الإسلام ونعرف أن الله سبحانه وتعالى أودع فى تضاعيف الكتاب والسنة من النصوص والتعاليم والقواعد ما يغنى الأمة الإسلامية عن أى فلسفة لقيطة وأى فكر دخيل .

لكنى أعرف ناساً كثيرين لا يحاربون الشيوعية للمعنى الجليل الذى فى نفوسنا ، بعضهم يحاربونها لأن لهم أموالاً يخافون عليها أو لأن لهم نفوذاً يخشون أن يتقلص أو لأن لهم منافع يريدون أن تدوم ..

لسنا من هؤلاء ، إننا نحارب الشيوعية لحساب الإسلام وحده ،

ولذلك فنحن نقول : لا يكفى فى محاربة الشيوعية أن أسماء تختفى وأن بعض الذين مسّت خيانتهم أولى الأمر يتلاشون من ظاهر الميدان ، إنما المهم أن التيار الإسلامى يقوى وأن الثقافة الإسلامية تنتعش ، وأن العودة إلى الإسلام تتضح وأن التقاليد الإسلامية تسود وأن الأخلاق الإسلامية تنمو وأن تقنين الشريعة يبدأ يأخذ طريقه إلى النور وإلى الحياة وأن الأجهزة المحنطة فى الأزهر وفى غيره الأزهر والتى كتب لها أن تعمل للإسلام وهى لا تعمل له إلى الآن عملًا محترماً ، أو عملًا واضحاً يجب أن تتحرك لخدمة دينها .

لا يكفى فى صد الشيوعية أو الإباحية الغربية أن يختفى بعض الذين قادوا الضلال فى بلدنا دهراً طويلًا ، إنما يجب أن يؤخذ فى الاعتبار أن الثقافة الإسلامية معتلة وأن التشاريع الإسلامية مختفية وأن أوضاعاً إسلامية كثيرة مختلة ، ويجب أن يعود إليها ما ينبغى أن يسودها من نظام ومن اتساق ومن إنتاج ، هذا هو الكفاح الحقيقى للشيوعية ولليهودية الهاجمة علينا ، وأنا موقن بأنه يوم تبدأ اليقظة الإسلامية تأخذ طريقها إلى الضمير العربى وإلى العقل العربى فإن المد اليهودى سيأخذ فى الانكماش .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصـــلاة

فهرس الكتاب

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩١/١٦٠٢

الترقيم الدولى ٩٧٧-٢١١-٠١٠-٥

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ ـ [illegible]
الرقم البريدى ـ ١١٢٣١